نهر السماء

رواية

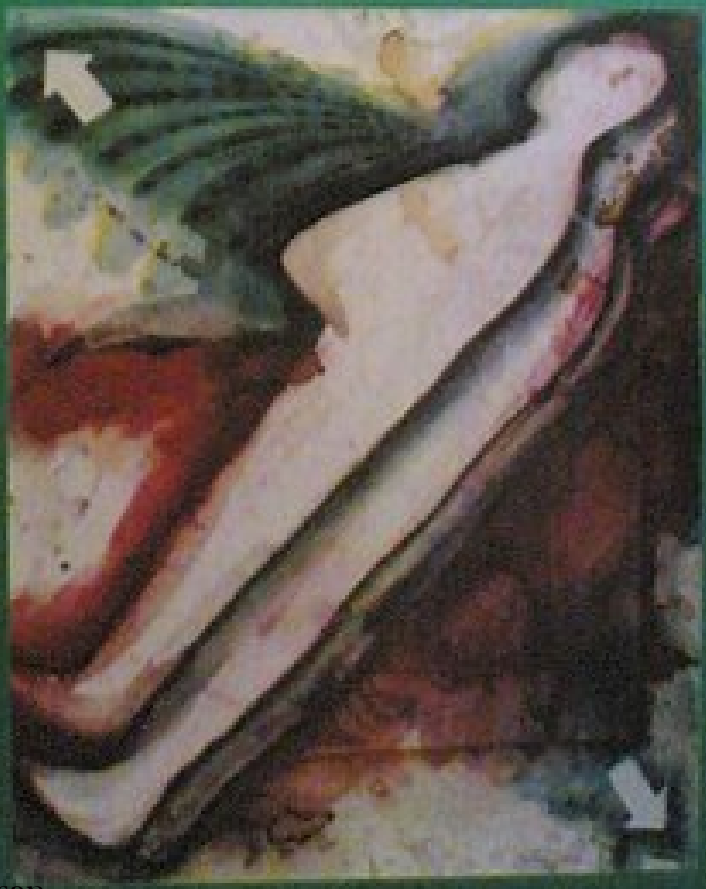

t.me/qurssan

نهر السماء

لوحة للفنان: عصمت داوستاشى

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

امبابى ، فتحى .
نهر السماء / فتحى امبابى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٤٥٦ص ؛ ٢٤سم. (مكتبة الأسرة، ٢٠٠٧ - سلسلة الأدب)
تدمك : ٥ - ٩٤٠ - ٤١٩ - ٩٧٧ .
١ ـ قصص العربية.
أ - العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٧٠ / ٢٠٠٧

I.S.B.N 977- 419-940-5

ديوى ٨١٣

t.me/qurssan

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شىء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الآسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندى حياةً واحدةً فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى»، ومذ قررت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق فى المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر فى الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وها هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. **القراءة للحياة.**

لقد استطاعت **مكتبة الأسرة** خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

التنوير للشعب المصرى فى العصر الحديث على تقديم الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسرًا مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستنير العربى والإسلامى، الذى مَثَّل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت **مكتبة الأسرة** للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدءوب الحقيقى صحوة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعًا ملحوظًا فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عامًا بعد عام.

لقد بلغت عناوين **مكتبة الأسرة** أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحدٍ وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكُتَّاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت **مكتبة الأسرة** التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

t.me/qurssan

تقديم

ينتمى فتحى إمبابى إلى جيل السبعينيات، ويتميز باهتمامه الخاص بالقضايا الكبرى، واللحظات المصيرية فى حياة تطور المجتمع المصرى. وهو سارد استثنائى ذو طبيعة درامية مشحونة بالفعل الشاعرى. و«نهر السماء» رواية فريدة، تدور أحداثها فى أجواء العصر المملوكى، حيث كانت الصراعات والفتن والدسائس والمكائد هى الشروط الأصيلة للحياة. للوهلة الأولى سيظن القارئ أنه يقرأ رواية تاريخية، لكنه وبمضى الصفحات سيكتشف أن المؤلف يرتدى قناع الزمان القديم، لا ليسجله، وإنما كمرآة عاكسة لمفردات حياتنا الحديثة، هو لا يقدم رواية مملوكية، بقدر ما يبحث فى سؤال «الهوية».

ثمة تاريخ عريض من الاستلاب المتوالى وثمة صلابة للشُخصية المصرية ذات الأبعاد الحضارية والثقافية والدينية، وذات الأعراق المختلطة. هنا تبلغ الحيرة حدها الأعلى، تمامًا كمصائر شخوصه فى صحراء العصر المملوكى المترامية الأطراف.

استقبل النقاد والقراء هذه الرواية آن صدورها عام ١٩٨٨ بقدر من الحفاوة لم يتح لرواية من قبل؛ حيث كانت هى المؤشر الحقيقى لبداية حقبة السرد التى سادت فى السنوات التى تلت صدورها، وكانت سببًا فى وسمه بعصر الرواية.

حصل فتحى إمبابى على جائزة الدولة التشجيعية عن روايته «مراعى القتل» وأصدر عددًا من الروايات المتميزة منها «العرس» و«شرف الله».

ومكتبة الأسرة تقدم له هذا العام ضمن إصداراتها روايته «نهر السماء» عن طبعتها الأولى عام ١٩٨٨.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الجزء الأول

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الأول

- ١ -

يعبر بحر الفرعونية وسط الدلتا محتضنا فى انحنائه جهة الغرب الأطراف الشرقية لمدينة منوف وعندما تبدأ الفرعونية فى العودة إلى الشمال تنتصب القلعة التى يمتد بقايا سورها المتهدم مع البحر فى انعطافة شديدة جهة الغرب ليحيط بالمدينة من جميع أطرافها.

كان قد مر على احتلال الدولة العثمانية للديار المصرية مائتان وثمانية وخمسون عاما أبقى خلالها المماليك على وجودهم فى مصر تحت خلافة آل عثمان من بعد دولة أنشأتها الجارية التى أعتقها زوجها الملك الصالح أيوب شجرة الدر وبزواجها من عز الدين أيبك المملوكى آلت دولة الأيوبيين إلى حكم المماليك فحكموها لفترة امتدت لمائتين وسبعين عاما. وفى عام ١٥١٧ استولى السلطان سليم على البلاد وعندما رحل عائدا إلى الديار العثمانية ترك البلاد مبقيا على الحكم المملوكى وموزعا خراجها بين ثلاثة... السلطة العثمانية وعسكر المماليك وإنفاقات المحمل النبوى وإمارة الحجاز.

كان أول من لاحظ أن المكان جيد لبناء حصن يسيطر على منتصف الدلتا ويدافع عنها هو على بيك الكبير الملقب بجن على فأمر تابعه عبد الرحمن كتخدا كبير المماليك وقتها بإنشائها فانكب على عمل الرسومات والمخططات التى تجعل منه حصنا منيعا على أن الوقت لم يسعفه فقد نفاه أستاذه على بك الكبير الذى قتل هو الآخر مسموما بيد كتخداه محمد بك (أبو الذهب) فى الشام والذى باعه للأتراك بعد جدل طويل وهو على وشك تحقيق حلمه الكبير بالاستقلال عن الامبراطورية العثمانية التى ظهر عليها الوهن والتآكل ـ لقاء حريمه وكن ألف جارية من أفضل وأغلى النساء فى العالم ولم يكن

t.me/qurssan

ليخونه بأقل من هذه الكيفية ولكن الزمن لم يتركه ليستمتع بهن فقد مات أبو الذهب هو الآخر بالحمى يوم دخوله عكا عام ١٧٧٥ لحضور المراسيم بتولية إمارة مصر والشام وعكا. وكان قد دخلها هى ويافا بجنده فنهبوها وربطوا أهلها بالحبال والجنازير وسبوا النساء والصبيان وقتلوهم عن آخرهم وبنوا من رءوس القتلى أهرامًا كأهرام الفراعنة وعلوا بها على أسوارها وتركوها للرياح والأتربة والزوابع. وكان أن أظهر أمر موته الصراع المكتوم بين كل من العلويين من أتباع على بك الكبير ويقودهم إسماعيل بك وحسن بك الجداوى والمحمديين من أتباع محمد بك أبو الذهب ويقودهم إبراهيم بك ومراد بك. هذا الصراع الذى خيم على مصر طيلة ربع قرن فجرد الأمراء على بعضهم السلاح بسبب المال فحضر مراد بك وصدهم وكفهم عن بعضهم البعض وجمع كبراءهم وتشاوروا فى أمرهم وأرضى خواطرهم خوفا من وقوع الفشل بينهم وتشتتهم فى بلاد الغربة وطمع الشاميين فيهم، واتفق رأيهم على الرحيل وأخذوا رمة سيدهم لما تحقق عندهم أنهم إن دفنوه فى أرض عكا أخرجه أهل البلاد ومثلوا به فعادوا وكل منهم يضمر الشر للآخر.

وفى يوليو ١٧٧٧ وبعد عامين من الصراع آل الأمر أولا للعلويين إسماعيل بك وحسن بك الجداوى وعين إسماعيل بك شيخا للبلد ومديرًا للدولة وخلع عليه محمد باشا عزت والى البلاد خلعة سمور. وفى زيارة لمنوف تذكر إسماعيل بك رغبة أستاذه وسيده على بك الكبير فى بناء قلعة فى المكان فجمع أوراقها ورسوماتها وأعطاها إلى سليمان بك الجاويش الذى شرع فى البناء فأقام القصر وملحقاته على الجانب الشرقى. وعلى الجهة الغربية حيث تلاصق القلعة المدينة ودور الأهالى أقام ثكنات الجنود والسلاحليك وحظائر الخيول والماشية ومخازن الغلال وعند بداية الانحناءة المزدوجة بين البحر والقلعة أقام مرسى صغيرًا لنقل الغلال والذخيرة وعندما تأهب للسكنى لم يسعفه الأمر إذ أن أعوان إسماعيل بك من العلويين وعلى رأسهم حسن بك الجداوى تخلوا عنه وانضموا للمحمدية وعندما ذهب لمحاربتهم هزم فى قبلى وارتد مقهورًا وسارع إلى مغادرة البلاد جهة الشام فوقع نهب فى قصره وقصور أعوانه. وتبعه سليمان بك الجاويش على الفور.. ودخل القاهرة إبراهيم بك ومراد بك وحسن بك الجداوى. وعاد إبراهيم بك كما كان شيخا للبلد فلما فكر مراد بك قال لصديقه إبراهيم بك.. كيف نقبل بعلوى وخائن شريكا فى حكم البلاد.

t.me/qurssan

عندى كبس إيداكش تلميذ مراد بك على حسن بك الجداوى فأخرجه من القاهرة عارى الرأس مخبولا به مس ولم يتركه ايداكش حتى ترك البلاد.. وهكذا استقر الأمر فى مصر لأتباع محمد بك أبو الذهب مراد بك وإبراهيم بك.

فلما تولى كشوفية المنوفية مصطفى أغا إيداكش وقف مبهوتا أمام الأبنية التى تم إنشاؤها بواسطة رسومات ومخططات لعبد الرحمن كتخدا. إذ أن خطوط وأشكال هذه الأبنية أعادت إليه من الماضى السحيق خيالات الحصون البيزنطية التى كانت تهوم فى ذاكرته التى حفظت صورة ضائعة لسفوح وهضاب القرم.. جن بها وفتن، وزوجته التركية الصغيرة تحثه بأنها ستأتى له بولد ذكر وهو ما يندر أن يملكه مملوك فإذا صار أميرًا للبلاد مهد الأمر لابنهما لأن يكون ملكا عليها تماما كما فعل على بك الجن الكبير.. وإذا كان إيداكش يرى وهو يحك رأسه أن الأمر كله محض افتراء أفرزه رأس زوجته التركى المشهور بالحماقة، إلا أن منظر الحصن البيزنطى المسيطر على منتصف الدلتا جعله لا يستطيع النوم فجمع من الفلاحين كل قادر على العمل وسخره فى البناء محضرًا المراكب المحملة بالحجر الجيرى من طره.. وعند وصول المراكب إلى مرسى منوف أصابه التردد فتوقف عن استكمال بناء القلعة وشرع فى بناء سور آخر يحيط بها وبالقصر. وعندما بدأ فى هدم الدور المحيطة بالجانب الغربى للسور ثار الأهالى وخرج إليه الشيخ السنهورى والشيخ الفرماوى فى جمع من أعيان المدينة وأخبراه أن دور الأهالى حماية له من الفضاء الخالى فاقتنع بوجاهة الفكرة وتوقف عن هدم الدور ثانية وشرع فى بناء أبراج القلعة على غرار برجى المقطم وكركلان المشيدين بقلعة الجبل.. وما أن انتهى من بنائهما حتى توقف ثانية إذ أن هواجسه حدثته بأن يبنى سور القلعة وأبراجها من أحجار الأهرام القوية كما فعل الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى عند بناء قلعة الجبل.. وحتى لا يتوقف بدأ ثانية فى هدم سور المدينة وأعاد بناءه من الأحجار الجيرية فأتمه بعد عامين.. كان الفلاحون قد توقفوا عن متابعة شئون الزراعة وأصاب الأراضى البوار وعندما وصلت الكميات الأولى من الأحجار التى جمعها من سفوح الأهرام مصمما على ألا يتوقف عن هدم الهرم الأكبر فيما بعد لاستكمال احتياجه منها آثار ضجة عظيمة ووقف الفلاحون يشاهدون الأحجار التى تزن عشرات الأطنان وهى تهبط من المراكب بواسطة البكرات.. ولم يكن اهتمامهم بحجمها وعظم

t.me/qurssan

ثقلها قدر اهتمامهم بأنها أحجار فرعون الذى لعنه الله وهزمه سيدنا موسى بسحره.. وأغرق جنوده فى البحر الأمر الذى جعلهم يقدرون سيدنا موسى حق قدره.. إذ أن رجلا كسيدنا موسى هزم فرعون يجب أن يكون طوله ما لا يقل عن مائة ذراع وعرضه ثلاثين وأنه ليستطيع حينئذ أن يعبر بحر الفرعونية هذا فى خطوة.

وعندما غرق مركبان من مراكب إيداكش لتقطع وصلات البكرات قال الفلاحون وهم يبتسمون بمكر وشماته هذه لعنة فرعون.. ووقفوا يتابعون صراع الجبارين مصطفى أغا إيداكش الذى يحاول أن يجر أحجار فرعون من النهر إلى البر وفرعون الذى وضعه سيدنا موسى فى الجحيم وأغلق عليه تاركا لعنته تطارد كل من بغى وتكبر فى الأرض.. كل هذا جعل الباشا والى البلاد يفتح أذنيه جيدا على أفعال سنجق المنوفية كما أن إبراهيم بك شيخ البلد أرسل إلى مراد بك يسائله أن مال المنوفية تأخر فى الوصول وأن الهمس يدور فى القلعة إذا كان مراد بك ينوى الاستقلال بشمال البلاد وموانيها فلم يهتم مراد بك لهذه الدسائس الدنيئة إلا عندما أرسل إبراهيم بك إليه ثانية يسأله متى ينوى دفع متأخرات المنوفية والجيزة ومكوس دمياط وأن السلطان فى الأستانة يتساءل إن كان ينوى أن يجعل نفسه ملكا على مصر وخليفة لأحلام سيدنا على بك الكبير الأمر الذى أثار القلق لدى مراد بك فأرسل يسائل تلميذه عما يفعله حقيقة فى منوف فقال له.. قلعة.. نبنى قلعة صغيرة.. فأرسل مراد بك لإبراهيم بك..

- ما الأمر فى بناء قلعة.. ولماذا يخيف هذا الاستانة؟

فقال له إبراهيم بك بحنق:

- إن من يبنى قلعة من أحجار فرعون الذى تعسف فى وجه سيدنا موسى وعصى الله وتكبر وهو أمر لا يبعد عنكم كثيرًا إذ أن الغرور والتكبر والطغيان لا ينقص حضرتكم إنما ينوى أمرا مجهولا.. فإذا.. ومثلكم شارك فى القضاء على على بك الكبير وطرد أعوانه إسماعيل بك وحسن بك الجداوى فإنه عندما يستخدم حجارة صمدت منذ بدء الخليقة فى بنائها، فإنما يكون الجاهل من لايدرك عظم مطامعكم وأغراضكم.

وحار مراد بك ولم يستطع أن يجيب إبراهيم بك بأن ما جرى لعلى بك الكبير وأعوانه إنما فعلناه سويا.

t.me/qurssan

ولم تمض أيام حتى أوشك الباشا على إصدار فرمان بإقالة مصطفى أغا إيداكش عن كشوفية المنوفية وإعلان الحرب على مراد بك.. وحدثت كرنكة فى القلعة وفى ميدان الرملية وعلى جامع السلطان حسن ودار عبد الرحمن كتخدا.. فأرسل مراد بك على الفور يأمر تلميذه بالتوقف عن البناء فارتاح إيداكش من حربه مع فرعون وألقى بالحجارة فى النيل.

* * *

عندما هدأت الأمور فى القاهرة عادت لإيداكش هواجسه ماذا يجب أن يكون عليه سطح السور الخارجى للقلعة... سطح انعكاس للرماة.. أم سطح انطلاق.. كان يدور حول نفسه مثل دجاجة توشك أن تبيض..

وقد شق عليه أن يختار بين النوعين لعدم علمه بفائدة أى منهما فبنى قواعد الأسوار وتوقف.. ثم شرع فى بناء الأبراج وكانت الكوى وفتحات المزاغل قد بنيت لتحقيق أفضل رماية لحملة النبال والبنادق ولقد استغرق الأمر ثلاث سنوات لبناء الأبراج والأسوار فجعل الجزء الشمالى منها ذا سطح انطلاق لمقاومة المهاجمين من البر وجعل الأسوار الشرقية ذات سطح انعكاس لمقاومة المهاجمين من النهر. وهو أمر ارتضاه لتسكين هواجسه فما كاد أن ينتهى حتى اكتشف فجأة أن الأبراج الثلاثة لا تحقق الرماية للحماية الجانبية لعدم بروزها عن الأسوار.. فسقط منهارا ساخطا لاعنا.. وشاهده الخدم والعبيد والجوارى ينطلق فى ساحة القصر يضرب رأسه تارة بالبلغة وتارة يضرب الهواء فعلموا وعلمت امرأته ما أصابه وأن سليمان بك جاويش غادر القلعة وترك شيطانه يعبث بساكنيها.. وما لم يكن يعلمه حقا أن استيلاء المهاجمين على الأسوار وهى على هذه الشاكلة يمكنهم من السيطرة على الممرات الداخلية للأسوار وسحق المدافعين عنها وكذا السيطرة على ساحة القلعة الداخلية ومن ثم المدينة كلها.

اللعنة على سليمان الجاويش.. سارع بالاختفاء من أمام زوجته الأميرة شريفة التى تزعم نسبها للنبى محمد ﷺ والحامل فى طفلها الأول والتى تلاحقه بحملها التركى محتقرة إياه.. مصطفى أغا إيداكش اللص الحقير والمملوك الذى اشتراه مملوك آخر

t.me/qurssan

هو مراد بك من نخاس والذى تزوجها هى التركية الحرة التى تنتسب لسيدنا محمد. لهذا كانت تقول له يجب أن تعزم وتجهز نفسك لتكون أمير مصر أولا ووالد ملكها وهى تشير إلى بطنها.. واضطر فى النهاية عندما اقتربت على الولادة أن يعتكف. وفى اليوم السابع علم آن الوليد أنثى اسمته فاطمة.. فلم يدخل عليها لرؤيتها وإنما دخلت عليه فى يوم أربعينها تحمل على يدها الوليدة الصغيرة وقد تجهزت للرحيل.. لم تترك له أن يتكلم إذ آخبرته قائلة.. آن سحرا أصابهما معا ذلك أنها كانت على يقين من أن وليدها سيكون ذكرا.. وآنها راحلة إلى القاهرة لمقابلة شيوخ المغاربة والحبش فلما عادت دخلت منوف فى ليلة مظلمة، فعبرتها فى صمت دون أن يراها أحد أو يرى أصحابها.. وقد جاء معها خنثى حبشى أسود يحار فيه من يراه إن كان امرأة أو رجلاً.. ومعها أتباعها ثلاث نساء عجائز عجاف تفوح منهن رائحة عطنة.. فتحت لهن حجرة واطئة بباحة القصر الخلفية.

لم يستطع إيداكش أن يعتكف كثيرا.. إذ أن الرسل تتابعت عليه دون توقف تطالبه بميرى الكشوفية وكانت خزائنه خاوية فخرج إلى القرى يطلب الميرى، وكان الفلاحون قد دفعوه له أثناء بنائه القلعة خمسة أضعاف ولم يتبق لديهم حتى الخرق التى يسترون بها عوراتهم. فاندفع يحرق القرى والكفور فأتى على فيشا ورملة الأنجب وشما بأكملها وتركها وهو فى طريقه إلى سمنود وأشمون بقايا رماد، فهاجر الفلاحون باتجاه الشرق فى الطريق الذى هرب فيه إسماعيل بيك قبلهم فبلغ بعضهم غزة وأقام.. واستمر البعض الآخر فى سيره حتى بلغ الشام واستوطن بها.

ـ عادت الرغبة تنهشه ثانية ـ عندما زاره عمر بك لاجين كتخدا الألفى بيك كاشف الشرقية والذى كان الوحيد الذى تعرف على آلام ايداكش فأشار عليه بهدم أجزاء الأسوار التى تحيط بالأبراج وبنائها ثانية خلف موقعها الحالى بمسافة ذراعين حتى تبرز الأبراج ثانية فاهتاج إيداكش للفكرة وقد أصبح حلمه ثانية ممكن التحقق، ولم يغادره عمر لاجين قبل أن يشاهد الفلاحين وهم يهدمون الأجزاء التى عينها لهم بنفسه ثم تركهم ورحل، فلما انتهت أصيب إيداكش بخيبة أمل شديدة وهدمه الإحباط هدما كالأسوار التى هدمها عشرات المرات ثم هى الآن مهدمة خربة إذ أنه وجد أن الرمى الجانبى للأبراج لن يحمى من الأسوار سوى المناطق التى هدمها تاركا ثغرة واسعة فى

t.me/qurssan

الأسوار البارزة التى ستكون لقمة سائغة فى أيدى المهاجمين توقف مهموما.. لماذا لم أهدم الأبراج وأجعلها إلى الأمام ذراعين.. فلما ذهب إلى مكان الأبراج وجدها ببساطة قد شيدت على حافة النهر.. وإن نقلها إلى الأمام يجعلها فى النهر مباشرة.. ثم أنه ترك الأمر كله ونساه.. فإذا القلعة عبارة عن أبراج تقف كالأشباح وحيدة وسور يحمى المدينة دون قصره المكشوف على النهر والسهل.

ما الذى يحمينا أيها البغل الصغير.. هذا ما حدثته به الأميرة شريفة، التى ألبست ابنتها ملابس الذكور وهى فى خوف وهلع باطنى.. لو توقفت عن إكمال القلعة لهجرتك.. إن مملوكا صغيرا لم يمض على شرائه من النخاس عامان ليستولى على القلعة والقصر لو دخل علينا على جواد وخلفه عشرة فلاحين من حملة الفئوس ويطردنا جميعًا للعراء فلم يأبه بها واستدار عنها غاضبا.. إذ أن هذه القلعة أصبحت عنده كخرافة رحلات السندباد.. من أين ينفق عليها وقد هجره فلاحو الكشوفية لو أنه حاول ثانية أن يجمع المال لاستكمالها لجلس على كشوفية المنوفية وتركوه وحده والقلعة والخراب أو لعزل عنها.

الخراب.. هذه الفكرة جعلته يعتكف ثانية مقهورا، وخلال أربعين يوما من التفكير كان يرى خلالها شيطان سليمان بك جاويش يبرز له لسانه هازئا به.. تشاركه فى سخريته زوجته المجنونة وهذه القلعة الشبح.. فكر بذكاء يندر أن يجد مثله أنه الوحيد الذى ظل على كشوفيته ثلاث سنوات من أمراء المماليك وخزائنه فارغة.. لعنة الله أو لعنة فرعون.. هى لعنة والسلام.. فكر أنه حمار كبير.. أن من يفكر فى بناء شىء فى هذه البلاد هو حمار كبير.. هو مصطفى أغا إيداكش السنجق الوحيد الفقير... ولهذا صمم أن يفعل ببساطة ما يفعله كل مملوك وجد على هذه الأراضى.. وهو القناعة بجمع المال ونقب الدور والاستيلاء على ميراث الموتى وأملاكهم وكنوزهم.. أما أوهام الملوك التى تقض مضاجع زوجته التركية التى تعلوه نسبا وحسبا فقد ركلها بعيدا وكى ينهى الأمر ويثبته دخل إليها فى عليتها وانهال عليها ضربا بالسياط وهى تبكى غيظا.. كيف لمملوك عبد لا يعرف أحد أصله ولا يدرك أحد من أية أرض جاء.. (مملوك تزوجها وهى فى حالة بؤس عندما مات أبوها وخلفها وحيدة هى وأختها التى تزوجت عثمان بك قشطة.. وتزوجت هى صديقه إيداكش درءا للعوز).. عندما تركها نزل إلى

t.me/qurssan

ساحة القصر وهو يخلع ملابسه يلقى بها فى أروقته وأتى بمحرات شرع يحرث به الأرض بغل شديد فخرج من تحت عشبه الأخضر عظام حيوانات وحوافر ماعز ورءوس كباش وجثث أطفال دفنتها هى وساحراتها الحبشيات فلما انتهى كانت هناك غيمة من الذباب الفسفورى لأرواح الضحايا البشرية التى شربت دمها وقدمتها قرابين لأرواحها الشريرة وتحت تهديد السلاح حمل جنوده والرعب يمسك تلابيبهم الأرض المحملة بالجثث على عربات تجرها دواب مهتاجه إلى المقابر جنوب منوف.. فلما انتهوا كانت هناك كومة عظيمة فصب عليها الزيت وأشعل فيها النيران.

وطوال الليل كانت أرواح الشياطين تخرج من النيران تصرخ مولولة.. وكان الأهالى قد عرفوا الآن أن أطفالهم الذين اختطفوا قد نهشت عظامهم ستنا الغولة.. فكانت أيام سود أضيئت فيها المشاعل وتصاعدت من الدور تلاوة القرآن فى أرجاء المدينة وهو يتحسبون للطاعون القادم.

المكان الوحيد الذى منع إيداكش عن دخوله هو عليتها وحجرة الماينجة المظلمة. لقد استدارت الأميرة شريفة مبتعدة عنه إلى داخل غرفة الماينجة فتبعها إلى الداخل فلم يجدها.. لم يستطع أن يرى أحداً فى الظلام الدامس سوى نيران جمرات تشتعل.. وسمع دمدمات شديدة وأصوات صراخ دموى وبكاء لأطفال رضع وصغار وقهقهات عالية ثم خرجت عليه الحبشية من بين النيران.. هكذا رآها ترقص حول ذيلها الطويل على دقات الطبول... تحدق به بعينين متقدتين بألسنة اللهب.. هذا ما أقسم به وهو يحكى كيف أنها اقتربت منه برائحتها المقززة تحضنه وتهمس فى أذنيه وهو موشك على الإغماء وعندما استيقظ فى حجرته كان يعلم أن أوامر ما قد تلقاها بألا يتعرض لزوجته وأن ما يحدث فى العلية لمصلحتهما معا.. إلا أن ما كان يزعجه هى تلك اللغة التى تحدثت إليه بها الساحرة الحبشية.. لغة غير مفهومة تأتيه وتخرج عليه من الماضى السحيق.. وأقسم إنه متأكد.. إنها لغة القرم.. بلاده التى أخذ منها.. كيف عرفت هذا.. الشك الذى أمضه لم يكن ليدفعه للسؤال قط عما حدث.. لقد أصر على تناسى كل شىء وبقى من الأمر اتفاق غير معلن بينه وبين زوجته أن يترك لها عليتها وغرفة الماينجة وساحراتها الحبشيات وأن تترك له القصر خاليا من ضحاياها وأحلامها المجنونة.

* * *

t.me/qurssan

- ٢ -

على الأراضى الممتدة جنوب أسوار منوف جمع الفلاحون القمح، نظموه فى حلقات ودارت الثيران بالنوارج فوقه للدريس وسط صيحات الغضب والشتائم وطرقعات السياط المصنوعة من الكتان التى تخفى الفرح الجميل بالحصاد.

وفى جرن يقع بأقصى الغرب كان المنصور أبو حجاج يقوم هو وامرأته الصغيرة على دق الأصلة. لمح جسدها القوى وهو ينثنى ويتغضن تحت قميصها المصنوع من الكتان الخشن دون أن يبدو عليها التعب.. شردت بخاطرها وانتابها هاجس مؤلم، سوف يرحل كعادته، ما أن ينتهى موسم الحصاد حتى يتركها... وماذا تظننى غير هذا أفعل، سأرحل.. وهل أبقى على أسوار منوف أستجدى البطالة وأنفاس الدخان.. هه.. نفث المنصور زفيرا من صدره وهو ينظر لطفله الصغير وهو يتعلق بذيل أمه ومشنة الطعام فنفض كل هذا عن صدره بسرعة وهو يردد ومن الذى سيعتلى سقيفة داره ليلا وهو غائب.. فكرت صديقة كان يجب أن يكون لى زوج حتى لو اشتريته من سوق العبيد.

ابتسمت فى ملاحه ونظرت إليه وهى تجذب مشنه الطعام تسأله

ـ حتتغذى يا أبو عبد البارى؟

توقف صامتا والعرق ينسال غزيرا، دفع بالقلة إلى فمه وراح يشربها عن آخرها وهى تنتظر أن يترك لها من مائها البارد فلما رفعتها لم يكن بها سوى قطرتين فازدرتها ساخطة وجثت على الأرض تملؤها من الجرة وهى تردد فى يأس ما تقوله أمها دوما... أنت التى اخترته فتحملى..

عادت بها الذاكرة إلى الأيام الأولى لزواجها.. عندما استيقظت فى الصباح الأول كانت عيناها محمرتين من السهر، عصبت رأسها بمنديل قديم والصداع ينهشها نهشا، وانهمكت فى أعمال الدار التى لا تنتهى، وعندما أزف الليل أصرت أن تنتظر أوبته كان قد أمضى سهراته بصحبة رفاقه وعندما حل عليهم محمدين ابن الشيخ عبد الحميد نظر المنصور نحوه بعداء لكن الرجل لم يأبه ولم يتحرشه أيضا وإنما جلس سعيدا وعلى وجهه ابتسامة صفراء ظلت تلازمة حتى غادر المجلس، لم ينس المنصور هذه الابتسامة قط بل إنها ظلت فى مخيلته طيلة حياته وخاصة عندما تناقلَ الفلاحون حديث

t.me/qurssan

محمدين عن ليلته التى أمضاها مع امرأة المنصور فى جزيرة قرب قرية جزى، ولقد نفى المنصور هذه الافتراءات عن ذهنه وألقى بها بعيدا، لكنه لم يستطع أن يلقى بابتسامة محمدين الصفراء، هذه الابتسامة التى لا تخرج إلا من رجل قد قضى وطره من امرأة رجل آخر فلا تخلف وراءها إلا رعونه واستهزاء وسخرية لاذعة. وإذا كان الشك قد بدأ يأكل قلبه إلا أن دليلا ما لم يكن يؤكد له شيئا وحين وجدا أنها تصر على انتظاره فكر فى ايذائها، وفى الليلة الخامسة أخذت تدمدم بعبارات مبتورة فأصاخ لها السمع وهو يتصنع تجاهلها.

ـ منك لله يا بويا.. أنت سبب بلوتى.. لا تركت لنا غيطا ولا دارا ولا خلفت لنا أخا نتركن عليه زى الناس.. آه يا أمه لو كنت سمعت كلامك كان ابن أخو الشيخ السنهورى أرحم عليه بالقليل أهبل لا يؤاخذ على شىء، لكن أقول إيه.. ضل راجل ولا ضل حيطه الغلب قدر مكتوب علينا، منك لله يابا.. والله يسامحك.. الصبر يا رب.

تراقص الغضب على وجهه.. حدق عبر ضوء المصباح الزيتى فرأى امرأته تفترش تحتها قميصه. جذبه بغل دافعا إياها بقسوة جعلتها تتدحرج سأقطة لأسفل بحراية الفرن، صرخت صرخة مكتومة وأطلقت العنان لغضبها المكبوت.

ـ يا ابن الكلب.. يا ابن الكلب، آه يا جنبى حيموتنى.. بتضربنى يا ابن أبو حجاج.. بتستعفى على يا مره يا ابن المره.. دمدم هو الآخر.

ـ بتشتمينى يا بنت المفحور. بتشتمينى يا بنت الشحات جذبها من أسفل فصعدت معه كحمل خفيف وعاد يلقى بها ثانية على الأرض فتعثرت بالثريد ورأت طاجن الأرز الذى صنعته خصيصا له ولم تتناول منه شيئا يتناثر على الحصيرة فأجهشت بالبكاء وقد عزت عليها نفسها.

ـ الله يلعنك ويلعن أبوك، حرام عليك نعمة ربنا. شعرت بركلة هائلة تكاد تشطر أوتار بطنها صرخت بصوت عال، مدت يدها إلى مركوبه وقذفت به فى وجهه فانهال عليها يضربها بقسوة وعنف وهى لا تكف عن السباب، جذبها من شعر رأسها ومسح وجهها بالثريد الملقى ببحراية الفرن ثم قذف بها من القاعة إلى صحن الدار الداخلى فسقطت على الأرض تبكى.. أغلق هو القاعة من الداخل بالرتاج، تمدد فوق الحصيرة

t.me/qurssan

والغضب يفجر عروقه بالدماء.. تناهى إليه أنينها المكتوم وسبابها وعندما فتح الباب فى الصباح وجدها جالسة القرفصاء بركن الدار وقد جمعت أطرافها من البرد القارص وقد سقط رأسها على صدرها وهى تغط فى نوم عميق ولا يزال وجهها يرتعش. وعندما عاد فى الليلة وجد طعامه فى داخل قفة صغيرة وهى تغط فى النوم بجوار الحائط.. لكزها بقبضته جاذبا عنها الغطاء فاستيقظت مرتعبة، قامت دون أن تحدث صوتا وانتقلت إلى جانب الحائط البعيد، افترشت جوالا قديما وشدت آخر عليها ثم عادت لنومها، ولم يمض على انتهاء الحصاد ثلاثة أسابيع حتى كانت تعد لزوجها صرة كبيرة بها أصناف الطعام الجاف والخبز المقدد متونة له تعينه على بلوغ القاهرة، وعندما غاب عنها فى طريقه لم تأسف عليه بل سقطت فى بحر من الهدوء وكأن حملا ثقيلا قد انزاح عن صدرها.

* * *

- ٣ -

فى منتصف نوفمبر عاد زوجها أخيرا حاملا معه ثوبين من القماش وخلخالا من النحاس أخذتهما منه بفرح وجذل وأمه تنظر إليهما فى غيره وحقد، سارعت تتجمل له وتتزين وتتطيب بروائح رخيصة بادلتها بكيزان الذرة مع البائع المتجول، بقى معها أول الليل، وعندما أزف منتصف الليل خرج ولم يعد حتى الصباح، بعدها داوم على عادته فأيقنت أنه لن يتغير منه شيئا، وما أن انتهى موسم الزراعة الشتوى حتى كان ابنها الصغير عبد الله محمولا على ذراعيها، ألحت أن يبقى من أجل وليدها.. أخذت ترجوه باكية وهى تزحف على قدميها وتمرغ رأسها فى التراب تقبل قدميه.. دفعها عنه غاضبا رحل فى الصباح والشمس على مرمى البصر وعلى وجهه دلائل عزم وإصرار ومن خلفه كانت صديقة تجرى وهى تتعثر حاملة ابنها الصغير على صدرها يصرخ صراخًا عاليًا فلما أصابها اليأس وكان قد ابتعد مسافة كبيرة أطلقت عليه سيلا من الشتائم وانحنت تقذفه بما تصل إليه يداها من حجارة لم تمض ربع ساعة حتى كان قد اختفى تماما عن ناظريها مخلفا وراءه الفضاء والقلق، تنبهت إلى طفلها وهو يبكى بكاء مرا فسقطت على الأرض مكشرة الأنياب مجهدة، ألقمت الصغير حلمة ثديها وهى

t.me/qurssan

تنظر إليه وكان يمتص اللبن فى شراهة، كف عن البكاء ويداه وقدماه يجدفان فى الهواء، لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام.

ـ شبه بعض أنت وهو.. علقة.. دودة تأخذوا ولا تعطوش، آنى شفت فى دنياى إيه؟! مشوفتش من وراكم حاجة إلا الغلب والمصايب.. خد يا خويا اللبن وأنت عامل زى الفار الجعان بكره تكبر ولا ناخد منك غير السيئة والضرب والمذلة.

* * *

ـ ٤ ـ

فى هذا العام نزل المنصور إلى القاهرة وكعادته عرج على صديق له فأدخله فى خدمة حمام قرب باب زويلة طرف قصبة رضوان.

ولم يمض وقت طويل حتى رحل حارس الحمام فاختاره صاحب الحمام ليعمل مكانه لقاء باره يوميا، فاستقبل عمله الجديد المريح بفرح واعتقد أن الأيام الهينة قد آن لها أن تهل ومرت الأيام دونما شىء حتى ثار لغط واضطراب، ففى صباح الجمعة أغلق أصحاب الحمامات أبوابهم وتجمعوا عند حمام اليهود بجوار جامع الكتخدا إذ أن الأغا قرر على أهل الذمة من اليهود والنصارى أن يعلقوا جرسا صغيرا فى رقابهم حتى يتبين للناس الكافر من المؤمن، كان الجميع فى استياء بالغ فقد كان المتوقع أن يفضل الذميون عدم الذهاب إلى الحمامات على الخروج بهذه الصورة.

ولقد تحدثوا طويلا دون أن يجتمعوا على شىء فقد غل الأغا أياديهم باسم الدين، فلما انفض أصحاب الحمامات وهم ينعون الدهر طاف شيخهم شرف الدين ونقيبه المعلم زكريا على أصحاب الحمامات ليلا حيث اتفقوا على أن يجمعوا مبلغا قدره ثلاثة عشر ألف نصف فضة ويقدمونها فردة إلى أغا الانكشارية الذى كان مختالا مزهوا. فقد استغل الحادثة بغرض ابتزاز الطرفين ولم يمض أسبوع على هذه الحادثة حتى قام صاحب حمام الوالى بطرد ثلاثة عشر من عماله فوجد المنصور نفسه على حين غرة جالسا على قارعة الطريق متسكعا ينفق مما جمعه طيلة شهور مضت حتى استطاع أن يحصل على عمل فى درب النحاسين.

وبعد ثلاثة أيام من بدء عمله استيقظ الجميع على صوت المدافع وهى تنطلق من

t.me/qurssan

قلعة الجبل. صعد الناس إلى الأسطح وهم خائفون من نشوب حرب بين المماليك فراحوا يتنسمون الأخبار، وعلى أعلى طابية بالقلعة أشار رجل حاد النظر فإذا براية كبيرة معلقة هناك، حدق الأهالى فلمحوا الراية السوداء الضخمة فكأن الذى نزل بهم أنكى من حروب المماليك ورعب أشر من دوى مدافعهم.. لقد حلت بالقاهرة الريح الصفراء وامتلكها الطاعون.

* * *

لمحت الجنازات المتفرقة تعبر المدينة إلى المقابر وخلفها العويل، لا يخفى على الناس الرعب الذى تحمله.

ولم يمض أسبوعان حتى كان هناك طابور طويل يتجمع خارج أسوار المدينة باتجاه المقابر وهو يسير الآن على عجل دون صخب أو ضوضاء.

وفى أحياء القاهرة طاف المنادى ينادى بوجوب رحيل الفلاحين إلى قراهم فى ظرف ثلاثة أيام وإلا سوف يسامون أشد ألوان العذاب وتعلق رءوسهم على أبواب القاهرة السبع وكالعادة لم يستجب لنداء الرحيل سوى عدد قليل. وذات مساء اندفع جنود الأغا إلى الدار التى يسكن بها المنصور بسياطهم فانتشر الهلع والخوف، سألوا الجميع عن أوراقهم التى تثبت قاهريتهم فتقدم بها البعض فخلوا سبيله وانهالوا على الباقين بالسياط ودفعوا بهم أمام الجياد تحت الضربات راكضين إلى ميدان الرميلة حيث تجمع الآلاف من الفلاحين العراه الذين اغتصبت حوائجهم. أمضى الجميع الليلة فى العراء والمنصور يلعن غباءه وتردده فى الرحيل بعد أن نهب كل ما أدخره وفى الصباح ساقوهم فى موكب طويل يحفه جنود الانكشارية والوجاقات إلى بولاق وأطراف شبرا حيث أقاموا حواجز كبيرة ثم نودى بهم أن يعودوا إلى ديارهم، وفى أحد المراكب صعد المنصور عائدا إلى منوف.

لم يكد يبلغ منوف حتى أغلقت المدينة أبوابها وارتفعت الراية السوداء ودوت المدافع القديمة الرابضة أمام قلعة المديرية، ومنع القاطنون فى المدينة من الخروج، فتسكع بحثا عن عمل وهو يتعثر فى قوافل الفئران التى تعبر الطرقات مسرعة. وفى أحد مخازن الغلال بالمدينة عمل حمالا لدى السيد حسان الدمياطى بأجر مضاعف بعد أن

t.me/qurssan

هرب العمال من المدينة عائدين إلى قراهم. وفى أحد الأيام أخرج فى الفجر.

جثث خمس عائلات كاملة من الأعيان وقد أفناهم الوباء عن بكرة أبيهم فلم يبزغ الصبح حتى كان مصطفى إيداكش قد حاصر هذه القصور بفرسانه وحطم أبوابها ودخلها ونهبها وأسكن فيها أمراءه، بينما كان المحتسب يقوم على حصر تركاتهم وضمها إلى أملاك الأغا وأعوانه فكان هذا إشارة البدء بأعمال النهب والسلب فى المدينة.

لم يمض شهر آخر حتى انتشر بالطرقات المتسولون بوجوه سوداء كالحة أرهقها الجوع المتواصل وحولهم كانت تسير الكلاب الضالة المتوحشة التى ذاقت طعم الجيفة. هكذا امتلأت المدينة بالقاذورات وارتفعت فى أكوام عالية بشكل كثيف وقد غطتها آلاف الفئران وصار الدهماء جماعات جماعات وقد غطت وجوههم الأتربة والشحوب وحلقت فوقهم سحابات من الهواء الفاسد الموبوء تحوطهم غمامة ضخمة من الذباب والبعوض وقد استكانوا جميعا وتعايشوا مع الحشرات فى آلفه عجيبة.

ضرب الطاعون بيت السيد حسان وأهله جميعا فأفناهم.. عندها جمع المنصور الرجال فى الشونة الخلفية وقال يحدثهم:

ـ لقد علمتم بموت أصحاب المكان، وقد تركوا إرثًا علينا أن نبلغ به قاضى المدينة والوالى.

ـ من يذهب ليبلغهما؟

صمت الجميع ونظروا إلى بعضهم بعيون تلمع وأفكار تموج فى رءوسهم

قال: آتفكرون فيما أفكر.

هز الجميع رءوسهم فاستطرد ـ نجمع الغالى والثمين وما خف وزنه ونقوم بقسمته قسمة عادلة بيننا.

قال أحدهم ويدعى صالح.

ـ هى لقمة وقسمها الرحمن لنا ليس لها من وريث ولا مطالب ولن تنقص خزائن الأغا.

قال المنصور: هيا إذًا عجلوا وافتحوا الخزائن ومزقوا الأسرة وحطموا الصوانات ونقبوا الجدران وأسرعوا فالوقت قصير.

t.me/qurssan

لم يمض وقت طويل حتى كانوا قد جمعوا كل ما فى الدار فى كومة كبيرة ضخمة، واندفع آخرون إلى الشون وصوامع الغلال يحملون الحبوب والحنطة.

خرج صالح إلى الباب الخارجى ونظر من كوته فوجد دبيب أقدام ذئاب بشرية جائعة مشردة تتطلع نحو الدار.. لمحه أحدهم فصاح.

- هل مات السيد حسان يا أخ؟ بوغت صالح واضطرب

- ليس بعد... ليس بعد أنه حى يرزق... جاوبه آخر.

- أطال الله عمره.. دعه ينظر لنا.

- بالطبع بالطبع.. لكنه نائم الآن. دخل صالح مسرعا وهو يصيح بهم.

- لو أشرق علينا الصباح قتلنا لا ريب فكيف نعبر الطرقات والمدينة غاصة بالجياع والنهابين.

قال المنصور - اسمعوا إذًا ما أراه، اصنعوا خمس توابيت نجمع فيها ما خف حمله وغلى ثمنه. أما جثث أهل الدار فلنواريها التراب.

* * *

وحين حضر الأغا وجد الدار غاصة بالرعاع وحين فرغ منهم كان المنصور ورجاله قد غادروا المدينة.

* * *

تواترت الأنباء عن انتشار الملثمين، وفوجئ مصطفى أغا إيداكش كاشف المديرية بعودة عسكره بخفى حنين من سبعة دور مات أهلها عن آخرهم بالطاعون سبقه إليها الملثمون بعد أن نقبوا جدران المنازل والدور المجاورة فجن جنونه ونادى على الشيخ السنهورى بالحضور إلى مجلسه، فأفتى السنهورى بأن عقاب اللصوص هو إقامة الحد عليهم.

كان أتباع المنصور يتسللون بين الدهماء يتلمسون أخبار الدور التى سوف تودع أصحابها فيعيدون عدتهم لنهبها، كانوا قد صاروا يعانون الأمرين من عامة الشعب الذى ضربه الجوع ومن المشردين الذين كانوا يسارعون بقدرة قادر من كل صوب وفى أعداد

t.me/qurssan

غفيرة يتجمعون بحثا عن طعام أو شيء يقيم الأود، يحومون حول الدار حومة النسور حول شخص يموت يتهيأون لنهش جسده فإذا تيقنوا من ذلك قفزوا تحت جنح الظلام ينهبونها، وحتى يمنعوا الدهماء من متابعتهم كانوا يتركون لهم الخبز واللحوم المطبوخة ومئات من البارات فينقض عليها المشردون حيث تدور بينهم معارك شرسة طاحنة تنتهى إلى سحق بعضهم البعض بالأقدام.

وفى إحدى هجمات عصابة المنصور دخلوا دارا فوجدوها منهوبة وقد ذبح آخر من بقى فيها على قيد الحياة.. كانت غارة قاسية خرجوا منها صفر اليدين، ذلك أن المماليك كانوا قد سبقوهم هذه المرة وأصبح على عصابة المنصور التعجيل بشن هجماتهم ومن لم يقض عليه الطاعون تولوا هم القضاء عليه.. أحدث هذا هرجا ومرجا شديدين وانقلبت الأوضاع فى المدينة التى صارت تحت رحمة الهوس والجنون والطاعون، وأخذت الدور تهاجم جهارًا نهارًا فتغصب وتنهب محتوياتها ويقتل أصحابها.

* * *

- ٥ -

مر عام على رحيل زوجها، وعلى كتفها كانت تحمل ابنها الثانى عبد البارى وعلى الأرض كان عبد الله يزحف متسخ الأطراف عارى المؤخرة يتناول بيده كل ما يجده فى طريقه وبدلاً من أن يعود المنصور كعادته كل عام جاء الطاعون موحشا يلف الحياة حولهم بيأس قاتل لامرأة وطفليها دون عون أو سند، وأغلق الأثرياء دورهم وتحصنوا خلف الأبواب هاربين من الموت، يتقوتون من مخازن غلالهم وغرف الكرار المكتظة.

خرجت لتعمل فى الحقول المهجورة بعد أن أصرت كنتها على أن تقتر عليها وعلى طفليها فى الطعام. واندلعت فى أرجاء القرية نيران مجهولة تلتهم الدور التى مات أهلها، وعصف الجوع بالفقراء فزحفوا على الطرقات يضربون على غير هدى هربا من المجاعة وهى لصيقة بهم تحل معهم أينما ينزلون.

عادت صديقة ذات يوم أمضته بين القرى فوجدت حميها ممددا على الأرض وفوقه كانت العجوز تنظر إليه فى ذهول ورائحة القيح والموت تضرب فى المكان، دفعت طفليها بعيدا.. لم تطق الرائحة فكممت نفسها بمنديل وسحبته إلى داخل القاعة وعادت إلى

t.me/qurssan

صحن الدار فوجدت العجوز تعانى سكرات الموت، انتاب صديقة هوس وهى لاتدرى ما هى فاعلة. صرخت تضم طفليها ـ أنت فين يا منصور.. الله ينتقم منك مطرح ما أنت قاعد.. روح يا شيخ أمانة لجل النبى ربنا ينتقم للولايا اللى زيى. وآنى هاقعد هنا أعمل أيه..

تذكرت مفتاح الكرار.. أسرعت تحل المفتاح من ضفيرة كنتها التى نظرت إليها نظرة أخيرة ثم خطفت جوالا وجرت إلى الكرار وهى تمنى نفسها بأنها تعبئه عن آخره بكل ما يؤكل.. دفعت الباب.. اندفع هواء فاسد كان الظلام يسود المكان.. اصطدمت قدماها بأجساد صغيرة حية تتسلق ساقيها تراجعت فزعة، وقف شعر رأسها من الهول، تمالكت نفسها من السقوط وأغلقت الباب وهى تعود مسرعة إلى الخارج هاربة من الموت.

ظلت صديقة تهرول فى الطرقات وهى تجر عبد الله بيد وتحمل عبد البارى على اليد الأخرى حتى خلفت القرية وراءها. غدت السير إلى منوف متجهة شطر مرفأ المدينة الواقع على البحر الفرعونى تطلب السفر إلى القاهرة بحثا عن زوجها. لكن أحدا من البحارة لم يقبل أن يقلها جرت أذيالها إلى منوف وأصوات المدافع العتيقة تدوى فى أذنيها وحين وقفت على أبوابها ألفتها مغلقة وقد علقت عليها رايات سود.. كانت تود أن تدخل المدينة بحثا عن دار السنهورى وهى على يقين من أنه الوحيد فى هذه الهوجة الذى يمكنه أن يساعدها.

* * *

ظلت ترجو الحراس أن يسمحوا لها بدخول المدينة لكن أصوات السباب انهمرت فوق رأسها من أعلى البوابة، جلست مكدودة بجوار السور تبغى النوم وطوال الليل كان باب المدينة يفتح عن نعوش الموتى تحيط بها المشاعل وحفارو القبور شاحبو الوجوه يلقون بالجثث إلى محرقة ضخمة يتصاعد عنها الدخان فى أعمدة ترحل بعيدا. وتحت أسوار المدينة ظلت صديقه طوال ثلاثة أيام بلياليها لا تقتات سوى الكفاف حتى ظنت أن طفليها سيموتان لا محالة، وقد نشأ بينها وبين الحراس من عسكر المماليك صلة ما لبثت أن تحولت إلى مودة، فأخذوا يلقون إليها بقايا طعامهم، وفى مساء أحد الأيام ألقى أحدهم إليها بدجاجة تفوح منها رائحة العفن فتناولتها بأصابعها القذرة وجسدها

t.me/qurssan

يرتعش من فرط الجوع، لاكت نصفها وأبقت نصفها، وفى اليوم التالى جلست تشوى النصف الآخر والحرس يشاهدون هذا وهم غارقون فى الضحك، سمعت تعليقاتهم فالتفتت نحوهم وابتسمت فجاوبوها الابتسام وهم يتعجبون لإصرار الفلاحين على البقاء أحياء.

تسللت صديقة بين العائدين من دفن الموتى، دار الحارس بعينيه يتفحص وجوه الداخلين.. رآها فرفع رأسه لأعلى متشاغلا بفتح البوابة ثم نادى على الواقفين بالدخول فدخلت تجر نفسها جرا وأمامها وقف حفارو القبور يجمعون جثث الموتى المتناثرة فى شوارع المدينة ويلقون بها فوق عربات صغيرة تجرها الحمير. عبرت دروب المدينة مسرعة فى خوف وجماعات من الناس الشعث الحفاة العراة ينظرون إليها فى فضول حتى بلغت دار الشيخ السنهورى. أخذت تطرق الباب دون جدوى حتى كلت يدها. مر الوقت طويلا قبل أن يطل من كوة صغيرة رأس عبد أسود فأخذت تبكى وهى تسأله عن الشيخ السنهورى وتحلف بأغلظ الإيمان أنها قريبة له ومن بلده.. صديقة بنت هانم زوجة سيد بنت خالة حسنية امرأة بركة المعزاوى، وأن حميها قد مات وأنها تبحث عن زوجها الذى لابد وأن الشيخ يعلم طريقه.

فتح لها الباب وأشار إلى الساحة الخلفية فدخلت مسرعة حتى بلغت حجرة وقفت فى وسطها امرأة عجوز تدور وسط قدور تفوح منها رائحة الطعام المتصاعدة، فوجئت بها العجوز.

- من تريدين؟

أجابت بصوت واهن.

- أبونا الشيخ، أنا قريبة من البلد.. دارت المرأة حول نفسها وهى تزفر ساخطة ثم مدت يدها إلى إناء فخارى وملأته بمغرفة طبيخ ودفعت به إلى صديقه التى انكفأت على الطعام الطازج تلتهمه التهامًا.

أطلت من النافذة عجوز فى الستين من عمرها صاحت فى الجارية الحبشية فهرولت صاعدة إليها بينما تولت صبية أمر الطعام فسألتها صديقة.

- مين الوليه دى؟

t.me/qurssan

ـ امرأة سيدنا الشيخ.

ـ هذه....؟ ... يا كبدى يا خويا.. دى قد أمك.

وحين عادت العجوز قامت صديقة تمد لها يد المساعدة. بعد مغيب الشمس بساعة سمعت حوافر البغال على الطريق، أعقبتها طرقات قوية، أطل الحارس من الكوة برأسه هرول يفتح الباب فدخل السنهورى الباحة راكبا بغلته وخلفه ثلاثة رجال يحملون المشاعل والسيوف، اندفعت صديقة ناحيته تجر طفليها وتصرخ.

ـ أبويا الشيخ.. أبويا الحاج.. أنا فى عرضك المنصور جوزى فاتنى ورحل من سنة ولا عدش.. آنى ماليش غيرك يا با الحاج، مش عارفه أراضيه ومعاى العيال عايزين ياكلوا ارحمنى يا با.. مالت تقبل يديه بحمية وإصرار.. تطلع السنهورى نحو المرأة وعيناه تبرقان حنقا وغضبا، لكز بغلته وهو يدفعها بقدميه بعيداً فسقطت صديقة على مقعدتها وهو ينظر حوله والغضب يكاد يخنقه.. قامت صديقة ثانية تتعلق بقدمه وبكاء طفليها يعلو وكأن السنهورى وجد ما مكان يفكر فيه فصرخ.

ـ حمد.. ولد يا حمد.. من هذه المرأة؟

جرى العبد وهو يلعن ضعف نفسه ويلعنها.

ـ سيدى تقول قريبتكم.

رفع السنهورى عمامته عن رأسه وهو يجدف كالمخبول.

ـ يا حمد الكلب.. يا أعرج يا خسيس سود الله وجهك لا تدخل أحداً هنا يا مأفون. فهم الرجال طلب الشيخ فتقدموا نحوها.. أمسكوا بها من إبطيها فصرخت.

ـ آنى صديقة بنت هانم أخت الحاجة عيشة.. صديقة بنت الشيخ أحمد الغمرى آنى صديقة مش عارفنى يا بوى الشيخ، آنى مرات المنصور أبو حجاج.. آنى فى عرضك فى طولك يا عم الشيخ... عايزه جوزى الله يرض عليك ويفتح الدنيا فى وشك.

هاج الشيخ السنهورى واحمر وجه من الغضب صرخ وكأنها ألطاعون.

ـ من جعلك تدخلها دارى يا أعرج الكلب يا أسود والله لأبيعنك غدا فى سوق النخاسة يا بوز الغراب.

t.me/qurssan

انحنى العبد وهو يتلعثم يريد أن يقول فكرة جالت بخاطره.

ـ ظننتك.. لكن السنهورى لم يدعه يكملها، صاح وهو يشير لها بيده الكثة المرتعة.

ـ اخرجها من هنا.. وجدت نفسها محمولة بين أيدى الرجال صرخت وولولت.

ـ دى كرامة القرابة يا شيخ النحس.. شهر ثلاثين يوم وأنا أقول أبوك الشيخ السنهورى هو اللى يفك كريك با بت يا صديقة.. كنت حمارة بنت حمارة، كنت فكراك جمل يا عم الشيخ أتارينى وقعت على كوم قش.. دفعها الرجال بعيدا وهى تسبهم.

ـ شيل إيدك يا ابن المفحور، آنى ماشية هو آنى جاية اشحت وألا جاية أشحت.. أيوه ما هو آنى لو جايه ومعاى زيارة وز وبط ولحم كان فتح شيخ الغبرا المندرة وقال تعالى يا بنت أخوى، طبعا لازم يرمينى فى الشارع.. يابا الحاج دا احنا نص الليل، أروح فين.. اروح فين وأنا غريبة فى البلد ارحمنى خلى ربنا يرحمك.

لم يأبه بها. أشار إلى الرجال بأن يلقوا بها خارجا فصرخت.

– وآتوا ذوى القربى والمساكين، كلام ربنا يا شيخ سنهورى، ارحمنى الله يجحمك ويدخلك جهنم، يا محمد يا بن سالم يا بن فاطمة العرجة.

كان الغيظ يقتلع عينيه وهى تناديه باسم أبيه وأمه فدخل المندرة وهو يصفق الباب خلفه فى غضب.

* * *

وجدت صديقة نفسها على قارعة الطريق والظلام يخيم عليها، جلست حزينة وطفلاها يصرخان وهى تكاد تنشق من الغيظ.. راحت تسب أمها وأبوها وقريتها والمشايخ وأخيرًا زوجها الذى يرمى بلحمه للكلاب لتأكله، تكومت على طرف إحدى الخرائب وأخذت طفليها بين ذراعيها وراحت فى النوم، بعد منتصف الليل شعرت بجسدها يتجمد، دارت حول نفسها.. تململت وقبل أن تغط فى النوم ثانية.. انتفضت من الرعب، شعرت بأنف تشمها وعيون لامعة تبرق فى الظلام، جهدت وهى لا تجد بين ذراعيها سوى عبد الله نظرت أمامها كانت النجوم تلمع فى الأفق. شعرت بحركة خلفها فاستدارت تقاوم الخوف الذى أمسك بتلابيبها قامت مفزوعة فعلى بعد ثلاثة أقدام شاهدت بأم عينها جمعا من الكلاب الكاسرة المسعورة يتدافع حول جثة الصغير

t.me/qurssan

ينهشها... دوت صرختها تمزق سكون الليل وتلقى الفزع فى قلب الوحوش المسعورة التى تراجعت عن جثة الصغير المهشمة الرأس المنزوعة الأطراف ألقت بنفسها مغشيًا عليها فوق الجثة الهامدة حتى انبلج الصباح ومرت عربات الموتى من أمامها وخلفها الناس بأسمالهم البالية، وقفت إحدى العربات وانحنى رجل ليلتقط جثة الصغير ويقذف بها إلى العربة المكدسة بالجثث.

ارتفعت ثلاثة فئران ضخمة تتعلق بالجثة فدفعهم بعصاه بينما ظلت صديقة قابعة على الأرض تنظر فى ذهول، تتابع العربة وهى ترحل، وقبل أن تختفى فى الدروب قامت صديقة تحمل عبد الله بحركة آلية وسارعت خلف العربة دون أن تحاول اللحاق بها حتى اختفت وضاعت وسط الأزقة.

* * *

ـ ٦ ـ

بعد يومين هاجم فرسان السباهية دار الشيخ السنهورى يبحثون عن زوجة المنصور، خرج الشيخ لهم وقد حدس أن الدنيا قد أدارت له ظهر المجن، ولما لم يجدوا أحدًا صرخ فيه كبيرهم.

ـ حضرة شيخ سنهورى، مصطفى أغا إيداكش يريد حضرتكم.

خرج ممتطيا بغلته على عجل تحوطه ثلة الفرسان، وهو يتلو آيات الكتاب، ويتمتم بآية الكرسى وعندما دخل إيوان الأغا كاشف المديرية لم يستطع أن ينحنى بالتحية بل سقط على الأرض بعد أن خانته قدماه.

فين مجرم ولد حرم منصور عكروت شيخ سنهورى.. لهث قبل أن يجيب.

ـ طردتها.. أقسم على كتاب الله طردتها. زعق الأغا.

ـ أنت حمار شيخ سنهورى.. أنت حمار خسيس احلق ذقنك يا ملعون.

ـ طيب له عايزها حضرتكم.

عايزها ليه.. من شان طعم لولد عكروت زوجها.. إحنا نمسكها وهو بييجى ياخدها نقبض عليه يا شيخ المأتم دى حتى الكلبة تنبح من شان كلاب صغيرين. قوم.. قوم يا

t.me/qurssan

مأفون، أريد زوجة لص كبير تكون عندى.. استطرد والدم يندفع فى وجهه غضبًا.

- والله وكمان والله خنزير سنهورى يا شيخ الكلاب أنت تعلم حكم الدين فى السرقة.. تعلم..

- نعم يا مولانا.

- إيش يكون شيخ الغبرا.؟

- قطع اليد.

- حسنا.. احنا حكما على عكروت شيخ سنهورى عضو جماعة المورثات بقطع اليد لأنه سرق عشرة أتواب حرير من منزل حسن السلطان وصندوق فضيات من قصر الأمير سليمان الدشداش وأخذتم مائة وخمسين كيسا من قصر السيد الوردانى، وثمانية آلاف قطعة وألف خمسمائة بارة وستين قطعة من السجاد السمرقندى، وثلاثمائة ذراع من المحمل النبوى الشريف ومائة جواد وبقرة وجاموسة وخمسة محاريث وعشرة نوارج ومائة فأس وعشرين بلطة، شيخ سنهورى أنت نهبت بيوت أمراء، وأعيان ومخازن وحوانيت تجار المدينة يا ملعون تسمع ما أقول. اندفع السنهورى يمرغ وجهه على الأرض تحت قدمى الأغا وهو يهتف.

- اقتلنى يا آغا.. أنا عبدكم وملك أيمانكم وكل ما تأمر به مقدسات وايم الرحمن مقدسات.. قال الأغا:

- آنا عايز زوجة عكروت منصور فى الحال وإلا قسما عظما قطعنا أيديك.. وأشار إليه بالخروج.

* * *

خرج السنهورى من قصر الأغا وهو يدعو الله فى سره أن يميته الطاعون وعاد إلى داره يتعثر ويدور بعينيه يمينا ويسارا وهو يرجو أن تنشق الطرقات والأزقة عن وجهها لاعنا نفسه لأنه طردها. وعندما بلغ الدار أرسل أحد أتباعه إلى القرية وسأله أن يلهب ظهر جواده ولا يعود إلا وهى معه.

نادى الغلام للوضوء وبعد أن كان قد ترك الصلاة منذ أن دخل الطاعون المدينة انهمك فى صلاة ذليلة باكية وأطال السجود داعيا ربه أن تنشق الأرض عنها أو يكشف

t.me/qurssan

له علامة تدل عليها أو أن يهدى قلبها أن تعود إليه هذه المرأة التى صارت حياته بيدها. كان قلبه مثقلا بالخوف وكل شىء بناه يهتز لأن امرأة حمقاء يبحث الدرك عن زوجها طرقت بابه. ليس فقط كل ما بناه بل حياته ذاتها التى ارتفعت بها امرأة أخرى، امرأة عجوز محبوسة فى غرفة علوية بداره مدت إليه يدها منذ ثلاثة وعشرين عاما وأخذته من بين الأتباع والخدم ورفعته إلى طبقة الأعيان والتجار وكبار المشايخ، زاد ما يثقل قلبه شعور داهم بالذنب عصر قلبه عصرًا قام فى قميصه المقشب بالقصب إلى حجرة زينب العادلية التى كانت تكبره بخمسة وعشرين عاما فألفاها تجلس على سجادة الصلاة وعلى رأسها غلالة بيضاء ممسكة فى يدها وهى تبتهل وتسبح بحمد الله، قبل يدها فنظرت إليه نظرة ملؤها الهدوء والطمأنينة، فمنذ ثلاثة وعشرين سنة كانت زوجته فى الثانية والأربعين وهو بعد فى السابعة عشرة من عمره، لم يحنث بالعهد الذى أخذته عليه بأن لا يدخل عليها امرأة أخرى إذ كان أكثر ما يرعبها آن يستمتع هو بشباب امرأة أخرى وتستمتع امرأة بشبابه وبذا تبتعد المتعة عن كينونتها المسافرة نحو الشيخوخة المهلكة وإذا كان من المحتوم أن تحرم من فتوة الحياة فليؤنسها شخص ما فى الحرمان أيضًا والآن صار كل شىء سواء كل شىء لا يهم.

* * *

قالت: ـ لقد عزمت على أمر تشتهيه النفس الواصلة، ويشتاق إليه كل مخلص محتاج لعطف ربه، آه لو تعلم ماذا ادخر لك الله فى الحياة يا سيدى الشيخ تأوه السنهورى مخلصًا للمرأة التى غيبت عنه شبق الذكورة وهو لم يتعد بعد الخامسة والعشرين إذ كان قد عاف شيخوختها بعد ثمانية أعوام من زواجها به.

ـ آه يا أم الفاضلين.. من يعلم..

تأملت وجهه المورد المشرق وبشرته التى تفوح من طزاجتها نعمة الحياة غاصت بعينى الثور اللتين تلمعان فى عينيه.

قالت والسكون يلف الحياة من حولهما.

ـ تأمل نفسك وانظر باطنك ترى نعمة الخالق وجمال الملكوت وكل ما فيه ريح طيب روضة للمشتاقين ودوحة للسائلين.. رأته يبكى وينهنه.. اقترب منها وهمس.

t.me/qurssan

- سامحينى وأغفرى لى لقد ظلمتك والله يعاقبنى أسألك العفو واسألى لى الرحمة. ملأها ضعفة طمأنينة، كانت تود أن تقول له إنها هى التى غررت به، ابتسمت تدعو له مدت يدها تأخذ رأسه على فخذها وهى تتلو الفاتحة وترقيه من عين الحاسدين وشرور الإنس والشياطين.

ورويدا رويدا تسللت إليه سكينة تملكت روعه.

* * *

منذ ثلاثة وعشرين عاما مات زوجها الشيخ شاهين البرماوى شيخ الشافعية وإمامهم.. تزوجته وهى فى العشرين من عمرها وكان قد بلغ الثانية والستين من عمره فكان يكبرها باثنين وأربعين عاما فلم تذق معه طعم الهناءة ولم يهتز جسدها تحت وطأته قط.. فلما مات ورثت ماله وعبيده وأشرفت على زمامه.. وتقدم لها عشرات الأشراف والأعيان من التجار والمشايخ طامعين فى ميراثها.. فوجهها الخالى من الملاحة وجسدها الضامر وقامتها القصيرة لم تكن تشجع أحدًا على التقدم لها من أجل خاطرها وخاطر وصالها.. كانت تعلم هذا وتحسه وتعلم أن مرادهم هو ثروة زوجها وليس إيقاد النار التى خبت فى أحشائها من هجران الرياح وانعدام البرق، وعصف السيول.

أمضت سنتين وهى تدور فى القاهرة على بغلتها.. تخفى وجهها بنقاب بين الأضرحة وزيارة المقابر وأهل الله والأولياء ومطاردة الخطاب ومراسيل طلاب الزواج.. وخاصة الشيخ يوسف المهدى الذى خلف زوجها فى إمامة الرواق وأراد أن يخلفه فى فراشه البارد أيضًا.

* * *

عندما مات الشيخ البرماوى كان تلميذه وتابعه الذى يتصل به بصلة قرابة بعيدة لم يتعد الخامسة عشرة من عمره.. وبحكم الضرورة أبقت زينب العادلية على محمد بن سالم بن عبد الرحمن السنهورى وأوقفته على خدمتها وتلبية أغراضها وشراء ما تريده من الأسواق وإرساله إلى أراضى زوجها لإحضار المعلوم والتحدث مع شيخ العزبة فى شئون زراعتها.. لذا استقبلته بالحريم وهى تناديه تارة بولدنا محمد وتارة محمد.. وهو لا يرفع عينيه نحوها قط جالسا بين يدها أو متقدما سيرها.. فعلو منزلتها وارتفاع

t.me/qurssan

شأنها.. صنع حاجزًا بينه وبين أن يراها إلا امرأة فاضلة وسيدة من الأشراف.. وهو لا يعدو أن يكون سوى خادم أو عبد تابع أمين مخلص.. وذليل.. وكلما رآها لا تحدث رجلا إلا من خلف ستار ولا تنكشف عليه بوجهها الصالح الذى رآه هو بعينيه كلما استقبلته بالحريم.. ولا تمد كفها لتصافح أقاربها وذويها إلا وقد سترته بذيل ثوبها حتى لا ينتقل إليها دنس ولا يصيبها رجس من عمل الشيطان إلا وقد زادت فى عينيه إجلالاً وإكبارًا. وبعد مرور عام على وفاة زوجها صار كل منهم بحكم المعاشرة قريبا من الآخر قربًا شديدًا فقد صار لها معينا على كل شىء تريد قضاءه.. وقد أصر الشيخ محمد الصغير على أن يكون مثال الأمانة الكاملة.. وكل يستعين على قضاء حاجتها بخبث الفلاح ودأبه وبكائه ورجائه عند الطلب.. والحاح المشايخ ورزالتهم عند السؤال والأمر.

أما فى حضرتها فكان نادر الكلام صامتا حريصا على أسرارها.. فوضعت فيه ثقة واطمئنان وأغدقت عليه المنح والعطايا.. وجعلت طعامه من دارها وعطفت عليه بالكساء والثياب وأفردت له سقيفة للسكنى بالدار المقابلة بعد وفاة زوجها.

وفى شتاء العام التالى لموت الشيخ البرماوى وقد هدأت حركة المارة فى الطرقات المظلمة.. أصيبت السيدة بوعكة جعلته يتقدم لمساعدتها على اعتلاء بغلتها.. حملها بساعدى ريفى قوى.. فلم تشعر بنفسها إلا وهى ترتفع من فوق الأرض لتجلس على سرج بغلتها الثمين.. وهو ما أدهشها.

داومت فى المرات التالية على الاستعانة بقوته.. فكانت ترمى ثقلها بين يديه مثل طفلة صغيرة.. وقد انتابها خدر لذيذ.. وطوال الطريق كان يلهث وهو يجرى خلف البغلة التى تحملها قادمة من صلاة العشاء.. وحين تحين لحظة نزولها من فوق البغلة.. كان كل جزء من جسده يشتعل..

وكان لابد لهذه اللعبة أن تنكشف يوما.. حدث ذلك عندما أمرته أن يأتى لآخذها دار أختها بدرب النحاسين.. وعند عودتها أخذت تحاور نفسها عن وحدتها وظلم الدهر.. وطمع الأقربين.. فى ثروتها.. وضغط الجميع عليها للزواج بأى رجل كان.. هذا أكثر ما يعز على نفسها ويعذبها.. وعندما ساعدها على النزول هذه المرة تركت جسدها يسقط عليه. ارتطم ردفها بإنسانه لوهلة..ابتعدت مرتعدة وهى تدفعه بعيدًا عنها ودخلت على الفور.

t.me/qurssan

لقد ضبط متلبسا هذا ما ظل يعترف به لنفسه طوال الليل.. لقد جرح عفاف امرأة طاهرة بأبشع ما يكون.. ولهذا فإن عقابه يجب أن يكون بحجم جرمه.. ظل طوال الليل فى انتظار أن يفتح باب سقيفته عليه ويندفع عشرة من المردة العبيد السود وبيد كل منهم سوط مضفر بكرات حديد صغيرة فيعرونه من ثيابه ويصلبونه ثم ينهالون عليه ضربًا حتى الموت عقابًا له على فعلته الشنعاء.. ثم ما لبث أن تخيل أن رسولاً ما قد أرسلته سيدته يحكى لأخيها ما جرى وأن أخاها والرسول قد انطلقا على عجل يشكون للباشا فعلة تابع أخته الزنديق الذى تصرف بما يجب ألا يقال وألا تتلفظ به الألسنة الشريفة المتدينة.. ولابد أن الباشا الذى أوقظ من النوم الآن ثائر غاضب.. إذ كيف لخادم أن يدنس حرمة امرأة فاضلة وسيدة هى زوجة لشيخ من العلماء لم يبرد جسده فى قبره بعد.. لابد وأن أورطة من الخيالة تنهب الأرض هابطة من القلعة إلى حيث يقيم ولا شك أن العسكر يحفرون الآن حفرة عظيمة وأن مناديا سوف يخرج فى الصباح.. يدعو الناس لرجم هذا المجرم الزنيم.

سمع حركة فى الطريق وصخبًا فانتفض مذعورًا.. منكمشًا على نفسه.. مر الوقت دون أن يسمع شيئًا آخر.. تمدد ثانية يصيخ السمع والنوم يأتى جفونه كخطرات الفكر العابرة.. تمنى لو أنه استيقظ فى الصباح فوجد نفسه فى قريته.

مرت عليه ليلة عسيرة وجاء الصباح.. ولم يأته أحد ممن انتظر.. ومضى يوم تلاه يوم وأرسلت تدعوه فأيقن أنها كانت تعد العدة وأرسلت الرسل إلى المشايخ للحكم عليه سرًا.. فهى امرأة فاضلة ولن تشيع ما حدث فى مجالس العامة والدهماء.. سأل العبد:

من عندها؟

ـ سيدى المهدى وآخرون.. فأيقن أن هذا يومه الأخير فى هذه الحياة.. تبعه وركبتاه ترتعش فرائصهما.. بقى واقفا بالخارج حتى أشارت له بأن يعد بغلتها كى تخرج لزيارة أختها.. لم يصدق نفسه.. سار خلفها والخجل يقتله.. ويلجم لسانه وكيانه.. وقد شعر بمرور الغمة وإن كان قد عزم قويًا لا يلين بألا يعبث بحياته بعد الآن وألا يفعل ما يعيد له هذه اللحظات العصيبة.

لم يمض وقت طويل حتى غمزت له وصيفتها العجوز بأن يتقدم طالبا يدها.. فتح فمه دهشة وفكر إن كان الذى يحدث حقيقة أم حلمًا.

t.me/qurssan

وعندما دعاه الشيخ يوسف المهدى ووقف فى حضرته العلية خجولا مستصغر الشأن..سأله الشيخ بعد أن قدم له أطايب الفاكهة والنقل أن يعدل عن هذا الزواج.. واعدا إياه بجارية شركسية. فأجابه السنهورى:

ـ سيدنا.. الزواج على سنة الله ورسوله.. والزواج بزوجة سيدى ليس بدعة. صاح العجوز:

ـ ليس بدعة!! احمر وجهه واهتز جفناه من الغضب.. استطرد السنهورى:

ـ نعم.. أليس هكذا يفعل أمراء المماليك والأعيان وهم أعلى طبقات البلاد.. وما تجرى عليه عادات الكبار نسير نحن الصغار عليه ونعده سنة من سنن الحياة وقانونا للعصر وبدعة للمتحدثين ومفاخرة لأولاد الأصول.. وإذا كنت تمنعنى فإنى رهن أمركم فأنت سيدى وشيخ طريقتى والطاعة على واجبة.. ومن أصول الحكمة والمنطق أن تكون إماما لى احتذى خطوكم وأقلدكم فيما تفعلون.. فإذا كنتم قد تقدمتم لها فمن حقى أن أفعل.

غضب العجوز واستعان بالصبر على جرأة الشاب بجسارته.. فقال:

ـ اعلم يا بنى سرا ما كنت أبوح به لأحد لولا أنك فى حكم الرجال وفى منزلة الأبناء الذين يوثق بهم ويستودعون الأسرار.. فاعلم أننى إنما أفعل هذا نزولا لرغبة شيخنا ومولانا الذى تطل روحه علينا من الجنة وتشهد بما أقوله الآن.. ذلك أنه أوصانى قبل موته وهو ممسك بيدى هذه.. يا يوسف إمامة الشافعية لكل عالم مجتهد أفنى عمره فى سبيل الصلاح والفلاح وأمر الولاية فيها يرجع لفضل الله سبحانه وتعالى.. أما الولاية على أهل بيتى فهى أمانة فى عنقك يا شيخ يوسف.. أمانة فى عنقك أنت وليس لأحد غيرك.

أنهى العجوز حديثه منكس الرأس والعبرات تداعب عينيه ثم استطرد:

ـ بارك الله فيك يا ولدى.. فحمل الولاية على الأرامل واليتامى حمل ثقيل.. وعذابه سلاسل من حديد محمى بالنار.. فانأى بنفسك الطيبة عن التجربة.

بعد مضى شهر على هذا اللقاء أشيع نبأ زواج الشيخ محمد السنهورى بالسيدة زينب العادلية أرملة الشيخ البرماوى إمام الشافعية.. فعصر الغضب قلب الشيخ المهدئ إذ أنه فوجئ بالخبر.. كما فوجئ الجميع من أرباب الرواق والمجاورين بالشيخ الصغير قادما إلى الدرس بعد غيبة طويلة ممتطيا بغلة عالية اشتراها خصيصا من سوق إمبابه وقد ارتدى جبه وقفطانا من الحرير الدمشقى الباهظ الثمن.. وعلى رأسه عمامة

t.me/qurssan

كبيرة لأتباع الطريقة الشاذلية.. وأمامه سار عبد أسود يصيح على المارة بإفساح الطريق لسيده الشاب.

وقبل أن يحاول المهدى ضرب خصمه إرضاء لذاته وثأرا لكرامته وهزيمته.. شاع فى الأزهر أن الشيخ الصغير أوقف على خدمة الرواق ثلاثين فدانًا ومثلهم لخدمة الأزهر الشريف عامة. وذبح وزكى ووزع العطايا والهدايا والهبات.. على أن أخطر ما فعله هو الجعالات التى قدمها لكبار المشايخ وأفاضلهم.. فأكبروه ورفعوا من قدره وقدموه على أقرانه ومن هم أعلى منه مرتبة فى العلم وأقل حالا.. وفى النهاية أفسحوا له مكانا بينهم لم يلبث أن وطده السنهورى لنفسه وثبت به أقدامه.

* * *

مر وقت طويل وصديقة ملقاة على الأرض وسط حشرات الخرائب وهى تقترب من الموت اقترابًا حثيثا والرؤى تحوم فى رأسها الألوان البهيجة وبغريزة الحياة جمدت فى مكانها والكلاب الضالة تحوم من حولها تتشممها فإذا اقترب إليها جرو ضال كشفت له عن ثديها ظانة أنه ابنها الذى نهشته الكلاب حيا.. عندما هبط الليل أيقنت أنها الليلة الأخيرة فى حياتها.

من بعيد لمحت هالة ضوئية قادمة.. ها هو الموت قادم إليها ليأخذها بعيدًا كما تراه الآن وقد كشفت لها عن هوة من الضوء الأصفر، تناهى إليها دوى طبول وصياح ثم ما لبثت أن لاحت مئات المشاعل تقترب ويقترب معها دقات الصاجات وأصوات المنشدين الصاخبة.. كان موكب سيدى (أبو خطاب) يتقدم آتيا من بعيد يتقدمه خدمه فى عباءتهم البيضاء المزينة بالأحزمة الملونة حاملين الأعلام وهم يرتلون الأدعية والأناشيد والابتهالات يطلبون شفاعة سيدى (أبو خطاب) وسيدى أحمد البدوى لهم عند رسول الله لرفع الغمة.. مر الركب أمامها دون أن تعى به.. وخلفه سار جمع كثيف من الدهماء والعامة.. كادت أن تنام لكنها شعرت بيد تحملها من الأرض.. ها هو الموت يصعد بها إلى السماء فغمر وجهها أنس وراحه.. والحياة تمضى عنها ولن يجد الله ما يحاسبها عليه.

* * *

فتحت صديقة عينيها وعادت تغلقها ثانية وهى فى حيرة ولهفة تريد أن تعلم إن كان قد رسى بها جناح الموت إلى الجنة حيث العيش المنعم أم النار حيث العذاب.. كل ما

t.me/qurssan

كانت تعود به من صحوتها هو رجال بأجساد كأجساد العمالقة يجلسون القرفصاء ويطلون عليها بوجوه جهمة وقد تفصدت أجسادهم عرقا ساخنا، ومن خلفهم كأن هناك دوما حقل النيران الواسع.. وبين حين وآخر كانت تلمح رجلاً عجوزًا يكلل الشيب رأسه مسربلا بالبياض.. وعلى وجهه ارتسمت علامات الحكمة والصفاء.. فتشعر بالاضطراب وقد آن لها أن تؤمر بالوقوف أمام الجلالة لتغمرها الراحة والسلام.. ولا شك أنها ليس لديها ما تؤاخذ عليه كى يلقى بها إلى جهنم.. إن رضوان سيدفع بها دفعا لكثرة مشاغله إلى جنة من الجنان السبع التى خلقها الله للفقراء والمعذبين فى الأرض إلا أن خوفا مجهولاً ينتابها فتنتفض مذعورة.. وعيناها تبرقان بالجنون وكأن الكلاب التى التهمت ابنها تطاردها وهى تركض أمامها على الصراط تصرخ فى رعب وهلع فلا تشعر إلا بيد حانيه خشنة توضع على جبينها وفم يقترب من أذنيها ويلقى فى روعها بصوت خافت رخيم آيات الله البينات. عندما عاودت صديقة رؤيا الوقوف أمام الحضرة الإلهية ما بين الجنة والنار أجابها عقلها الواعى بأن ما تراه ليس سوى حلم وأنها لم تغادر الأرض بجسدها بعد.. استيقظت وذهب عنها الرجال العمالقة والشيخ الملتحى المسربل بالبياض فعادت دوامه الظلام تحترق على شفا ألسنة المشاعل.. تذكرت أيامها الأخيرة وابنها الذى نهشته الكلاب والفئران فبكت.. سمعت المرأة تقول:

- ظل الرجال والمشايخ وأكارم الوجوه سبع ليال يقيمون الصلاة من بعد أذان العشاء حتى صلاة الفجر يمسكون بأعمدة الضريح ويهزونها ينادون السيد البدوى.

اكشف لنا الغمة يا سيد أحمد يا بدوى يا طاهر المنبت يا شريف الأبوين يا مبارك الشفاعة وقريب الحسن والحسين حتى اهتز الضريح وثار وغلت المياه فى الأنهار وارتجت وانقطعت الأوتار.. فصاح صوت الحق.. يا ربى.. يا رب العباد.. يا مبارك يا ولى.. يا معين.. أولادك فى ظلم مقيم.. زلزل بأهل الفسق ودبر لهم أمر مكين.

أصاخت صديقة السمع وصوت المرأة يدخل سمعها صورا وخيالات ملأت فضاء المكان بالأشباح التى ملأت الضريح بالأصوات... وعشرات الأولياء القادمين بعماماتهم الخضراء والحمراء للعمل تحت ولايته... وعندما فتحت عينيها رأت امرأة موردة الوجه فى الأربعين من عمرها تجالس قريبة لها تدعى خضرة الشعلانية تحمل بين يدها ابنها عبد الله.. عارى المؤخرة.. متشاغلا عن المرأتين باللعب.. رأى وجه أمه فأشار لها بقبضته وبكى وزحف على أربع متخلصا من المرأة التى تحمله.

t.me/qurssan

جاهدت صديقة كى تعود إلى ابنها.. لكنها غابت عن الوعى ثانية.. وقف سيدى أحمد البدوى على رأس آلاف المصلين الطالبين شفاعته غاضبا.

- من ذا الذى أيقظنى من غفوتى وأقلق على حلاوة نومتى.. صاح خادم الضريح:

- أولادك اليتامى.. رعيتك الغلابة يا سيدى يا شفيعى يا أحمد يا بدوى طحنهم الطاعون وخرب ديارهم فلا أحد يسأل عنهم ولا أحد يرعى حرمة عشيرة المسلمين فأباح المماليك دورهم واستباحوا نساءهم ونهبوا غلالهم.. فهاج وماج وثار ورأته صديقة يملأ فضاء الجامع بغيهب الأسرار فارتج واهتزت أعمدته وارتعد الناس وهربوا مسرعين فصاح فيهم السيد البدوى:

- يا ستار يا أمين من ترك بيت الله.. ما أضعفه وصغر شأنه يا رب يا ستار يا واهب الحكم اكشف لنا الأسرار.. تعالوا يا إخوان من كل فج وصوب حدا الرئيسة الشريفة أخت الحسن والحسين.. وبنت أكرم والدين سليلة النبى العدنان لأجل كلمة وقول وحكم ما له نقوض لنحاسب الأشرار والكفرة والفجار.. ونجازى الأخيار والفقراء والأبرار.. ساعة قضا وانقضت والعمر لحظة ومضت، ساعتها ما يلاقى ابن آدم إجابة لحين تأذن الساعة ويسأله الرحمن.. حافظت على عهدى أم خنته.. ما يرحمك من عذابى غير رضا الوالدين وخير عملته فى دنيتك.

ومن كل ناحية ومكان فى أرض مصر الأمان رحل كل ولى وشيخ له كرامات.. وفى حضرة السيدة زينب صاح سيدى إبراهيم الدسوقى والغم راكبه شوالين.. أنا لولا الجلاله وحضرة الملكين لهدمت لوح القدر وكلمة السر دين.. ورفعت سيف العدل وضربت بيه البين.. وهدمت أصل الغواية الفقر ويا الدين.. استطرد جمع المنشدين الجالسين القرفصاء فى حضرة بساحة دار قديمة.. ومعهن النسوة وبينهن صديقة قد جلسن على مصطبة واسعة بصحن الدار يتابعن الإنشاد وينشدون مع المنشدين قولهم:

يا بنت حضرة نبينا يا سيدة زينب

يا أخت الشهيد اصعدى وتقدمى المجلس

حضر أمامك للتو والساعة أشرف ما فى

صلبك وأندر ما فى حقلك وأشجع الفرسان

ليضربوا باسمك الفسق والعصيان

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

أنا لأجل الثلاثة اللى فى حضرتك

سميت وبسملت باسم النبى العدنان

وشفاعة محمد نبينا طه الرسول

وأهل الصفا والدار اللى اتحموا فى اسمك

صمت الجميع واستكان لما السيدة قالت يا بدوى.. يا دسوقى يا أبو العباس.. يا قناوى يا كل من لنا جاء.. عطلنا كل مكتوب ومقدر ورفعنا سيف العدل. لا تتركوا الكفار ولا ترأفوا بحالهم.. ولا شر يزحف فى الظلام.. وما أن تنتهى الغمة وترفع الأحكام يعود كل لمكانه لا يغادر الأسوار.. ولا ضريح قبره ونعود كما كنا لرحمة الجبار.

- ٧ -

حول دار أكبر تجار المدينة السيد إسماعيل الجوهرى.. كان مئات الدهماء يتجمعون من كل صوب وحدب.. فقد خرج أولياء الله الصالحين سيدى (أبو خطاب) وسيدى أحمد أبو حديد أتباع سيدى أحمد البدوى من أضرحتهم ليرسلوا إلى أمة الإسلام العلامة بأن الميعاد قد اقترب والساعة قد دنت. وكانت جنازة أبناء السيد الجوهرى وحريمه وأتباعه قد شيعت أما هو فقد سبقهم راحلا عن الحياة.. وتلا ذلك أقاربه الذين قدموا على عجل من طنطا وكفر مصيلحى ليأمنوا على ميراثهم بعد موت الشيخ التعيس ولكنهم بعد أن دخلوا الدار أحياء أخذوا يخرجون منها جثة بعد جثة وقد فضل كل منهم أن يشاهد موت غريمه على أن يرحل ناجيا بحياته من هذه الدار الموبوءة.

حول القصر تحلق العامة تترقب الأخبار وكلما لمحوا طيفا يعبر الأسوار أو خيال ظل ينبعث من الداخل وقف شعر رءوسهم وطقطقت أسنانهم من الخوف وهم يشاهدون جند وفرسان سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى الصارم الحازم يفرغون الدار من كل شىء ثم شرعوا فى توزيع الغنائم بعد تقسيمها قسمة عادلة حتى يحصل كل جائع وعار على نصيبه فى هدوء وصمت قبل قدوم جند المماليك الذين لن يجدوا حينئذ سوى جدران طينية عارية.

جلست صديقة القرفصاء ترتل مع الناس من الكتاب الكريم وتدعو الله فى خشية وخشوع والدمع يسيل من عينيها أن تعثر على زوجها المفقود.

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
سمع دوى سنابك الخيل يقترب حثيثا، ثم دوت طلقة عالية فى الفضاء أعقبها طلق غدارات وصليل سيوف فتصاعد دعاء الناس.. لقد كبس الأغا بجنده على جنود أولياء الله.

اندفع العامة من كل مكان فاعتلوا الأشجار والأسوار وهم يقذفون القصر بالحجارة والمشاعل وقد تصاعدت شهيتهم لسفك الدماء.. وشعر باشى العسكر بالحصار وطلب الفرار. ذلك أن العامة ما كانوا ليتراجعوا عن التنكيل به وقتله والتشنيع بجثته.. حتى لو كان السلطان عبد الحميد خان الأول خليفة رسول الله وأمير المؤمنين.

تفتق ذهنه عن حيلة فاندفع يقذف بعشرين كيسا بكل منها خمسمائة بارة هنا وهناك.. فترك الجميع الحرب واقتحام الدار.. واندفعوا يتقاتلون جميعا حول قطع النقود.

استيقظ مصطفى أغا إيداكش على صوت البارود.. وخرج برأسه العارى الضخم ممتطيا جواده وهو ينادى فرسانه فتصاعد الاضطراب بين الجند والفرسان ظنا منهم بأن جنود اسماعيل بك قد أطبقت على منوف.. وانطلقوا مسرعين حتى بلغت طلائعهم دار السيد الجوهرى.. فشاهدوا الملثمين قد تمرسوا على الأبواب.. تراجع المنصور بعصابته منسحبا.. وأسرع يقتحم طريقه هو وعشرون من أتباعه إلى الخارج قافزين من فوق الأسوار فصوب عليهم المماليك.. فسقط منهم اثنان وفر ثلاثة إلى جنوب المدينة فطاردتهم ثلة من الفرسان بينما اندفع الباقون يشيعون فى العامة ذبحا وتقتيلا ويجلونهم عن الدار.

وعندما أصبح الصباح كان مصطفى أغا إيداكش فى أوج حنقه فقد سبقه الملثمون هذه المرة أيضًا الى الدار فنهبوها وسلبوها قبل جنوده.. وأمام جمع غفير من العامة جمعهم العسكر بالقوة.. قام باشى العسكر بقطع يد ثلاثين رجلاً وامرأة وطفلاً بالسيوف بعد أن ألهب ظهورهم بالسياط فامتلأ المكان بالصراخ والأنين والذهول.. كان فرسان المماليك قد أحاطوا بالمجرمين وقد امتطوا جيادهم برشاقة.. محمرى الوجوه تنم أجسادهم عن الصحة والعافية ثم دفعوا إلى أعواد المشانق باثنى عشر شخصا كان بينهم ستة من الملثمين.

* * *

فى زقاق مجاور لضريح سيدى (أبو حديد) قبض العسكر على صديقه فأرسلوها محمولة إلى القلق حيث أودعت فى زنزانة بجوار أحد رجال المنصور الذى تمكنوا من

t.me/qurssan

القبض عليه. وفى اليوم التالى وعلى مرأى من عيون الرجال.. دخل السنهورى هائجا مائجا ومعه كتخدا إيداكش:

- ألا تراعون حرمة المسلمين والمسلمات.. ألا تراعون حرمة أشراف هذا البلد الذين ينتسبون إلى أشرف الأنساب.. والله لولا ما عليه الحال الآن من خراب وبؤس لنزلت مصر شاكيا أميركم مراد يك.. وإن لم يجبنى لطلبى لدخلت على محمد باشا عزت والى البلاد أشكو له عسف المماليك وظلمهم.. نادى الكتخدا على صديقه وهو يسترضى السنهورى:

- سامحنا يا سيدنا لم نكن نعلم أن لكم بها صلة قرابة.

- أو تستحلون حرمة النساء يا كتخدا وقد أزل الطاعون أهلها والجوع.. الرحمة يا إلهى سبحانك وحكمتك.. أخذ السنهورى صديقة وابنها وهى غير مصدقة. والرجل الذى يتبع زوجها ينظر إليها مبهوراً.. وبعد يومين أتاح رجال الدرك للرجل أن يهرب.

لم تمض خمسة أيام حتى كان المنصور أبو حجاج يتسلل عبر دار السنهورى ومعه تابعه صالح تاركين جواديهما بالخارج.. قفزا من السور واندفعا تجاه شونة الدار الخلفية.. لمح نافذة مضاءة فى حجرة خلفية منزوية.. نظر منها فوجد زوجته نائمة هى وطفلها عبد الله فى أحضانها.. دفع الباب بكتفه وفجأة وجد نفسه بين خمسة من المماليك الأشداء حاملين المشاعل.. حاول المنصور أن يستدير هاربا.. لكن المكان انشق عن عشرات المماليك الذين اندفعوا نحوه.. امتشق سيفه. وأخذ يتبادل الطعان معهم أوقع ثلاثة منهم مضرجين فى دمائهم.. تكاثروا عليه حتى صار أعزل لا حول له ولا قوة.. فتح صدره لنصالهم لكن أحدا لم يفعل.. وفى الداخل سمعت صديقة جلبة وقبل أن تخرج رأسها من النافذة دخل حمد العبد وجذبها من يديها إلى خارج الأسطبل.. تبعته مذعورة وهى لا تدرى أن زوجها بالخارج.. تزاحموا عليه.حتى أمسكوه.. وفى الطريق من الأسطبل إلى الباب الخارجى داهمته فكرة مرعبة.. أنهم يريدونه حيا.

من فرجة المشربية كان السنهورى يتابع ما يحدث فى الفناء.. ظل واقفا يشاهد المنصور يسير مخفورا بالجند وأذناه تصغيان إلى اللغات غير المفهومة التى يتبادلها الجند.. فكر فى أن يسارع الآن بطرد المرأة لكن هاتفا دفعه لأن يتريث.. بقرة حلوب صارت الآن بلا صاحب.. فلم لا يقتنيها ويمتلكها.. لم ينتظر حتى الصباح زرر قميصه وخطف قفطانه وخرج مسرعا إلى دار الأغا يطلب الثمن.

t.me/qurssan

- ٨ -

قرعت الطبول فى المدينة الصغيرة الواقعة فى جنوب الدلتا.. فخرج الأهالى من الرجال والشيوخ إلى أبواب الدور وعلى بوابات الحوارى والأزقة وتجمعت النسوة والأطفال على أسطح المنازل وأطلوا من النوافذ.. وبرزت أعناق التجار من الحوانيت الفارغة يتحدثون فى همس وينصتون إلى منادى امتطى حمارا يتقدمه صبية يقرعون طبولاً علقت فى رقابهم يقرأ أوامر الأغا سنجق دار الكشوفية وأمير المديرية مصطفى آغا إيداكش الذى يدعوهم للخروج لمشاهدة اللص العكروت والشاطر السفروت المنصور أبو الحجاج الذى أرق العباد.. وأحل بالمدينة المحبوبة السهاد.. بعد أن شاع بين الناس الفساد.. وامتهن السلب والسطو على الدور وكشف كل مستور.. فحلت عليه لعنة والى البلاد وغضب أهل العلم والعباد.. ولهذا فسوف يصير أمثولة وقصة مذكورة لكل من تسول له نفسه السوء، وخلف المنادى بمائة ذراع كانت شلة من الفرسان تسير وهى تحيط بعربة يجرها حماران وضع على ظهرها قفص خشبى بداخله رجل عادى لا يرتدى إلا ما يخفى عورته يمسك بالقضبان الخشبية وهو ينظر حوله وبحدق فى عيون الناس بذهول وعلى كل قيراط من جسده ظهرت آثار التعذيب الوحشى الذى لاقاه وخلفه سارت عربة أخرى تحمل سبعة من رفاقه جالسين فى أرض العربة.. مقيدين إلى قضبانها وهم ذاهلون.. وقد شوهت أجسادهم من التعذيب ففقعت عيون وقطعت أذرع وسيقان.. وحول مواقد النيران كان الناس يتحدثون همسًا وقد خيم على وجوههم الرعب من الآلة الجهنمية التى نصبت على منصة عالية فى ساحة السوق.

دفع بالمنصور أبو حجاج إلى درجات المنصة الخشبية حتى تراه جموع أهل البلاد والقرى المحيطة. اصطكت ركبتاه وصعد السلم وقد أصابه الذهول، سرح بصره فى الجموع الصامتة التى تحيط بساحة السوق، تساءل عقله.. إن كان ما يجرى يحدث فى حياه الحقيقية التى قضاها على هذا الجزء من أرض الله أم أنه نوع آخر من حياة آخرى.

* * *

تلى المنادى فتوى قاضى قضاه المدينة فى الحكم على السارق، وأعقبه بحكم الأغا على المنصور بن حجاج بإقامة الحد عليه: الضرب مائة جلدة، وقطع اليد التى سرقت

t.me/qurssan

وشد اللسان من الفم الذى حرض، وبتر الخصيتين حتى لا تثمرا فى الأرض فساداً.. ثم إن رجلين قاما إليه فأوثقا جسده بعمود ضخم من الخشب، وانهالا عليه ضربا بالسياط، تصاعد صراخه عاليا ثم ما لبث أن خفت صوته وتصاعد صوت السنهورى يعلو ويهدد وينذر حتى جلجل بالساحة فهزها هزًا ورجها رجًا.

.. أيها الناس ما لكم وقد خفت عقولكم وضعفت نفوسكم فخلعتم عنها ثوب القناعة ثم ألبستموها ثياب اللصوص والشطار فصرتم بذلك أقرب للنار من الشيطان ثم إنكم حللتم أموال المسلمين وأملاكهم ورفعتم عصا العصيان فى وجه أمير المؤمنين وخليفة رسول الله السلطان المعظم عبد الحميد خان مالك الإنس والجن والذى إذا ما ضرب الأرض بيده ضربة لانشقت وانهارت واندكت ومالت.. فالحسرات الحسرات.. والتوبة التوبة.. وكل ما هو آت آت.. خر المنصور مغشيا عليه.. فصاح السنهورى، دار السيد الجوهرى يا سنجق.. أدار الغول الكبير رأسه وحدث أبناءه.

- أتدرون ماذا يطلب الشيخ؟

صاحوا جميعا: لحم.. أم عظام؟

- بين.. بين.

قال كبيرهم: كل ما يطلبه أبونا الشيخ مجاب.. ذلك أنه هو الذى يطبب لنا العيان ويكشف لنا عن الحجاب.. ويغسل الميت الكحيان وبعد أن يسلقه وفى التوابل يحمره يطلب له الرحمة ولنا السلوان فنحن من دونه عميان ومن غيره تضيع هيبتنا وسط القطعان.

ألقى جلادان بدلاء الماء عليه حتى أفاق.. فأقعى راكعا على الأرض.. مدا يدى المنصور على طول اللوح الخشبى المنبسط وأوثقهما بغلظة.. رفع أحدهما السيف عاليا ثم هوى به فى قوة فطار الكفان كعصفورين فى الفضاء ثم سقطا على أرض الساحة الحجرية.. صرخ الحشد ودمدم ثم ما لبث أن خيم الصمت ثانية وهم يشاهدون الجلادين يدفعون بساعدى المنصور فى الزيت المغلى.. .. بهت الرجل وجحظت عيناه وسقط مغشيا عليه للمرة الثانية. أسر هذا مصطفى أغا إيداكش فدق صدره جذلا وقال:

- شيخ سنهورى دار الجوهرى لك.

أمسك جلاد برأس المنصور وفغر فاه حتى تمكن منه وبمهارة الجزار أدخل شفرة حادة أخرجها وبيده قيراطان من اللحم الذى طالما تشدق وحكى وصدق وكذب ثم ألقى

t.me/qurssan

به للضباع الجائعة. أسر هذا مصطفى أغا إيداكش فقال للسنهورى.

- فتوى يا مولانا .. فتوى.

أجابه السنهورى: إذا وضعت السمن على العسل سقط ريش العصفور وصعدت البقرة الشجر.

- شيخ سنهورى.

وقف السنهورى يخاطب الجموع وقد امتلأت ذقنه بالدموع ثم إنه بكى وبسمل وطلب الرحمة لابن آدم.. الذى اشترى يومه بغده فبكت العامة واشرأبوا بأعناقهم نحو المنصة.. جذب أحدهم الخرقة التى تغطى عورته ودفعه لأسفل فسقط المنصور على ركبتيه فشدوه إلى أربعة أوتاد من ساعديه وركبتيه.. جذبوه بالحبال من أربع فتجمع قدميه ومرفقيه معا أسفل جسده دفع أحدهم ركبتيه خارجا.. فتدلت خصيتاه.. أخرج خيطا من الحرير ولفه حولهما وأعطى طرفا لزميله.. جذبا فى هدوء وقوة.. تصاعد الألم فى جسد المنصور ثم أمسك بجسده ولم يتركه بعدها قط أزرق وجهه وجحظت عيناه وتلوى جسده فى رعب لا يصدق والألم يدق رأسه بقوة واندفع صارخا كاندفاع السيل فاهتز المكان واهتزت رءوس الجمع.. تحسس الرجال رجولتهم خوفا من فقدها.. ونظروا لأطفالهم وتصاعد بكاء النسوة وعويلهم بينما خر المنصور مغشيا عليه والدم ينسال منه.. كواه أحدهم بالحديد المحمى حيث الجرح.. حمله رجلان القيا به على ظهر عربة وأشيع بعدها أنه سوف يحمل إلى سجن الوالى التركى فى القاهرة.

* * *

سأل السنهورى صديقه حسن البقلى ليلة أن شيع جثمان زوجته إلى مثواها الأخير.

- أفعالنا قصدية.. أم هى محض صدفة.

- نعمة الإنسان الظاهرة صدفة وباطنها مشيئة من عند الله.

حدق السنهورى بشراهة المحروم وقد امتلأت عيناه بفخذى صديقة المدملجين الناصعى البياض وهو يحتضن طيفها بين حقوية طوال مرض امرأته وبإصرار لا يداخله ملل أجاب:

- فغايات المرء مقاصد وأما ما يحصل عليه منها فمشيئة.

t.me/qurssan

كان الشتاء قد حل وبدأت البلاد تعود تدريجيا إلى حياتها الطبيعية بعد أن آخذت تخفت لعنة الوباء.. خرج الناس من دورهم يتلفتون يمنة ويسرة مذعورين.

وبشفاعة تجار المدينة وأعيان القرى والبلاد الذين سألوا سنجق المديرية أن يعود بما تبقى من المنصور إلى أهله.. ليظل شاهدا بين الفلاحين على فعلته وليظل عبرة لمن يعتبر. ومع عودته من مصر.. عاد السنهورى بالبقايا الحية من المنصور محملاً بعطايا الباشا والى البلاد الذى خلع عليه فروة سمور ورتب له تعيينًا سنويا من كلاره لكفايته من اللحم والسمن والأرز والحطب ثم رتب له علوفة جزيلة بدفتر الحرمين وكذا غلالا من الأنبار والأعيان يهزون رءوسهم احتراما وتبجيلا عندما يمر الشيخ السنهورى عليهم ممتطيا الجياد المطهمة والملابس الفاخرة وعلى رأسه عمامة ضخمة منحرفة بشاش أبيض استحسانا لكرمه وجوده وهو الذى أوقف من الثروات الهائلة التى استولي عليها من أصحاب الدور التى مات أهلها بالطاعون ومال الودائع التى تركها أصحابها عنده ورحلوا أعشارا لخدمة الجوامع والاستبالية الوحيدة بالمدينة كما بنى مدرسة لتحفيظ القرآن ونسخه.. والأعظم من ذلك إيواؤه للمنصور وإنفاقه عليه هو وزوجته وابنه.

* * *

وفى الليلة التى عاد فيها من مصر مد المنصور يده المقطوعة يلمس نهديها المتماسكين كحبتى رمان ومدت هى يدها تلمس أثار الندبة التى بقيت من خصيتى زوجها.. تخشب مبتعدا عنها إلى الحائط البعيد ثم غط فى نوم عميق.. ومع خيوط الصباح وجدته مستندا بظهره إلى الحائط وعلى وجهه نظرة بائسة.. بكت وانهمرت الدموع من عينيها.. أسندته على كتفها وتركا القاعة إلى الخلاء.. دفعها جانبا وذهب ليقضى حاجته.. تابعته وهو يزحف بمقعدته على التراب كى ينظفها.. اقشعر جسدها من أن يفقد توازنه فيسقط على برازه.. غسلت له وجهه بالماء وشعور بالقرف يسيطر عليها.. زحف إلى ركن يتابعها منه بعينيه وهى تغدو فى المكان جيئة وذهابا تشعر بعينه تحيط بها فى كل مكان.. وهى تتحاشى أن تلتقى أعينهما لأن فى هذا اللقاء الحديث الوحيد الممكن بينهما.

نفخت فى رماد الكانون حتى اشتعل فوضعت عليه القدور ومشت وهى عاجزة عن أن تجمع أفكارها.

* * *

t.me/qurssan

تذكرت.. ما أصاب زوجة سيدها الشيخ.. زينب العادلية بعدما أجلستها فى الطشت النحاسى.. كتلة مشوهة من اللحم الضامر العجوز.. وقد تغضنت بشرتها واسود جسدها كجلد النعال المتهرئة.

فلما استحمت جمعت مقدار قدح من حبات القمح وأخذت تسبح بعدد حباته.. وعندما حملت صديقة الطست خارجة.. عزمت على أن تنظف زوجها الذى هو أحق بذلك. كانت لا تنى تردد.

- لازم تنظف جسمك اللى آكله البق يا أبو عبد الله.. لكنه كان يجيبها بنظرة رفض.. دفعته غاضبة وهى تصرخ فى حنق:

- حتموت لو لم تنظف جسمك من شبر الجرب اللى عليه.. اخلع هدومك لحد ما أجيب ميه.. نظيفة.. ظل يخفى عورته بيديه المقطوعتين وهى تسكب الماء الساخن على جسده.. شعرت بالقشعريرة تسرى فى جسدها من رأسها إلى أخمص القدم.. لكنها سرعان ما تغلبت على نفورها منه واندفعت فى همة ونشاط تنظفه مثلما ينظف سائس الخيول جواده.. وبؤبؤ عينيها لا يستطيع التوقف عن اختلاس النظر وبمضى الوقت تخلى كل منهما عن حذره.. لمحت الندية التى خلفها الجرح تنضح بالصديد بينما بقى إنسانة قويا سليما مدت يدها بالزيوت تعالج الندبة.. فشعر بالنار تحرقه.. ومرت الأيام واندمل الجرح وبرأ فلم تستطع أن تمنع نفسها أن تمد يدها إليه.. تخشب محملقا فيها بعجزه لكنها كانت امرأته.. تعلقا بالأمل وظل كل منهما ينتظر لمعجزة وقد أحاطت بهما نشوة صغيرة من الوهم لكن شيئا لم يحدث.. توقفت بغتة وهى تغمغم بقسوة تعلم أنه يسمعها:

- ما عدتش منك نفع يا أبو حجاج:. يا بخت أمى الأسود.. طيب آنى ايه اللى رمانى على العذاب.. ما خدش إلا حرامى... كان الشيخ أحمد أبو رزق أحسن لى. واستدارت ناحيته.. كان حقك تموت.. لا لسان تتكلم بيه.. ولا يد تخدم وتطعم نفسك بيها.. ولا انسان تمد بيه عمرك.. لو أعرف ليه خلوك عايش.. ليه ما موتكش.. شنقوك يا ابن أبو حجاج.. تبكى.. ابكى.. فى أيه يفيد البكى.. دا أسود يوم فى حياتى. اختنقت هى

t.me/qurssan

الأخرى بالبكاء والعويل..دى أول مرة أشوفك بتبكى فيها يا منصور استطردت فى إشفاق:

- قوم.. قوم يا خويه نشف جسمك.. بتخبى إيه هو فيه حاجة عادت تتخبى.. قوم يا خوى احمد ربنا طيب لو أفهم حكمته فى كده إيه؟.. أى والله ثمن شقاوتك وغلبك فى.. عامل فتوة على المماليك.. طيب أدى اللى خدناه يا منصور.

وفى الأيام التالية حل بوجهها تجهم وصرامة وانتظار معلق لشىء لا تدرك كنهه.. زوجى يا سيدى ما عدش منه خير إلا فيما اختار الله.. ولسوف ينال الصابرون جزاء صبرهم.. أجيب لك العشاء؟

- إنى شبعان.. آخر الليل أحضرى كسرة خبز ولبن كفاية..

بجوار مواقد الآجر المشتعلة تحت قدور الطعام.. أخرجت من الكانون قطعة من الغاب التى تركتها النار وعلى سطحها ألوان جميلة.. أخذت تعبث بها على سطح الأرض.. ترسم رسوما طازجة.. حصان وثور وجمل وأوزات تسبح فى النهر.. وبتلقائية رسمت للحصان قضيبا طويلا.. نظرت للرسوم مفكرة.. ثم عادت ترسم للثور والجمل قضبانا هى الأخرى.

- طيب وهو عاوزنى أجى بالليل ليه.. يمكن جعان.. ولا حيأكل الجان معاه ليه لأ ربنا يكفينا شره.

* * *

عندما هدأ الليل تحركت من فراشها مذعورة، حدقت فى وجه زوجها كان يتنفس بانتظام.. قامت تحس جسدها خفيفاً مملوءًا بالشبق، صر باب القاعة وهى تغلقه وراءها.. كانت الدار ترقد تحت صمت الليل يقطعه نقيق الضفادع وعواء الكلاب.. طرقت باب المندرة.. ماذا لو أنه ترك خلوته ويرقد الآن نائما.. أتوقظه فيهب يلعنها.. خافت من سجن العقاب الصارم الذى يحمله السنهورى فى عينيه الصارمتين لو أنه نسى ما سألها إياه فى الظهيرة.. سوف يكتشف بقعة سوداء فى قاع أفكارها.. داهمها

t.me/qurssan

شعور قاس بالخوف رغبت فى أن تعود لكن خوفا آخر من أن يكون منتظرها جعلها تدفع الباب داخلة.. كان الفراش خاليا وبصيص ضوء يخرج من خلوته..

فتلمست طريقها إلى باب الخلوه الواطئ.. ركعت تعبر على أربع وهى تدفع العشاء إلى الداخل.. هاجمتها رائحة البخور الذكية القوية فخف عنها توتر أعصابها أجالت البصر فى الغرفة عبر الضباب الدخانى الكثيف.. كان اللهب الإرجوانى يتراقص فى الموقد فوق الجمرات وقد ارتسمت ظلاله الشفقية على الجدران.. سمعت صوته أمرًا:

- ادخلى.

تقدمت ترتجف لا ترفع نظرها نحوه.. شعرت بوجوه تتراقص على الحائط:.. هنا.. تعالى هنا....

- تمددى.. مد كفه الضخم الناعم فأناخها على جبينها.. وأمامه تراقص بصدرها نهدان عاليا.. تمتم بالفاتحة وأعاد:

- أعطيت سؤالك للسر المحجوب اللى انتفض وشق هدمته وعفر رأسه بالتراب وصرخ اكشف وراء الأستار تلاقى ستار فلا تظن أن الذى تراه حقيقة يابن آدم هذا علم القوى الجبار. لا تنخدع فى ظاهر الأشياء ابحث فى بواطنها واعلم أن ابنتنا والاسم صديقة والأم هانم عمرها كله ندوب وجرح لا يندمل والصبر ما له حدود تدفع ما جناه الأقدمون.. أبوها وأمها وجدودها فى الأصل خطاءون عاصون، حاملو ذنوب تملأ بحور النار.. فانج بها عنهم كرامة للصالحين.. دق قلبها كجواد يركض دونما رحمة.. وكفه لا تزال تضغط جبينها.. شعرت بجسدها يخوص أسفل دون توقف وهو يزداد ثقلا حتى صار كجبل تعلق من تحت كفه.

- سألتهم أن يجيبوا لك مطالبك بكفالة سيدى الجيوشى وضمانة المهدى.. قالوا طلبك مجاب بشرط كفارة مائة جلدة كل جلدة بألف.. هذا بعمر اللى مات وعمر اللى حى.. وفى التو واللحظة يجى ويحضر من الجان عشرة فيهم رئيس يشرف على الأحكام.. هيا استغفرى واطلبى التوبة وأوهبى لى نفسك تبيض صفحتك.. وتصيرى نورا ريان.. سيطر على رأسها كابوس ثقيل وفقدت السيطرة على جسدها.

امتلأت الخلوة بأصوات غريبة.. ضحكات مرحة خافتة.. عشرات الأنفاس تحيط بها وعشرات الأيدى الطرية تلمس كل أجزاء جسدها تكبسه.. حاولت أن تفتح عينيها فلم

t.me/qurssan

تستطع رغم محاولاتها المتكررة كانت تنزلق ولا تستطيع أن تمسك بشيء ويده تنزلق إليها.. اندفع هواء بارد يلفح جسدها.. همس فى أذنيها:

هبى لى نفسك فيحل لى وصالك.

فتحت عينيها بصعوبة بالغة لم تر من خلف جسده سوى ضوء النجوم الخافت يأتى من السماء التى تقبع خلف الكوة.. قبض عليها بين ذراعيه.. وعلى حواف جسده اندلعت ألسنة اللهب الأرجوانية..

أمسكت بحفان من بقايا الطين.. تعبث به.. صنعت منه تمثالا صغيراً لأبى زيد الهلالى.. قطعة واحدة لجسد قوى غليظ الساقين انفصلا بشق سطحى.. كان زوجها المنصور يتابع نزواتها.. صنعت لتمثالها قضيبا ضخما من الطين حدق به المنصور وتلاقت نظراتهما غرست حبتى قمح زرعها أسفل القضيب.. فزحف المنصور مبتعدا ملغوما بالقهر.

وفى المساء دفنت تمثالها فى الرماد الساخن المحمى فى الفرن المشتعل.

وفى الصباح أخذت التمثال المصنوع من الطين المحروق وضعته فى زريبة البهائم فى مكان أمين. ضمت تمثالها بقوة.. هتفت سيدتها العجوز بأن تستحم أمامها غطت ألسنة اللهب السهل كله وتصاعد من جوف الأرض سعير وريح لاهية تأكل حى.. وعلى أفق اللهب كان وجه رضوان يحدق فيها.. بارد الملامح محايدا تشوبه غلظة.. امتدت مئات من رءوس الشياطين تمد ذيولها تقبض بها على قدميها وآلاف الأظافر تشدها إلى قاع السعير.. جموع غفيرة من البشر تجرى وتركض وتصرخ دونما صوت فى أسمالها البالية وخلفها ارتفع طرق سنابك آلاف الخيول المطهمة يقودها المماليك حتى كاد أن يصم أذنيها.. تشبثت خوفا بجسده من آلاف القوارض الصغيرة التى كانت تنهش دمها المسفوك.. التف بها يحتضنها شعرت بخوفها يضمحل استسلمت لنشوة حارة تذوقتها على مهل.

* * *

بعدها توقف الطمث عن المجىء فى أوانه.. تنبهت.. ظلت شهرين حتى برز نتوء صغير فى بطنها.. أومأت للسنهورى فأشار عليها بالرحيل.. فرحلت تجر زوجها فى ليلة مظلمة

t.me/qurssan

لاحظ المنصور البطن المتكور الذى تحمله زوجته أمامها تتسول به وعندما تحولت الدهشة إلى سؤال غاضب أجابته بأنه هو والد الجنين الذى تحمله.

أنه تأخر فى المجىء وأنه جاء استجابة لدعواتها ونزورها لأولياء الله الصالحين وبركة والدنا الشيخ السنهورى وأصرت على أن يصدقها فأبقى على نظرته الجامدة..

واستيقظت ذات ليلة على النار تشتعل فى خصها الصغير وهو بجانبها ينظر إلى النار بجمود خمنت أنه الفاعل.. فأبقت على ما حدث فى صدرها.

وذات ليلة انفجرت فيه صارخة:

- أيوه.. اللى فى بطنى موش لك.. وفيها إيه آنى عايزاه.. ظنك أظل طول عمرى أوكلك وأشربك وأحميك وأغسل لك هدمتك.. منين.. من الشحاتة وتسول اللقمة. لأ.. لأ ياخويه أنا بنت أصل.. أيو انت تسكت يا مسكين.. ليه.. متعرفش ليه.. ما هو انت عاجز ومحتاج لدار تضمك.. ولقمة ذل تفطر وتتعشى بيها.. فهمت.. أيوه يا ريتك تكون فهمت..

هو ده اللى هيوكلنا.. ويشربنا ويسكنا ويلبسنا الحرير.

اقتربت منه بشرة وهى ترفع أصبعيها مفرودين فى وجهه.. فهمت ولا أخذق لك عينك كمان عشان ما يبقى فيك شىء تفترى بيه عليه.

تراجع مذعورا وعلى وجهه استسلام فاستدارت وهى تزوم...

- لو أعرف ليه بس هما المماليك سبوك كده .. رمة لا فيها شفع ولانفع.. ليه ميريحونيش منك ولا العذاب حمل ومقدر عليه.. حكمتك يارب.. يا خوى امشى اطلب من ربنا الستر.

* * *

مضى عام وشهران من خروج صديقة من دار السنهورى.. كانت قد ولدت بدرية بعد سبعة شهور من رحيلها.. قبل شروق شمس أحد الأيام.. استيقظت صديقة وقد غسلت طفلتها التى تبلغ من العمر سبعة شهور.. ألبستها هى والمنصور أفضل ما لديها من ثياب قديمة رتقتها جيدا ويممت شطر منوف.

t.me/qurssan

على باب السنهورى الخلفى وقفت.. غامت عين المنصور فدفعته بعنف.. حاول السير فمنعته وفمها يتدفق بالسباب والوعيد والتهديد.. وطوال اليوم ظلت صديقة تتحين رؤية السنهورى. فلما وجدته مقبلا قامت نحوه متهللة.. فافتر وجهه عن ابتسامة مقتضبة.. انحنت تقبل يده.. ثم مدت يدها له بالطفلة فوضع يده على رأسها يباركها بكت.. فصاحت أمها:

- تعيطى قدام أبوك.. أيوه ما هو أنت حقك تبقى دلوعة.. لأصلك.. خذ.. يا أبونا بنتك بدرية.. أنى بلغتك ووكيلى ربنا.. ارتجف جفنه ثم تركها صاعدا لأعلى.

* * *

- ١٠ -

على المشارف الجنوبية لمدينة منوف تطل الساحة الخلفية لقصر السنهورى على مساحات واسعة من الأراضى البور الواطئة. يأتيها الفيضان النيلى كل عام فيحيل المنطقة إلى مستنقعات كبيرة من البرك والأوحال والمياه الآسنة وجحافل البعوض. وعلى امتداد الخط الفاصل بين الدور الطينية وبين المستنقعات ارتفعت أشجار السنط الشوكية.. أطلت من البوابة الخلفية لفناء القصر طفلة صغيرة فى الثامنة من عمرها. وقفت تراقب بعينيها الواسعتين الشديدتى السواد، والتى أخذت عمقهما من أبيها، طفلا فى عمرها رفع ذيل قميصه المصنوع من الكتان وراح يخوض مياه البركة الضحلة حتى بلغت حافة سرواله الداخلى الطويل.. ظنت أنه قد يسقط فجأه فى جرف غائر.. لكنها لم تحاول أن تحذره وانتظرت بلوغه إحدى جذوع أشجار السنط الضخمة فى استطلاع قلق. انزلقت قدمه وغاص فجأة فانخلع قلبها.. هتفت - حامد.. واد يا حامد ارجع يا وله... اهتز لوهله وهو يحسب بذهنه شكل أراضى المستنقع الجافة قبل أن يغمرها الفيضان.. حدس أنه آخر انخفاض فى الأرض قبل جذع الشجرة القريب. غامر بالقفز داخل المياه ورمى بنفسه متعلقا بجذعها فلما أمسك به تنفس الصعداء. رفع جسده لأعلى كانت ملابسه كلها قد ابتلت لكنه لم يهتم بل استدار ناحيتها وعلى وجهه ابتسامة انتصار. دعاها إلى المجىء ترددت والخوف ينازعها والرغبة تأكل قلبها فى أن تتبعه حتى تحضر هى الأخرى كمية كبيرة من المادة اللزجة يأخذها من لحاء

t.me/qurssan

أشجار السنط وأبر السل الحادة الصلبة التى ينتزعها من أغصانه كى يصنعا من القمح وأعواد الحطب والطين المخلوط بالتبن عجلات وعربات وسهاما وخيولا.. انتصر خوفها.. تابعته وهو يصعد فروع الأشجار مغيظا إياها. نادى على أخيه محمد البالغ من العمر عشرة أعوام والذى وقف بسطح دارهم يصف حزم الحطب الجافة.. التفت محمد حوله يبحث عن مصدر الصوت حتى وجده أخيرا. لمح أخيه حامد ينادى عليه وهو متشبث بالأطراف العليا لإحدى الأشجار فجن غضبا وراح يصب عليه سيلا من الشتائم اللاذعة كى يهبط.. مد يده فأخذ بيضتين من عش الغراب وببطء أخذ حامد (آبو الفضل) يهبط حتى بلغ مياه المستنقعات فأخذ يخوضها عائدا إلى الطفلة الواقفة بانتظاره.. تابعته بدرية وهو يبلغ البر ورأته يخفى عنها غنائمه جيدا منتظرًا أن تلح فى طلبها.. تجاهلته.. كأنها تعلم حيلته وفى برود أخذت تخلط بيديها الصغيرتين كومة من الطين الجاف بالمياه الآسنة والعشب، مدت يديها إلى قطع الغاب التى أحضرها هو خصيصا لألعابهما وأخذت تصنع عجلات ودورا صغيرة ثم جعلت منها جمالا وحميرا. وكلما أنهت شيئا وضعته يجف تحت شمس الخريف.. شعر بالضعف والخوف لأنها سوف تملك أشياء لايمتلكها.. أخرج حامد مقتنياته مغتما ووضعها أمامها مستسلما.. فأخذتها على الفور.. وأخذت تثبت إبر السل بعجلات الطين الجافة وأعواد الغاب وأخذا يصنعان معا عربات طينية صغيرة صفت فى طابور طويل..

مالت الشمس نحو المغيب وداعب النسيم الخرق البالية التى يرتديها الطفلان، وقد انهمكا فى صنع حياة صغيرة والطفل ينصاع سعيدا لرغبات الطفلة الآمرة وهى تصب فى أذنه الكلام المعسول..

- أيوه يا حامد إنى أعمل العربية وأنت تعمل الجمل علشان نتجوز آنى أركب الجمل وأنت تركب العربية. فيهز رأسه طربًا.. وعيناها تبحثان بحرص عن كنزه الثمين الذى أخفاه «بيضتى الغراب» وتقول:

- أيوه شوف باعمل جوز خيول يجرو العربية. أعملك سايس لأجل يسوق لك الخيل؟

فيسقط رأسه مستسلما وينهمك فى صنع رجل آخر وطرفا عينيها لايغيبان عن البيضتين وقررت وقد أعياها التفكير أن تأخذهما عنوه. قام يصف اللعب بجوار

t.me/qurssan

الجدار. وعندما عاد شعر بالريبة. كانت تقف بعيدا تخفى يدها خلف ظهرها.. نظر إلى حيث وضع البيضتين فخمن أنها سرقتهما.. اندفع غاضبا ينشب أظافره فى وجهها فأطلقت صرخة عالية فى الفضاء.

ـ آه يا بنت المفحور. يا بنت منصور الأكتع.. وصديقة الدرويشة. هاتى البيض يا بنت الكلب.. كانا يصرخان وهى متشبثة بالبيض.. بكت ولمحت من خلال دموعها أخاه الأكبر محمد (أبو الفضل) قادما يجرى نحوها فأيقنت أنها الخاسرة. أمسكت بالبيضة وقذفتها بكل عزم فى وجه غريمها فتلون بزلال البيض وصفاره. تركها وهو يخفى وجهه من الألم ورائحة البيض وهو يسأل أية شيطانة هذه. وقفت بعيدا وهى تكاد تنقلب على ظهرها من الضحك فانطلق يبكى فى عويل وصراخ ملأ الفضاء.. أقبل محمد (أبو الفضل) غاضبا فحدجته شذرا ونفشت ريشها كقطة تواجه كلبا.. وقبل أن ينقض عليها لمحت أمها تخرج من باب الدار فاندفعت فى الصراخ وانطلقت تجرى إليها تختفى خلف قميصها توقف الصبيان على مبعدة والكمد يكاد يقتلهما أمام سيل الشتائم القبيح الذى أطلقته صديقة عليهما فتراجع الصبيان خوفا وهما يلقيان بالطوب على صديقة ويبادلانها الشتائم وحامد الصغير يبكى ويشهق ويقسم. وحياة النبى محمد مانى متجوزك يا بنت المفحور.. يا بنت منصور الأكتع الحرامى.

شعر محمد بسذاجة أخيه فلكزه فى جنبه يصرخ به غاضبا ـ أنت بتصدقها يا ابن الحمار دى بتضحك عليك يا أهبل يا ابن البغل. أمشى من قدامى وعلى الله أشوفك بتلعب معاها.. ساعة وأطل وجه بدرية من الباب لمحها حامد فعزم أن لايضع لسانه على لسانها.. تلاقت نظراتهما سريعا. أعطاها ظهره.. ولطيلة دقائق كان يعلم أنها تقف خلفه تريد أن تحادثه لكنه آلى على نفسه أن يكون قوى الشكيمة هذه المرة عندما تنهدت.. آه يانى.. هو أنت علشان بيضة غراب تعمل معاية كده.. أمال لو كانت بيضة فرخة ولا بيضة وزة كنت عملت فية أيه.. انشالله اغرق ولا الغراب ياخدنى علشان تستريح منى ولا عدش حد يزعلك تانى.. والله لانى طالعة الشجرة أجيب لك عشر بيضات مش واحدة..

كان يتحرق شوقا لأن يبادلها الحديث لكن ناره لم تكن قد انطفأت بعد وقلبه يحدثه بأنها كاذبة.. لما رآها تخوض فى المياه الراكدة بالفعل وقد رفعت ذيل ثوبها وبرز من ذيل

t.me/qurssan

سروالها الطويل المزركش ساقاها الرفيعتان كعصا البوص الصفراء الجافة.. قام متثاقلا وتبعها. صعدا سويا شجرة السنط الضخمة سبقها يمد يده إليها ومن فوق سطح دارهم كان محمد أبو الفضل يكاد يموت غيظا وهو يحلف بأغلظ الأيمان إن أخاه هذا عبيط وأن بدرية هذه ليست إلا شيطانة صغيرة ابنة لشيطانة كبيرة وقد جعلت من أخيه خادما مطيعا لها.. وأمام بدرية مباشرة تمدد ثعبان طوله ذراع صرخت فى هلع وقدماها يهتزان من تحتها وقبل أن تتماسك كانت قد سقطت من أعلى. قامت تجرى إلى اليابسة والدموع تنهال من عينيها عبرت بوابة الفناء الخلفية باكية تتصاعد من ملابسها المبتلة رائحة العطن. لم تجد أحدا دارت حول نفسها وهى تمسح دموعها والمخاط المنثال من أنفها.. عبرت سورا قصيرا إلى الفناء الداخلى للقصر وبكاؤها لاينى يتصاعد سمعتها أمها من داخل الزريبة وهى تطعم أزواج الحمام وأفراخها فى زلع علقت على حوائط الزريبة.

فتغاضت عنها علها تصمت، لكن بدرية التى كانت عينا الثعبان لازالتا تؤرقاها دخلت السلاملك الخارجى. شمت بأنفها رائحة طيبة تعرفها فانطلقت تجرى نحوه. ألقت بنفسها إليه فاستقبلها بذراعين مفتوحين وسط مجلسه وأجابها وجهه الضخم الأحمر وعيناه النفاذتان بفرح وسرور رغم أنه اكتشف بللها النجس فقد أخفى ثورته وهو يدللها مدمدما.

- يا بنت المركوب.. نجستينى.. آه يا بنت المركوب..

حاول الشيخ عبدالرحمن أبو الفضل باش خولى أراضى الشيخ أن يأخذها بعيدا عنه فتصاعد صراخها فأبعده الشيخ السنهورى برفق.

- احنا اتنجسنا وخلاص .. ايه اللى فاضل بقى يا عبدالرحمن...

قال الرجل.

- يا سيدنا دول عيال عايزه الذبح...

لا يا راجل العيال أحباب الله.. استدار إليها وهو يهمس برفق.

t.me/qurssan

ـ مالك يا حلوه.. مالك يا بدر البدور إيه اللى مزعلك يا بنت.. أجابت من خلال دموعها وهى تشهق.. الحنش كان حياكلنى أنا وحامد.. ارتاع الباش خولى على ابنه وتجهم وجهه. ربت السنهورى على جسدها الصغير وشعرها حانيا وهو يقرأ الفاتحة.. أطلت صديقة من الباب.. ضربت صدرها بكفها على جرأة ابنتها الملعونة. حاولت أن تأخذها لكن بدرية رفضت متعلقة بالشيخ فهمس السنهورى فى أذنها أن تذهب مع أمها كى تغير ملابسها المبتلة وتعود.

انتصبت بدرية عارية وسط طشت نحاسى كبير تستحم بالماء الساخن وهى تبكى. جففتها أمها وهى تدمدم غاضبة.. تصاعدت ضجة عالية خارج الدار فألبستها ملابسها على عجل وأسرعت إلى الباب. كان المساء قد أزف وأمامها وقف المنصور أشعث الشعر كدر الوجه متسخ الملابس وقد نبت على وجهه شعر كث شديد الصلابة متسخ ببقايا فمه وقد تجمع حوله الصبية يناكفونه ويقذفونه بالطوب وهو عاجز عن مقاومتهم إلا بأصوات غير مفهومة وصرخات متقطعة تخرج من لسانه المقطوع. أخذ يشكو لها بأصوات خاشعة وهو على وشك البكاء.. فصرخت فى الأطفال بغضب وقد تجهم وجهها مثل لبؤة غضوب فأختفى الأطفال فى الدرب المظلم الطويل.. دفعته إلى الداخل وهى تلعن ذاكرة القوم الضعيفة التى لاتعود إلا فى ليالى الأفراح وأيام الحصاد. يتسامر فيها القوم عن شجاعة المنصور الذى تحدى يوما رجال السنجقدار وكاشف المديرية كى يطعم نفسه ويطعم الآخرين زمن الطاعون وعندما تستبد بهم الشجون يتحول المنصور فى هذه الحكايا إلى شيخ من أولياء الله الصالحين يأتمر بأمرهم وينفذ ما يشيرون عليه به وخاصة السيد البدوى الذى خرج معه أيام الوباء ليوزع الخبز على الفقراء وهو الذى كان جنديا ومقدم عسكر للست رئيسة الديوان السيدة زينب التى أمرته بأن يحارب تحت راية سيدى إبراهيم الدسوقى كى ينتقم من شرور الكفرة والأشرار وما هو عليه الآن ليس إلا حكمة لايعلمها إلا الله. ويهمس أحد الشيوخ الكبار بأن الشيخ صادومه المتصل بالجان والأرواح قد أخبره بأن المنصور بن حجاج قد أراد أن يخرج من المقدر والمكتوب ويخرج عن السر الأعظم المستور ويستخدم القوة الإلهية فى قطع رقاب الأمراء وقادة الجند الكفرة والشيوخ المنافقين بسيفه البتار فيقضى على الظلم ويلقى به خارج البلاد ويرحب بالعدل ويقيم له التشريفات. وهو ما اهتاج له وثار

t.me/qurssan

أصحاب الديوان الذين قالوا: وإذا ارتفع الظلم وباد فما تصير عليه حال الدنيا وأبناء العباد وماذا يصبح عليه حال البنى آدم الكفور بنعمة ربه والشكور لعرق الشيطان وروائح مؤخرته. فأمروا بقتله حتى لايكشف عن سر من أسرار الدوحة العلية.. إلا سيدى إبراهيم الدسوقى الذى انتفض وثار فانهز الجبل من قوته.. يا عاشقين النبى صلوا عليه إن كنتم تريدون قتله نموت كلنا قبله. ابن آدم ايش يكون سوى انس مسكين وإحنا له مرشدين وأصحاب أمر ونهى فيه.. إن كان هو أخطأ فى خطاه إحنا له مشاركين.. صلوا على المصطفى واعفوا عنه كرامة للنبى العدنان. فاكتفوا بأخذ عضو اللسان فى الإنسان وكفه كمان حتى لايملك سيفا ولا برهانا.. وفى الليالى التى يغيب عنها القمر ويجهد الكبار رءوسهم فى حل الألغاز التى تحيط بهم يهمس أحدهم للآخرين:

- إذا كان المنصور لصا حقا فلماذا يأويه الشيخ السنهورى هو وامرأته.

ويجيب أكثرهم بهز الرءوس فالسنهورى هو الذى أوقع بأسد الرجال وخادم سر أولياء الله القاهرين.. فهو إنما يكفر عن ذنبه الذى اقترفه خوفا من عقاب الله.

وفى ركن قصى من الدار وعلى ضوء مسرجة زيتية صغيرة تمدد المنصور جسداً يتنفس بلا روح بينما تمدد عبدالله وبدرية على قبة الفرن الداخلية. دخلت صديقة تنظر لابنتها وتحدق فيها فى هدوء. هزتها برفق فتحت الطفلة عينيها بتعب.. دفعت إليها بتفاحة كبيرة وهى تهمس.

- أبوك السنهورى قالى خذى دى لبدريه.. ابتسمت الطفلة وهى تشعر بالتفاحة تندس فى أحضانها ثم غابت ثانية فى النوم.. مالت صديقة عليها وقبلتها فى حنان ثم استدارت إلى عبدالله تتأكد من غطائه وعندما خرجت وسط الظلمة الكابية كانت تعلم أن هناك ضوءا وحيدا يسرى بداخلها، أنه هذه الطفلة الصغيرة.

فى صباح اليوم التالى استيقظت بدرية مبكرًا وتبعها أخوها، غسلا وجهيهما بمياه الجرة الباردة وتناولا كسرا من أرغفة البتاو وقطعا من الجبن القريش.. حملا لوحى الصفيح وقلمى البوص وفى منديلها المصنوع من الكتان المنقوش دست تفاحتها ومعها طعام غذائها .. ألقت بالتحية إلى أمها التى استدارت ناحيتها فى دهشة تلاحظها وهى تسرع جذله بأقدامها الحافية إلى الكتاب وعبدالله يسبقها.

t.me/qurssan

عبرا دروب القرية الصغيرة إلى أطرافها. وفى إحدى الدور المبنية من الطوب النىء صعدا درجتين عاليتين ثم دلفا إلى مندرة كبيرة تنيرها حزمة ضوئية تأتى من كوة بأعلى السقف فتشيع على الجدران الطينية لونا باهتا كابيا.. تناثر الصبية والفتيات وارتفعت الضوضاء فى أرجاء الكتاب. تصاعد الصراخ بالخارج فتدافع الجميع إلى الباب يخمنون ما يجرى.. كان الغبار يتصاعد عاليا والأخوان حامد ومحمد أبو الفضل يشتبكان فى عراك مستميت مع صبى فى الثانية عشر ة من عمره سقط محمد تحته وقد أمسك به الصبى يعفر وجهه بالتراب وينهال عليه بقبضته بينما حامد يدور حولهما وفى يده حجرا كبيرا يحاول أن ينال منه قذف حامد الحجر بشدة.

حاد الصبى عنه وأمسكه بيده اليسرى. جذبه ناحيته هو الآخر ودفعه إلى أسفل فصار كلاهما أسفله فانفجر الصبية فى الضحك عدا بدرية التى اندفعت غاضبة شرسة تدافع عن الصبيين.. نظر عبدالمحسن إلى ابنة خالته بدرية غاضبا. دفعها بعيدا فسقطت أرضا بحث عن أخيها عبدالله. نظر إليه شذرا.

ـ حوش أختك يا ابن صديقة. وإلا أعفر رأسك بالتراب أنت راخر .. تراجع عبد الله متحاشيا الصدام واستدار إلى بدرية يعنفها.. قام حامد ومحمد أحدهما يبكى والآخر ثائر لبكاء أخيه يعده سبه فى جبينهما .. وقبل أن يبدأ فى العراك ثانية ظهر الشيخ أبو قنديل. رجل فى السبعين من عمره أعجف يتوكأ على عصاه فسارع الصبية عائدين إلى الكتاب وقد أمسك الخوف بتلابيبهم. كان محمد وحامد آخر من دخل الكتاب. ألقى محمد أبو الفضل نظرة أخيرة على الطريق وهو يتمنى من قلبه أن يكون عبدالمحسن قد رحل لكنه وجده مختفيا خلف أحد أعمدة الدور البعيدة.. فدخل مغتما. وقف محمد أبو الفضل ممسكا بفرقلة مصنوعة من التيل عريفا على الأطفال كما رسمه الشيخ لكونه أكبرهم عمرا وأحسنهم حفظا لكتاب الله.. بحثت بدرية عن حامد وسارعت بالجلوس إلى جانبه فانزاح عنها جانبا يملؤه الشك من ناحيتها لكنها أبقت على قربها منه تحتك به مثل قطة أليفة ... همس..

ـ عايزة إيه يا بنت صديقة ابعدى عنى.

ـ ليه يا واد يا حامد هو أنى حاكلك ولايعنى حاكلك.

t.me/qurssan

- أهو ابعدى عنى والسلام أحسن الشيخ أبو قنديل يمدنى بالفلكة.

- يوه هو أنت خواف كده ليه يا وله.. فتحت منديلها وهى تحاول أن تجعله يرى التفاحة.. نظر مغتاظا وحب استطلاع قهرى يدفعه دفعا لأن يرى ما تخفيه فى منديلها وقلبه يحثه كى يبتعد خوفا من غدرها.

رأى ثمرة التفاح حمراء ناضجة شهية فارتفع وجيب قلبه.. بان له كالرؤى لماذا يلتصق بهذا الكائن رغما عنه... شم عبيرها القوى همس.

- حاتعطينى حته ولا لا..

وقبل أن تفعل نادى الشيخ أبو قنديل - سيد أبو إسماعيل.

أجاب أحد الأطفال مرتعبا .. أيوه يا سيدنا.

- تعالى هنا يا ابن المركوب.. عبدالعظيم أبو سعده.. أيوه ياسيدنا.

- جنبه يا ابن المفحور.. خضره أبو موسى.

- أجابه صوت رفيع - أنى أهه يا سيدنا.

- جنبهم يا بنت أم الرزق العرجاء جنبهم يا روح أمك يا متعوسة يا بنت المتعوسة.

- عبدالحميد البقلى .. أنى أهوه يا سيدنا .. تعالى يا ابن حسن البقلى أبوك من أهل النار.. اقترب منهم فتراجعوا على الفور وهم يعلمون عن يقين أنه يراهم جيدا ويعلم أماكنهم رغم عجزه ولطالما هبط على أحدهم بالعصا على حين غرة فترك على جسده أثرا غائرا.. أو رأسا شجت.

صاح بهم - بتبعدوا ليه يا واد أنت وهو وهيه.. قربوا هنا مجبتوش المعلوم ليه.. أمسك بكتف عبدالحميد البقلى وضغط على عظمة الترقوة بشدة فصرخ الصبى من الألم.

- عايز تحفظ القرآن بلوشى يا ابن مسعدة... أبوك وأمك يفرحوا بيك لما تخرج القرافة وتلم القرص... طيب انى هاعرف أربيكم وأذل البذرة اللى جابتكم.. الفلكة يا واد يا محمد.. نادى محمد على الفور على ثلاثة من الصبية الكبار، أحدهم عبدالله،

t.me/qurssan

أخذ يؤدى المهمة المحفوظة بخفة وإتقان وتوالى الضرب وتصاعد الصراخ وانتشر الرعب والخوف فى أرجاء الكتاب والصمت يحل تدريجيا ويشيع هدوء مظلم بطىء بانتهاء المذبحة الصباحية حيث تبدأ تلاوة القرآن وحفظه.

تعاقب الصبية يسمعون ما يحفظونه وتتعاقب عليهم العصا حينا والفرقلة حينا آخر حتى جاء دور محمد أبو الفضل فأخذ يتلو أجزاء من سورة البقرة كاملة غير منقوص منها حرف.. أو تشكيل والشيخ العجوز يتمتم هازا رأسه فى استحسان، فلما انتهى كانت بدرية قد ألجمها الخوف وهى تشاهد المذبحة الصباحية، تركت جوار حامد تاركة معه خوفها وأخذت مثل ثعلبة البرارى تتحرك من مكانها متشاغلة بإحضار أقلام البوص العريضة لتجلس بجوار محمد أبو الفضل. لكزته حتى تستريح فى جلستها فانزاح متأففا وهو يتوعدها بعقاب شديد لكن تفاحتها أفلتت منها عفوا.

رأى محمد أبو الفضل التفاحة المستديرة تتدحرج قريبًا من حجرها.. تركته يتأملها جيدا قبل أن تخفيها فى منديلها ثم جلست تسمع (جزء عم) وهو يلقنها ما تفقده من مخارج الآيات وأولها.

قام الشيخ فى الضحى خارجا. فظهر وجه عبدالمحسن على الفور يتوعد الأخوين ووقف محمد أبو الفضل عريفا على الصبية لايستطيع الخروج وكان قد تغاضى عن إيذاء بدرية وهو يرى أخيه يشدها كل لحظة من ذيلها يرجوها أن تعطيه ما منته به فسارع محمد متغلبا على تردده يطلب نصيبه من التفاح فدفعت له بربع التفاحة وهى تستدير إلى حامد غاضبة.

ـ منابك أخده محمد أخوك. قسمه أنت وهو.. إنى مليش دعوه.. واستدارت تعطى أخاها عبدالله ربعا آخر. قام حامد إلى أخيه باكيا واشتبكا فى عراك لم ينته إلا بدخول الشيخ أبو قنديل ثانية. أعطى محمد لأخيه قطعة صغيرة من منابه وأخذ أخوه يكتم بكاءه فى استسلام ومقايضة بين ضياع حقه فى التفاح وبين ما ينتظره إذا غضب عليه شيخ الكتاب.

انتصف النهار وحانت ساعة الرحيل. أطل حامد وخلفه محمد. لمحا عبدالمحسن متشاغلا عنهما فى خطف طعام كان يحمله بعض الصبية فانطلقا كالرماح. كانت

t.me/qurssan

بدريه تضحك وعبدالمحسن يتابع الأخوين بغل استدار إليها وعلى وجهه رغبة الانتقام اقترب منها ببطء كى يتيح لها فرصة الهرب لكنها لم تتحرك من مكانها. كان وجهها يشع بالبشاشة والإشراق وعندما وقف كل منهما إزاء الآخر كان عبدالمحسن البالغ من العمر اثنا عشر عاما بقامته الطويلة وساقيه الرفيعتين ينحنى قليلا بكتفيه ينظر مكشر الوجه فى حدقتى الطفلة القصيرة التى تبلغ قامتها وسطه وعيناها ثابتتان لاتهتزان مبقية على ابتسامتها... مدت له لفافة طعامها تسلب منه كل غضبه.

- خد.. خد.. خد يا عبدالمحسن دانى أمى قالت لى خذى الحته دى لابن خالتك عبدالمحسن.

- طيب أنت كنت بتساعدى ولاد أبو الفضل عليه ليه..؟

ما أنت كنت هتموتهم... هى قوة وعافيه ولا همه فى قوتك.

قذف بالطعام فى فمه وأبقى على غنيمته يتناولها على مهل.. وهز رأسه محذرا:

- أنت ملكيش دعوه خليكى بعيد.

- يا خوى أنت حر أنت وهمه. إياك تموتوا بعض... لكن اسمع إياك تقرب منى ولا من عبدالله أخويه آه... فهمت ولا.لا...

كان قد ابتعد فلم يسمعها وان استطاع أن يخمن من لهجتها. استدار لها وأشاح بيده فى ملل واستنكار وهو يردد.

- أنت زى أمك مين اللى يقدر عليكم.

* * *

- ١١ -

تراقصت أضواء القناديل الباهتة على بوابة القصر الحديدية الضخمة. وعلى طول الطريق المواجهة لمدخل القصر أضيئت المشاعل حتى بوابة الدرب الكبيرة. وعلى الدور الطينية انعكست ظلال الأشجار كأشباح من العالم الآخر.

تعدد الوافدون فجاءوا على بغالهم وخيولهم فرادى وجماعات بتقدمهم الخدم والسائسون.

t.me/qurssan

ومن بعيد أطل ركب عظيم الهيئة يسبقه عبدان يحمل كل منهما مشعلا وسوطا يفسحان الطريق لعربة السنجق ويعلنان عن قدومه.. وعلى مقعد العربة الأمامى جلس فتى أشقر الوجه وسيم الملامح . يمسك بمقود الجياد وخلفه عشرة من أمراء المصرلية على جيادهم من بينهم عابد أغا أغات مستحفظان المديرية ومحمد أغا الورقلى كتخدا السنجق وسليمان البواب والى المدينة. هرول الجميع إلى أسفل أمام المدخل الأمامى للقصر وتقدم كل منهم منحنيا لتقبيل يد الرجل الكثه.

ـ تفضلوا على الرحب والسعة.

من الذى سيشجى أسماعنا الليلة شيخ سنهورى.

ـ روضة فيحاء ودوحة غناء.

ـ هذا لايعنى شىء شيخ سنهورى. ولكن ليكن الطعام قبل الغناء.. وشبع المعدة قبل الطرب.. ها ها ها. ضحك الجميع وهم يسلكون طريقهم إلى داخل القصر خلف إيداكش والسنهورى. فى حين فك سائس عربة الأغاء وأحد عبيده عريش العربة عن جواديها وأرشده العبد إلى الحظيرة الخلفية التى جمع فيها ركائب الضيوف وغلمانهم وقدم له أفصل الأماكن وعلى مدود كبير ملىء بالتبن والدريس ربط الفتى إيليا بتروفيتش الجوادين فى أحد الأوتاد القوية ثم خرج من الحظيرة إلى ساحة كبيرة تجمع فيها العبيد والغلمان الذين صاحبوا أسيادهم حول راكية النار المشتعلة.. يمضون الوقت فى لعب النرد وتدخين التمباك وشرب القهوة التركية.

كانت بدرية ترفل فى ثوب من الحرير الهندى يتكون من ثلاث قطع وردية اللون. سروال وقميص وعباءة طرزت بالرسوم الزخرفية القشيبة بالقصب.

وعلى رأسها وضعت عمامة كبيرة سربلت بوشاح طويل يتدلى إلى أسفل... تسللت بدريه سعيدة بردائها الجديد إلى مخدع صديقتها دنيا آذاد التى اشتراها السنهورى من أسواق البسفور. وأخذت تجوس فيه بحرية وألفة. استقبلتها الجارية فرحة وضمتها إلى صدرها وهى ترفعها إلى أعلى..

ـ كيف دخلت أيتها الشيطانة..

t.me/qurssan

ضحكت بدرية جذلة.

- أيعجبك ثوبك؟ جميل هو الآن..

هزت بدريه رأسها موافقة.

- من سنقوم على تزيينه أولا أنا أم أنت.

دارت دنيا آذاد دورة واسعة فى الحجرة وهى تفكر.. تنبهت على بدرية وهى تعبث بأدوات زينتها .. صرخت. ماذا تفعلين ..؟ حملتها بكلتا يديها من تحت أبطها وأجلستها إلى حشية على فراشها دفعت لها بقطع من الحلوى.. دارت بعينيها تتابع دنيا آذاد تدور فى الغرفة وتنتقى ملابسها من سحارة خشبية كبيرة وتنصت لحديث الجارية وهى تنضو عنها ملابسها.

- من ضيوفنا الليلة... سنجق دار الديار وحامى حمى الأمصار... المجنون الذى أصيب هو وامرأته الأميرة شريفة بخبل من الله وأركبهما أسوأ شياطينه إبليس اللعين... وسليمان البواب والى المدينة ولص اللصوص... حامى التيوس وأرازل القوم.. مماليك نصابين وعجائز يبغون سلوى لتعاستهم ومتعة لأيامهم القصيرة الباقية.. سوف نقرأ لهم آيات قرآنية قبل الغناء.

- حتغنى إيه.

- ماذا سأغنى. صاحت دنيا آذاد إعجابا.. سرحت بخاطرها وهاج فؤادها فأنشدت:

آحن إلى أرض الحجاز وحاجتى	خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بنافع	أجل لا ولكنى على ذاك أنظر
متى يستريح القلب فاما محاذرا	حزين واما نازح يتذكر
حنينا إلى أرض بها أخضر ميسمى	وحلت بها عنى عقود التمائم
والطف قوم بالفتى أهل أرضه	وادعاهم للمرء حق التقادم

- متى ستشاركيننى الغناء والعزف على العود

- إنى بقدر أغنى.

ضحكت الجارية وقالت.

t.me/qurssan

غنى لنا إذًا .. هيا وهات الراح يا فرحانه بدر البدور هتغنى للشاطر حسن.

تصاعد صوت حاد رفيع تشويه رخامة.

يـا عـتـبـة الـعـز جـار لـنـا جـارك وأنـا الـلى حـبى فى غـيـتى جـارك
أمـانـة يـا دنـيـا لاتـتـركـى جـارك ولا أن تـمـيلى عليه دى الشمس مقدارك

صاحت بها مشجعة. جذبتها وغمست ريشة فى مكحلتها الخزفية تكحل عينى بدرية. وتعطر وجهها وكفيها وعنقها بالمسك وروائح الياسمين فامتلا المكان بالعطر الطيب الجميل... وعادت الطفلة تتابع الجارية الكردية وهى تتنقل فى أرجاء الغرفة عارية... برقت عينا بدرية وسكنت تماما وهى تحدق بالجسد العارى تشم عبقه تطبع أسراره فى ذهنها بسرعة.. بينما كانت دنيا آذاد تنظر عريها فى المرآة تقيس خصرها الخيزرانى أمسكت فى المرآة بالطفلة تحدق بحب استطلاع شغوف فى ظهرها... ابتسمت الجارية بغنج وقالت دون أن تلتفت إلى الخلف.

- ألا تغضى الطرف عنا يا قليلة الحياء.

رفعت الطفلة وجهها إليها دونما إجابة ثم عادت تستطلع الجسد العارى ودنيا آذاد ترتدى حلة السهر والغناء.

* * *

لم ينتظر عبدالمحسن أمه حتى تأخذ من خالته صديقة عشاءه.. كانتا منهمكتين وسط ثلاث من نساء الفلاحين وأمة سوداء تساعدهن أربع فتيات جلسن أمام الكوانين يغذين نارها تحت القدور بالحطب، ورجلان أحدهما حطاب والآخر مساعد له يقومون جميعا بانهماك شديد على إعداد الطعام للوليمة.. وبينهم نفشت صديقة ريشها كدجاجة غاضبة ولسانها السليط لايترك امرأة أو فتاة على حالها. وهى تشير إلى القصاب تحدد أجزاء العجل المذبوح الذى يجب تجهيز لحمه بطرائق مختلفة. نظر عبدالمحسن يمنة ويسرة مقتربا من قدر امتلأ عن آخره بقطع ضخمة من اللحم المسلوق. صاح بكلب ضخم أن يبتعد بعيدا عن القدور والخبز الطازج حتى ينبه خالته صديقة وأمه بأنه يحافظ على الطعام من الكلاب الضالة. فأشارت له صديقه وهى

t.me/qurssan

تعبر ساحة الدار إلى الخارج بأن يبقى يحرس القدور من القطط والكلاب... وبقدرة وبقوة تحمل شديدة مد يده إلى الحساء الذى يغلى وأخرج قطعة ضخمة من اللحم تزن نصف رطل واتبعها بقطعتين يتصاعد منهما البخار. التهبت يداه فسقطتا منه على الأرض. التقطهما بسرعة من التراب خبأهما فى ذيل جلبابه ومعهما رغيف من القمح الطازج. تسلل إلى الفناء الخلفى للقصر... نفض عنهما التراب ثم غسلهما بالماء وقذف بهما داخل الرغيف.

انتحى إيليا بتروفيتش سائس عربة مصطفى أغا إيداكش جانبا. كان الوحيد بين الغلمان الذى يرتدى نعلا فى قدميه فبدا منفردا بسرواله الجميل الفضفاض وقميصه الواسع المزركش الذى جمع عند الخصر بزنار مشغول يتدلى من جانبه خنجر صنع مقبضه من الخشب المحفور الجميل وعلى رأسه طربوش كطربوش الدلاه نظر إليه السائسون فى إكبار وحذر.. أشار إليه كبيرهم بلهجة أولاد البلد وأوسع له مكانا بينهم... لكن وجه إيليا كان جامدا... لوح إليه الرجل مجتهدا بالإشارة وهو يحدق فى وجه شديد البياض وعينين حادتى الغور يظللهما حاجب كثيف، وجه جميل تدلت على صفحة جبينه خصلة شقراء غزيرة إلا أن إيليا بدا وكأنه لايرى شيئا..

* * *

لمح إيليا بتروفيتش عبدالمحسن ينظر حوله فى ريبة ثم انعطف مختفيا فى مخزن الغلال المجاور وهو يخفى شيئًا فى جلبابه. خمن أن الفتى لص فاشراب برأسه ليطل عليه من خلال طاقة الجدار الذى يتصل بالجدار. رآه جالسا القرفصاء فى ركن قصى وقد أخرج غنيمته بين يديه وأخذ يقضمها ويلقيها إلى فمه وهو يتلوى من حرارتها وفكاه يعملان فى سرعة. نظر إيليا إلى حيث كان ينظر عبدالمحسن دونما مبالاه فوجد خمسة من الرجال قد جلسوا القرفصاء فى دائرة وقد ران عليهم الصمت والتجهم، كاد أن يتراجع لولا أن شيئا هزه بشدة وأثار انتباهه فاشراب بعنقه وقد تخلى عنه هدوءه وعيناه تخترقان الضوء تحدقان فى الصلبان التى تدلت من أعناقهم... شعروا بوجود من يراقبهم والتقت عيونهم وكان وجهه قد أشرق بسعادة ربانية فلم يلمح التوتر البغيض الذى بهم ... نزل وقد عزم على أن يتعرف عليهم وهو يهتف فى نفسه.. يايسوع ثبت إيمان عبدك المخلص إيليا ونجه من ذلات نفسه. يا يسوع أهنا وبهذا الأرض النجسة

t.me/qurssan

حلت حكمتك.. يا مخلصا حقا لقد أعطيت حكمتك لكل الأمم والشعوب. دلف إيليا إلى مخزن الغلال وأخذ يقترب منهم حتى وقف قبالتهم... ابتسم كالأبله فوجد كلا منهم وقد نكس رأسه محاولا تجنب المساخر التى سوف يحلها عليهم هذا المملوك الغر. تمتم المعلم جرجس صاحب مدبغة الجلود الوحيدة بالمدينة لأقرانه قبل أن يبلغهم الملوك.

- إحنا الحيطة الواطية.. يا يسوع يامخلص.. يا حامل إكليل الشوك.. كل من هب ودب حتى الغلمان صار يلعبوا بينا.. على أن الغضب بلغ به مداه عندما شاهد الفتى يشير بأصبعه إلى الصلبان ويهم بلمسها... صاح المعلم قسطندى راعى المسيحيين بالمدينة وهو ينهض بجثته الضخمة.

- أفندينا حضرة الباشا أمر بأن نعلق الصليب فى رقبة كل واحد منا حضرة باش جاويش. وهز البقية رءوسهم وتمتموا علامة الموافقة.

لم يفهم إيليا ما يقوله الرجل وتقدم خطوة أخرى ومد يده يحاول أن يمسك بصليب المعلم جرجس يريد أن يرفعه عن عنقه فتشبث به التاجر النصرانى بيدين معروقتين كمن يتشبث بالحياة ولولا أن ابتسامة بلهاء كانت تطل من وجه الفتى لتطور الأمر إلى مالا يعرفه أحد بين مملوك الأغا كاشف المديرية وأعيان النصارى الذين قدموا باتفاق مع السنهورى كى يسمح ويمهد لهم بمقابلة السنجق كى يحدثوه فى الفرمان الذى أصدره الباشا. بأنه على كل نصرانى أن يبيع كل جارية أسلمت ، وكل عبدمسلم ويعطوه أثمانهم. خشى المعلم قسطندى تهور الفتى وفكر الرجل الذى بلغ الخامسة والخمسين . صاحب الجثة الضخمة والرأس الأسمر الغليظ حاضر البديهة والبناء الماهر فى حرفته والذى يرسل فى طلبه الأمراء والأعيان من أقاصى الصعيد لبحرى البلاد والذى يعتمد عليه السنجق اعتمادا كاملا فى ضبط المناسيب للترع وتطهيرها وعمل سد أو تدعيم جسر، أنه إذا كان الفتى يريد أن يتلهى به فليتمسك بالأناه..

وفى اتقاء الآذى حكمة مكنت الشعب المسيحى من أن يصمد فى الأوقات العصيبة. ولأن الحياة لاتقول محمد مسلم وقسطندى مسيحى ولكنها تقول قسطندى معلم ماهر أو معلم فاشل وعدا ذلك فهدوء النفس أفضل سلاح فى مواجهة المظالم، ولذلك ثبت عينيه الواسعتين العميقتين فى عينى الفتى بتأديب ثم تجرأ ووضع يده على كتفه وبهدوء وبطء وبصوت منخفض لم يسمعه أحد حدث الفتى وهو ينوى أن يعطيه صليبه.

t.me/qurssan

حسن باشا سلطانيم .. صدر أعظم ... خليفة عثمانلى، وأشار إليه بعينيه، خليفة مسلم من شأن مسلمين.

قال كل نصرانى لازم يلبس زنط وزنار ويعلق فى رقبته صليب.. إحنا مش ممكن نخلع صلبان حضرة أفندى باش جاويش معظم... تراجع إيليا إلى الخلف باهت اللون يائسا وقد عشش فى عينيه الذعر والدهشة .. ارتد إلى الوراء لمسافة كبيرة واغرورقت عيناه بالدموع وهو يستدير عائدا ناحية باب المتبن وهم يتابعونه فى استغراب شديد وقبل أن يغادر الباب استدار ناحيتهم فجأة ورسم على صدره علامة الصلب. تجاوب الرجال الخمسة معه على الفور وسارع كل منهم يرسم علامة الصليب بذهول.. ردد المعلم قسطندى فاغرا فاه .. وإيليا ينسحب على الفور محدقا فى الباب الخالى.

- باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين.. والرجال يهتفون..

- يا يسوع يا مريم يا بتول..

وفى صباح اليوم التالى شاع بين المسيحيين خبر المعجزة التى وقعت بين رجل الرب المبارك قسطندى بن منكاريوس حينما حاول أحد المماليك أن يتعرض للمعلم جرجس الذى لم ينجب صبيانا قط ولم يترك للدنيا إلا بنات ثلاث هن تريزا ومريم وماتيلدا. ولكن المعلم قسطندى أمسكه بيدى الرب متلطفا وراح يهمس فى أذنه كلمة الرب وتراتيله فهدأ المملوك على الفور وسقط منه سيفه ثم ركع أمام المعلم قسطندى الذى قال له.

- اركع يا إنسان أمام الرب سيدك ولاتركع أمام الإنسان الذى هو مثلك ثم رسم عليه علامة الصليب. أما الأمهات العجائز من أبناء الشعب المسيحى فقد حكين لأطفالهن وهم يؤون إلى فراش النوم ليلا أن عددا من المسيحيين المباركين كانوا قد خرجوا باسم الشعب لمقابلة السنجقدار كى يحسن معاملتهم . لكن سليمان البواب والى المدينة الكافر الزنيم واللص قاتل الأطفال رفع سيفه وهو يرغى ويزبد.. وعندما حاول أن يهبط به على السيدة مارى زوجة المعلم جرجس انتفض المعلم قسطندى ورفع صليبه المبارك المرفوع بيد الرب فى وجه الباغى وهو يردد ويقول:

t.me/qurssan

ـ الرب يحمى أبناءه.. الرب يجيىء بهم.. الرب يأخذ وديعته.. ليس أنت يا كافر يا روح إبليس. وعندما قال ـ يا يسوع يا مخلص، ورسم باتجاهه إشارة الصليب شلت يدا سليمان البواب وسقط سيفه من يده فارتمى يقبل قدم المعلم قسطندى حتى يفك قيده.. فرسم عليه علامة الصليب فتحركت يداه ثانية وخرج مقهورا ذليلا.. وفى القرى والنجوع البعيدة وبعد أن انتهى سوق السبت بمدينة منوف كان العجائز والقساوسة والشمامسة يتحدثون بين الشعب عن المعجزة التى حدثت فى منوف عندما كانت جماعة تقية ورعة من أبناء الشعب المسيحى تسير فى موكب عيد حد السعف يتقدمهم الأب قسطندى مطران الأبرشية وخلفه سار الأطفال والنساء والشيوخ والعجائز فى ملابسهم الجميلة حاملين السعف وأغصان النخيل. خرج عليهم جمع كثيف من معسكر السلطان وفرقة من فرسان الدلاتيه وجمع من العربان شاهرين سيوفهم ورماحهم تاركين العنان لخيولهم يريدون سبى الشعب وأسره، فإما أن يتركوا دين الرب يسوع، وإما أن يحل بهم العقاب، فمن قوى إيمانهم يأخذونهم إلى النيل فيغرقونهم أو يضعونهم فى مراكب تأخذهم إلى البحار البعيدة ليباعوا عبيدا فى أسواق النخاسة إلا أن الأب المبارك المبجل المطران قسطندى رفع بيده اليمنى الصليب وبيده اليسرى الكتاب المقدس وراح يهزه فى وجه الكفار فحدث أن ثار غبار كثيف وهبت رياح عاتية أثارتها خيول القديس مارى جرجس الذى وقف على السحاب يشاهد الغبار وهو يصنع حائلا بين أبناء الشعب المسكين وجنود السلطان، حتى عبروا طريقهم إلى البر سالمين. وهذه عظة الرب للذى ضعف إيمانه وأغلق قلبه.

* * *

ـ ١٢ ـ

على الباب الداخلى للردهة الكبيرة وقف الحاج عبدالرحمن أبو الفضل فى ثوبه الداخلى مشمرا أكمامه يشرف على إدخال صوانى الطعام.. حمل بنفسه صينية يتوسطها غزال صغير مشوى جىء به خصيصا للشيخ السنهورى من لدى عربان الهوارية وقد أحيط بالطيور وأزواج الحمام المشوى وتناثرت ديوك الرومى وذبائح البط والأوز حتى لايسأل السنجق عن شىء فلا يجده.

t.me/qurssan

بيسملوا وحوقلوا على بركة الله فما هى إلا الساعة حتى انتهوا جميعا من الطعام.. عدا إيداكش الذى كان لايزال حائرا بأى الأنواع يختتم طعامه بالحمام أم بالرومى أم بفخذة الضان أم بالكبدة. مال السيد البقلى على السنهورى هامسا.

- حقى بين أيديك يا سيدنا إن لم تأخذه لى وفى هذه الساعة فلن آخذه قط. غام وجه السنهورى متجاهلا ما يحدث . نظر إيداكش من طرف عينيه والطعام ملء فمه ، وقال:

- ايش تريد بقلى أفندى.

اندفع البقلى ساقطا على قدم الأغا يمسكها بكلتا يديه ويقبلها.

قال السنهورى متنحنحًا:

- إذا بيتفضل سنجق دار.. بقلى أفندى يريد موافقة حضرتكم على صحة ونفاذ وصايته على عقد تركة أخيه وأولاده البنات.

نظر السنجق شذرًا وقال بحذر.

- مين أوصاه على تركات شيخ سنهورى.

- أخوه الفقيد حضرة سنجق درباش. وتابع البقلى باكيا:

- بشهادة سيدنا شيخ سنهورى وشهادة الشيخ أحمد الهوارى وحسن أفندى الخلواقى.

- هل كنتم موجودين شيخ سنهورى.

- نعم حضرتكم.

زام السنجق:

- هم.. هم.. حلوان الدفترايه حسن بقلى ومال الأميريه.

- أوامر حضرتكم نافذه... كل شىء تطلبوه حضرة أغا... كل شىء .

- كل شىء نصاب حسن بقلى... اخضر وجه الرجل واصفر وقال على الفور:

t.me/qurssan

ـ أنا حد الله حضرتكم دى مال يتامى... وأنا وصى عليه أمام الله.. إذا هربت من العبد فين أروح من ربنا.

ـ ها.. ها.. ها .

ضحك الأغا ثم قال مزمجرا:

ـ مال اليتامى تسرقوه وتأكلوه والع حسن بقلى.

قال السنهورى:

ـ إحنا نأخذ عشر التركة معلوم السلطنة. وعشر آخر معلوم الحلوان وعشر ثالث معلوم مشهد أولياء الله... أما الباقى ويصير سبعة أعشار التركة فيكون حسن بقلى أفندى أمينا عليها ووصيا وحسابه بينه وبين الله سبحانه وتعالى.

صاح السنجق:

ـ لا. لا. شيخ سنهورى إحنا مش نوافق على سرقات يتامى حرمات مبتين. إحنا نخاف وجه الله سنهورى. تلوى البقلى على الأرض مثل ثعبان وأخذ يقبل نعل الأغا ووجهه بنقبض من الخوف والرجاء وهو يصرخ قائلا:

ـ رحمة حضرتكم... الله وكيلى وأنتم شاهدون على أفعالنا... إذا أخذنا شيئا ضاعت رقبتنا وحكمكم وقضاؤكم نافذ مقبول أغا.

تقلص وجه السنهورى وتعالت ضحكات الأغا وجسده الضخم يهتز طربا وسرورا.

ـ العوبان. ولد حسن بقلى.. اعمل حركات وشقلبظات وبهلوانات.. ابكى حمار كبير ودموع تمساحات... قوم.. ابعد أحسن تنجس حذاء بتاع حضرتنا.

استدار إلى السنهورى يسأله.

ـ أيش رأى حضرتكم مولانا شيخ سنهورى . هز السنهورى رأسه مضيقا عينيه:

ـ حضرة أفندينا.. لن يمر وقت طويل حتى يأتى حسن باشا القبودان ويأمر باسم المعين على تركة أولاد مرحوم. وحسن بقلى صديق لكم ليش ما يصير أمين على هذه التركة بدلا من وصى غريب لانعرفه ولا أحد يعرفه.

هز إيداكش رأسه موافقا وهو يردد:

t.me/qurssan

- أحسنتم حضرة شيخ سنهورى.. أحسنتم. حمار هذا يأخذ تركات منهم. فين أوراق... فين أوراق يا خنزير... سارع البقلى بإخراج رقعة أوراق كبيرة وهو فى أشد حالات الارتباك وانشق المكان عن دواة وقلم وإيداكش يوقع وهو يصيح:

- ولد حسين أين العرق أين الشراب... ووجه البقلى يبتسم ويتسع ويمتلأ بالدم الأحمر القانى وقلبه يدعو أن لايموت السنجق دار قبل أن يوقع الأوراق.

التفت الأغا إليه وهو يصرخ به:

- أنغصتم على أكلات ولد خرسيس جبانات صب لى ولد حسين خمر من عند جنات سبحان رب السماوات. صب له إيليا كأسا من العرق فدفعه إلى جوفه دفعة واحدة.. بلع ريقه ثم صاح بأعلى صوته.

- فين الطرب فين الأغنيات.. هاتوا الموسيقى والجوارى. الراقصات.

مال عليه السنهورى هامسا.

- بقى طلب أخير حضرة أفندم.

نظر إليه الأغا منقبض الوجه فاستطرد السنهورى.

- ننتهى منه حتى لانكدر صفو مزاج حضرتكم .. تنهد الأغا وقال معربا عن سعة صدره.

- إيش تريدون صديقنا العزيز شيخ سنهورى.

- تستقبلون وفدا للنصارى جاء لتقبيل أيادى حضرتكم العليه.

صرخ إيداكش كأنما ركبته عفاريت العالم السفلى.

- لعنة الله عليكم شيخ سنهورى.. أنتم زنيم كافر.. شيخ زنديق.. أهذا وقت الطرب أم وقت شغلات فارغات.

ابتسم السنهورى وغمز خفية إلى عبدالرحمن أبو الفضل الذى خرج للحظة وعاد وقد اندفع من خلفه المعلم قسطندى والمعلم جرجس وبقية الرجال وعلى وجوههم خوف ورهبة. اسرعوا ينزوون بجانب الباب. وقف قسطندى لبرهة ينظر فى وجوه الحاضرين

t.me/qurssan

حتى عثر على مكان السنجق بالجهة البحرية للرواق فجرى رافعا يديه وجسده الضخم يهتز وهو يصرخ وعلى وجهه رسم فزع امرأة سرقت عفتها.

ـ العدل أفندينا العدل.. الرحمة سيدنا.. الرحمة بالرعية يا سيد ملوك العرب والعجم وأهالى البلقان والأتراك وأهالى الروم والتركمان.

لم يستطع السنجق أن يستمر على غضبه واستدار ناحية قسطندى مستسلما غير قادر على أن يخفى رغبته فى الضحك... وعندما عاد بوجهه ناحية المعلم قسطندى كان يضحك وهو يشير إليه بيده أن يقف مكانه فلم يقف. فعاود ضحكه ثانية. وانطلق يقهقه بضحكات مدوية.. وهو يغمغم لقسطندى أن يبتعد.. لكن قسطندى اندفع فى عزم وإصرار وهو يقول.

ـ اقبل يد حضرتكم لازم أقبل يد حضرتكم... أمسك بها والسنجق يسحبها غاضبا.

ـ أنت كافر ولد قسطندى تلمسون يدى:

ـ أنا أقبل حضرتكم .. واستدار يقبل كتفه.

ـ هذا نجاسة وهذه نجاسة ... راجل مجنون عظمه زرقاء.. مش معقول بكاش كبير.. كذاب كبير.. حمار كبير.. ابعد أحسن نجستمونى.

ـ أبدًا ورب العرب وحياة النبى محمد والمسيح والقرآن والإنجيل أنا لأسلم من بكره والله يا مولانا أنى مسلم من زمان حتى اسأل شيخ سنهورى.. كده واللا لأ يا مولانا ؟

ابتسم السنهورى مبقيا على صمته. فاندفع المعلم قسطندى قائلا ـ آهو قالك.

ـ إنى والله مابقيت على دينى إلا علشان الغلابه الصغيرين دول... دول عايزين رحمتكم وعطفكم يا شيخ الإسلام وخليفة المسلمين... فانطلق السنجق يضحك ثانية حتى كاد أن يختنق والألقاب التى يسبغها عليه المعلم النصرانى تطربه وتطربه وهو يقرر أن هذا المعلم إما جاهل أحمق أو شيطان زنيم... وفى كلتا الحالتين فهو مكار داهيه وثعلب عجوز.. قال السنجق.

ـ إنت ولد قسطندى.. أنتم بالذات إذا دخلتم دين المسلمين أنا آخرج من دين الإسلام. أنتم تدخل إسلام أنا أخرج.

t.me/qurssan

ضحك الجميع. ولاح فى وجه إيليا راحة يغالبها الابتسام وهو يتخفف من عذابات ضميره. وهو يرى ما يدور أمامه بين الشماس والأغا... وعندما مال المعلم قسطندى على إيليا وهو لايخفى غمزته له طالبا منه أن يصب له كأسا.. رفض إيليا منزعجا.. فنظر قسطندى إلى الأغا غاضبا وصاح:

- قول للخرسيس هذا يصب لى كأسا حضرة أفندم.. قال إيداكش وهو غير قادر على التوقف عن الضحك.

- صب له ولد حسين صب.. خسارة فيه لكن معلهش قسطندى صديق عزيز علينا.

تشمم قسطندى الكأس وهو يرسم على وجهه استمتاعا ولذة عارمة وقال:

- ورحمة أبى والمسيح الحى أنا لم أتذوق ولم أشرب فى حياتى عرقا زى ده.. عرق ملوكى لاتشربه حتى القيصره كاترين التى تعيش فى بلاد الموسكوب.

صرخ السنجق: فشار كذاب كبير قسطندى أنت تروح النار حدف.

أجاب قسطندى بلا مبالاه غامزا بعينيه بأن السنجق يشرب خمرا.

- وماله. أدى إحنا نروح سوا. هو فيه أحسن من الصحبة الجميلة دى.

فضج الجميع بالضحك حتى كادوا أن يستلقوا على ظهورهم.

صرخ الأغا متوعدا:

- أقسم بالله العظيم. أقسم بالله العظيم ثلاثا نهد حارة النصارى فوق رءوسهم أن ما سكت يا ولد.

أجاب قسطندى بوجهه الضخم الذى يشبه ذكر الضفدع مطمئنا وبلا مبالاة تذكر وهو يطرق قدمه بكفه.

- ها. ها. هدها والله تهدها.. أهو تستريحوا منا وأنا أستريح منهم. وهم يستريحوا منا. الكل يستريح.. أنتم تدخلون الجنة وتأخذون ثوابًا كبيرًا فيهم. وإحنا ندخل الجنه اللى جنبكم فى طبقة شهداء الكنيسة.

. هذا مجنون هذا مجنون والله... قوم من هنا يا حمار يا كافر.. هبط المعلم قسطندى برأسه إلى الأرض مبتسمًا فاغرا شدقيه وهو يهمس صوتًا لا يسمعه أحد سوى إيداكش والسنهورى.

t.me/qurssan

والله العظيم أنت صادق إنى مجنون.. دا حتى مراتى بتقول زى جناب حضرتكم.. كل ما أقول لها يا تريزا قومى نسوى الشغلة تستغفر وتجرى تقعد قدام العذرا.. يوم ورا يوم.. اتجننت .. والله هو دى يقى يصح.. يكونش فيه حد كده ولا كده.. أنا دماغى ولع فيها النار.. يوم الأحد وعظت الشعب ورحت جايب قدح ذره ومليته عرق ورحت خالطه مع نبيذ الكنيسة وقعدت أشرب وأشرب وأشرب لحد دماغى انسطلت وزغللت عينه رحت قايم لها.

- العيال ناموا يا تريزه.

- ناموا يا مقدس.

- الأكل جاهز يا تريزا.

- جاهز يا مقدس.

طيب يالا تعالى يا تريزا.

- هه.. وراحت جاريه وقعد تحت العذرا.. انغظت رحت ماسكها من شعرها وجاررها.. أيوه أنت فاكره ربنا بيسوى شغل من ده يا تريزا.. تعالى يا مره.. ورحت بارك عليها وهى قاعده تصرخ.

- يا موسى ياعذرا.. ياليشع يا مارى جرجس تعالولى جاى وأنا أصرخ وأرد عليها جايلك يا طاهرة جايلك. أنخرط الثلاثة فى ضحك متواصل والسنجق رافعا يده مستسلما وهو يقول متحشرجا:

- قسطندى قولى أنت عايز إيه ولد.. تريد أموت من الضحك.. عايز إيه. خلصنى.

- اتركوا لنا الذى نملكه يا سنجق.

- تدفعون خمسة آلاف ريال.

- كثير أفندم.

- جوارى عبيد بثمن التراب.

- ألف ريال يا أفندم.

t.me/qurssan

- خمسة آلاف ريال قسطندى.

- ألف ريال والله العظيم ورب محمد وعيسى ما نملك غيرهم أفندم.

- تبيع جوارى وعبيد نصرانى كافر.

- ونبيع العيال ونسوانهم.

تدخل السنهورى.

- حضرة أفندم يدفعوا ألف ونصف ألف ريال. ويطلقوا المسلمين منهم.

- موافق من شآن خاطركم سنهورى.

- ألف ريال أفندم. ونطلق المسلمين منهم أفندم.

- خلاص قسطندى خلاص . كيف ما قال شيخ سنهورى.

- حاضر أفندم.. ربنا يدخلكم جنات عدن أفندم.

قام المعلم قسطندى وهو يحيى الأغا بكلتا يديه متراجعا بظهره مستطردا.. ربنا يكرمكم خليفة.. مال يقبل يده. فصاح به.

- ابتعد ولد نجس.. هيا سنهورى اسمعونا اطربونا.

وقسطندى يخرج وعلى وجهه صرامة عملية وكبرياء وثقة.. تحلق به أقرانه. دلفوا خارجين.

أجاب السنهورى:

- حالا حضرتكم . صفق بيديه ثلاث.

* * *

بدأت دنيا آذاذ فى تلاوة آيات من القرآن الكريم بصوتها الرخيم فصمت لها الحاضرون. فلما انتهت عاد الصياح ثم خفت ثانية عندما بدأت تلاعب بأصابعها الماهرة أوتار العود وبدرية تجلس القرفصاء تحت أقدامها.. سمع الحاضرون أغنيات تركية وموشحات أندلسية تملأ المكان ، فلما انتهت قامت الراقصات للرقص.. وانتشر الضجيج . وراحت بدرية فى نوم عميق.

t.me/qurssan

الفصل الثانى

- ١ -

ظهرت طلائع الجيش النمساوى المجرى على الأطراف الشمالية لسهوب نهر الدانوب الصربية الواقعة قرب الحدود الغربية تحت قبة من الضوء ترسلها الشمس الموشكة على الغروب.

وعلى هضبة شاسعة ممتدة تحت السهل الواقع غرب جبال الكربات الجنوبية.. حدق إيليا بتروفيتش مبهوتا فى خط الأفق.. وهو يملأ عينيه غير مصدق بالشارات والأعلام الزاهية الألوان: وكأنه يرى الرب ينزل من السماء فوقف مصعوقًا مصابًا بحالة من الذهول الشديد هتف يا يسوع.. أجل فهو بالذات العبد الصغير وراعى الأغنام الذى يعمل عند السيد فوك برانكوفيتش يشاهد حدثا جللا يقف له شعر رأس كل مسيحى مؤمن يمتلأ قلبه بنور الرب ولا يهتز إيمانه قط.

فما يحدث أمامه الآن هو ما ظل الأب نيقولا راعى كنيسة القرية الصغيرة يبشر به سرا عن اقتراب حرية الوطن وانقشاع عصور الاحتلال المظلمة فى الوقت الذى كان هو نفسه يمالئ الأتراك علنا. لمح مفرزة الاستطلاع الأولى تتقدم على مهل فارسا خلف فارس والخيول يحدوها الكسل وقد برقت ذؤابات الرماح تحت أشعة الشمس الغاربة. وفكر أن عليه واجبا ضروريًا. فلابد أن ينطلق الآن وبأقصى سرعة ليبلغ قومه والأب نيقولا بما شاهده حقيقة ويصعب عليه تصديقه.. هتف بكلبه أن يبدأ بالرحيل.. نبح نباحًا شديدًا فرفعت الأغنام رءوسها.. دفعها إيليا على عجل وانطلق مهرولا تجاه القرية.. ولولا خوفه من ضياع الوقت لتوقف عائدا إلى أعلى ليتأكد من أن ما رآه منذ برهة ليس محض خيال. الأمر الذى يغضب سيده فوك برانكوفيتش.. لذا وعندما دخل

t.me/qurssan

من بوابة القرية مع آخر ضوء لأشعة الشمس لم يخلع قبعته لشيخ القرية ولم ينحن له وهو الذى زار مكة مرتين وعاد حاملاً خيرات بلاد العرب.. أدخل إيليا الأغنام على عجل إلى حظيرة الدار الخلفية.. نادت عليه زوجة السيد النحيلة صارخة به أن يعود.

ـ ماذا حدث أيها الخنزير الصغير سوف تتعب العذراء قدميها حتى يتوقف جسدك الذى يعبث به الشيطان عن النوم.. فاستدار لها بوجه شاحب ورسم مسرعًا بأطراف أصابعه علامة الصليب على صدره وهو يهمس..

لينقذنا المسيح يا سيدتى.. لقد استجابت القديسة كاترين للأب نيقولا فأرسلت جنودها لنجدته واندفع مسرعا إلى خارج الدار.

هزت السيدة رأسها. وضربت كفا بكف ونظرها فى أثر أيليا.. صعدت والحنق يملؤها تشكوه لزوجها المستلقى على أريكته.

ـ قد جن هذا المعتوه. وأنت والقس نيقولا السبب، اعتدل الرجل معتل المزاج وصاح بها:

ـ ماذا جرى يا امرأة؟

ـ بقاء الفتى وحيداً فى الجبال يجعله يرى أشباحا وخيالات وسوف يقتله مرض القديسة كاترين هذا.. منذ ثلاثة أشهر وكل القرية قد حل بها هذا الجنون الذى بثه فيهم الأب نيقولا حتى أنه ما أن يأتى صباح حتي نسمع بدعة جديدة... القيصرة كاترين ظهرت للأب فى المنام تقول: اصبروا أن الله يمتحنكم.. العمة برانكور رأتها تهبط من السماء فى عيد القديس بطرس وهذا الشيلوك التعيس يحلف بأن السهل قد أضىء فجأة من ناحية تيموسور وقد هبط الصليب من السماء .. واليوم دفع الأغنام والماشية إلى الحظيرة دون أن يسقيها وهو يرسم علامة الصليب على صدره بوجهه الشاحب وكأن الشيطان يطارد روحه التعسة.. وعندما زجرته تركنى وهو يقول إن القديسة كاترين أرسلت ملائكة فى زى جنود. قال السيد فوك الذى وثق صلاته بأعيان الأتراك ومشايخهم جيدا فى اطمئنان:

ـ سوف أحدث الأب نيقولا كى يزوجه من زوركا ابنة عمه فيستريح من أوهام وتهيؤات سن البلوغ ضربت ديبورا كفا بكف وهى تنفخ النار فى موقدهم الحجرى الجديد.

t.me/qurssan

ـ هل أصابك الخبل أنت الآخر كى يخدعك طوله وهو لم يتعد الحادية عشرة بعد.

ـ وما العجب فى أن نخطب له الفتاة هذا العام ونعقد عليه قرانها فى عيد القديس بطرس بالعام القادم؟ صرخت المرأة.

ـ وزوركا أنها لا تزال تتبول فى الطرقات.

ضحك الرجل ملء فمه وربت على كرشه وأخذ يمسح كفه الضخمة بصديريته المصنوعة من الحرير ويفتل شواربه.

ـ سوف تنضج كالنعجة الصغيرة فى بيت زوجها.. ثم ما يهم أيتها البلهاء .. عندما يتزوج إيليا لن يجد مكانا يعيش فيه سوى سقيفة العنب لأنه صار لديه كلبة تنتظره كل ليلة إذا عاد وفى يده قطعة خبز هزت له ذيلها طربا.. وإذا عاد فارغ اليدين عقرته بنابها الأزرق.. أليس هذا هو الزواج.. أما الآن فهو حر طليق.. إذا ذهب من يرعى أغنامنا؟ هه.. استطرد وهو يدوس على مخارج الألفاظ سعيداً بنفسه كفهيم.

ـ سوف أضطر لأن أجعلك أنت تخرجين بها.. انتفضت زوجته كدجاجة مذعورة، وقالت:

ـ أنا لما تبقى تيجى القيصرة نفسها فوك برانكوفيتش.. هه.. هزت رأسها لأعلى وقامت تصفق باب الدار من ورائها.

كل الذين جلسوا على أبواب بيوتهم الحجرية هزوا رءوسهم موقنين بأن أمرا جللا قد حدث وهم يرون إيليا يسير مهرولا لا ينظر يمنة ولا يسرة وقد حمل قبعته القديمة فى يده وهو يتمتم بحديث غير مفهوم باتجاه دار عثمان خجا متوليتش شيخ القرية الذى لا يبعد أمتارا قليلة عن دار القس نيقولا. على أن إيليا لم يتوقف عند باب شيخ القرية. بل سارع غير ملتفت إليهم إلى دار القس حيث طرق الباب بعجلة طرقا خفيفا وهو منكس الرأس.. أطلت عليه امرأة عجوز فسألها:

ـ الأب نيقولا موجود؟

قال وهى ترجو أن يعود الفتى من حيث أتى.

ـ أهناك شىء؟

t.me/qurssan

ـ أزيده لأمر مهم.

- هل مات أحد؟

ـ لا.

حسنا أنه فى فراشه... وانتظرت الخادمة أن يرحل لكن إيليا وقف فى عناد . تنهدت مستسلمة وهى تفتح الباب.. دلف صاعدا إلى الغرفة العلوية فوجد القس البالغ من العمر سبعين عاما جالسا وحوله أربعة من الشيوخ.. نظر إلى الخادمة ساخطا.. شعر إيليا باضطراب .. نكس رأسه وقال بصوت خافت.

ـ أريد أن أرى قداستكم على انفراد.. فقام الأب فى نشاط أبناء العشرين وهو يلقى النكات على من حوله.. أخذ الصبى إلى حجرته هتف به ساخطا.

ـ ماذا تريد وحق الآله.

قال الفتى وهو لا يصدق نفسه.

ـ لقد رأيت جنود القديسة.

ـ أى قديسة هذه.

تلعثم الصبى.. هذه القديسة التى تتحدث عنها أنت نيافة الأب .. القديسة كاترين.

ـ وهل رأيتنى أتحدث عن قديسة اسمها كاترين.

ـ لا. ولكن.. وأصابه الاضطراب. القرية كلها تتحدث عن الأمر.

ـ حسنا وما الأمر.

ـ رأيتها.

صرخ الأب.

ـ رأيتها وهى لا تغادر موسكوفا.

ـ لا أقصد رأيتها هى... رأيت جيشها.

اتسعت عينا القس وتحرك بؤبؤا عينيه المشتعل كالجذوة.. اقترب يسأله باهتمام.

t.me/qurssan

ـ ماذا رأيت؟

ـ هناك شمال السهل رأيت فرسانا يحملون أعلاما ملونة وشرائط

انحنى القس وهو يهمس باهتمام.... قل كل ما رأيت بالتفصيل.

أعاد إيليا عليه ما رآه وأضاف إليه أنه أرى صلبانا على الأعلام.

بهت القس ـ هل تحققت من الصلبان؟

ـ نعم.

ـ أواثق أنت؟

ـ إننى راع يا سيدى..

تعجب القس.

ـ وماذا يعنى أنك راع إن أكثر الناس خيالات وأوهاما هم الرعاة.

استاء إيليا وبدا أن كل ما رآه لم يكن حقيقة قط.. وأنه ورط نفسه.. فرك وحرك ثم قال بغضب حزين.

ـ أقصد أننى أستطيع أن أرى يا سيدى.

ـ هه.. رسم القس إشارة الصليب وهو يردد.

ـ فليرحمنا الله.. ليرحمنا الله.

دار حول نفسه عدة مرات يفكر بعمق وقد امتلأ وجهه باستغراق وتمعن حتى جاءه سؤال الصبى.

ـ سيدى ماذا أفعل؟

ـ ارحل ـ ارحل أنت وعد إلى سقيفتك.

شعر الفتى بالإحباط.. وأن الأب نيقولا لم يصدق ما قاله.. كان يتوقع أن يخرج القس على الفور إلى الكنيسة حيث يدعوا الشعب إلى حمل السلاح لطرد المحتلين.

يمم شطر الباب الخلفى للمطبخ خارجا لكن القس ناداه.

t.me/qurssan

- إيليا .. إيليا.. فعاد الفتى مسرعا وعلى وجهه دلائل الاهتمام والطاعة.

- إيليا هل أخبرت أحدًا بما رأيت.

أجاب الفتى فى اهتمام وصدق.

- لا . لا. يا سيدى قلت إنكم أول... قاطعه القس.

- اسمع إذًا سوف تذهب من فورك إلى داركم وتصعد السقيفة وتنام على الفور ولا تخبر أحدا بما رأيت ... قال إيليا بخيبة أمل.

- فهمت يا سيدى لن أخبر أحدًا.. لكنه تذكر أنه حدث ديبورا زوجة السيد فوك.. فكر أنه يجب أن يعود للقس لكن حماسه كان قد فتر.. قال لنفسه سوف أعترف له بكل شىء فى اعتراف الأحد القادم بالكنيسة.

* * *

عندما بلغ إيليا داره كانت أمه ستافوبكا تنتظره فى لهفة وعندما ظهر على أول الحارة تبدلت سحنتها تماما وانقشع الحزن واللهفة ليحل محلهما غضب مكتوم.

- ولد مثلك يستحق الجلد على أردافه عشرين جلده.

قرصته من ذراعه وهى تدفعه إلى الداخل.. خلع الفتى صدريته المصنوعة من فرو الماعز.. وبينما كانت تقدم له مسلوق الذرة والعصيدة فكرت أن ابنها الوحيد يأكل حتى أنه لم يبق على شىء لها.. رسمت إشارة الصليب وهى سعيدة تباركه... خرج إلى ساحة القرية وعندما عاد بعد مضى ساعتين إذا بها تخبره أن جنود القيصرة قد فتحوا إسطنبول.. فدهش أشد الاندهاش وتساءل فى نفسه هل فى استطاعة جنود القيصرة المباركة القديسة كاترين الذين رآهم.قبل غروب الشمس بساعة على أطراف قريتهم أن يعبروا بلجراد والبلقان ويدخلوا عاصمة المسلمين فى أقل من ثلث ليلة.. تذكر أنها قديسة والقديسات يصنعن المعجزات وعندما بلغ النبأ السيد فوك برانكوفيتش ركبه الهم مرة واحدة وأخذ يتقلب فى فراشه كالمحموم دون أن يستقر على قرار وكلما طال به الوقت زادت حيرته وفى آخر الأمر عزم على أن يخبر عثمان خجا متوليتش حتى يأمن بذلك سبيله لدى الجانبين فإذا جاءت القيصرة نفسها فمرحبا وعلى العين تحل.

t.me/qurssan

فهو مسيحى يذهب إلى الكنيسة كل أحد وهو أكثر أبناء الشعب إنفاقا عليها. وإذا بقى الأتراك فيكون قد أثبت لهم ولاءه وصداقته وضمن مودتهم وعطفهم.. وفى هدأة الليل دفع بجسده الضخم داخل معطف من جلد الماعز وسارع فى الظلام إلى بيت الخجا.

* * *

-٢-

لم يشرق الصباح حتى كان ما ظنه أهل القرية إشاعة قد تحقق وبانت شواهده فعلى الشمال الشرقى من القرية سمعت أصوات المدافع وتصاعد دخان شديد. ولم يأت المساء حتى ظهرت فلول الجيش التركى المتراجعة على الجسر الحجرى العتيق لنهر الدانوب وهم يصرخون بفظاظة وفى صباح اليوم التالى كان هناك ركب طويل من الأتراك الفارين على طول الطريق. كانت عينا القس نيقولا تستطيران فرحًا وهى تخفى الشماته حيدا عن عيون الأتراك خوفا من أن تدفعهم التصرفات غير المسئولة إلى التنكيل بهم وخاصة من أبناء جلدته الصربيين الذى تركوا دينهم طمعًا فى أغراض مادية فتحسنت معيشتهم ولم يعودوا يدفعون ضريبة الذمة ولا ضريبة الدم وصار فى استطاعتهم أن ينالوا نصيبا من التزام الأراضى وملكيتها وإدارتها لصالح السلطان فى حين كان المسيحيون يعملون فيها بالسخرة.. كل هذا كان قد أثار حنقه على مر السنين. والآن جاءت لحظة التشفى والانتقام وفى المساء تجمع المسيحيون يتقدمهم أعيانهم عند الآب نيقولا الذى أوقد شموعًا ضخمة من شحم الخنزير النقى تحت أيقونة العذراء حول الصليب ويسوع (قلت للمفتخرين لا تفتخروا و للأشرار لا ترفعوا قرنًا. لا ترفعوا إلى العلا فربكم لا تتكلموا بعنق متصلب لأنه لا من المشرق ولا من المغرب ولا من برية الجبال ولكن الله هو القاضى.. هذا يضعه وهذا يرفعه لأن فى يد الرب كأسًا وخمرها مختمرة ملآنة شرابًا ممزوجًا وهو يسكب منها لكن عكرها يمصه يشربه كل أشرار الأرض.

اتقدت عينا إيليا وخيم عليه خشوع ورهبة عميقان يتمنى لو أن روحه تقضى فداء لعذابات يسوع وعذابات إخوانه من المسيحيين.

مرت سبعة أيام والتوتر مسيطر على أهل القرية المسيحيين منهم والمسلمين إلا أنه كان توترًا أجاد الطرفان إخفاءه فى الظلام وخلف الأبواب المغلقة وموائد العشاء وحول

t.me/qurssan

مواقد النيران كان كل منهم يتناول الأحاديث المسموعة بالقلق لما قد يأتى به المستقبل المجهول. وما لبثت أن تسارعت الأحداث عندما بدأ أثرياء الأتراك المسلمين يجمعون أغراضهم الثمينة ويحملون خيولهم وعرباتهم استعدادا للرحيل.. أما فقراء المسلمين فلم يكن هناك ما يكسبونه أو يخسرونه ببقائهم.. بل إن الرحيل سيلقى بهم إلى دائرة غامضة مجهولة. ولقد حدث فى اليوم العاشر ومع توارد الأنباء بانسحاب الجيش التركى صفقات بيع هائلة بين أتراك عزموا على الرحيل وبين مسيحيين ومسلمين قرروا البقاء. وقد بدا للجميع الآن أن دخول القوات النمساوية المجرية صار أمرا وشيك الوقوع. وتحول الدعاء للإمبراطور جوزيف الثانى إمبراطور النمسا دون أن يخل هذا بقداسة القيصرة وخاصة أنها أرثوذكسية مثل أهالى الصرب وليست كاثوليكية مثل الإمبراطور النمسوى. ومع طلوع كل صباح كان الجميع يتبادلون التحايا ومعاملات البيع والشراء والأحاديث القديمة. وعندما صار القصف قريبا جدًا وتوقف الرعاة عن الخروج قرر عثمان خجا متوليتش أن يحزم أمره. وبعد منتصف الليل عبر طرقات القرية ملتحفا بعباءة سوداء تخفى وجهه. سمع برانكوفيتش طرقًا خفيفًا على الباب، فسارع فى هبوط السلم بمنامته حاملا مصباحه ومن خلفه زوجته. عندما فتح الباب كان شيخ القرية نفسه بشحمه ولحمه يقف أمامه. أصيب برانكوفيتش بالدهشة. شعر أن هناك ورطة كبيرة سيوقعه ماضيه فيها. ماذا لو طلب منه الخجا تأييدا علنيا وصريحا للأتراك أو هجوما وسبا علانية للجيش الذى يقف على مبعدة أميال من القرية.. يا ربى.. رسم علامة الصليب على صدره وقد شحب لونه مفكرًا فى الأعذار التى يجب أن يسوقها ويحكيها وأغلظ الإيمان التى سوف يحلف بها..

دخل والرجل إلى البهو وأوقد النور، لكن الخجا طلب منه أن يجعل الضوء خافتا حتى لا يلحظ وجوده أحد.. وهذا بالذات ما أوقع قلب برانكوفيتش فى قدميه.. فربما يطلب منه أن يكون عينا للأتراك على الغزاة وبنى قومه.. ارحمينا أيتها العذراء البتول.

- فوك برانكوفيتش من منا يعلم ما تخبئه له الأيام.. هز رأسه لا أحد .. وإلا لما وضع الفأر جرسا فى عنق القط. ولما صنع الأرنب البرى لجحره تسعة مداخل.. ولا أخطأ الغراب فحجل. ويا أخى فلن أذكرك بالماضى فقد كنت لنا نعم الأخ ونعم الصديق .. وإن لى لديك خدمة.. ليس لى سواك ملجأ أمين فهل تقضيها لى؟

t.me/qurssan

ردد براكوفيتش لنفسه.. الملعون ينسل كالثعبان. ثم قال وعلى وجهه صدق شديد.

ـ نعم يا أخى عثمان.. نعم.. لو طلبت رقبتى الآن فى التو واللحظة لقدمتها لك.. فالصديق للصديق وقت المكازه...

ـ أنوى الرحيل.. وأنت تعلم أن شقاء عمرى.. ومال أولادى هو الآن رهن الضياع والسرقة والنهب إما بجنود الإمبراطور أو بفرسان السلطان فهل تقبل أشيائى وممتلكاتى وديعة لديك.

فغر برانكوفيتش فاه وقد صعقته الدهشة حتى أن الخجا ظن أنه يرفض فقال له:

ـ إذا كنت خائفًا فلست آلومك.. هتف عقل برانكوفيتش... يا يسوع.. يا عذراء مائة شمعة مرة واحدة حتى يضىء المذبح وكأن الشمس مسلطة عليه. قال وهو يمثل الاضطراب:

متوليتش . ما الذى تريد أن تودعه عندى.

قال الرجل باستسلام.

ـ كل ما أملك... أخشى سرقة الطريق.

نظف فرانكوفيتش أذنه جيدا يريد أن يتأكد من قول شيخ القرية.

ـ ولكن .. لو.. أعنى لو لم تستطع.. قاطعة شيخ القرية.

ـ فيما لو لم أستطع العودة.

ـ اعذرنى... اعذرنى.. لم أقصد... هكذا ردد برانكوفيتش وهو يلمح الدمع تتساقط على لحية الخجا... قال الخجا:

ـ سوف استقر يوما ما وسوف تحفظها لى حتى أعود لأخذها..

هتف برانكوفيتش.. وهل أكتب لكم رقعة بهذه الأغراض.

صاح الخجا معترضا بوهن وهو يعلم أنها لا قيمة لها.

ـ لا.. لا.. إننى أثق بذمتك برانكوفيتش.

t.me/qurssan

قفز برانكوفيتش ناحية المذبح وركع يصلى.. آلهى أنت شاهدى. خذ روحى والقى بها فى جهنم لو أننى خنت أمانة أخى وصديق عمرى عثمان خجا عندى أو مددت يدى لدرهم من ماله أو متاعه..

كان المشهد مؤثرا حتى أن الخجا خرج وهو مطمئن أنه أحسن الاختيار وفى الليلة التالية طرق الخجا باب برانكوفيتش وقد حمل إليه كل متاعه فضيات. وذهب. وجواهر . وأوانى الخزف والتحف التى صنعت له فى أقصى بلاد العالم.

شاهد عثمان خجا صديقه وهو يحمل الصناديق كلها واحدا إثر الآخر إلى داخل سرداب وقلبه ينخلع وكأنه يفارقها إلى الأبد.. فلما أغلق برانكوفيتش باب السرداب واستدار خارجا وجد الخجا يقف فى مواجهته.. والتقت نظراتهما.. كان الخجا تائه النظرات ترتعد ركبتاه.

وعبر برانكوفيتش الخجا وكأنه لا يراه فقد كان يفكر أن هذا المال ليس ملكا لأحد خاصة متوليتش الذى تذكره فجأة فاستدار إليه ودعاه فى إصرار شديد كى يصعدا سويا لشرب الراكيا

وحول الراكيا قبل الخجا أن يكتب لبرانكوفيتش صككا وهمية بداره وأراضيه وماشيته حتى يتمكن من حفظها له من مصادرة الإمبراطورية وطمع قادة الجيش النمسوى المجرى المنتصر.. وقد وعده بأن يبيعها له ويرسل له ثمنها كاملا فى بلجراد...

غمغم الخجا كسيف البال:

ـ هذا فى حالة إذا انهزمنا ولم نستطع العودة قط.

تبادل الاثنان النظر.. لم يستطع برانكوفيتش أن يقول ستعودون حقًا يا خجا ستعودون.. ولم يظن الخجا أن صديقه يريد له ذلك. وكالعفاريت عندما تطير فى الفضاء طار الورق والحبر والريشة.. وقع الخجا الصكوك كالتائه لم يستطع الانتظار فى القرية حتى شروق الشمس. فقد أصابته رعدة قاسية على باب داره. وقبل أذان الفجر كانت هناك خمس عربات تجرها الخيول تنهب الطريق نهبا باتجاه بلجراد.

t.me/qurssan

شاع نبأ هروب شيخ القرية بين أبنائها كانتشار النار فى الهشيم. وكانت هذه إشارة الفزع. إذ توالت وتتابعت بعد ذلك أفواج الهاربين من المسلمين والأتراك.

* * *

- ٣ -

كان إيليا ميلوك هو أول من دخل على فوك برانكوفيتش هذا الصباح حاملا صينية الإفطار فوجده فى حالة من المرح والصخب على غير العادة.

توقف فوك مخفيا فرحه عن الصبى.

ـ هل علمت الأخبار يا سيدى.

توجس الرجل شذرًا. وقال:

ـ ليس بعد يا إيليا الطيب.

- يقولون إن عثمان خجا ميتوليتش هرب قبل الفجر.

قفز الرجل من فوق فراشه منقضا على الصبى الذى ارتعد من المفاجأة.

ـ ماذا ... تقول؟

قال الصبى بضيق.

ـ كما أخبرتك لقد ذهب الأب المبجل نيقولا إلى داره هذا الصباح فوجد بابها الخارجى مفتوحا والدار خاوية إلا من دجاجات شاردة اختطفتها العمة دونيا من الساحة على الفور.

- إنهم يسرقون الدار الآن.. صرخ فوك برانكوفيتش:

ـ لماذا لم تخبرنى من قبل يا ابن الملعونة.

خرج يجرى.. اصطدم عند الباب الخارجى بامرأته ديبورا.. كادت أن تنطرح أرضًا فلم يأبه بها وصرخ مناديا إيليا أن يتبعه.

رددت ديبورا وهى تزيح عن ردائها طين الطريق:

t.me/qurssan

ـ مسكين زوجى لقد ركبته الشياطين ثانية.

على باب الخجا كان هناك حشد كبير من أبناء القرية. جميعهم يعرفهم. مسلمين ومسيحيين. لم يأبه لنظرات أحد.. وإنما عبر إلى الداخل كمن لا تعوزه دعوة للدخول.

استقبل المسيحيون قدومه فى استحسان فى حين استقبله أعيان المسلمين بنفور شديد وتجهم. تصاعد الصراخ والصياح بين أعيان المسلمين أخرج فوك صك ملكية الأراضى وعقد شراء الدار والحظائر والبهائم وهو يلوح به فى وجوههم بشدة.. كاد الأمر أن يتحول إلى معركة بين المسلمين والمسيحيين إلا أن العقلاء من المسلمين تذكروا أن فعلة الخجا متوليتش لها ما يبررها... والجميع وهو يقف أمام مستقبل غامض يكون فى أشد الحاجة للآخر. تراجع كبار المسلمين وشوهدوا وهم يخرجون منكسى الرءوس. وتبعهم أقلهم شأنا يكبحون جماح غضبهم.

خرج المسلمون جميعا فى موكب صغير وسط صمت المسيحيين بين متشف وبين حزين خجل.. وقبل أن يغادر الموكب القصر استدار أحد المسلمين نصف دورة فى المؤخرة وأخذ خطوتين جانبا ميمما شطر جاره المسيحى مال عليه يحدثه همسا.. كان الجميع يعرف الآن ما سوف يحدث.. إذ أن ممتلكات أثرياء المسلمين فى القرية معروضة للبيع. ولم يأت آخر النهار حتى كانت حمى البيع والشراء قد بلغت أوجها.

وطوال ثلاثة أيام توقف الرعاة عن الخروج خوفا من الحرب المستعرة بين الجيشين. كل شىء يقع بينهما لا يفرق أحد بين مسلم ومسيحى . وبدلا من أن يستريح إيليا من عناء رعى الأغنام جعله برنكوفيتش يدور حول نفسه من كثرة مطالبه ورغباته التى صارت لا تنتهى.. أحضر هذا واشترى ذاك. وغيروا موضع الأثاث هنا فى المكان الذى كان يصلى فيه الخجا أقيموا صلاة شكر للعذراء والرب.. حسنا ابنوا مذبحًا صغيرًا.

لم يهدأ إيليا إلا عندما خلت القرية من أثرياء المسلمين وذوى النفوذ والسلطان منهم. بينما بقى فقراؤهم ينظرون لما يجرى فى حسرة. وكانت الليلة الأخيرة عندما تسلل رجال الدرك مسرعين بالرحيل ليلا على عجل حاملين أسلحتهم.

فى الصباح وجد أهالى القرية أنفسهم أحرارا إذا كان مخفر الدرك خاليًا إلا من رجل عجوز يجلس حاملا غدارتين على بابه . تجمع المئات من أبناء القرية أمام مركز

t.me/qurssan

القلق لا يجرؤن على الاقتراب منه يساندهم صمت العقلاء خشية التعجل فى مثل هذه الأمور وطوال اليوم بدا أن القرية لا تعرف ما هى عليه حالتها الحقيقية. وضرب الأب نيقولا لخمة شديدة لم يكن يدرى ماذا عليه أن يفعل وصار يروح ويجىء والكل حوله يزعق ويصرخ وهم يتبادلون الصراخ.. فى الساعة الرابعة ظهرا غفى الحارس من التعب فتسلل أحد اللصوص المعروفين بالقرية إلى الداخل. وتبعه ثلاثة آخرون والجميع يترقبونهم.. ظلوا يجوسون فى طرقاته ودهاليزه دون أن يصطدموا بإنسان وقبل أن يعودوا أدراجهم كان المخفر قد امتلأ عن آخره بأهالى القرية، وخاصة عندما جلس نيكو الشاب الأمرد على مكتب قائد المخفر معطيا أوامر بلهاء لجنوده بالقبض على الأتراك المسلمين وإيداعهم الزنازين السفلية.

لم يأبه بأوامره أحد.. وولوا عنه ظهورهم وتبادل معه البعض القفشات.

ومن الكنيسة خرج موكب يجوب أطراف القرية ودروبها يشكرون الرب وهم يحملون الصلبان والشارات الملونة يتقدمهم كورس الصبية للإنشاد.

ونادى جميع الرجال بإخراج الصليب الضخم من قبو الكنيسة السفلى الذى اشتراه أمير بلجراد خصيصا من أجلها قبل أن يحكمها آغاوات الانكشارية وتقدم الركب الصليب محمولا على أعناق خمسة عشر رجلا يتقدمهم سارانو الحداد ونيكو الأمرد. فى هذه الليلة لم تنم القرية. فما أن انتهى الأب نيقولا من صلاة الشكر الطويلة التى ألقاها على الشعب الذى امتلأ به بهو الكنيسة الصغيرة وضاق به الميدان الحجرى المواجه لها. حتى بدأ كورس الصبية بالإنشاد وسط الصمت العميق وخلع الرجال قبعاتهم واشتدت قبضات الآباء والأمهات القوية على أكف الأطفال الرقيقة تنقل لهم الإحساس بجلال الموقف.

وهلة وارتفع صوت الإنشاد بقوة لا تتناسب وحرمة الكنيسة. إذ أن جميع الواقفين داخلها كان ينشد. ولم تمض برهة حتى كانت العدوى قد انتقلت خارجا عندما أصبح ما لا يقل عن ثلث أفراد الشعب فى الميدان ينشدون للرب شكرا وعرفانا بما وهبه لهم من الحرية.

لقد حاول إيليا منذ البداية أن تكون له صدارة الإنشاد ولهذا زج فيه بكل الأنغام الداخلية للموسيقى. وجهه يهتز طربا وشجنا حتى أن أمه أخذت تنظر إليه بعينين

t.me/qurssan

فخورتين وقلب طليق. فكرت أن رجال يسوع المقربين من قلبه هم الرعاة. وذكرت له لهذا القوي فإن ابنها خليق بأن يكون شماسا بالكنيسة. عندما بلغت هذا الجزء من أفكارها ضغطت بأصابعها الطويلة الجافة كتف زوركا الصغيرة وهى تهمس:

- انظرى إيليا ما أجمله.

أجابت الصبية:

- نعم يا خالتى.. إن ثيابه فى حاجة إلى أن ترتق.. فسرواله يكشف عن فخذه ولباسه الداخلى متسخ.. الحنق الذى تصاعد من رأس الأم فى هذه اللحظة لهذه العبارات الصريحة المباشرة التى أطلقتها زوركا جعل الأم ترى أن للفتاة عينين عمليتين هذا هو الأهم.

قالت دون غضب:

- سوف نشترى لكما أثوابا من عند جلاسنتشانين تاجر القماش. عليك أن تقومى على حياكتها.

فأجابتها زوركا بالموافقة دون أن تتعب ذهنها بأى استفسار أو تساؤل.

وعندما انتهى الإنشاد انطلق الرجال والشباب جماعات جماعات إلى خمارة ياماك للشرب وتوارى فقراء المسلمين داخل منازلهم موصدين الأبواب وطوال الليل كانت جماعات الراقصين من فتيه وفتيات يطوفون القرية وهم يرقصون على أنغام آلة الجوزلا.

* * *

— ٤ —

يوم الحرية الذى عاشته القرية لم يستمر طويلا فقد استيقظت فى الضحى بعد ليلة سكر وعربدة وقد احتلتها مؤخرة الجيش العثمانى المتقهقر. كان القرويون مدهوشين إذ أنهم شاهدوا قريتهم وهى تغرق فى بحر جنود فرسان السباهية ورجال المدفعية والدلاة الغلاظ.

تمتم الشباب فى سخط أمام الأب نيقولا واستداروا بعيدا عنه. أما العقلاء فقد نظروا إلى الأمر نظرة أخرى. فالأتراك على أية حال يتراجعون وهذه هى مؤخراتهم

t.me/qurssan

برائحتها الكريهة. ولدى مسلمى القرية كان الأمر على العكس إذ كان الأمل قويا لديهم بتحسن الأحوال. وكبر الأمل عندما أشيع أن أمير البشناق وقائد الانكشارية عصمت خير الدين أغا قد قدم بنفسه على عجل من الأستانة لقيادة الجيوش.. الأمر الذى ألهب حماس الجنود والشعب على حد سواء.

كان عصمت خير الدين أغا من قادة الفرسان الذين لم يخوضوا معارك طيلة حياتهم وتدرجوا فى مدارج القيادة لأسباب عديدة آخر ما يكون صلتها بالعسكرية. أما أهم صفاته فهى قرابته للصدر الأعظم وقسوته البالغة التى تحدثت بها بلاد الصرب والبوسنة.

ولم تمض أيام قليلة حتى شوهد رجل بدين أحمر الوجه له شارب على طريقه أهالى شمال بلوخستان. وربما أن هذه هى الصلة الوحيدة التى تربطه بماضيه. كان بادى النشاط متوهجا كشعله يلقى الأوامر فى جميع الأنحاء ويتحرك على جواده دون كلل.

فى عشية ظهوره أصدر خير الدين أغا فرمانا بأن ينتظم للقتال كل مسلم قادر وأن يلتحق كل مسيحى بخدمة الجيش العثمانى.

كان الأمر ورطة للمسيحيين على وجه الخصوص إذ كان يعنى أنهم سوف يسخرون فى إقامة التحصينات حول القرية وفى التلال المحيطة وفى نقل الذخيرة والمؤن للجنود.

وما كادوا يفيقون حتى كانت أورطة ضخمة من الفرسان ورجال المدفعية تجوب القرية لجمع الأخشاب من على أسطح المنازل ومخازن الدور والحظائر الخلفية والمؤن من القمح والشوفان وعلف الخيول والبغال وكل محاصيل الفواكه من البساتين والحدائق المنزلية.

وفى المساء بدا واضحا أن خير الدين أغا انتوى أفراغ القرية من كل ما تمتلك وأنه لن يتركها إلا جرداء عارية.

كانت التحصينات الأمامية لميسرة الجيش العثمانى التى تتمركز حول القرية قد ابتلعت كل الأخشاب المتوفرة بالأسواق والباحات الخلفية للدور وسياجاتها ثم استكملت من أسقف الدور ذاتها والأبواب والشبابك حتى صارت منازل القرية ودورها ـ يستوى فى ذلك المسلمون والمسيحيون ـ عارية.. فى مساء الأحد الذى مضى دون أن يقيم الأب

t.me/qurssan

نيقولا القداس ويلقى عظته لأنه كان يدافع عن البقايا المتبقية من داره. تسلل رسول إلى سقيفة إيليا. حيث دعاه إلى أن يصعد إلى غرفة سيده برانكو فيتش وفى حجرة نوم سيده وجد الأب نيقولا وسارنو الحداد انتحى به القس جانبا وهو يهمس بنبرات بالغة الرجاء.

- إيليا.. ابنى هل تعلم لماذا سمى أبوك بميلوك..

تطلع الفتى دهشا.

ـ حسنا يا بنى الطيب.. جدتك التى اسمته.. ففى يوم ميلاده خرج جدك بتروفيتش لإحضار الطبيب من القرية المجاورة.. وتركها عانى آلام المخاض القاسية.. لقد تأخر كثيرا.. وعند انبلاج الفجر خرج الرجال يبحثون عنه.. وبينما كانت النسوة يهنئن جدتك بقدوم وليدها وهى تضحك سعيدة بصراخ المولود الجديد. دخل الرجال حاملين جثة جدك صريعة بسيوف فرسان الدلاة لأنه حاول اختصار طريقه متعجلا فعبر أحد البساتين التى يعسكرون بها.

خشى الجميع إخبار الزوجة المسكينة لكنها علمت أخيرا فبدأ عليها البأس الشديد وكأنها صممت أن تأتى برجل يعوضها ذلك الذى قتل.. وعندما فكرنا ماذا نسميه قالت جدتك.. ـ ميلوك .... ميلوك... وفهمنا جميعا لقد اختارت اسم الشاب الذى دفن خنجره فى السلطان مراد الذى غزا الصرب وشرد أهلها.

تطلع إيليا إلى وجه القس مستطلعا هدفه من روايته.

قال الأب والرذاذ يندفع من فمه:

ـ عليك دين لجدك... هل فهمت؟.

فكر إيليا بالأمر الجلل الذى يحيق به الآن. كان كل من السيد برانكوفيتش وسارنو الحداد يحدقون فيه بنظرات نافذة.. هل الأب فى ورطة سيكون إيليا طرفا فيها بصورة ما؟

هز رأسه بتجهم وردد دون وعى:

ـ ماذا يريد سيدى؟.

t.me/qurssan

رفع الأب رأسه مترددًا واستدار ينظر إلى برانكوفيتش كى يعاونه فأشاح عنه الفلاح وجهه فتنهد وعاد يحدث إيليا:

- حسنا نريد أن ترشد سارنو إلى الجنود الذين رأيتهم منذ عشرة أيام..

فتح إيليا بؤبؤ عينه على اتساعه كقط يشم رائحة الخطر.. شد من قامته وقال فى سرعة واثقة:

- أنا موافق.. أنا موافق.. هكذا أجاب بتصميم صريح.. بل إنه تساءل:

- هل توجد رسالة؟

نظر الرجال الثلاثة كل للآخر بقلق.. قال الأب نيقولا بعد تردد:

- نعم.

قال إيليا ببساطة:

- نخبتها بصوف الغنم.. سوف أخرج من الباب الشرقى وأتحرك باتجاه الشرق.. ثم أدور دورة واسعة باتجاه النهر شمالا حيث التقى وسورانو عند مذبح السيدة العذراء حامية الرعاة.. ومن هناك سنكون قريبين جدًا من معسكر جيوش القديسة كاترين.

قال برانكوفيتش غاضبا بغباء:

- جيش الإمبراطور جوزيف ياغبى.

رفع إيليا عينه دهشا.

- هل تعرفان الطريق جيدا؟ سأل الأب كليهما.

- جيدا.

- هذا ما نأمله.. سوف تخرج أنت وسارنو فى الفجر.. وقبل أن يقف إيليا عائدا جذبه برانكوفيتش جانبا وهو يهمس مجتهدا أن يخفى نبرة الرجاء فى صوته.

- إيليا... يا بنى الطيب إذا.. يعنى أقول.. لو حدث وقبض عليك..

رفع إيليا عينه متسائلا.. فاستطرد السيد..

t.me/qurssan

ـ انت تعرف يا بنى لو علم بأن لى أو للأب نيقولا دخلا فى الأمر سوف نخوزق. أشار مبررا ذلك نحن كبار القرية وسيجعلونا أمثوله ويمرغون أنف قريتنا فى التراب.. هز رأسه وقال دون خجل . أننا مهمان للشعب هنا.. كما أن الضرر سوف يصيبك على أية حال.

قال إيليا بعزم:

ـ أجل يا سيدى ما أهميتى أنا أمام الأب المبجل والسيد برانكوفيتش... لن يعلم أحد بشىء وقبل أن يخرج التفت إليهما معا وقال:

ـ صليا من أجلى.

اضطرب السيد برانكوفيتش من الغضب وود لو يمطره بوابل من الشتائم لكنه تدارك وهو يرسم على وجهه ملامح الجد الشديد.

ـ بالطبع ... بالطبع... اذهب رافقتك السلامة.

* * *

كانت الرسالة موجهة إلى قائد الجيش النمسوى المجرى من مسيحى القرية يسألونه العون والإسراع إلى نجدتهم من جور الأتراك.

بلغ إيليا وسرانو موقع السرية الرابعة من كتيبة الفرسان الإمبراطورية.

استقبلهما عريف يقف وسط ثلة من الجنود مرتديا قبعة مزينة بالريش الملون. على كتفه تدلت الشارات الذهبية. أسرعا نحوه راكعان يرسمان إشارة الصليب فلما فهم العريف القصة تأثر بعرض الصبى والحداد الذى وقف خلف إيليا صامتا لا يتحدث. أخذهما معا إلى المؤخرة وكان إيليا يعبر خيام الجنود مندهشا لكثرتها المهولة. لم يستطيعا بالطبع مقابلة الإمبراطور لكن العريف قدمهما إلى رئيس أركان لواء فرسان الحرس الإمبراطورى.

كان ضابطا فى الخمسين من عمره برتبة كولونيل يتميز بقحة وعصبية بالغة حاول إيليا أن يقبل يديه مبهورا بالنياشين التى تزدان بها حلته لكن الكولونيل دفعه متأففا فى غضب. رفع عويناته الطبية يحدق فى الرسولين البائسين لاعنا الأتراك والصربيين

t.me/qurssan

وكل ساكنى الدانوب وهو يصرخ فيهما هذه حرب وليست نزهة أو رحلة لشراء الأبقار حتى يتدخل فيها قرويون سذج وقس أحمق مخرف، وأشار إلى العريف مهددا لضياع وقته.

شد العريف من ياقته وهو يلعن ضعفه أمام الرسولين تراجع ثلاث خطوات منتظمة مؤديا التحية واستدار منصرفا مسرعا بهما إلى المقدمة وهو يواسى سرانو طوال الطريق متجاهلا إيليا الذى تبعهما منكس الرأس حزينا لفشل مهمته.

* * *

- ٥ -

أصبحت القرية الآن فى خط الجبهة على ميسرة الجيش العثمانى ومع الصباح الباكر انهال القصف المدفعى الإمبراطورى كالمطر الغزير غمغم الأب نيقولا .. لقد سألنا المساعدة وليس الموت.. وشملت الانفجارات كل شبر من الأرض واندفع المئات من الشيوخ والنساء والأطفال نازحين إلى الجبال المحيطة، ولم يمنع هذا خير الدين أغا من جمع كل ما تصل إليه يده لخدمة الجيش ودفعهم إلى تعويض خسائره فى الجنود.

ساط رؤساء المئه بالجيش العثمانى كل متكاسل من الفلاحين دون تمييز وكان على كل فرد مسلم أو مسيحى أن يتقدم لحمل كل بندقيه تسقط من جندى صريع. كان هدف الجيش العثمانى إعاقة تقدم الجيش النمساوى عند حدود القرية بأى ثمن لحين تنظيم المؤخرة ووصول الإمدادات الأمر الذى أثار الأب نيقولا وجعله يصرخ أمام مذبح العذراء إذا كان الرب قد قرر العذاب على شعبه المسكين.؟؟

وتزايدت حملات القبض على الهاربين وشوهد الشباب وهم يجلدون فى ساحة القرية الرئيسية، وفى مساء اليوم نفسه علقت أربع جثث لرجال بينها غلام فى الثالثة عشرة من عمره. عبر أهالى القرية المسيحيين البوابة وهم يرسمون إشارات الصليب على صدورهم.. فى حين وقف أهالى القرية من المسلمين ينظرون ناحية الجثث المعلقة وهم يقرءون الفاتحة ترحما على الموتى الأبرياء. وبعد ثمانية أيام قضتها القرية بين نار القذف العشوائى ومطاردة الجيش العثمانى لهم شب حريق ضخم فى مخازن الغلال الميرى واحترق مخزون القمح والشوفان عن آخره، وجن جنون الأتراك فى حين رقص البعض طربا.

t.me/qurssan

فى هذه الليلة دخل عصمت أغا خير الدين القرية على جواده وخلفه فرقة من فرسان الدلاه المرعبة يلقون بالمشاعل على الدور ومن ورائهم فرسان الشفاسية يستقبلون بسيوفهم الناجين من الحرائق.. كانت مذبحة دفعتها القرية ثمنا غاليا لحريق مخازن الغلال.

فى هذه الليلة بكى إيليا أمه وهو ملقى على زكائب الشوفان بكاء حارا حاولت زوركا أن تسرى عنه.

ـ هل أنت حزين يا إيليا ميلوك.

اعتدل يجفف دموعه وهو يحاول أن يخفى شهيقه.

ـ قتلوا أمى الليلة.. لم أرها قبل أن تموت...

كان يريد أن يفضى لها بالثقل الذى يسحق قلبه..

عاد يواصل البكاء ولم يهدأ طوال الليل.

* * *

فى هذه المرة وقف كولونيل الحرس الإمبراطورى يصغى بانتباه إلى الراعى الصغير وصديقه الحداد الضخم الجثة.

قال الحداد وهو يقف متباعد الساقين ناظرا إلى أسفل ممسكا بقبعته بين أنامله المضطربة.

ـ مخزن الذخيرة على أن تقتحموا أولا..

قال الكولونيل ـ المخزن أولا ثم الاقتحام... سوف يشيع هذا اضطرابا بين صفوفهم يمكننا من استخدام عنصر المفاجأة.. صمت لوهلة ثم استطرد وهو يعلم بالمجازفة التى تحيط بالقرية فى حالة فشل الهجوم .. هذه مسائل عسكرية.

قال الحداد باضطراب ـ سوف يمزقوننا إربا لوفشل هجومكم.. سنباع فى أسواق النخاسة. ازداد تجهم وجهه.. أعنى سوف تسلخ جلودنا.

قال الكولونيل بقسوة الجندى.. يحاول تخفيفها.

ـ ألا يفعلون ذلك الآن؟

خفض الحداد رأسه قال بصوت مستسلم خفيض.

ـ أجل.

t.me/qurssan

عقب الكولونيل بحسم ـ ليس لديكم ما تخسرونه إذًا .. ما أسماكما قلت؟؟

رفع الحداد رأسه متعجبا لضعف ذاكرة الكولونيل.. أنه يسأله عن اسمه للمرة العشرين.. سوف ينسى القرية هذا الرجل..

سيرانو.. سيدى الكولونيل .. سيرانوا.

قال وهو يضع يده على ظهر الحداد مواسيا يدفعه دفعا خفيفا إلى الخارج منهيا المقابلة.

ـ سيرانو.. إنها مسائل عسكرية ياصديقى.. وقبل أن يبتعد صاح الكولونيل.

ـ بلغا تحياتى إلى القس المحترم...

استدار سيرانو رافعا قبعته

ـ سوف نفعل سيدى الكولونيل.

* * *

فى مساء اليوم التالى تحركت كتيبتا المشاه الثانية والسادسة وخلفهما لواء الخيالة الهنغارى وأورطة المدفعية الخامسة الملحقة عليها باتجاه القرية فى الوقت الذى تسلل فيه ثلاثة أشباح يمدون خيطا طويلا من البارود عبر المؤخرة التركية وعندما بلغت طلائع ميمنة الجيش الإمبراطورى النهر توقفت أمام مخاضة أرشدهم إليها أبناء القرية.. أرسل الكولونيل مجموعة من الاستطلاع لحماية رأس الجسر على الشاطئ الآخر للنهر وقبع منتظرًا يرى فرسان الانكشارية يتحركون فى سرعة عبر الطريق الفاصل بين القرية والتلال.

شعر أحد حراس المؤخرة بحركة خافتة أصاغ السمع وحدق النظر على ضوء القمر الشاحب لمح شبحا يجرى عبر أشجار البساتين التى تحيط بمخازن الذخيرة أطلق غدارته فى اتجاه الشبح وتوقف يعبئها ثانية وقبل أن يفعل سقط صريعا بضربة خنجر من الخلف. أثار صوت البارود الاضطراب بين حراس المؤخرة. جرى سيرانو وإيليا ومن خلفهما نيكو الأمرد وسط الهرج والمرج . كان المكان قد امتلأ عن آخره بالحرس وطلقات البارود. أطلق أحدهم النار على سيرانو فأرداه قتيلا.. جفل إيليا واستدار

t.me/qurssan

عائدا له لكن نيكو أمسك به بشدة يمنعه سقطا سويا يتدحرجان تحت طلقات البارود المنهمرة باتجاههما ولم تمض لحظات حتى دوى انفجار هائل فى الفضاء تبعته ثلاثة انفجارات أخرى أحالت الليل نهارا وعندما انكشف الغبار كانت النيران تشتعل فى رقعة مساحتها ثلاثة آلاف متر مربع.

جفل جواد الكولونيل وهو يندفع فى المياه الباردة للنهر متقدما ميمنة الجيش الإمبراطورى صوب القرية مخترقين المنطقة الفاصلة بين ميسرة الجيش العثمانى وقلبه ... وفى التفاتة سريعة حول الميسرة نشبت حرب سريعة انتهت باستسلامها. وتحت وطأة المفاجأة انسحب الجيش العثمانى بعد معركة امتدت أربع عشرة ساعة على عجل باتجاه الجنوب الشرقى بعد أن فقد تموينه وامداداته التى ظل عصمت آغا خير الدين يجهزها منذ قدومه تمهيدا لهجومه الذى كان قد أوشك على القيام به.

عندما استدار عصمت خير الدين ليلقى بنظرة أخيرة على القرية التى كانت سببا فى هزيمته دون حرب تذكر أقسم أنه إذا شاء الله له بالعودة ثانية فلسوف يرسل كل أبنائها بعد أن ينكل بهم أيما تنكيل إلى سوق النخاسة عبيدا إلى الأبد لا فرق فى هذا بين مسيحيين خونة أو مسلمين كسالى.

* * *

دخل الجيش النمساوى القرية فاستولى على كل ما تبقى لديها من طعام وعتاد وسارع فوك برانكوفيتش بدعوة القائد الإمبراطورى لحفلة أخرج فيها كل ما فى خزائن شيخ القرية النازح عثمان خجا متوليتش التى أودعها لديه مهديا بعض تحفه الثمينة له ولضباط أركانه. ولقد حصل على ما يريد فعين مختارا للقرية وحصل على عقد تموين الجيش بالشوفان. ولقد علم خجا متوليتش وهو بعد لا يزال فى بلجراد بمصير خزائنه الثمينة وقيل له إن طاقم الخزف الذى اشتراه من سلوفاكيا قدم هدية للكولونيل أما سجادته السمرقندية فقد أصيبت بتلف شديد أثناء مبارزة بين ضباط مجربين مخمورين.

عومل إيليا معاملة الأبطال فكان يعبر القرية مختالا كجندوق[1] صغير وقد تعطف عليه سيده برانكوفيتش بملابس حسنة وسقيفة. أما الأب نيقولا فقد أهداه قلنسوة

(١) جندوق: قاطع طريق هارب من العسف العثمانى.

t.me/qurssan

ثمينة اشتراها من تيمور سور وعينه شماسا بالإبراشية ـ محققا أمنية أمه التعسة ولم تمض شهور ثلاثة حتى حضر أهل القرية حفل خطبة إيليا وزوركا وقد جعل برانكوفيتش مساحة هكتارين بائنة لزوركا الأمر الذى ملأ إيليا بكبرياء تحيطه هالة صغيرة من الغرور جعلته يسير منتفخ الأوداج مثل أى ملاك صغير.

على أن عمر الحرية الذى عاشته القرية لم يتعد السنة ففى نفس العام استطاع الجيش العثمانى أن يفك حصار بلجراد ويندفع كالإعصار خلف الجيش النمساوى المجرى الذى انسحب إلى تيمور سور حيث هزم أمام العثمانيين هزيمة ساحقة.

* * *

لم يستطع إيليا بتروفيتش وهو مقيد الوثاق مكبل الأيدى يجمعه قيد حديدى بصبى فى الرابعة عشرة من عمره يدعى بافلى، وسط ثلاثمائة من أبناء قريته يهرولون فى قافلة تغدُّ السير إلى سيرابيفوا، أن يفكر وهو يعبر سهول الدانوب صاعدا سفوح جبال الألب الدينارية فى أنه يرى الأديم الذى تشكل منه لحمه وعظامه لآخر مرة وأن الصورة التى انطبعت فى ذهنه وهو يغادر القرية هى المعالم الأخيرة لحياته كما كان يجب أن تكون، وأن حياته التى كانت السهب نفسه والمجدولة بصخور الألب والتى تنفس فيها عشيرته وأهله وملته وأبناء جلدته سوف تتحول إلى شىء تعجز عن صنعه كل شياطين الأرض.

.. المستقبل عباره غامضة، ليس لها معنى أو وجود فى ذهن إيليا المتعب، كان كل ما تبقى له وجه مذعور ينظر إلى الأفق وضربات السياط تحثه على الجرى قفزا إلى الأمام كلما حاول أن يلتفت إلى الوراء كى يمسك بخط الأفق المتباعد يحاول أن يستخرج من ثناياه قريته التى عصف بها الجيش العثمانى محققا انتقام عصمت خير الدين.

لقد اندفع فرسان السباهية كعاصفة فأشعلوا فى القرية النار واغتصبوا النساء وعلقوا رءوس الرجال على أعواد المشانق، أما فوك برانكوفيتش فقد خوزق وحده رغم رجاء عثمان خجا متوليتش للسنجق بالعفو عنه.. وسيق الصبية ليباعوا لتجار الرقيق.. وكان كتخدا الأغا يحث القافلة على السير طوال الأيام الأولى حتى بلغ أسوار بلجراد فلم يدخلوها وعسكروا على مشارفها، وفى الليل حضر تجار الرقيق فاشتروا الصبية

t.me/qurssan

لقاء قطع النقود الذهبية وتفرقوا فى الصباح جماعات جماعات إلى جهات الأرض الأربعة، رحل مائة منهم إلى سيراييفو أما البقية فقد اتخذت طريقها برا إلى إستانبول ثم البصرة.

... ماذا يحدث، سؤال كان يلح بشدة على ذهن إيليا المكدود. أمسك الرعب بتلابيبه وقصص الذين خطفهم النخاسون وباعوهم إلى البلدان البعيدة وراء البحار تعود إلى ذاكرته مثل حكايات الجن والعفاريت الذين يسمع بهم ولا يراهم.. الآن يرى شياطينه الحقيقة.

كان وجدانه مسحوقا مثقلا بمشهد الصغيرة زوركا، التى لم يكن عاشرها بعد معاشرة الأزواج لأن الطمث لم يكن قد جاءها، وهى تجر جرا بأيدى ثلاثة من الدلاه يدفعونها إلى دار خربة. كيف تأتى له أن يتركها حتى هذه اللحظة دون أن يجامعها.. لو فعل لكان الأمر أسهل عليها . ما أغباه لقد تأخر فى أخذ حقوقه التى شرعتها له الكنيسة واغتصبها الغزاة... الندم كان يقتله لأنه تركها فريسة لهم.

غص حلقه بمشاعر لاذعة حارقة. وعيناه التعيستان تمسكان عبثا بكل ما يمكن أن تمسك به من معالم وطنه سهول الدانوب، غابات الصنوبر، بساتين الكرز، أشجار الفاكهة، جبال الألب الدينارية وأضواء القرى الضئيلة تلقى بأشعتها الباهتة من على مبعدة ليلا، وتقف نهارا ممتلئة بالحيوية والحياة خلف الحقول التى تحرثها الثيران والخيول والظهور المنحنية لأبناء بلدته.

كانت الأرض تختفى تحت أقدام القافلة لتحل محلها دوما أراض جديدة.. أراض غريبة.. أراض تنتهى بالفعل بعد أن ظل امتدادها يغالب البصر.. الآن ها هى الأرض تصل حوافها إلى سطح البحر الذى التقى مع السماء عند خط الأفق.. داهمته قشعريرة خوف غريزية وقد صار البحر جنيا موحشا .. دفعه النخاسون وسط الآخرين تحت المطر المنهمر إلى كوخ خربة خارج مدينة أراجوزه التى تطل على بحر الادرياتيك.. نخر البرد عظامهم فتدافعوا جميعا يأخذون الدفء من أجساد بعضهم البعض وقد بلغ بهم الجوع كل مبلغ، باتوا ليلتهم على الطوى، وفى الصباح دفعوا إليهم بعصيدة الشوفان فأنكبوا عليها يلتهمونها التهاما..

t.me/qurssan

فى الضحى حضر شخص ربعة ضخم الجثة وجهه كوجه صائدى العبيد. من على رأسه تدلت قلنسوة حمراء وفى فمه كان يدخن من غليون متآكل قديم.

حدق بعينيه الضيقتين فى الأجساد التى هدها الجوع والسفر. تفل من فمه بصاقا أسود وهو يغمغم.. بضاعة قذرة.. بإشارة من يده أمر النخاسون الصبية بخلع أثمالهم.. وقف الجميع عزايا كما ولدتهم أمهاتهم، دار يفحصهم واحدا بعد الآخر وقد خيم على الجميع فكرة مبهمة بأن هذا الرجل يحدد مصيرهم.. مراكش.. بلاط فى أوربا.. أمراء المماليك المصرية.. أو إمارة بالشام والحجاز.. أزاح المستقبل المجهول القرية بعيداً إلى قاع الذاكرة والرجل يغرس أصابعه الحديدية فى جلودهم وتحت أكتافهم يقيس عضلات سواعدهم ويطرق صدورهم وينخس بيده أفخاذهم ويمد أصابعه الضخمة الخشنة بغلظة وقسوة يشد أسنانهم وهو يدفع كل منهم فى اتجاه وعندما انتهى كان إيليا يقف وسط خمسة من الصبية وإحدى عشرة فتاة. رحلوا فى الصباح على متن مركب قديم متهالكة عبرت بهم بحر الادرياتيك إلى البندقية حيث عرضوا للبيع سرا فى المدينة التى كانت تحرم بيع المسيحيين عبيداً.

بقى إيليا ورفيقه بافلى مقيدا كل منهما للآخر والخوف يتملكهما من أن يفترقا فيواجه كل منهما مستقبله وحيداً.

وفى إحدى الليالى التى سبقت رحليهم شعر بافلى بشىء رطب يغزو ساقيه قام مذعورا ينظر محدقا فى العتمة، مد يده الطليقة يتحسس البلل محدقا فيه على ضوء شقوق الدار الخربة.. كان دما قانيا.. صرخ فزعا يبحث عن إيليا الذى قام سليما معافى.. ظلا متلازمين فى رعب، ومع أشعة الصباح الأولى دوت صرخة من سقيفة الفتيات العلوية شاهدا معها خيط الدم الرفيع المتساقط من أعلى..شاهد الجميع النخاسين يلقون بجثة إلى البحر.. لقد انتحرت إحدى الفتيات نظر إيليا وبافلى كل منهما إلى الآخر وقد تعاهدا على التخلص من حياتهما القذرة.. لقد فعلت الفتاة صوابا.

تحركت القافلة ليلا والأمطار تهطل بشدة جهة الميناء ألقى بهما مع آخرين فى جوف سفينة قذرة من سفن العبيد حيث شدوا بالسلاسل إلى حلقات تدلت من جوانب

t.me/qurssan

السفينة.. كانت الرائحة العفنة للبراز والبول والقىء المغسول تفوح من باطن السفينة. وقت قصير مضى وتحركت السفينة خارج الميناء وهى تمخر عباب بحر مجهول تئز وتئن تحت ضربات الرياح والأمواج وقلوب الصبية تدعو الرب يسوع أن يغرقها.

فى اليوم الثالث أطلق قبطان السفينة حمولتها إلى السطح تحت حراسة البحارة فوقف المجلوبون يحركون أجسامهم المتصلبة كما أمرهم البحارة غير قادرين على فتح عيونهم أمام ضوء الشمس الباهر نظر إيليا إلى بافلى وقد فهم ما يدور بذهنه .. تحركا سويا جهة سور السفينة.. كان إيليا هو البادئ إذ اندفع ناحية السور وقبل أن يعتليه قفز إليه ثلاثة من البحارة الأشداء وانهالوا عليه ضربا بمقابض سيوفهم.

كان بافلى يقف الآن وحيداً، دونما أحد يهتم به رأى طريقه إلى البحر مفتوحا وبهدوء تقدم وركبتاه ترتعشان .. للحظة خلت كان يقف على السور الخشبى لسطح السفينة توقف البحارة ينظرون نحوه ببلاهة بينما ظل القبطان وحده يصرخ به فى شراسة ذئب كاسر بأن يعود وإلا سوف يسلخ له جلده.

هز بافلى رأسه بهدوء بارد حزين وهو يقول:

ـ أنت لا تستطيع شيئا الآن.

نظر بافلى إلى إيليا وهمس له ـ وداعا يا صديقى سوف نلتقى هناك وأشار إلى السماء، فهز إيليا رأسه مؤكدا .. نظر الفتى إلى البحر وعاد يلقى على سطح السفينة بنظرة أخيرة وقبل أن يتحرك أحد من البحارة نحوه قفز الفتى إلى البحر من شاهق.. تابعه البحارة.. كان ينظر إليهم وهو يغطس ثم ما لبث أن توجه بنظره إلى الأفق الشمالى حيث كان يعيش ولم تمض لحظات حتى ابتلعته الأمواج.

انتشر الصخب والعصيان على ظهر السفينة واندفع البحارة يضربون المجلوبين بالسياط والعصى وهم يدفعونهم دفعا إلى الطابق السفلى حيث كانوا من قبل وحتى بلوغ مصر لم يخرج إيليا من جوف السفينة إلا عندما رست فى ميناء الإسكندرية.

* * *

t.me/qurssan

الفصل الثالث

- ١ -

الليلة التى وطئ فيها إيليا بتروفيتش أرض سيده الجديد لأول مرة كان الرعب فيها وحشا غامضا يشد وثاق روحه.. الظلام والسكون وارتطام الغليون بمرسى القلعة المؤدى للبرج الأوسط المائل جهة النهر كشيطان يميل عليه يريد اقتلاع قلبه من صدره.. يايسوع... يا عذراء يابتول.. أيها الروح القدس احرسى عبدك المسكين إيليا... أشياء تعلق بها وقد علم جيدا أنها عديمة التأثير فى أرض تدين لإله آخر ليس لآلهة عليه سيطرة. وطئ وطاء البور والرعشة بقلبه وهو يدخل خادما لدى مملكة المجهول.. إنها نهاية رحلته ومأوى ومستقر جسده الميت الذى غادرته الروح يوم صار بضاعة بين أيدى النخاسين وصفد بأغلال العبودية حتى نهاية عمره.. فى هذه الليلة من شتاء ١٧٨٠ القارص ألقى به داخل حظيرة الماشية بإهمال.. طوى جسده مفترشا القش وركبتاه تلاصقان ذقنه. وعندما استيقظ كان إيداكش فوق رأسه مندهشا وسيدته الجديدة ساخطة تحدث زوجها.

ـ أنهم يضحكون عليك يرسلون لك طفلا فى جسد غلام مايزال يمص أصبعه..

قام مضطربا وقف على أقدامه وفرائصه ترتعد. كان إيداكش يقيس كل بوصة فيه ويحدث نفسه إن كان ينفع جنديا أو سائسا للخيول أو يلقى به إلى الطلبخانة. أما الأميرة شريفة فلم تر منه فائدة قط قالت ساخطة:

ـ ارسله لأحمد الخليل الكلب أو تخلص منه فى سوق النخاسة.

فهز رأسه موافقا.. نادى رضوان أغا مقدم الطباق وقال له وهو يستملح شكله.

ـ اجعله سائسًا للجياد.

t.me/qurssan

زفرت الأميرة شريفة بغيظ وخرجت غاضبة وهى ترمق إيليا فى توعد حتى أطلت ذات يوم فوجدت أمامها فتى جميلا حسن الطلعة واقفا فى حلة مزركشة زاهية الألوان يسوس جواد سنجق المديرية.. رفع لها إيداكش يده مستسلما وقال له بلغة لم يفهمها إيليا.

ـ الأشقر أفضل من يسوس الخيول فى إسطبلاتى، لن أبيعه فخلى عن أوهامك.. فدقت الأرض بكعبيها واستدارت غاضبة.. ذات صباح فتح إيليا عينيه وهو ممدد على فرشة القش فى الإسطبلات ليجد الأميرة شريفة تقف فوق رأسه تتأمله بعيون فاحصة وفى يدها سوط صغير، لم يكد يقف مرتعد الأوصال حتى استدارت عنه خارجة. وبعدها كان يرى عينيها ترقبانه تنفذان إلى داخله نظرات ثلجية لا يدرى كنهها فتهيئ له أحلاما من الرعب والهلع.

ذات صباح وضوء الشمس يطل على مهل وهو منكب على حافر جواد سيده شعر بها خلفه مباشرة لكزته فى كتفه بمقبض سوطها.. استدار إليها خائفا .. أشارت له بأن يتبعها، فقام خلفها وقد عن له أنها ستنتقم لبقائه، ستضربه بسياطها.. تقتله.. اليوم تقتله. تبعها وهو يرسم إشارة الصليب على صدره خلال ردهات القصر السفلية المظلمة الباردة... دخلت غرفة خلفية وجد نفسه أمام كائن أسود يحدق فيه بعينين باردتين غطى جسده بعقود الخرز الملون.. كانت تفوح رائحة بخور نتنه.. وفى الأركان رأى ثلاث زنجيات هرمات وسط تلال من المساحيق ورءوس الكباش وعظامها وثلاثة كلاب تنبى نواجزها عن أنياب حادة.. قامت الزنجيات منسحبات وبقيت سيدته التى أخذت تشير إلى ملابسه فلم يفهم .. ضربته بمقبض سوطها ففهم أنها تريد أن يخلعها فخلع قميصه منتظر أن يبدأ أحد فى نهش ظهره لكنها أشارت إلى سرواله فنظر إليها مرتعدا وفهمت على الفور ما ظنه نوعا من الغواية فصرخت وهى تهوى عليه بسوطها.. عبد خنزير كيف تجرؤ؟... وقف عاريا منكمشا على نفسه وهى تدور حوله وتحدق به وإلى ما بين حقويه دون خجل ثم أطلقته.. وفى الظهيرة بلغه نبأ اعتزام الأميرة خصيه وجعله طواشيا لها.

استيقظ إيليا متثاقلا قرب الضحى والدموع الغزيرة تنسال من عينيه.. لم يكن يدرى إن كان خصى أم لا.. حتى جاءه مقدم الطباق يحدثه لقد أنقذناك من تحت مدية

t.me/qurssan

الحبش... أيضحك أم يبكى لقد أخذ شهيقا طويلا وتنهد بعمق وهو ينظرُ إلى مقدم الطباق نظرة شكر عميقة.. وفى هذه الليلة أقام مذبحا صغيرا أخفاه جيدا وأخذ يصلى حتى الصباح مرددا أدعية مشوشة . وطيلة الأيام التالية كان الأغا وزوجته يتعاركان كل منهما يريده لنفسه أما عذابات إيليا فلم تتوقف إذ أن غلمان المماليك أخذوا يتحرشون به .. يغمزون له بعيون وقحة.. يلكزون أردافه بمقابض هراواتهم فكان يتراجع عنهم منكمشا على نفسه...

* * *

بعد عام من قدوم إيليا بتروفيتش منوف عاد إيداكش لوساوسه فوجدت الأميرة شريفة ما تنفث به عن غضبها إذ أنه فى صباح أحد الأيام امتلأ القصر بالعمال وعلى رأسهم وقف المعلم قسطندى فلم ينته اليوم حتى كانت ردهات القصر الداخلية مكسية بالرخام وهو ما أعجب الأميرة شريفة لكن لم يمض أسبوع حتى كادت الأميرة أن تجن إذ أنها وجدت واجهة القصر كلها فى الأرض فى صباح هذا اليوم صرخت الأميرة تدعو إيداكش فقفز وسط المحاريث والنوارج الخشبية وعشرات المناجل مختفيا..

قرب الضحى دخل المعلم قسطندى على حماره. هتف المعلم قسطندى بصوته الأجش:

ـ صباح الخير أولا وسعيده ثانية.

استدارت إليه كالملدوغة:

ـ لا صباح خيرات ولا سعيدات نصرانى جاى تعمل إيه ولد كبير.

ـ جاى أهد اللى بنيناه إمبارح.

انتفضت وقد ركبها عفاريتها ... ليه شيطان عفريت.

قال بلا مبالاة.. حضرة الاغا عايز كده.

ـ أمان ربى أمان أغا حمار ونصرانى نصاب وخنزير.. استدارت صارخة.

ـ رضوان أغا مقدم الطباق... أنت تقف هنا أنت وتلاميذ حيوانات.. كل واحد ماسك كرباج.. اليوم جدار ينبنى.. مشربيات تصنع.. ما أحد يغادر القلعة حتى تنتهى شغلات.. تمام رضوان أغا؟.

ـ تمام أفندم ..

t.me/qurssan

ـ هيا. خلص شغلات وأنا داخلات انتقم من حمارات..

سمع صفير الكرابيج فقامت العمال إلى عملها على الفور.. وعندما أذن المغرب للمغيب كان رضوان أغا قد أضاء الساحة بالمشاعل وعندما حاول العمال الخروج صفرت الكرابيج فوق الرءوس فانطلقوا عائدين إلى عملهم.. أطلت الأميرة شريفة من المشربية فوجدت العمل يجرى على قدم وساق.. فدخلت راضية.

كان إيليا يحملق فى غلمان المماليك وهى على خيولها تفرقع بكرابيجها فى الهواء، فينظر إليهم بعجب وحسد.. لمح عن بعد رأس مصطفى أغا وهى تطل من خلف أحد الكوات الصغيرة للقصر والألم يعتصره لما يحدث فى الفناء.. ولكنه دهش حين وجد الجدار ينتصب من جديد.

عندما دخل قسطندى فى الصباح بجسده الضخم على حماره. أوقفه مندهشا وقد رأى الحائط منتصبا أمامه ثانية... فرك عينيه غير مصدق وهو يرسم علامة الصليب على رأسه: أبانا الذى فى السماء .. نجنا من عبث إبليس وأعوانه أين أنا؟... وعندما تعثرت أقدامه فى أجساد العمال المنهكة.. فهم الأمر.. أخذ يصيح على أهل القصر حتى خرجت له شريفة هانم غاضبة:

ـ عايز إيه.. نصرانى كافر..

قال بصوته الأجش وبطنه الكبير يهتز أمامه وابتسامته الغاضبة لا تفارق وجهه الذى يشبه وجه ضفدع عجوز:

ـ اسمعى بقه شريفه هانوم... أنا مش كل ما تشوفينى تقولى نصرانى كافر.. أيوه أنى دافع الجزية ومحدش له عندى حاجة .. ولا حد يقولى تلت التلاته كام... فصرخت فيه:

ـ اخرس حمار.. قال وقد كشف رأسه:

ـ وكمان مش كافر.. أنى من أهل الكتاب.. أيوه القرآن بيقول كده حتى اسألى المشايخ بتوعكم.. أنت جاهله بالقرآن إحنا يا شريفة هانوم أهل الكتاب حتى فيه سورة اسمها مريم ومريم دى نصرانية.. إيه قولك بقه.

ـ أنت ولد خنزير.. أنت كافر نصرانى.. لص.. حرامى..

بدأ يفقد أعصابه.. وبحكمه بالغة أعاد السيطرة عليها.. قال:

t.me/qurssan

ـ آمال النبى بتاعكم جه وناسبنا ليه واتجوز ستنا ماريا.

ـ دى جارية ولد.

ـ مش مهم جاريه ولا مش جارية.. أولا هى نصرانية. ثانيا ـ انتسب لها من أم الجد.. وتوقف ثم سألها فجأة والدهشة تلجم وجهها.. أنت شريفه هانم لك صلة قرابة بسيدنا محمد.. وأنى ليه قرابة بستنا مريم.. يبقى إحنا الاثنين قرايب يا أميرة..

واتسعت الابتسامة عن آخرها فى الوجه الضفدعى تحمل فى ثناياها سخريه وتشفيا وذكاء.. أما هى فقد ارتسم على وجهها قناع من الغباء وأخذت تحدق به ولا تدرى كيف تصبح قريبة لهذا المعتوه.. وإن كانت هذه حقيقة فلابد أن مكانتها ومكانة عائلتها لابد وأن تهتز.. استطرد المعلم قسطندى:

ـ وعلشان إحنا قرايب.. أنى معدى دالوقتى نخلص لك أعمال فى الحال.. وأشار إلى المبانى ورفع أصابعه فى الهواء وقال فى ثقة:

ـ ثلاثة أيام وكل شىء ينتهى.. أمال فين الأغا؟

قالت كالمسحورة.. نايم. قال:

معدش يدخل بناتنا يا أميرة.. وضحك .. طبعا إحنا قرايب غريب يدخل بينا ليه؟

لم تجب بل هزت رأسها نفيا فقفز إلى حماره وهو يصيح ملوحا لعماله:

ـ أنى نازل منوف وراجع..

وخرج مسرعا تاركا إياها ملجمة بالدهشة.

* * *

ـ ٢ ـ

على طريق الكافور الممتد أمام برج القلعة الشمالى عبرت كوكبة صغيرة من الفرسان مسرعة باتجاه البوابة.. رفع جواد الأغا الأمرد رأسه وصهل باتجاههم.. وكان إيليا يخوض به النهر يغسله.. وعندما عاد وجد ساحة القصر قد أخليت بإيعاز من الأغا من الغلال والدواجن والطيور والماشية والأغنام.. وأغلق الطواشية أبواب الشونة وحظائر الماشية والإسطبلات.. مال يسقى الجياد من البئر القريبة وهو يخشى أن يصطدم بأجسام الجنود الملقاة فى الساحة والذين قدموا فى صحبة عمر بك لاجين أحد خشداشية محمد بك الألفى تلميذ مراد بك.

t.me/qurssan

وفى المساء دعى لخدمة ضيف إيداكش الكبير فدخل مهرولا حاملا أوانى الشراب.. سمع اللعنات تنهال منهما معا على الأتراك وسيده مهتاجا منفعلا ... قال عمر بك لاجين:

ـ ماذا يفيد انفعالات مصطفى أغا.. لن يمضي وقت طويل حتى يرحل من حيث أتى.. الآن نختفى من أمامه وعندما يعود هو إلى الأستانة نعود نحن إلى القاهرة فنسحق أعوانه وتدول لنا البلاد ثانية كما هى الآن..

صرخ إيداكش:

ـ لعنة الله على حسن باشا.. تركى حمار . وتفل من فمه.. قسما بالله ونبى الإسلام محمد عليه السلام أنا أقوم آخذ عسكر وأذهب له.. اقطع رأس حسن باشا خنزير .. بغل.. وأعلقها على باب زويله تركى ديوس.

قال لاجين محاولا تهدئة إيداكش:

ـ حسن باشا صدر أعظم يأتى ومعه إسماعيل بك كتخدا وحسن بك جداوى وكلهم يبغى انتقام .. حسن باشا يبغى انتقام قديم للسلطنة من على بك كبير ومحمد بك أبو الدهب لاستقلالهم بالبلاد عن السلطنة العثمانية.. بعد ثلاثة عشر عاما تبغى السلطنة انتقام من على بك كبير. هو أذل سلطنة واستقل بالبلاد... وإسماعيل بك كتخدا وحسن بك جداوى قدما بصحبة الوزير التركى يبغيا انتقاما من أستاذ مراد بك بالأكثر وأخيه وصديقهما إبراهيم بك بعد ثمانى أعوام من طردهما مقهورين من الديار المصرية على أيدينا نحن مماليك المصرلية..

... كان إيداكش قد حار عقله من الفهم ومال على عمر لاجين.. آخى عمر بك ماذا قال أميرنا مراد بك..

قال عمر بك:

ـ إيداكش أغا حضرتكم تعلمون هذا شخص مهم.. موته يثير علينا غضب السلطنة ونصبح نحن أمراء المصرلية المسلمون والموحدون بدين الله أشد هولا وكراهية لدى السلطنة من الموسكوب الكفرة.

ـ نعم .. نعم... نعم ياصديقى أن موته يثير السلطنة.. هه... ندم إيداكش على رعونته ونعى غباءه.

t.me/qurssan

ـ لقد استقر الأمر بين أمراء المماليك على السير خلف أميرى البلاد إبراهيم بك ومراد بيك إلى قبلى فنسيطر من هناك على الصعيد من الجيزة وحتى بلاد السود فنمنع عنهم الغلال ونعمل شغلات موجعات ونثير حروبا فيها كر وفر وهربات وصولات ومكائد ومصائب ومعنا مشايخ البلاد حتى أن حسن باشا وزير مهم يرحل ويعود لأسطانبول فإحنا نعود إلى القاهرة نطرد أمراء أرجوزات وتصير لنا البلاد كما كانت منذ زمن الأبدين، افتر وجه إيداكش وهو يتذكر نزولهم إلى قبلى أيام إسماعيل بك ثم عودتهم إليها بعد طرده .. أخذ يصرخ.. ولد حسين.. شراب معتق وخمر مسكر لسيدك لاجين بك وقام إيداكش خارجًا.

كان إيليا قد شد انتباهه وجه عمر لاجين الأبيض الناصع المدور والشوارب السوداء الكثة.. تمطى عمر لاجين وأخذ يعب الشراب عبا... دهش إيليا للكميات الضخمة التى شربها فى نهم دون أن يتوقف حتى انطرح أرضا وكان الشراب قد فرغ.. خرج إيليا وقد آنهكه التعب لكن صوتا أجش صاح به:

ـ الشراب يا خسيس.

نزل إيليا يعدو إلى القبو وصوت عمر بك المخمور يملأ القصر صخبا طلبًا للعرق.. وعندما عاد إيليا كان البهو صامتا.. فتح الباب ودخل.. كان عمر بك مرتكزا بجذعه على السرير وقد خلع عنه عدته الحربية وهو يدمدم بلغة موحشة..أرهف حواسه مصغيا السمع للأغنية الصربية التى تصاعدت من فم الرجل:

غابت الشمس.

فهى لا تسطع الآن فى وجهك.

لا الرب يعرفك ولا شجرة السرو.

ولا قهوة أمك وأدعيتها الصباحية.

ولا الخيول اللاهثة فوق جبال الألب الدينارية.

غابت الشمس.

لم تعد حبيبتك تعرفك.

t.me/qurssan

ولا الليل المشتعل بنار رغبتها الرقيقة.

فأسقط فى ظلمتك. وهاوية اللانهائيات الموحشة.

لأنك مت إلى الأبد.

* * *

قيصر الصرب كوالفيتش.

فوق حصانه شباراتش.

وحوله أربع بطارقة.

وتسع مطارنه وعشرون وزيرا.

وجمع من سادة الصرب.

إلا روحك التى تسكن بحر الوحشة.

للعالم السفلى.

جوع.. ظماء.. وصراخ.

جميعا يعبرون الدانوب.

طريق البشر السعداء إلى الرب.

إلا أنت.

لأنك مت إلى الأبد.

* * *

سوف يشرب الشيوخ الراكيا.

وترقص الفتيات الصغيرات رقصة الكولو.

وتحمر وجوههن خجلا.

عندما تعانق خصورهن سواعد الفتيان.

ولكنك أنت ككل أموات الأرض.

ستكون قد نسيت

فلا الرب يعرفك ولا شجرة السرو.

ولا الخيول اللاهثة عبر جبال الألب الدينارية.

ولا قهوة أمك وأدعيتها الصباحية.

t.me/qurssan

ولا حبيبتك المشتعلة بنار رغبتها الرقيقة.

فأسقط فى ظلمتك.

وهاوية اللانهائيات الموحشة.

لأنك مت إلى الأبد.

غابت الشمس.

غاب كل شىء.

إلا شهوتك إلى الموت.

عندما انتهى كانا يبكيان سويا.. هز لاجين رأسه مستفيقا.. رفع رأسه فالتقت نظراته مع الصبى.. أصيب إيليا بنوبة بكاء وأخذ يفهق ويشهق.

ـ أنت صربى.. أنت صربى.. أين أنت يا أمى.. أين أنت يا أمى أريد أن ألحق بك.

ارتعش وجه عمر لاجين للحظة وقبل أن ينطق اندفع إيليا ملقيا بنفسه على صدره .. سمعه يهتف يا يسوع اهتاج عمر لاجين ودفعه بعيدا عنه بقسوة بالغة. فتوقف الصبى بغتة عن البكاء ونظر إلى عمر لاجين الذى قام وهو ينظر شذرا.. وكلما اقترب منه امتلأ رعبا... هذا شيطان يملأ توهماته.. يجعله يظن أنه من وطنه البعيد يضحك عليه.. يعبث به.. وقبل أن ينطق أشار لاجين إلى نقطة سوداء كرأس الذبابة بقاع كأس.. نظر إليها إيليا محدقا وسارع محاولا إزالتها بأسف عندما هبط على وجهه على حين غرة كف ثقيل كالمطرقة فألقى به عشرة أمتار إلى الخلف.. دارت الدنيا برأسه وقام ينظر حوله فلا يرى شيئا تراجع منسحبا إلى إسطبل الخيول... سقط على الأرض غارقا فى البكاء.

استيقظ إيليا وهو فى حالة اكتئاب شديدة من كوابيس وأحلام جعلته على شفا الجنون.. كان طوال الليل يعبر مساحات من الأراضى تعاقبت عليها مفازات صحراوية وجليدية وقد تناوبت جسده الحمى اللاهبة والبرودة الثلجية وأمواج الظلام العميقة تطارده أفاعى ركب قرونها شياطين مردة.. وتحيط بها عيون حمراء تبرق فى الظلام.. سبح على بحر من نار ثم علق فى الفضاء اللانهائى فى بحر الظلام الأصفر وعلى حافة الأفق البرونزى ظهر له رأس الأب نيقولا العجوز... تحدث إليه مفضيا له بعذابات روحه.. وعندما استيقظ جرى إلى مذبحه الصغير.. وتحت أيقونة العذراء والصليب

t.me/qurssan

الذى اشتراهما بنقود السيد البقلى من تاجر يهودى بمنوف.. أخذ يصلى وقد عد مداومته على تحمل العذابات فى سبيل المخلص ابن الرب تجربة.. سيقاومهم حتى ولو حملوه بإكليل من الشوك وجعلوه يسير على طريق الجلجثه.

أضاء شموعه الرخيصة.. وركع يصلى وهو يتلو فى خشوع آيات متداخلة.. ويل لى لأنى صرت كجنى صيف كخصاصة القطاف قد باد التقى من الأرض وليس مستقيم بين الناس جميعهم يكمنون للدماء يصطادون بعضهم بعضا..

توقف إيليا بغتة وارتعد .. الرب يظهر لعبده.. إذ أن ظلا ضخما حط على مذبحه.. رفع رأسه فوجده يقف أمامه يتلاعب بسيفه هازئا.. قام وركبتاه تصطكان من الخوف.. وقف كل منهما أمام الآخر عمر لاجين بجسده الفارع الضخم الطويل وإيليا الذى تبلغ قامته صدر الفارس.. رفيع العود مصفر الوجه مرتعد الأوصال نظر كل منهما إلى الآخر.. رفع عمر لاجين سيفه وأخذ يمر بنصله الحاد قريبا جدا من بطن الصبى وبسرعة البرق شق الفضاء بالسيف بضربة متعاكسة مرت لصق وجه الصبى.. شعر إيليا بذؤابة النصل تحف بوجهه.. وعندما رفع يديه ليحمى وجهه كان لاجين قد ضرب سرواله فسقط على الأرض استدار عمر لاجين يضع سيفه فى جرابه تاركا إيليا ينتفض من المهانة وعيناه تشتعلان بنار كراهية ومقت شديدين وهو يسمع لاجين يحدث نفسه بلغة صربية.. ابن الملعونة.. قحبة هى أمك التى ولدتك.. أظل أبحث عنك حتى تسرج جوادى تعالى يا ابن الداعرة التى عاشرتها الكلاب.

صفر الهواء بمدراة الدريسة وهى تندفع فى فضاء الاسطبل لتصطدم بالباب.

استدار عمر لاجين ببطء وقال بصوت بارد:

ـ يمكننا أن نتحدث الآن أيها الصربى الصغير .. كان ينظر للسقف.. الكلب السمين والقطة العاهرة يريدان خصى الفأر الصغير.. الكلب السمين يريد خصى الفأر الصغير حتى يلعق مؤخرته... فاللذكور التى تسكن بيت السلطان رغبات خبيثة.. والقطة العاهرة تريد خصى الفأر الصغير لأن نساء الأمراء تحب أن ترى الرجال طواشيه انتقاما لعذريتهن.

لقد رأيت أن أحقق رغبات أصدقائى.. هجم عليه ممسكا بخصيتيه.. صرخ إيليا من الألم وانقض على ساق الرجل يقرضها بأسنانه ولاجين يضحك بوحشية:

t.me/qurssan

ـ اسمعنى إما أن تصبح فارسا أو طواشيا يلعق كفوف النساء وتلعب فى مؤخرته أصابع العسكر .. أيهما تختار ... لم ينبس الصبى فدفعه ناحية مذبحه .. دعنا نحدث عذراءك البتول ... رأى عمر لاجين يركع بخشوع.. جذب إيليا بخشونة إلى جانبه.. أحنى رأسه وهو يتمتم بلغة صربية مكسرة ورسم على صدره علامة الصليب... بسم الأب والابن وروح القدس.. مال عليه .. ما اسمك.. قال إيليا هامسا .. إيليا بتروفيتش .. فعاد برأسه ناحية المذبح ورسم إشارة الصليب مرة ثانية وأنشد قائلا:

ـ أبانا الذى فى السماء احفظ عبدك الصغير إيليا بتروفيتش .. ولا تنساه وأعلم أنه كى يحافظ على ما وهبته إياه من ذكورة يعمر بها الأرض من أجل أن تكون ذريته شاهدا على عظمتك وكثرة عبيدك فإنه سوف يتركك ويدخل دين الكفرة ويصبح اسمه من الآن فصاعدا «حسين الأشقر» .. إن إيليا الصغير اعلم يارب سوف يتعذب ولكنه يفعل ذلك من أجلك أنت .. يا مبارك.. يا مخلص .. فأنزل عليه السلام وأشمله ببركتك .. واعطه علامة قبولك .. مر بيده بسرعة على صدره ورأسه راسما علامة الصليب بعجلة .. وفعل إيليا مثله .. ساد الصمت قليلا ودارت مقلتا عمر لاجين فى عينيه كاللص يبحث عن شىء فى حين بقى إيليا خافضا رأسه جالسا فى أمان داخلى خلف الكتف العريضة للصربى القديم محتميا من العالم الدنيوى والإلهى معا..

وقبل أن يقذف لاجين برسم العذراء لأسفل تصاعد خوار ثور فانتفض صائحا:

ـ معجزة .. معجزة .. قم يا بنى لقد أصبغت عليك العذراء بركتها .. هل سمعت صوتها .. هل سمعت صوتها رفع إيليا رأسه فى تساؤل .. لكن عمر لاجين لم يترك له فرصة التفكير .. وضع يده على كتفه وضغط عليه بشده :

ـ أنت الآن مسلم .. أنت الآن مسلم .. قل اسمك لها حتى ترضى عنك ..

قال الصبى :

ـ إيليا بتروفيتش ...

ـ لا .. لا .. اسمك الذى أعطته لك الأم المباركة.

خفض الصبى رأسه .. قال دون اقتناع منكسرا :

ـ حسين .. حسين .. حسين الأشقر .

ـ أحسنت .. أحسنت يا فتى .. دعنا نحطم هذه الأوثان .. رفع لاجين بك يده ورسم

t.me/qurssan

بسرعة خاطفة إشارة الصليب على رأسه وصدره وقبله فعل حسين الأشقر مسرعا .. وانهال لاجين يحطم المذبح الصغير .. وغفلة دس مصحفًا صغيرًا فى الركام .. ثم عاد وأخرجه وهو يصيح :

ـ ارحمنا .. ارحمنا يا يسوع .. ارحمينا يا مباركة .. كان لاجين يمثل والفتى ينظر له مهوتا .. مذهولا .. إنك مبارك يا فتى .. إنك مبارك .. خذ هذا القرآن واحفظه لأنك ستتلوه أمام جمع غفير فى القريب.. كى تشهدهم على معجزة العذراء والابن المخلص .. ابن الرب يسوع الناصرى والنبى سيدنا محمد عليه السلام .. اقرأ خلفى .. وأخذ يردد الفاتحة .. فلما انتهى بكى إيليا وهو يردد :

ـ أنت تضحك على .. أنت تضحك على .

اشتد الغضب بلاجين وانطلق الشرر من عينيه فأمسك به من خاصرته بقوة ألمته ومال عليه بوجهه الأحمر ورأسه الضخم والرذاذ ينطلق من فمه الذى يشبه خطام الجمل :

ـ اسمع أيها الجرو المختال الصغير .. خل عنك إيمانك المزعوم هذه وأعلم أنك الآن فى بر مصر الحرة التى يحكمها العبيد منذ خمسمائة عام ويزيد جوهرة العالم المستباحة .. وأم الدنيا التى تعطى فخذيها لكل سائل .. ومرتع السفهاء والفاسقين من أرباب السيوف والتجار والعلماء المنافقين .. أعلم أنه لا فرق بين مسيحية وإسلام .. هذا عيسى بن الرب .. وذك محمد خاتم المرسلين .. هذا دين يدعو إلى الحق .. وذاك دين يدعو إلى الحق .. هذا يمنع الزنا والميسر وذاك يمنع الزنا والميسر .. هذا به رهبان وذاك به متصوفة .. وكلاهما يمنع كل ملذات الدنيا المشتهاة فإذا أردت أن تكون فتاه بتولا وعذراء تستحى تبكى دماءها المغتصبة عن أن تكون ذكرا يسفك دماء الآخرين فبوسعك أن تكون كذلك فى الإسلام كما كنت فى المسيحية .. والفارق بين الاثنين هو حكمة القائلين .. الناس على دين ملوكهم .. أما رجوعك إلى الضرب فهذا دونه حياتك .. إذ أن الصوب الآن فى الجنة .. قال الفتى من بين دموعه محاولا أن يخلص ضميره :

ـ الأب نيقولا ستغضب روحه التى ترعانى .

ـ سحقا .. وتفل من فمه بغلظة .. تبا لك وللأب نيقولا هذا وهل بقدرته أن يحميك من الخصى .. اسمع جيدا من الأب عمر لاجين وأنس القس نيقولا هذا .. عندما

t.me/qurssan

اختارت لنا الأقدار مصر مكانا نقضى فيه مصائرنا بانتظار الموت إنما وهبت لنا ما لم تهبه الأرض الحقيقية لابنائها الحقيقيين.. هنا فقط يصير العبيد سادة وأرباب سيف وكاتخداه .. فإن كان منهم سفاك للدماء وداهية صاروا أمراء وملوكا أما أحرار الأرض فهم العبيد.. ارفع سوطك وولّه أينما شئت تجنى كنوز الأرض .. يحميك علماء البلاد وتجارها وسيركع أمامك ألوف الفلاحين .. قم وأصبح مملوكا قاتلا .. واعلم أنك لست إلا عبدا واشكر نعمة الرب فلو آن أقداره حملتك إلى مكان آخر لكانت روحك الآن وحياتك ملكا لشياطين البشر الحقيقية . وسارع بإجادة استخدام سيفك وسوطك فإننا فى أرض يحكمها حثالة البشر .. جهز نفسك سوف ترحل معى فى الصباح الباكر.

همس إيليا :

ـ إلى أين ؟

نظر إليه لاجين بامتعاض :

ـ إلى كشوفية الشرقية حيث أجعل منك رجلا ..

هز رأسه بالموافقة .. استدار تعبا .. ناداه عمر لاجين .. التفت إليه فوجد على وجهه سيماء الجد .. وقف كل منهما قبالة الآخر لوهلة والصمت يسودهما .. قال عمر لاجين بتؤده وعيناه الدمويتان يتناثر فوقهما الشرر:

ـ سأذبح لك أول فلاح نلقاه .. فإن قطعت رأس الثانى تابعت معى رحلتى أعلمك ركوب الخيل وفنون المبارزة والمصارعة وأصول الكر والفر وطعن الخناجر وضرب البنادق وقصف المدافع وقوة الرجال ودهاء الطواشيه وذبح النساء وعشق الغلمان .. فإن لم تفعل .. شق بسيفه الهواء كالبرق قرب خصيتى إيليا واستدار دون أن ينبس ببنت شفة ..

* * *

-٣-

كانت الشمس فى كبد السماء.. بلغ ركب الفرسان الأثنى عشر مشارف سرس الليان .. ألقى الفتى إيليا بنظرة إلى الوراء .. كانت منوف قد اختفت خلفهم .. جفل الجواد فعاد ينظر إلى الأمام .. نادى لاجين الصبى فلكز إيليا جواده والفرسان تترك له فرجة بين خيولهم .. برق النصل الحاد لسيف لاجين بك تحت حزمة الأضواء الساقطة من

t.me/qurssan

بين غصون الأشجار .. سأله وهو ينظر إلى مكان ما بالأمام:

ـ أين سيفك ؟

ـ لم يعطنى سيدى سيفًا.

ـ هه .. القوا له بسيف ... قذف فارس بسيف من الخلف إلى إيليا تلقاه باضطراب على عدة مرات خوفا من نصله الحاد.

ـ يجب أن تكون حذرا .. هذه ليست قطعة خشب .. واستطرد بوجهه المتجهم وقد غمره اللون الأسود تذكر دائما أن الحرب مثل الحياة كلاهما لا يفترقان .. فى كل مرة يهاجمك أحد لا تبحث عن النجاة بالمسالمة أو الفرار ولكن ابحث عن الموت فإنه لا يأتى من يريده .. وعندما تواجه خصما عليك أن لا تدقق فى ملامح وجهه بل انس تلك الوجوه حتى لا تتعلق إنسانيتها بذاكرتك . فتطاردك وجوه من قتلتهم .. وعندما ترفع سيفك تذكر كل الذين أحببتهم وعاشرتهم فى قريتك الصغيرة .. أمك .. أختك الصغيرة .. حبيبتك .. جارتك التى كانت ستصبح زوجة لك وأما لأطفالك .. تذكر قطعان الغنم وحقول الشوفان والطيور التى تسكن السماء .. تذكر المراعى الشاسعة وقمم الجبال الثلجية التى وقف على رأسها الرب يباركها .. تذكر كل ما يجعلك راغبا فى الموت للحاق به ..إنه العودة لأرض الوطن .. فنحن المجلوبون الذين يقتل البرد أرواحنا فى أرض الغربة عندما نموت تحلق أرواحنا فى السماء .. وتظل تهيم فى الفضاء حتى تجد المكان الذى ولدنا فيه والمكان الذى دفنت فيه أرواح آبائنا .. فتهبط هناك لنستدفئ بين عظامهم وأرواحهم الساكنة المطمئنة .. وعندما ترفع سيفك لا تبحث عن وجه غريمك بل تذكر وجه أمك.. ووجه النخاس الذى وضع القيود حول معصميك وألقى بك فى باطن السفن الملوثة ببراز العبيد .. وجس جلدك وعضلاتك .. ومسد أردافك وعراها لمن يشتريها .. تذكر المسيح الذى تخلى عنك والعذراء التى تنام ملء جفونها فى نعيم السماوات .. وعندما ترى فى وجه كل إنسان وجه النخاسين واللصوص والعسكر الذى اغتصبوا أمك وشوهوا وجه أختك وجسدها الصغير وعلقوا الفتاة التى تحب من شعرها وأخذوا ينهشون من لحمها قطعا صغيرة بعد أن أباحوا فخذيها الرقيقين .. احمد الرب الذى ألقى بك فى مكان تستطيع أن تحمل فيه سيفا واضرب بكل ما فى صدرك وسنين عبوديتك من كراهية .. اضرب بسيف العداوة

t.me/qurssan

والكراهية .. واعبد سيفك وبجله وقدسه قداسة فقد ألقى به الرب الكلمة ودونك وإياه والموت لأنه سوف ينطق بكل آلامك وسيظل ينتقم من كل الذين استباحوك حتى الموت .. كان يلهث من الغضب وقد غامت الدنيا فى وجهه .. نظر إلى الأمام ثم لكز جواده وهو يهبط برأسه إلى أسفل فكب الجواد حثيثا ومثله فعل إيليا وبقية الفرسان وأخذت سرعتها بالازدياد .

على مبعدة كان هناك جمع من الفلاحين عائدين من السوق يتقدمهم ثلاثة من الشبان فى مقتبل العمر وكانت الجياد تنهب الأرض نهبا .. شرع لاجين سيفه وهو يصرخ فى غضب جنونى..

ـ هجووووووم.

رفع فلاح رأسه وعلى عينه دهشة ذبابة ضئيلة.. نظر خلفه يبحث عن شىء يريده الفرسان.. وارتكز الثانى على الأرض مخفيا رأسه بين ذراعيه.. وأسقط الثالث مقود البهائم من يده وجرى عن الطريق.. ومثله فعل بقية الرجال والنسوة اللاتى ألقين بأقفاص الخضراوات وأجولة الغلال ومشنات الخبز وقد انطلقن فى ذعر فى كل اتجاه.. وأمام إيليا بتروفيتش مباشرة كان سيف عمر لاجين المشهر عاليا بشق الهواء قبالة الفلاح الأول منخفضا فى نصف قوس مال لها لاجين جسده ليعود مرتفعا إلى الفضاء فى لحظة من الزمن وقد سبقته رأس الفلاح التى أطاح بها لتدور دورة لأعلى تلقى عيناها بالنظرة الأخيرة على جمال السهل الأخضر قبل أن تموت إلى الأبد.. لوى عنه جواده بشدة مستديرًا باتجاه الجنوب وأمامه مباشرة كان صدر جواده يسبقه.. رفع سيفه ثم هبط نصف دورة مطيحا بساعدى الشاب الآخر الجالس القرفصاء.. طارا فى الهواء كاشفين عن وجه يتوسطه جرح غائر.. عاد السيف من الاتجاه الآخر ليطيح بالرأس من الخلف شاقا منتصف الرقبة إلى الحلق.. بحث إيليا عن الثانى فلم يجده.. كان جثة ملقاة والدماء تنزف من البطن الذى خرجت أحشاؤه بغزازه فجرى كالمجنون فى كل اتجاه والجياد تصهل على قدميها الخلفيتين وكأنها ترقص فى حلقة الموت الشيطانية.. وجد نفسه فى جمع الفلاحات اللاتى تجمعن كالدجاجات المذعورة.. اندفع نحوهم.. وصوت لاجين يطارده .. رأس فلاح أو خصيتاك.. ولم يكن بحاجة لهذا الآن.. كان بركان مجنون من النار الغاضبة يدمدم مشتعلا فى جوفه.. رفع سيفه وراح يهوى

t.me/qurssan

بها يمنة ويسرة كالمجنون.. لكن ساعده الذى لم يقوَ بعد كان يترك جروحا أكثر بشاعة من تلك المتمرسة.. سواعد ومعاصم مدلاه.. وجروح غير نافذة غائرة مسافة عرض السيف تاركة خلفها وجوه مشوهة تناثرت على جوانبها قطع من الجلد والعظام المكشوفة وأنوف مجدوعة.. وعيون فقعت.. وصوت لاجين يستحثه.. رأس فلاح.. رأس فلاح.. فظل يبحث عنها لايجدها نظر خلفه فوجد الفرسان يعدون على خيولهم فى سرعة متوسطة مخلفين وراءهم مذبحة من القتلى والمشوهين وأمامه مباشرة كانت صبية فى الثالثة عشرة تجرى على الطريق الترابية ورأسها يناديه بأن يقطفه.. استدارت جانبا على حين فجأة.. لمح عينيها تسألانه الرأفة بها.. قفزت خارج الطريق للحقول واحتمت بجذع شجرة تين ضخمة.. عبرها بسرعة ثم أوقف جواده قريبا.. دار عائدا للخلف وعلى مبعدة ثلاثين خطوة جذب مقود الجواد فارتفع على قائمتيه الخلفيتين واستدار للخلف.. كانت تقف مستندة بجذعها على جذع الشجرة.. دفع جواده وهو يصرخ فى جنون شاهرًا سيفه.. انحنى انحناءة بسيطة وهو ينظر فى عينى الصبية.. أغمضت الصبية عينيها مستسلمة وكانت ركبتاها تصطكان وصوت الخيل الراكض باتجاهها يرتفع مقتربا بعنف.. دار سيفه نصف دوره وهوى.. كانت قد هبطت قليلا فجاء سيفه فى الفك فما قدرت أن تنطق بآه.. فقد طار لسانها وتعلق بسيفه قطعة حشفية صغيرة.. بحث عن رأسها فوجده لايزال على جسدها.. انتفض غضبا وتراجع إلى قرابة الثلاثين خطوة واندفع ثانية.. هذه المرة جاء السيف أوطى مما أراد فكشف عن جلد الكتفين.. عظمة صغيرة ملتوية لأعلى تركت جرحا غائرا بالكتف.. وفى المرة الثالثة كان الفرسان قد لحقوا به.. وكان يتقدم دون سرعة وأمامها وقف وهى لاتزال تنظر إليه.. مفتوحة العينين. هذه المرة هبط بسيفه على الرقبة من مسافة ثلاثة أقدام وجذعه يندفع خلف السيف فهشم رأسها الذى سقط جانبا متعلقا بالجسد بواسطة قطعة من الجلد.. قبل أن يعاود الضربة الرابعة هوى سيف قوى فأطاح بالرأس بعيدا.. كان سيف لاجين بك الذى غمغم بصوت موحش ووجه شاحب يتعجب لشهوة الصبى الجامحة للقتل.. لقد ماتت.. وابتعد وقد لحق به بقية الفرسان.. نظر لاجين للصبى الواقف فوق جثة الفتاة الصغيرة الممزقة جسدا بلا رأس ملقى على الأرض.. عاريا بغير نظام.. حدث نفسه.. إن كان يخفى كل هذه الشهوة تحت ثوب الرقة وجلد

t.me/qurssan

الوداعة.. سمعه الفرسان ولم يعلق أحدهم بكلمة.. كان إيليا واقفا على رأس الفتاة مهتاجا يحدق فى ساقيها الرفيعتين المتباعدتين فى فوضى.. نادى عليه الفرسان فيمم شطرهم.. كانوا يغدون السير خلف قائدهم.. لماذا اختارها هى.. أنها لم تتعد الثالثة عشرة من عمرها.. رفع لاجين رأسه ينظر لصنيعته وهو يدمدم:

ـ اللعنة على السماء.

* * *

ـ ٤ ـ

أمضى إيليا بتروفيتش بالشرقية زمنا وعمر بك لاجين يشتد عليه فى تدريبه على القتال بأنواع الأسلحة.. وركوب الخيل.. وفى أول يناير من عام ١٧٨٦ أرسل الألفى إلى خشداشه عمر لاجين طالبا منه الخروج بألف من القواسة وملاقاة مراد بك قرب منوف للالتحاق بحملته التى خرج بها من القاهرة لمطاردة قطاع الطرق.. وعندما بلغها لم يتهيأ لإيليا مقابلة سيده إيداكش.. إذ أن مراد كان قد عبرها باتجاه طملوها فلم يتوقف لاجين بك وتابع سيره حتى بلغ مخيم مراد بك فقدم له نفسه ووجد لديه من مشايخ الأعراب ابن حبيب وابن حمد ومراد بك يلزمهم بإحضار أرسلان والنجار فذكرا له أن المذكورين قد هربا عندما سمعا بقدومه إلى طملوها فلم يتركهم إلا على مال ففعلوا فأطلقهم.

واتجه خلفهم إلى طملوها.. بلغها فى المساء فوقف خارجها هو وأجناده الذين بلغوا ثلاثة آلاف فارس وقواس.. وأرسل فى طلب ملتزميها ومشايخها فقدموا يتعثرون فى أذيال ملابسهم.. وأمام خيمة مراد بك استقبلهم مماليكه بضرب القفا سقطوا على الأرض أمام سيد البلاد يرتعدون خوفا.. كان إيليا يقف بقرب المدخل ممسكا بعنان جواد سيده عمر لاجين وهو يشاهدهم يقبلون الأرض باستعطاف ومذلة يطلبون الرحمة.

ـ أرسلان حرفوشى ونجار حرفوشى.

ـ ماتعرف فين والله وكيلك ياأمير.

t.me/qurssan

تدافع السناجق ورؤساء الألوف إليهم يضربونهم بالسياط ومقابض السيوف ويركلونهم بالأقدام.. ومراد بك يردد:

ـ أرسلان حرفوشى ونجار حرفوشى.

أشار مراد بك بيده فدفعوهما للخارج.

وطوال الليل كان إيليا يرى سرايا الفرسان وهى تنتشر حول القرية فى الظلام تخطف كل من يخرج منها وتدفعه إلى مركز للقلق أقيم على عجل.

أتى هذا الصباح الباكر لشتاء عام ١٧٨٦ قارص البرودة ومن القرية تصاعد صرير أبواب الدور وخواء الأبقار الخارجة للحقول وصياح الديكة.. وانتشرت فى الفضاء زقزقة العصافير.. وعلى أطراف القرية شد مراد بك وطاقة وعندما أعطى أمره بالهجوم كبكت الخيول وصهلت وأخذت سرايا القواسة أماكنها عند مداخل القرية.. لم يدرك أحد من الأهالى ماذا يجرى خفية إلا عندما برزت كواكب الفرسان على مشارف الدروب ومفارق الطرق.. لقد توقف كل فلاح ينظر إلى قريبه أو زميله كتماثيل صنعت من الرخام لوهلة ثم تسابق الجميع وكل منهم يدفع ابنته وامرأته وأبقاره إلى الداخل ثانية.. لم يستغرق الأمر ثوانى فمع أول رأس أطيح بها من رءوس الفلاحين تصاعد الصراخ من جميع أنحاء القرية وتدافع الجميع يهربون من جحيم الموت الذى أخذهم على غرة.. ولم تمض الساعة حتى كان الفرسان قد أتموا انتشارهم فى أنحاء القرية وبدءوا.. يعملون تقتيلا فى كل من يقابلهم من الرجال والنساء والعجائز والأطفال لايستبقون أحدا.

وعلى مخارج القرية تدافع الفلاحون يطلبون الفرار.. وعندما بلغ بعضهم البوابة الشرقية آمن بالنجاة، واندفع هربا من القرية.. أعطى عثمان أوغلى سرجمة القواسه أوامره بالضرب.. انطلقت السهام فى الفضاء تئز تسبقها الأصوات القصيرة لضربات النشاب. تساقط عشرات الفلاحين بضربات القواسة.. توقف الفلاحون عن الخروج واندفعوا ناحية الأسوار يحاولون القفز ثانية دون جدوى.. كانت المذبحة قد قاربت على الانتهاء بخروج فرسان الشفاسية بجموع من النساء والفتيات الصغيرات والأطفال.

t.me/qurssan

امتطى مراد بك.. جواده وخلفه أمراؤه.. يسوق أمامه شيخ القرية والملتزم كى يدلوه على منازل الأعيان.. جرى إيليا خلف جواد عمر لاجين وهو ينظر آثار المذبحة والجثث المشوهة المتناثرة فى دروب القرية. تسحقها سنابك الجياد.. كان هذا إيذانا ببدء أعمال السلب والنهب فترك القواسة أماكنهم واندفعوا ينقبون فى الدور مثل بقية العسكر.. وداخل القرية كان إيليا يسمع ألوانا غريبة من صرخات النساء تأتى من داخل الدور ومن العليات والمقاعد.. صرخات فزعة مجدولة بمواء القطط والفزع الإنسانى المختلط بعواء العسكر وضحكاتهم.

ماالذى يجرى بالداخل.. رأى على أحد السلالم ساقين عاريتين لامرأة ملقاة على ظهرها وجمع من الجنود قد تحلق حولها... تساءل والفتاة تتلوى صارخة من الألم الذى تصنعه حواف السلالم فى ظهرها كيف لساقيها أن تأخذا هذا الوضع الغريب ومن أحد الدور الجانبية اندفع خارجا خمسة من القواسة العراة كما ولدتهم أمهاتهم، تتدلى قضبانهم بين حقويهم وهم يمسكون بامرأتين من شعورهن.. نادوا عليه أن يتبعهم لكنه لم يفعل.. وفى أرجاء القرية كانت النساء والفتيات يغتصبن والدور تنهب والمواشى والأغنام تخرج فى صفوف طويلة إلى خارج القرية نحو الغيطان.. وقرب المغرب لم يتبق من نساء القرية وفتياتها سوى خمسين امرأة شابة وفتاة أبقين للسبى.. وفى الليل كان إيليا يجلس فى خيمة عمر بك لاجين الذى كان يخلع ملابسه.. سمع إيليا صوت حركة داخل الخيمة.. رفع رأسه فضحك لاجين وهو يقول:

ـ تبا لك ألم تنل نصيبك من النساء؟

هز إيليا رأسه نفيا.. بصق عمر لاجين فى ازدراء.. قام إلى الداخل.. نظر إيليا لفتاة صغيرة من الفلاحات فى العاشرة من عمرها.. خرج إلى الهواء الطلق وهو يهتف فى صمت.. كيف يمكن لجسدها الصغير أن يتحمله.. ومن بعد رأى مئات الجنود تندفع فى ضجة عظيمة إلى خارج القرية وهم يصيحون صيحات نكراء.. لم يتبين إيليا الأمر إلا عندما رأى النيران ترتفع ولم تمض فترة حتى كانت السماء تشتعل والنيران تلتهم القرية عن آخرها. فى الصباح وعلى مشهد من أبناء القرى المجاورة وملتزميها الذين جمعهم مراد بك أخذت الجراريف تجرف الدور والأراضى والشون وحظائر الماشية.. وطوال اليوم وحتى عصر اليوم التالى كانت قد سوتها بالأرض.. وفى نفس المكان ظل مراد بك

t.me/qurssan

ثلاثة أيام فى حين كانت كشافته يجوبون الإقليم لجبى الكلف.. يهددون القرى بمصير طملوها إن لم يدفعوا... فإذا انتهوا طلبوا حق طريقهم وإذا استوفوا طلبوا المقرر.. وفى ظهيرة اليوم الرابع عندما عاد أخر كشافيه قام مراد بك إلى جواده.. دار حول نفسه دورة.. فنفخ فى نوبة الاستعداد للتحرك.. فلم تمض لحظات حتى كان الوطاق يتحرك باتجاه الشمال.

كان إيليا يصعد مع التطريدة إلى الشمال بمحازاة البحر الغربى حتى بلغوا رشيد فدخلوها مدينة خالية ليس بها أحد سوى الأشباح بعد أن هرب جميع أهلها أمامهم.. وقبل مغادرة رشيد طرح الإسكندرية على خشداشة فأخذها.. صاح أغا كتخدا الجاويشية على أن يكون حق طريقه خمسة آلاف ريال مقررا إلى والى البلاد ومائة ألف ريال إلى مراد بك.. فلما دخلها هرب التجار والنصارى إلى المراكب فشرع يهدم الكنائس فتقدم له قنصل الموسقوب عارضا عليه دفع المطلوب شرط أن يكون بموجب فرمان من الباشا يحاسب به السلطان. فتراجع مراد بك مغتاظا ورجع عائدا إلى رشيد.. عبرت جحافل الفرسان الطريق الساحلية.. رأى إيليا البحر الذى لاينتهى حتى الأفق لأول مرة منذ أن بيع فى مصر.. شهق قلبه ووقف على الشاطئ مدججا بالسلاح.. أطلق العنان لبصره.. سابحا فوق الأمواج والزغب يحاول أن يخترق ماوراء الأفق حيث يقبع ماضيه.. أراضيه وأهله وعشيرته.. كانت سرايا الجند تعبره واحدة خلف أخرى وهو لايدرى بها حتى غابت عن الأفق وتركته وحيداً.. لم يسمع طرقات الجواد الذى يلهب الطريق عائدا باتجاهه دق كتفه مؤخرة رمح.. استدار فوجد عمر لاجين يحدق به..

ـ هيه أين ذهبت..

هز إيليا رأسه..

ـ لاشىء ياسيدى.

كبكب جوادهما صامتين باتجاه التطريدة.. وقبل أن يبلغاها تحدث إيليا:

ـ سيدى... أصاغ له عمر لاجين السمع.

ـ إن حياتى تدين لك بوجودها.. إنى مدين لك بوجودى.. إنك أفضل من أمى التى ولدتنى.. إذ إنها أخرجتنى للحياة دون أن تعتد بما سيكون عليه مصيرى.. أما أنت فقد

t.me/qurssan

خلقت هذا المصير.. لوى لاجين عنق جواده وزام متوقفا فصار كل منهما باتجاه الآخر.. يتبادلان نظرات غريبة:

ـ إننى أحمدك لأنك من بين كل الأقدار التى كانت تنتظرنى هنا صيرتنى مملوكا..

دهش عمر لاجين لقوله «أحمدك» وهتف متعجلا:

ـ قل الحمد لله.

تقلص منخارا إيليا فقطع عمر لاجين هذا السيل المتبادل من النظرات.. قال بصوت بارد ثلجى وهو يلكز جواده قافزا به إلى الأمام:

- يجب أن تثبت أنك تستحق هذا الشرف.. هل تظن أن مجاورتك لنا تجعل منك مملوكا.. فانقلب ايليا تملؤه هواجسه. وعيناه لا تتوقف عن الزوغان.. كان رجال القواسة هم أول من تحرشوا به لما وجدوه عازفا عن القتال.. إذ أن رئيسهم الذى كان تابعا لعمر لاجين جذبه من كمه بشدة ونهره غاضبا طالبا منه قياده البغال التى تحمل عدة وأمتعة القواسة. رفض إيليا بشدة فحاول الرجال أن ينزعوا عنه سلاحه فتمسك به وقبض عليه قبضة الموتى فانهالوا عليه ضربا وهم يشبهونه بالنساء.. وفى المساء غمز أحدهم بأنه غلام عمر لاجين المفضل.. نشب بينهما قتال على الفور خرج منه إيليا بجراح شديدة فتحول الجنود عن فكرة كونه شاذا وأخذوا يغمزون بعذريته بالضحك والسخرية وهو الذى لم يره أحد يضرب بسيف أو يتثاقل على امرأة من نساء الفلاحات الثريات.

* * *

بلغت التطريدة جمجيون ليلا وضرب الفرسان وطاقهم حول القرية حصارًا منع كل أحد من الخروج.. وطوال الليل كان الأهالى يشاهدون أضواء المشعل تهبط وتعلو مع كبكبة الجياد باتجاهات شتى وقد أخذ الرعب منهم كل مأخذ.. خلع فلاح فى الأربعين من عمره ملابسه ووقف عاريا كما ولدته أمه وسط منزله وأخذ يبتهل إلى الله بالدعاء ويخرج ألفاظًا غير مفهومة.. وطوال الليل خرج ينادى اللائذين بجحورهم طارقا بعصا على طبلة معلنا النذير بعقاب الله ينزله على عصاة خلقه الذين فجروا فى الأرض.. سمعت ضربات الطبول لدى التطريدة قادمة من القرية تأتى وتذهب مع الرياح والجند ينصتون لايدرون ماذا تكون..

t.me/qurssan

وفى الصباح هاجم الفرسان جمجيون فقتلوا جميع من فيها وهدموها عن آخرها وأطاح إيليا بسيفه بخمسة رءوس وطعن ثلاثة وعشرين جسدا طعنات نافذة وأطاح بعشرات الأيدى والأطراف.. وفى دروب المدينة وقف رجل عاريا كما ولدته أمه يقرع الطبول مبشرا بالنذير الإلهى.. وكانت الخيول المهاجمة تحيد عنه ولاتقترب.. لايلتفت إليه الفرسان الذين رأوا فى دقات طبوله نذيرا مستوحشا بدائيا ينم عن جبروتهم وسلطانهم.. وفى عريه الكامل إعلان عن استسلام وخضوع مطلق.. وعلى طول المسافة بين جمجيون وكفر دسوق كان الأمير مراد بك يشيع الخوف والدمار.. يخرب القرى والدساكر.. يتلف جنوده المزروعات وعلى نفس الطريق تبعهم رجل عار دعاه الأهالى بالشيخ على البكرى المبارك كان الناجى الوحيد من مذبحة جمجيون ـ وهو يهذى بكلمات غير مفهومة تتخللها عبارات النذير القاسية والتسبيح بالجبار الذى هو حى قيوم لايقهر.. والذى هو المدمر الغاضب على من عصى وتكبر، ضارب الخطائين التاركين عبادته، السادرين فى غيهم طمعا فى الحياة الدنيا الرخيصة. كانت جماعات الفلاحين الذين أصابتهم نكبة تطريدة مراد بك فى وجوم وشعور طاغ بالذنب وتأنيب الضمير والذات يتملكهم على ماصنعته أيديهم من ذنوب.. ولقد فسر لهم مشايخ القرى وكبار الحكماء منهم أن الله ترك لهم هذا الولى كى يعلمهم أن المصائب والنكبات التى ينزلها بهم المماليك ليست عن مشيئتهم أو مشيئة أمرائهم فما هم إلا أداة فى يد مشيئة أخرى مشيئة أكبر سموا وعلوا من مشيئة الإنس.

قبل أن يشرع المؤذن فى الأذان لصلاة الفجر كبس العساكر على كفر دسوق.. استيقظ الفلاحون فزعين على صوت طرقات حوافر الجياد وصياحات فرسان الشفاسية.. خرجوا يستطلعون الأمر لايدركون أن أعصار الأمير مراد بك قد تأتى له أن ينحنى فجأة عائدا نحوهم كى يدمرهم.. يفنيهم عن آخرهم.. جمع ملتزم الناحية وشيخ القرية كل أفراد عائلتيهما معا البالغ عددهما ستة وسبعون فردًا من النساء والأطفال والشيوخ والصبية والرجال ووضعوهم فى دوار قديمة بنوا مداخله بالطوب النى وأخفوه جيدا.. دار الجنود حول سور الدار القديم دورة يلتمسون له مدخلا. نقبوا جدارا أدخلهم إلى ساحة جرن قديم يتوسطها قبر داروا دورات عديدة حول أنفسهم ثم مالبثوا أن سمعوا ضجة بالخارج فاندفعوا خارجين إلا إيليا الذى وقف يهز رأسه الملقاة

t.me/qurssan

إلى الامام نصف سقطة وهو ينفث زفيرا حارا من منخاريه كذئب يعدو شيئا ما أجبره على الوقوف.. ثمة أشخاص مختبئون هنا، شم الفضاء بمنخاريه.. ثم عاد إلى المقبرة رفع السياج الخشبى القصير الذى يحيط بالشاهد.. عبر المكان الداخلى.. غالب تردده وآخذ يدفع الشاهد.. سقط سيفه على الأرض صانعا طرقتين فجاوبه من الداخل ثلاث طرقات.. توقف إيليا بغتة وأعاد الطرق بسيفه.. فجاوبه الطرق من الداخل ثانية فاتسعت عيناه وافتر وجهه عن تكشيرة سعيدة.. غمر الشاهد بالزيت.. ثم أشعل النيران.. ظل واقفا لايتحرك.. والنار تتصاعد تمسك بالبناء تلفح وجهه بشدة... سمع صهيل جواده بالخارج.. كان الجواد مهتاجا يضرب حافريه فى الأرض بشدة امتطاه وعاد يقترب به من الفناء المشتعل... وقف يتساءل إن كان للفلاحين أرواحا أنسية تصعد إلى السماء بعد موتها.. آم أنهم حيوانات تسكن أرواحها الأرض.. اندفعت النار كالأعصار تقتلع الشاهد من أمامها.. تصاعد الصراخ وأنين المحروقين يملأ البناء.. رأى أشباح من النساء والأطفال تنظر إليه وهى تتلوى من الألم وأياديهم تمتد نحوه تحاول أن تطوله.. هز رأسه المنكسرة إلى الأمام.. طرق الجواد الأرض بحافره.. أوشكت السقيفة على الانهيار.. تراجع الجواد بعنف إلى الوراء.. قفز قفزتين يمنة ويسرة حتى خرج به إلى الباحة الخارجية مسقطا إياه على الأرض.. غشى على إيليا للحظات قبل أن يفيق.. وقف نصف وقفة وفجأة انطلق من داخل البناء الحجرى سرب صغير من الطيور الملونة.. طار فوقه مباشرة فتراجع ساقطا على ظهره من هول المفأجاة.. استدار نحوها يتابعها بنظره وهى تطير نحو الفضاء البعيد.

* * *

- ٥ -

مع مطلع مارس من نفس العام دخل مراد بك القاهرة تسبقه المنهوبات وكان مقدمها قد بلغ باب زويلة وهو بعد لم يبلغ شبرا.. ولم يمض شهران حتى شاع فى البلاد أن الأمير الكبير قد عزم على إصلاح حال الدلتا الشرقية بعد أن بارت الأراضى وامتنعت عنها المياه بسبب تحول المياه بفرع النيل الشرقى إلى خليج منوف.. واستحسن الناس منه ذلك وقال لبطانته: هذه البلاد ملك لنا والفلاحون كالحمير تأكل وتضرب بالعصا وتنهق ولاتعى من أمرها شيئا.. ونحن ولاة الأمر وعلينا تبعة البلاد لوجه الله ومبغاة

t.me/qurssan

رضاه. سبقه كشافوه لجلب الفرد والتكليفات من الأراضى المستفيدة بسد الخليج والمضارة على حد سواء فلما بلغها كان بصحبته الفواعلية والصناع وظل مقيما بها يفعل مايشار عليه فوضع بعرض الخليج خمسة مراكب ملأها بالرمال والأتربة والحجارة وأغرقها واحدة بعد واحدة والناس فى ضجة عظيمة ففاضت المياه على الجوانب وأغرقت المناطق المجاورة.. ونظر الجميع إلى الفرع الشرقى فوجدوا المياه ترتفع به لأول مرة منذ أعوام عديدة فهاج الجمع ومال الوجهاء على مراد بك يقبلون ثيابه.. وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة.. كان الليل قد أزف والرسل تتوافد عليه من لدى إبراهيم بك قائم مقام البلاد تطلبه بسرعة الحضور وهو مصر على أن لايعود إلا وقد سد بحر الفرعونية الأعمى.

وفى هذه الليلة استقبل مراد بك على كتخدا والمعلم إبراهيم الجوهرى وحسن كتخدا الجربان وحسن أفندى وشقبون أفندى الديوان حيث علم بقدوم ططرى من البر وقابجى من البحر يحملان مكاتبات من الآستانة تطلبان الخزائن المنكسرة ومرتبات الحرمين من الغلال والصرر للسنوات الماضية.. وتوجه لهم اللوم بشدة على عدم زيارة المدينة بالعام الماضى وقد أوثقت بكتاب مصطفى بك أمير الحج الذى كتبه فى حضور شريف مكة وأحمد باشا للسلطان يخبره بتقصير أمراء مصر فى الوفاء بالعوائد والصرة لعام ١٧٨٤. ولعام ١٧٨٥.

وأعلم مراد بك بقدوم مراكب بحرية من لدى السلطان إلى الإسكندرية.. وإن صدر الدولة العثمانية حسن باشا القبطان يجهز للمجىء إلى مصر على رأس حملة لتأديب عصاتها.. فعزم على السفر صباحا إلى القاهرة لمقابلة شريكه فى حكم البلاد إبراهيم بك لمشاورته وتقرير مايعزمان عليه..

أشرق الصباح فقام من فوره وهو منتفخ الأوداج فى صحبة أعوانه متجها إلى البر الشرقى.. وهناك اغتم غما شديدا فقد عادت المياه لما كانت عليه قبلا وحول السد الذى صنعوه كان تيار المياه يجرى بقوة مبتعدًا عن الفرعونية صانعًا بحيرة ضخمة واسعة لاتلبث أن تعود إلى الخليج ثانية.. لم يكن بمقدرته أن يبقى فأمر بالترحال وقبل أن يبعد مائة خطوة سمع ضجة عظيمة كان أحد المراكب التى أغرقت بالحجارة فى سد يطقطق مائلاً على جنبه لتعود المياه ثانية إلى مجراها الأول بالخليج وهلة وتبعته

t.me/qurssan

المراكب الثلاثة الأخرى وكأن الخليج يرفض أن يرحل الأمير دون أن يشاهد فشله أمام عينيه.. رحل الأمير غاضبا باتجاه الجنوب فى حين تخلف عنه لاجين بك وحملة القواسة ومعهم إيليا الذى أصبح الآن يكنى من الجنود والعسكر بحسين الأشقر فقد تحولوا باتجاه الشمال الشرقى.. وقرب محلة رملة الأنجب تخلف إيليا عن الركب ميممًا شطر قصر سيده القديم بمنوف.

* * *

- ٦ -

كان المطر ينهمر بشدة تحت سماء مكفهرة تعدو تحتها السحب الرمادية الداكنة.. وعلى السهل كانت الرياح تكاد تخلع الأبواب والنوافذ من مصراعيها. ومن حافة النهر الصغير وحتى الأفق امتد البساط الأخضر لحقول البرسيم وعيدان القمح التى لم تنضج بعد تتخللها الأراضى البور الشاسعة.. تروى الجواد قبل أن يعبر القناة الصغيرة التى تسبق طريق أشجار الكافور.. وقبل أن ينطلق جذب قائده العنان.. جفل الجواد ودار حول نفسه دورة وهو يكاد أن يتزحلق من الأوحال.. تردد صهيله وسط السكون. قبل أن يقف.. نظر الأشقر إلى الأبراج الثلاثة فأصابته لحظة توهج وهو يطل من خلفها على منوف سار تحتها وهو ينظر إلى أعلى عندما دلف ساحة القلعة تدافع نحوه الغلمان وحياه الفلاحون. دفعه مراد بحربة خشبية فى كتفه الأيسر متضاحكا.. فاهتز الأشقر على جواده كبندول الساعة.. كاد أن يقع على ظهره لولا أنه تماسك. تضاحك الفرسان الصغار مماليك مصطفى أغا إيداكش وتقدم نحوه حسن أوغلى يريد مبارزته بالسيف فتلافاه الأشقر متراجعا بمهارة ومصمما على الصمود.. أما الآن وإلا فلا.. ظلا يتبادلان ضرب السيوف قرابة النصف ساعة دون أن ينهزم أحد والأشقر ملتزم بالدفاع.. قال إيداكش لزوجته الأميرة شريفة التى وقفت تطل على الضجة التى تجمع حولها العسكر:

ـ يريد أن يكون فارسا هه... يخلع ثياب حرب هذا ويعود إلى حظيرات.. بان على وجهها الغضب تريد أن تقول شيئا لكن قامة الفتى وعضلاته وامتلاكه ناصية القتال

t.me/qurssan

أوقفها عن القول فدخلت دون كلمة ودخل إيداكش خلفها مندهشا على آن دهشته لم تتوقف إذ أنه عندما أشرف الليل أرسل فى طلبه فجاءه الخادم على عجل يخبره أن الأشقر قائم على الصلاة.. كاد إيداكش أن يستلقى على ظهره من الضحك وقام يجرى وكرشه الضخم يهتز أمامه والخادم خلفه. عند باب الحظيرة أشار إلى الخادم ألا يحدث صوتا وتسلل حافيا فى لباسه الداخلى وأطل من الباب مثل جربوع كبير يستطلع مايجرى أمامه باهتمام فوجده يصلى ويركع دون توقف.. عد الركعات فوجدها ست ركعات فدخل مسرعا وهو يصيح مقاطعا صلاة الفتى..

ـ غلط أشقر غلط.. حبيبى أنت تصلى ركعات كتير.. وأخذ يشرح له باهتمام بالغ.. حبيبى صلاة العشاء أربع ركعات فقط.. صلاة المغرب ثلاث.. والظهر أربع ركعات والعشاء أربع ركعات ثانية.. الصبح ركعتان.. أجاب حسين الأشقر ببراءة:

ـ أنا أصلى ركعات السنة عن مولانا محمد رسول الله.. صدم إيداكش الذى ترك الصلاة منذ زمن بعيد دارى خيبته وهو يصيح بفرح:

ـ عظيم عظيم.. عظيم حسين عظيم.. أنت تصلى كتير تصير من الصالحين وتدخل جنات عظيمات.. وخرج يجرى إلى امرأته وهو يكاد ينفجر من الغيظ وأخذ يدور فى حجرته كفأر فى مصيدة.. لكن دهشته كانت مضحكة عندما وجد النور لايزال مضاء فى حجرة الأشقر.. تسلل عائدا إليه فوجده جالسا على مقعدته مربعا يقرأ فى مصحف جميل وضعه على منضدة واطئة ويرتل الآيات القرآنية.. كاد أن يغشى عليه وهو يقول مصعوقا:

ـ أمان ربى أمان ـ مش معقول.. لعنة الله عليك عمر لاجين.. لعنة الله عليك.. فى قلعتى وقصرى وبجوار حجرتى شيخ.. واندفع إليه.. أنت ولد عظيم حسين.. أقرأ ولد وأسمعنا آيات بينات.. ففعل حسين مضطربا وأخذ يقرأ بلغة ركيكة.. فلما فعل قام إيداكش جريا وهو يصرخ عظيم فخيم والله فخيم.. وعاد وهو يحمل كتبا كثيرة أغلبها ممزق كان قد سرقها أثناء تنقيبه لدور الأعيان والعلماء.. وضعها أمام الأشقر.. خذ حسين ولد أنت لازم تقرأ لازم تتعلم هذه مصاحف شريفة وكتب تفسير عويصة اقرأ واسمعنى.. مد الأشقر يده إلى كتاب فهم الألباب فى شرح خفايا الأحباب لابن دلهمى..

t.me/qurssan

كان كتابا منقولا عن ألف ليلة وليلة.. سعد إيداكش بالقصص التى تحكى مغامرات الأمراء مع الجن والسحرة وعندما أزف الفجر قام إيداكش وهو يقول هامسا:

ـ آنت اسمك يصير حسنين أفندى أشقر وتصير دفتر دار سنجق مصطفى إغا إيداكش.. مفهوم حسين أفندم.

ـ مفهوم أفندم.

وكمان آنت تنام من شأن تصحى بدرى لأعمال جسام.. أعمال مهمات.. مفهوم حسين أفندى؟

ـ مفهوم أفندم.

* * *

امتلأت المندرة الخارجية لقصر السنهورى الذى استولى عليه من السيد الجوهرى أيام الطاعون بالمشايخ والعلماء وأعيان منوف وتجارها الذين افترشوا البسط والسجاد واجتمعوا على الحشايا والوسائد.. وبالخارج تجمع جمع كثيف من الفلاحين والفلاحات فى ضجيج وفرح.. وفى مقدمة الصالة جلس إيداكش أغا فى وقار وخشوع والشيخ السنهورى مستأسد الوجه يتوسطهما الأشقر يتلو القرآن من مصحف أمامه واستحسان المشايخ والأعيان يرتفع من كل مكان.

ـ بركة الشيخ السنهورى.

ـ لقد أنزل الله فى قلب الفتى نور الإيمان.. فجعل الأبكم ينطق الحق.. قال السنهورى معقبا:

ـ لقد خلق الله القرآن بلسان عربى وهو قادر أن ينشره فى كل مكان من المعمور.. قرأ الأشقر إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله.. والله يشهد إن المنافقين لكاذبون. اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون. صرح الأشقر لنفسه مفكرا بعمق أنا لست مسلما ولم أعد مسيحيا.. فمن آكون.. منافق.. لمح بطرف عينه عينا الشيخ السنهورى الذئبتين.. والأفواه تقبل يده الممدودة إليهم تنهل منها ومن ملابسه البركة فقدر ببساطة أن السنهورى رجل منافق أيضا.

t.me/qurssan

وسط جمع كثيف من الفلاحين والفلاحات اللاتى يزغردن والصبية تقفز فى كل الأنحاء تنظر للمملوك الصغير بإكبار وإعجاب بالغ تتحدث بقدرة الخالق وحكمته.. ومن شرفة المندرة الداخلية أطلت وجوه الصبية الثلاثة حامد ومحمد وعبد المحسن تنظرمايحدث بالداخل وبين أجسادهم الصغيرة انحشر رأس بدرية هو الآخر يرى الأعجوبة الأعجمية وهى تتلو القرآن.. صاح محمد أبو الفضل:

ـ أى وحق سيدى أبو حديد بيقرأ القرآن لبلب... قال حامد:

ـ شوف ياولد دا الشيخ محمد أبو قنديل هو اللى علمه.. فعارضته بدرية:

ـ شيخ أبو قنديل إيه ياروحى أبويا الحاج السنهورى... أيوه.. قال محمد أبو الفضل ـ دى بركة الشيخ السنهورى.

نظرت إليه موافقة. فقاطعها عبد المحسن غاضبا. والله د شيطان ابن شيطان.

فنظر إليه الثلاثة بحنق خاصة بدرية التى أسرت ماقاله فى نفسها ودون أن تعقب بشىء زامت بغضب فهز رأسه غير مكترث. وعندما حان توزيع الحلوى أعطت ملء يدها إلى كل من حامد ومحمد أبو الفضل وتجاهلته فدار دورة حول نفسه ثم دفع بيد حامد بضربة قوية أطاح بها فى الفضاء وهو يقهقه وجميع الأطفال يندفعون يتقاتلون على الحلوى بشراسة.. بكى حامد واحتزر منه محمد أبو الفضل مهدداً وقد أخفى مايملكه وشدد عليه فانتهى الأمر بينهما إلى عراك دامٍ انتهى بجرح غائر فوق حاجب حامد ونزيف من أنف محمد أما عبد المحسن فلم يصاب بشىء سوى ارتطام رأسه بحجر ملقى على الأرض جعله يدور حول نفسه وهو يحاول جهد طاقته ان يخفى ألمه ثم مالبث أن انفجر فى بكاء حار طويل...

ارتفعت ضجة عالية أمام بوابة قصر السنهورى إيذانا ببدء الجزء الثانى من الاحتفال حيث بدأت طلائع موكب طويل تتقدمه جماعات المنشدين وهى تعزف الموسيقى وتدق الطبول ثم كاشف المديرية مصطفى أغا إيداكش وقاضى المدينة الشيخ السنهورى والسيد البقلى عميد تجارها وأعيانها. وفى وسط الموكب سار حسين الأشقر ممتطيا جوادا مطهما وعلى رأسه العمامة الخضراء الضخمة.. وعلى أسطح الدور وقمم البوابات ومن الشرفات والأبواب كانت الزغاريد وصيحات الإعجاب تنطلق من

t.me/qurssan

الأفواه المتعبة المكدودة. وكلما عبر الموكب دار ثرى توقف حيث يخرج الخدم حاملين آنية الشربات والحلوى.

وعلى طول الطريق كانت عينا الأشقر تضيقان وتزدادان عمقا وهو يتذكر قول عمر بك لاجين. وهما يعبران طنطا فى مولد السيد البدوى وسط زحام الأهالى والفلاحين.. إذا رأيت مولدًا وجمعًا غفيرًا ومهرجانات كثار والعبونات يتقدمها أغاوات وبكوات ومشايخ ومجاذيب. فلا تظن أن تحت القبة شيخًا.. إذ إنك لو رفعت مقامه كما فعلت ذات يوم وأنا بعد شاب أخرق فلن ترى سوى رفات لعظام متهالكة أو لا تجد شيئا سوى نمل وديدان.. فالشيخ الحقيقى ستجده فى مكان آخر.. انظر حولك تجده فى صندوق النذور.. نظر الأشقر حوله.. كان سيده الأغا والشيخ السنهورى والسيد حسن البقلى يتقدموه.. شعر بضيق شديد فى صدره. نفث بمنخاريه وحرك رأسه كالمصروع يحاول السيطرة على نفسه. اشتد ضيق عينيه وعمقهما وتدلى فكه كذئب ضارٍ. عبر رءوس أسياده إلى رءوس جموع الفلاحين الغفيرة التى تحيط بالركب وتضيق الخناق عليه طربا.. كان يراها رءوسا حان قطافها.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الرابع

- ١ -

فى نوفمبر ١٧٨٥ تولى محمد باشا يكن منصب والى الديار المصرية فوجد المماليك ينعمون بها دون العثمانيين وكان كل من مصطفى بك السكندرى وعثمان بك الشرقاوى وأحمد بك الكلارجى ولاجين بك يعيثون فى قبلى البلاد فسادا دون رابط ولاضابط ولم تمض أربعة أشهر حتى عادت حملة مراد بك من شمال الدلتا وغربها بعد أن أحرقت القرى والكفور والدساكر وأتلفت المساحات الشاسعة من المزروعات وتركت خلفها المنوفية والبحيرة والغربية دمارا وأراض جرداء وكأنها هوجمت بالجراد.. فشرع من فوره فى مكاتبة الدولة العثمانية محذرا إياها بأن مايجرى فى البلاد المصرية هو إعداد لعصيان كعصيان على بك الكبير القديم وأن المماليك وعلى رأسهم مراد بك وإبراهيم بك قد بدءوا بالفعل فى جباية وسرقة الأموال الطائلة استعدادا لجلب مزيد من المماليك والأجناد وتجهيز البقسماط والذخيرة.. وأن تأخير الخزائن المنكسرة وعدم دفع مرتبات الحرمين من الغلال والصرر ليس إلا بداية العصيان الذى لم يجهروا به بعد.. وأن على الدولة العثمانية أن تضرب بيض الأفعى قبل أن يفقس فلا تخسر كل شىء.. وكان لعرض المحضر الذى كتبه أمير الحج مصطفى بك على نفسه ووضع عليه ختمه وخطه أمام الشريف سرور شريف مكه وأحمد باشا أمير الشام والذى تعلل فيه بأن الأمراء المصريين لم يوفوا له لا بعوائد الحرمين ولا جده والمدينة لعامين متتاليين أبلغ دليل لدى السلطنة على المخاطر التى أصبحت تتعرض لها فى مصر..

وجاءته المكاتبات من السلطنة تقول..

(اعلم إذا بأن الوزير المعظم والوجه المكرم حسن باشا القبودان قادم فإياكم والعناد وإن فعلتم توقعواحربا فإنكم تخربون بلادكم فقد بلغنى أنه تعين مع حسن باشا ستة

t.me/qurssan

وستون ألف عسكرى من جنس التتر ومائة وعشرون ألفًا من الدلاه وثلاثة وسبعون ألفا من عسكر البلقان والموره. وعلمت أن عساكر البر معها ثمانون ألف ثور ومائة ألف جاموسة لجر المدافع ومن المدافع مايجره خمسون ثورا).

فى أواخر يونيو ١٧٨٦ أخذت المراكب الحربية تتوارد على الإسكندرية محملة بالعساكر وفى ٢ يوليو وصلت القاهرة مكاتبة على يد أغا رومى يحث الأمراء على دفع المطلوبات.. فاجتمع الأمراء فى القلعة لدى الباشا ودار حديث طويل اشتد فيه مراد بك على رسول السلطنة وعلى الباشا وذكره قائلا ـ ياباشا ليس لكم علينا إلا الحساب ـ ندفعه فنكون أدينا ماعلينا. وكان إبراهيم بك يحاول أن يخفف من حديث زميله الخشن دون جدوى.

ـ أمهلونا إذًا حتى نهاية رمضان. فحاسبونا على كل ماهو فى طرفنا نورده.

قال الباشا: فهل تكفوا عن الرعية وترفعوا عنهم المظالم.

ـ وهل اشتكى الرعية ياباشا. اسمع أقول لك ترسلوا لكل من وصل إلى الإسكندرية يرجعوا من حيث أتو وإلا فلا نشهل حجا ولاصره ولاندفع شيئا.. وهذا آخر كلام.

ـ أتهددنى ياأمير.. هذه أرض المسلمين وهى أمانة فى عنق أمير المؤمنين وخليفة رسول الله السلطان عبد الحميد ترسى مراكبه حيث تشاء وتنزل عساكره أينما تريد.

* * *

وفى الأسبوع الأول تواترت الأحداث مسرعة.. فعندما تأكد قدوم حسن باشا القبودان قائد البحرية العثمانية أخذ الأمراء يتخبطون فحاولوا توكيد حلفهم مع عرب الهنادى بإرسال لاجين بك ومصطفى السلحدار. وقبل أن يصل الرسل لرشيد كان عرب الهنادى قد قابلوا أحمد باشا والى جده المقيم فى الإسكندرية فتعاهدوا منه ضد المصرلية.

وفى ٧ يوليو ١٧٨٦ صعد إبراهيم بك ومراد بك ومعهم بقية الأمراء ومشايخ البلاد إلى ديوان القاعة. صمت مراد بك وتولى إبراهيم بك الحديث فى لين..

t.me/qurssan

- ياباشا كل ماتقوله حق. نكتب عرضحال جميع أمراء ومشايخ نذكر فيه توبتنا وإقلاعنا ورجوعنا عن مخالفة السلطان وظلم الرعية ونتعهد بدفع اللوازم.. بل نقرر على أنفسنا تقدمة من الأمراء جميعا إلى القبودان وزير السلطنة الأول الدستور المكرم حسن باشا وتقدمة أخرى لأمير جده قدرها ثلاثمائة وخمسون كيسا.. أشار مراد بك إلى عثمان بك الشرقاوى إشارة ذات مغزى فجرى هنا وهناك متعثرا ثم عاد ناشرا عرضحالات طلب الغفران والتوبة فقرأها مشهدا عليها الشيخ البكرى والشيخ السادات والعروسى والدردير والحريرى والسنهورى. ثم قدم الألفى بك العرضحالات التى كتبوها بإقرار ماعليهم من مدفوعات للدولة العثمانية والحرمين وجدة والمدينة وعرضوا إنشاءات كثيرة للعرضحالات وقيل بعض منها للشيخ الصاوى والأخرى للشيخ السنهورى.....

وتصاغر مرادبك وركع مقبلا ركبتى الباشا واتجه سائلا إياه الشفاعة..

- ياسلطانيم نحن فى عرضك فى تسكين هذا الأمر ودفعه عنا ونقوم بما لدينا ونرتب الأمور وننظم الأحوال على القوانين القديمة.

فرد عليه الباشا: ومن يضمنكم ويتكفل بكم.

صرخ مراد - أنا سلطانيم.. أنا الضامن لذلك.. وضمانى على المشايخ والاختيارية.. فهز الشيوخ رءوسهم.. والباشا يكز على أسنانه غضبا منهم.

وفى نفس اليوم دخلت الإسكندرية درة البحرية العثمانية سفينة القيادة وعلى متنها الوزير المعظم للبلاد العثمانية حسن باشا القبودان.. وعندما بلغت أخباره الأمراء عزموا من فورهم على إرسال جماعة من العلماء والوجاقلية إليه ومعهم مائة وزن بن ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل وعودا وعنبرا وأشياء أخرى كثيرة.. وكان هدفهم أن يجتمع المشايخ به فيكلمونه ويستخبرون مراده ويذكرون له ويضمنون امتثال الأمراء المصريين وطاعتهم وعدم مخالفتهم ورجوعهم عما سلف ويذكرونه ببؤس حال الرعية وماتستوجبه الفتن والحرب من ضرر وتلف يحيق بهم ومن العجب أن هذه العبارة بالذات كانت عبارة مراد بك..

على أن الركب لم يكد يبلغ شلقان حتى كانت الأمور قد تطورت تطورات جسيمة

t.me/qurssan

ففى خلال هذه الأثناء وبعد إعلان توبة الأمراء إلى الوزير الأول خرج لاجين بك ومصطفى بك فحرقوا وردان والبلاد التى تحيط بها فخرج منها جمع غفير من الحفاة والعراة ظلوا سائرين حتى بلغوا الإسكندرية فدخلوها فى ١٢ يوليو وهم يستصرخون بالشكوى والعذاب فاستقبلهم حسن باشا القبودان بنفسه وأصدر أمره برفع الخراج عنهم سنتين... ورحل من فوره إلى رشيد.

* * *

- ٢ -

كان موكب البغال الذى يحمل وفد المشايخ يتحرك مسرعًا فى الطريق المضاءة بالمشاعل الزيتية والمحاطة بالأشجار الباسقة المؤدية حتى قصر مصطفى جريجى باش سراجين مراد بك وسردار رشيد الذى غادرها إلى القاهرة هاربا فنزل به القبودان الذى استقبلهم على الفور مرحبا بالإجلال والترحيب ومظهر البشر والسرور وأمر لهم بمكان للنوم ورتب لهم طعام السحور. وفى اليوم التالى جلس متصدرًا المكان وبدأهم بالقول.

- إيش تريدون يامشايخ.

فأجابه الشيخ السادات: يامولانا أرسلنا الأمراء لحضرة جنابكم المعظم لقبول توبتهم وأعلامكم بنيتهم على الطاعة والقبول والرجوع عن الأفعال التى تقدمت.. رفع القبودان رأسه وقد تصلب وجهه وبقى على صمته وبقى السادات كذلك على صمته وكأنه انتهى فكرر الوزير قوله ثانية:

- إيش تريدون يامشايخ مصر الأفاضل يامكارم أهل البلاد.

قال العروسى وقد شعر أن الكلام بدأ على غير مايرغب القبودان: حال البلاد قد ساءت ونخشى أن تزداد سوءا بالفتن والحروب. فكأن قولته هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير.

قال وهو يضحك بسخرية: جئتم ياأهل العلم تشفعون لجماعة من المماليك الكفرة وقد كنت أظن أنكم قد جئتم تطلبون رفع المظالم عن الرعية والفلاحين الضعفاء.. فبئس قرية فسد علماؤها.

t.me/qurssan

قال العروسى: يامولانا رعية مصر قوم ضعاف.. وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس.

فقال: لاتخشوا شيئا فأن أول ماأوصانى به مولانا السلطان هم الرعية لقد قال (إن الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعك ماأودعنيه الله تعالى) ولهذا، وأشار إلى كتخداه إسماعيل بإشارة من يده، أصدرت الفرمانات الآتية وذلك بجعل حق طريق المعنيين ثلاثون نصف فضة لا غير وقررنا أن مال الفدان سبعة أنصاف ونصف نصف.. ندت آهة من الخلف لم يستطع الشيخ السنهورى الذى جلس فى مؤخرة الوفد أن يخفيها.. تمتم قائلا: ومن أين يأخذ أولاد الأصول حقوقهم. ورفع صوته قائلا: اللهم احفظ لنا دستور البلاد الإسلامية حسن باشا الوجه المكرم الذى أنصف الفلاح الذى يزيده مايفيض لديه من المال افتراء فيفسد ويفسد محصوله ويترك الزراعة. عله يارب يدرك صنيعة القبودان له. فتمتم الجميع بالدعاء واللهج بالحمد والثناء على الوزير.

قطب القبودان قائد البحرية العثمانية مابين حاجبيه وهو يشد فى ذقنه متسائلا: كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاما عليكم يسومونكم بالعذاب والظلم؟ لماذا لم تجتمعوا عليهما وتخرجوهما من بينكم.

سارع إسماعيل أفندى الخلوقى متعجلا القول والتبرير: ياسلطانيم أنهم عصبة شديدة البأس.. ويد واحدة.

اعتدل القبودان وحدق به غاضبا بعين من نار: تخوفنى ببأسهم.

استدرك الخلوقى: أعنى بذلك أنفسنا لأنهم بظلمهم أضعفوا الناس.

فاستطرد القبودان: بظلمهم وصمتكم أضعفوا الناس.. مد يده وبأصبعه رفع ياقة قفطان السادات المقصب وقال: من أين يتأتى لك كل هذا ياشيخ سادات.. فحار الرجل جوابا.

استطرد القبودان: تشاركونهم خير البلاد وجبى الأموال.

هز السادات رأسه نفيا بشدة وهو يصرخ قائلا: استغفر الله ياسلطانيم.

t.me/qurssan

قال: فإنى أصدرت فرمانا تأخذونه معكم وتقرءوه على الملأ فى الجامع الأزهر وأشار إلى إسماعيل أغا كتخدا فتقدم بالفرمان إلى الشيخ العروسى فلما قرأه اصفر وجهه.. فأمره أن يقرأه بصوت مسموع. فقال الشيخ العروسى:

ـ صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من ديوان حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم عالى الهمم وناصر المظلوم على من ظلم مولانا العزيز غازى حسن باشا صارى عسكر الصقر البحرى المنصور حالا روزمانجه همايون أيدت سيادته السنين وزادت رتبته العلية.

(نعرفكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان عبد الحميد الغازى ـ نصره الله ـ ماهو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس.. وأن سبب هذا خائنا الدين إبراهيم بك ومراد بك ونعين عليهما عساكر منصوره برا بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد حررنا هذا الفرمان إلى مشايخ البلاد وأكابر العربان فحين وصوله إلى كل ذى شأن فعليه العمل والاعتماد به والحذر ثم الحذر من المخالفة.. وقد عرفناكم).

ساد الوجوم لفترة بين المشايخ حتى جرؤ الشيخ العروسى على الحديث فقال طاويا الفرمان فى جعبته.. سلطانيم العفو والمغفرة والسماح.. هذا أمر لايمكننا فعله فى الوقت الحاضر.

فقبل عذره قائلا وهو يهز رأسه:

ـ تقولون هذا حسن باشا يجىء إلى رشيد ويهوش تهويشات ثم يرحل عائدا إلى الآستانة فإذا تبعناه ورحل ساء حالنا وباء أمرنا بالخسران.. هذا فعل الجبناء والذين يحبون مسك العصا من النصف.. يميلون مع من تميل.. أشار إلى إسماعيل كتخدا الذى حمل مجموعة من المكاتبات أعطاها له. قال القبودان ـ هذه مكاتبات تسلم إلى محمد باشا يكن. وأنا أترك الأمر لكم فإذا عدتم من حيث أتيتم وقابلتم من أرسلوكم وتتحدثوا بلسانهم ومنفعتهم ومصلحتهم قولوا لهم:

ـ القبودان قادم... استدار غاضبا معطيا لهم ظهره ومشيرًا لهم بالانصراف. فوقفوا حائرين لايدرون ماذا يفعلون.. حاول السادات أن يتقدم مقبلا أتكه قبل الرحيل لكن

t.me/qurssan

إسماعيل أغا كتخدا أشار لهم بالانصراف فخرجوا مهرولين بظهورهم يتعثر كل منهم فى ثوب الآخر.

قال الكتخدا للقبودان: أنها الحرب إذًا، هل سيسمح لكم الوقت بالبقاء حتى تتطهروا منهم... أنهم حية بسبعة أرواح.. وأخرج إسماعيل بك رقعة طويلة ومدها تحت قدم الباشا كانت تحتوى خريطة للبلاد.. فقال له هازءا.

ـ هل تظننى آحارب هؤلاء الصعاليك واللصوص بأصول الحرب وشغلات كر وفر. ثم أشاح بيده قائلا:

ـ سوف نحارب الحية بأعدائها. بين أتباع محمد بك أبو الذهب وعلى بك الكبير خصومة وحرب وقتال أكتب المكاتيب حالا للعلويين إسماعيل بك وحسن بك الجداوى وأطلبهما للحضور فسوف نملكهما زمام البلاد.. أسوأ مافى الأمر تحالف مشايخ البلاد معهم.. سيصعب هذا الأمر علينا.

ـ هل نشرع بدخول الدونامه إلى النيل الغربى.. هز رأسه يفكر ثم قال.

ـ سوف أنتظر وصول عابدى باشا بعساكر البر.

* * *

- ٣ -

فى ٢١ يوليو خرج الأمير مراد بك وصحبه وأتباعه مصطفى بك ومحمد بك الألفى وحسين بك شفت وحجى بك وسليمان بك الأغا وعثمان بك الشرقاوى وتبعه الأمير إبراهيم بك محاولا أن يثنيه للمرة الأخيرة عن الخروج للحرب فى فرقة والبقاء بالقاهرة وملاقاة القبودان سويا خيرا أو شرا فإن كان خيرا كان الصلح وإن كان شرا نزلوا إلى قبلى البلاد فى انتظار رحيل العسكر العثمانى عن الديار لكن مراد صرخ فيه للمرة العاشرة: هذا جبن.

فقال إبراهيم بك: عدتنا من العسكر معدودة محدودة فإذا بقى هذا القبودان وأخذنا نخسر العسكر وتموت منا المجاليب. ضعفت شوكتنا حتى قضى علينا والأمر الذى أراه أن نحتفظ بمماليكنا ولاتبذرهم كحبوب القمح فى الصحراء.

t.me/qurssan

فصرخ به مراد بك: أنتم تخافون عسكر عثمانى.. لقد كبر سنكم وأرجف قلبكم أخى وصديقى إبراهيم بك: نسيتم أستاذ جليل محمد بك أبو الذهب الذى هزم الجيش العثمانى وفتح الديار.. أخى أن بقينا هنا وتضافرنا ظنوا أننا جبناء ضعفاء ومانحن بذلك.

فقال له إبراهيم بك: الأمر لك ياخوند وقفل راجعا.

* * *

- ٤ -

كان على بك شركس من أتباع إسماعيل بك ينهب الأرض نهبا لبلوغ منوف والسيطرة عليها قبل أن يصلها حلفاؤه من العربان تحت قيادة شيخ العرب أحمد بن حبيب الذى عينه حسن باشا لغفارة البحرين والموارد من بولاق وحتى حدود دمياط ورشيد عودة للمراسيم القديمة التى رفعها عنهم على بك الكبير.

وكانت الأنباء قد بلغت منوف بانكسار مراد بك أمام العساكر الرومية فى الرحمانية وعودته منهزمًا إلى القاهرة بعد مناوشات عابرة. فخرج مصطفى إيداكش إلى القرى المحيطة بمنوف يعمل بها نهبا وسلبا استعدادا للهرب إلى الشرقية أمام الجيش العثمانى وحلفائه من جماعة المماليك تلاميذ على بك الكبير.

وطوال الليل شاهد الفلاحون الحركة قائمة على قدم وساق فى القلعة والمشاعل الموقدة وهى تتحرك، فقد رأى مصطفى إيداكش ضرورة بناء السور المتهدم الذى يحيط بقلعته والواصل بين الأبراج الثلاثة للدفاع عنها والأنباء تسابقه فخرج يسابق الزمن ويجمع الفلاحين.

وكلما ترامت الأنباء والشائعات بقدوم حسن باشا فى عسكره كان إيداكش يجن جنونه. وفى عصر أحد الأيام شاهده الناس يدخل فى صحبة عابد أغا وأحمد أغا الورفلى ورضوان أغا قصر السنهورى ولم يمض وقت طويل حتى شاهدوه خارجا وعلى وجهه سيماء غضب شديد والسنهورى يقول محاولا استرضاءه:

- أيوه أنا أقول يا أغا الفلاحون ليسوا أرباب حرب وليس لهم شأن بها.. وأكون خارجا عن الدين إن أصدرت فتوى تحضهم على الخروج عن طاعة السلطان والحرب

t.me/qurssan

ضد أمير المؤمنين وخليفة رسول الله يا أغا طاعة السلطان عبد الحميد علينا واجبة وكذلك من والاه، وتصير طاعة حسن باشا واجبة على المسلمين..... فصرخ به غاضبا:

- إيش تقول ومن فين تعرف شيخ سنهورى.

- أنا كنت فى مصر يا أغا وسافرت رشيد وقرأت بنفسى فرمانات وخط الهمايونى شريف واجب تعظيم من أمير مؤمنين. فقاطعه صارخًا هذه المرة:

- أنت تقول لى إسلام.. شيخ حرامى.. شيخ منصر.. سارق قصور وأيتام.. ونصاب تركات سنهورى خنزير... نصير النصرانيين... أنت تضحك على ذقنى... أنا عارف تعمل نفسك ليس لك دخل من شأن تكسب رضا حسن باشا خنزير من شأن يعطيك أرزقيات ويرفع عنكم أموال وغرامات ويغدق عليكم منح وهدايا وعطايا.. ألاعيب ما تخيل على سنهورى خنزير... شيخ نصاب يدخل جهنم بالبلغات.

أطلت الأهالى من ساكنى الدورب برءوسهم ووقفت النسوة يحملن الرضع.. وكان الأطفال أشجع الجميع إذ كان الركب يتعثر فيهم..

قال السنهورى..

- الله يسامحكم يا أغا... الله يسامحكم.. حرام عليك تفترى على المؤمنين حرام... كاد إيداكش أن يقع على ظهره من الضحك.. كان ينظر إلى السنهورى ثم يعود إلى الضحك.. يقول مؤمنين.. شيخ حرامى.. يقول مؤمنين... تدخل عابد أغا..

- يا جماعة الخير... حسن باشا وزير معظم ما يبقى فى أراضى مصرية.. هو ييجى من شأن يسرق سرقات وينهب نهوبات ويعود إلى حرب الموسكوب... والحقيقة أنتم لبعض من شأن إيش تغضبوا.. يا أغا.. المشايخ والانكشارية هم ضمانة لنا ولأحوالنا عند رحيلنا... بيصير لازم تتصالحوا وترجعوا مثل الإخوان...

صرخ إيداكش:

- أنا أصير أخو فلاح خرسيس مرسيس كلب فطيس.

- الله يسامحكم يا أغا... أنا عارف يا عابد بك بس هو مش عارف.. الله يسامحه.. هو مين حسن باشا واللا غيره... مصر بيصير لها ألف عام يحكمها المماليك ولما دخلها

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
العثمانيون تركوها أمانة فى يد الأمراء... بس إزاى فلاح يحارب جيش تركى ويحمل بنادق وسيوف ويبنى أسوار تحت النار... ويمشى فى خطوط ويركب خيول... لا يا أغا... الفلاح له فى مسك المنجل والفأس وهذه حرفته وهذا فنه... لا نزاع فى هذا... يعمل طول النهار وفى الليل يغلق الباب على نفسه بالترباس وينام حامدًا وشاكرًا ربه.. ثم صرخ مهتاجًا:

ـ الله جرى إيه يا عالم... إذا كان اللى بيتكلم مجنون يبقى اللى بيستمع عاقل. أنتم عسكر وتجيدون فن القتال وهم عسكر اصطفلوا مع بعضكم يا رجالة... إحنا طاعة أولى الأمر علينا واجبة... اللى قاعد فى القلعة أقول له يا سيدى... روح أقعد فيها وأنا أطلع حداك حافى وزاحف على رجليه من منوف لبر مصر...

ورفع السنهورى يده فى الفضاء وصرخ قائلاً:

ـ أنا غلطان. أنا غلطان يا عابد أغا؟

صرخ به إيداكش بأعلى صوته وهو يصعد راكبًا جواده:

ـ أنت حمار غشاش فلاح عايز ضرب الكرباج... قال هذا وهو يلكز مؤخرة جواده بمقبض سوطه بعنف لاويًا مقوده إلى الخلف... صهل الجواد وارتفع بقوائمه فتدحرج الأغا وسقط على مؤخرته بكل جسده الضخم... ضحك الأطفال عاليًا.. قام وهو يكاد ينشق من الغيظ سارع الجميع بما فيهم السنهورى وعابد أغا يحملونه مرة ثانية إلى جواده فى محاولة لتلاشى غضبه.. دفع السنهورى عنه بغلظة وغضب.. انهال على الجواد بالسوط مرتين قبل أن ينطلق به متقدمًا أعوانه عائدًا إلى القلعة.

كان الحديث الصاخب الذى دار بين سنجق المديرية والشيخ السنهورى قد انتقل بحذافيره على طول المدينة وطول اليوم كان الأهالى يصعدون إلى أسطح الدور ومآذن الجوامع يترقبون حسن باشا بفارغ الصبر وقد عقدوا رجاءهم فى العدل على يديه... كانت الأنباء ترد مع القادمين من النيل الشرقى عن حسن باشا فى عمارة بحرية غص بها النيل حتى أن مياهه فاضت على جوانبه وتحدث الأهالى عن سفن خرافية تبلغ مساحتها مساحة المدن وعليها مدافع يبلغ قطرها ما يتسع لبقرة «عشر»... وأصبح جنود إيداكش يلاقون مقاومة متزايدة عنيده من الأهالى وهو يعيثون فى المدينة. وبدأت تسمع تكبيرات وصيحات متناثرة من أرجائها..

t.me/qurssan

وقرب الظهيرة سمع الأشقر صخبًا عظيمًا وهو يعبر المدينة قادمًا من سورها القبلى ومعه ثلاثة من الفرسان يجرون خلفهم عربة محملة بالحبوب.

كان الصخب يتزايد مصحوبًا بتكبيرات وكانت وجوه الأهالى تقابلهم فى الدروب ومن على أسطح الدور مكشرة غاضبة صاخبة وكلما تقدم كانت ملامح العداء تتزايد وتبرز لاعنة... وقرب محلة السور انطلقت عليهم عشرات من قذائف الأحجار. شج رأس أحد الفرسان وجفلت الخيول التى أصابها الهياج... دار حسين الأشقر حول نفسه وهو يدور برأسه بين أسطح الدور المحيطة لا يرى أحدًا. هدد لاعنًا صاخبًا هو الآخر وعاد للتقدم... لم تمض لحظات حتى كانت القذائف الحجرية تنهال غزيرة أصابه حجر فى جنبه فصرخ من الألم... ولم يكن فى إمكان أحد من الفرسان أن يرى شيئًا. أطلق أحدهم النار فى الفضاء فتوقف القذف وعم المكان السكون لكز الأشقر جواده مسرعًا باتجاه القلعة ومثله فعل رفاقه فتابعتهم القذائف غزيرة قاتلة... حاولوا اتقاءها دون جدوى وأخذت جيادهم تعدو فى سرعة لاهبة وسط دروب المدينة الضيقة والقذف لا يتوقف.. كانت الوجوه تظهر الآن والأشقر ينهب الأرض كالمجنون وهو يقسم لنفسه أن يعود بالجنود ويزيل كافة الدور القائمة على جوانب هذه الدروب اللعينة.. لا.. بل سوف أضربها بالمدافع.. وقرب القلعة كان الدرب ينحنى انحناءة كاملة.. لمحهم كانوا مجموعة من الفلاحين وقفوا حاملين الهروات والنبابيت فى انتظاره.. لم يتوقف ولم يتوقف رفيقاه.. أشرع الثلاثة سيوفهم وزادوا من سرعة الجياد... الآن يشرع بالقتل لأول مرة بهدف.. دفاعًا عن حياته ولسحق من تجرأ على مقاومته... هم المماليك أسياد البلاد وأصحابها.. تقدمه الاثنان كانا أكثر حنكة فى قيادة الخيل... أصيب جواد الفارس الأول بضربة نبوت فى ساقيه الأماميتين فجندل على أم رأسه.. وشق الثانى رأس أحد الشطار لكن جواده تعثر فسقط وفوقه ثلاثة من الفلاحين يضربونه... صرخ صرخة مدوية بهيستريا... اندفع إيليا كالمجنون وقد أصابه الرعب وهو يرى رفيقيه يسقطا صرعى الفلاحين.. كان أمامه اثنان شق رأس الأول بسيفه وانهال الثانى على ظهره بضربة نبوت قوية تحملها وهو ينطلق دون توقف.. والزعر يمسك بتلابيبه... قبل القلعة سمع طلقات رصاص متناثرة... دخلها وهو يلهث.

رأى ساحة القلعة تمتلئ بالهرج والمرج... الكل يجرى فى جميع الأنحاء مصطدمًا

t.me/qurssan

بعضهم ببعض.. وعلى السور العلوى كان مصطفى أغا إيداكش يصعد جارًا جسده الضخم سلالم البرج الأوسط وهو يهز كرشه أمامه مرتديًا عدة الحرب وخلفه عابد أغا ومصطفى أغا الورفلى... بلغ إيداكش أعلى البرج فنظر بعينيه فلم ير شيئًا... صرخ طالبًا منظاره... فتساءل الجميع عما طلب... ولما كان لديه منظار ثمين مصنوع من الذهب ومحلى بالجواهر خبأه فى مكان خفى، فقد نزل يحضره بنفسه. عاد إلى البرج حاملاً منظاره مغتاظًا وقلبه مغتم ينفطر حزنًا وأسى على استخدامه لهذا المنظار التحفة.. عندما وضع المنظار على عينيه لم ير شيئًا قط فأخذ يعبث به ساخطًا لاعنًا ثم أعاد النظر به وأخذ فى إدارته يمينًا ويسارًا وفجأة توقف وقد أمسك لسانه عن السباب والشتائم القذرة التى كانت تخرج منه... كان الهلع واضحًا على وجهه.. صاح صارخًا وهو يرفع يده يرد شىء لا راد له...

- إنهم... إنهم ينصبون المدافع.. استدار وهو يسرع فى الهبوط وتسابق الجميع خلفه فى اضطراب وقبل بلوغه آخر سلمة كانت هناك قذيفة تنفجر قرب شاطئ النهر... نظر إلى السور الذى بناه حديثًا من الطوب النىء باطمئنان من ستر جسده العارى... جرى عابد أغا وهو يلقى الأوامر بتجهيز المدفعية وتحويل مرماها من الشمال إلى الشرق... صرخ فى أحمد أغا الورفلى.

- مدفعية يا أورفلى..

- كيف تأتى لابن المجنون هذا أن يهاجم من الشرق..

- ومن أين كنت تتوقع الهجوم...

- من الشمال يا أغا... من الشمال.. قال مشوحًا بيده.

- من بحق الله يدرى شيئًا بهذا المكان..

* * *

- ٥ -

ظل القصف المتبادل طوال النهار وقبل غروب الشمس دفع شركس بك بمراكبه لتعبر الفرعونية... تدعوه لهفة شديدة للسيطرة على المدينة قبل شروق النهار فوجه

t.me/qurssan

نيرانًا كثيفة وصليات كثيرة من المدفعية.. غرق ثلاثة مراكب للمهاجمين ورجع الباقون ظل مركب رابع يتأرجح على صفحة النهر جيئة وذهابًا وعندما غربت الشمس توقف القتال إلا من طلقات متقطعة وأخذ الجميع يجمعون جرحاهم ونزل بعض جنود إيداكش بقيادة الورفلى لنهب الموتى الذين تناثرت جثثهم على صفحة النهر.. وكانت الحرائق التى تناثرت الآن فى المدينة قد حوصرت بواسطة الأهالى... وقبل العشاء عقد إيداكش مجلسا حربيًا... وطلب عابد أغا من السنجق أن يسارع بجمع الجنود والانسحاب فورًا من القلعة متجهين إلى الشرقية أو القاهرة فرفض إيداكش بشدة صارخًا فى كتخداه:

- هذا عين الجبن لن أرحل من مكانى قبل أن ألحق بهم شر هزيمة.

بهت الجمع... وران صمت قبل أن يعود عابد أغا إلى القول:

- على حضرتكم إذًا أن تباغتوا بالهجوم... رد إيداكش وهو يمسك ذقنه مفكرًا:

- هذا ما أفكر فيه.. تخرج بعد انتصاف الليل ومعك تجريده فتعبر جنوبًا إلى كمشوش ثم فيشا وتعبر هناك النهر من مخاضة قريبة وعندما يشرق الصباح تكون قد تمكنت من مجنبة شركس بك قفز عابد أغا يقبل قدم إيداكش.

- لا أتحرك منها إلا وقدمى على قدمك يا سيدى.

- لماذا يا حمار.

- كيف تنقل مدفعية أفندم.

- هذا سؤال كتخدا خنزير... تجرها الحمير.

- وهل يمكن أن نسير دون أن يكشفنا أحد... لا شك أن شركس يحاصر المدينة الآن... أقول لك يا سيدى لماذا لا نعود إلى أقراننا وإخواننا بالقاهرة فنشتد بهم ويشتدون بنا.. ونقوم على القبودان قومة رجل واحد. فنسحقه..

صرخ حانقًا:

- أنت جبان عابد أغا... تضحك على ذقنى بتذويقات كلامات معسولات.

قال الورفلى.. - أتقدم أنا سيدى الكاشف.

t.me/qurssan

تهلل وجه الأغا حين وجد ضالته وقام معانقًا إياه هاتفًا:

- إلى العمل.

* * *

قبل منتصف الليل مباشرة سمعت ضجة هائلة آتية من جهة النهر فانطلق الجميع مذعورين وقد ظن كل منهم أن القلعة انهارت.. جرى الجميع إلى الفناء ومن منتصف السور كانت سكان السفينة الرابعة تطل فى بلاده وقرف على ساحة القلعة مخترقة السور الطينى بمقدمتها.. تحركت يمنة ويسرة ثم ما لبثت أن تراجعت وتقدمت ثم تراجعت ثانية ولكن إلى أسفل النهر تاركة السور خلفها وقد انهار كله وكأنه لم يكن.

* * *

بعد منتصف الليل بقليل خرجت من البوابة القبلية بمنوف أورطة من خمسمائة عسكرى بقيادة أحمد أغا الورفلى وفى المؤخرة سارت قافلة من البغال تجر ثلاثة مدافع ومحملة بألواح ضخمة من الأخشاب... جدوا فى السير صامتين يلفهم الليل البهيم.. ظل حسين الأشقر الذى كان قد رقى جاويشًا يدفع البغال بقسوة نحو الجنوب حتى بلغت القافلة قرية كمشوش على مبعدة ثلاثة أميال من منوف ثم انعطفت شرقًا باتجاه البحر الأعمى فى مكان يبعد عن على بك شركس قرابة ثلاثة أميال شمال فيثا.

- وضع الأشقر مدافعه على ثلاثة أطواف وأخذ يسحبها هو وجنوده فى صمت وهم يخوضون فى المياه الموحلة حتى بلغوا منتصف البحر.. سبحوا فى المياه العميقة دون ضوضاء حتى بلغوا البر الشرقى قبل الفجر بقرابة الساعة... مرت فترة طويلة دون أن ينقض عليهم أحد. كان الشاطئ خاليًا.. أرسل أحمد أغا الورفلى الأشقر فى صحبة فارسين إلى الشمال بمحاذاة الشاطئ للاستطلاع ولمسافة ثلاثة أميال حيث برزت أضواء منوف من الجانب الغربى وأضواء معسكر على بك شركس من الجانب الشرقى... لم يكن هناك أحد... أشعل الأشقر نيرانًا خفية إشارة لإيداكش بنجاح العبور. وكان ينتظرها بفارغ الصبر فسارع بإرسال ألف جندى آخر وثلاثمائة فارس نهبو الأرض نهبًا ليبلغوا الأرض التى عبر منها الورفلى بعد الفجر بقليل... وعندما عبرو الجانب الآخر من النهر أوقفهم الأورفلى بجوار معسكره..

t.me/qurssan

كان إيداكش قد جمع عشرين مدفعًا قبالة الجانب الشرقى وقد كشف السور المتهدم عن قلعته التى أصبحت لقمة سائغة فى فم المهاجمين.. وكان ينوى صد أى هجوم يأتى من هذه الجهة بأية وسيلة ممكنة... وعند شروق الشمس انهمرت على معسكر شركس حمم من قذائف المدفعية وتبادل المعسكران القصف وكان إيداكش ينتظر هجوم الورفلى دون جدوى إذ أنه بقى هناك لا يفعل شيئًا. بقى عسكر الروفلى فى أماكنهم فى انتظار الأمر بالتحرك لا يشغلهم الأمر فى شىء فهم بعيدون الآن عن المذبحة على الأقل... وحتى الظهيرة كان الموقف بالنسبة للأشقر غامضًا... كان الورفلى قد تحرك وحده إلى الأمام لمدة الساعة ثم عاد وتبعه بعد قليل عدد من فرسان الأروام... استقبلهم فى خيمته مرحبًا... فكر حسين الأشقر.. إنها الخيانة.. تسلل إلى خيمة والى منوف وتلميذ أستاذه إيداكش... هناك كان الورفلى يساومهم على تسليم إيداكش نفسه بمائة ألف ريال.. فعادوا رافضين.. قال كبيرهم..

- ليس فى منوف كلها هذا المبلغ.

فضحك الورفلى بمكر قائلاً:

- هناك أموال السنجق وودائعه.. وهناك كنز الأميرة الخفى.

بعد مضى ساعة ذهب الورفلى باتجاه الشمال بصحبة أحد الأروام عاد بعد ساعة متجهم الوجه.. خمن الأشقر أن مفاوضات الخيانة لم تنجح بعد.. اقترب منه مبتسمًا محييًا إياه.. مد يده إلى الورفلى فمد له الورفلى محييًا إياه.. قبض عليها الأشقر بعنف ثم جذبه بغتة من فوق حصانه فسقط الورفلى على الأرض فعاجله بقبضة خنجره على أم رأسه فى الوقت الذى قفز فيه ثلاثة من الفرسان يمسكون بالرومى القادم من معسكر شركس... وقبل أن تغادر الشمس الربع الأخير من السماء كانت رأس الورفلى والرجل الرومى ملقاة أمام إيداكش ومعها رسالة من الأشقر... يرسل له بالتحية والسلام ورءوس الخونة.. لم يرفع إيداكش رأسه ليحدث الرسول إذ أن ضجة عظيمة كانت تأتى من أسوار القلعة يحدوها تهليل وصياح.

هاجم الأشقر من فوره مجنبة على بك شركس الذى داهمته المفاجأة فانهار بعسكره وحدثت فيه مقتلة عظيمة وكان إيداكش فاقد الصبر إذ أنه جمع بقية جنوده وانطلق

t.me/qurssan

نحو مخاضة قريبة تقع فى الشمال عابرًا إلى البر الشرقى كى يشارك فى الغنائم والأسلاب فلم ينتصف نهار اليوم التالى حتى كان جيش على بك شركس قد انهزم هزيمة ساحقة.

وفى هذه الأثناء كان على بك الملط تلميذ على بك شركس يسمع دوى المدافع وهو واقف قرب رملة الأنجب فى ألف من الفرسان وقد أخذ به القلق كل مأخذ... كان غير قادر على التحرك بقواته دون قوات العربان الرئيسية التى تأخرت فى المجىء.. وفى منتصف الليلة الثانية بدأت طلائعها تظهر حتى تكاملت فى الصباح فلم يتركها ترتاح لحظة واحدة بل انطلق بها على الفور نحو منوف..

* * *

- ٦ -

عندما توقف الضرب تسلل ستة من الأطفال خارج الدار... عبروا سور المدينة من كوة صغيرة مغطاة بالأعشاب وأسرعوا حيث كانت الضجة تأتى قرب شاطئ النهر تسلقوا إحدى أشجار الكافور العملاقة والرياح تتلاعب بهم.. يتقدمهم عبدالمحسن غير هياب وخلفه عبدالله. أما حامد ومحمد فقد تخلفا لمساعدة بدرية وقمر... تتابع الأطفال من غصن لغصن وعلى قمتها جلسوا متباعدين يتابعون المقتلة العظيمة التى تجرى على الشاطئ الآخر..

كان الظن السائد فى المدينة أن إيداكش قد دمر عسكر الباشا وأن الأشقر الذى أرسل له رأس الخونة معلقة على سرير من الجريد ورقى ليصبح أغا قد استطاع دحر على بك شركس.. ومن شمال المدينة لمح عبدالمحسن غبارًا كثيفًا يتصاعد على البر الشرقى.. صرخت بدرية تشير إلى سحابة أخرى باتجاه المدينة مباشرة من على البر الغربى.. وعلى حين غرة صاح محمد أبو الفضل:

- عسكر الباشا.. كانت البيارق.. تتقدم الركب ببطء.. وعلى البر الشرقى احتل العربان رأس الجسر الذى عبر منه إيداكش للسيطرة على المخاطبة حتى لا يتمكن عسكره من التراجع.. وطوال الساعة شاهد الأطفال العربان وهم يفنون عسكر السنجق عن آخرهم.. وكان حامد يرتعد من الخوف وهو يوشك على البكاء..

t.me/qurssan

ـ آنا عايز أروح... قالها وهو يفهق فصرخ به عبدالمحسن:

ـ ماتروح يا ابن المفحور هو حد حاشك..

قال معترفًا بجبنه:

ـ أنا خايف يا ابن توحيده... وبدأ فى الهبوط..

تابعه الصبية على عجل وانطلقوا عائدين إلى المدينة والرعب يأخذ بتلابيبهم.. تسلل الصبية الثلاثة والطفلتان من الباب الخلفى لحوش قصر السنهورى وقبل أن يدلفوا إلى الباحة الداخلية كانت العصا تنهال عليهم من أمهاتهم... قفز الصبية وهم يصرخون مبتعدين ومستعدين للهرب إلى الدور المجاورة... صرخت فيهم توحيده.

ـ محدش فيكم شاف عبدالمحسن... توقف الخمسة مبهوتين بأعلى السلم. إنه لم يتبعهم.. نظرت الأم ملتاعة.. فين عبدالمحسن يا ولاد؟

قال محمد أبو الفضل مترددًا وهو يشير إلى الخارج:

ـ هناك... رددمحمد أبو الفضل كالنائم.. الله يرحمه.. ضربت توحيدة صدرها بكلتا يديها.. مات...

وصاحت النساء فى صوت واحد... يا نهار أسود... واستطردت صديقة وبهانة:

ـ هو آنتم كنتم هناك... وانطلقت المرأتان خلفهم.. فاستدار الصبية على أعقابهم يلوذون بالفرار.

* * *

بعد ساعة كان عبدالله مصرًا على أن يعود للبحث عن ابن خالته عبدالمحسن وأيدته قمر وبدرية ورفض محمد أبو الفضل وحامد وظلا وراءهما يخوفانهما حتى تقاعسا... آخذهما محمد وجعلهما يسيران خلفه حتى أدخلهم القصر وأمسك بهما وهو يصرخ بأعلى صوته:

ـ امسكى ولادك يا خالة صديقة.. عايزين يجيبوا الواد عبدالمحسن.. امسكى ولادك عايزين يموتوا.. كان الاثنان يحاولان التخلص منه دون جدوى...

سيبنى يا ابن..... مش رايح ورا حد.. قال عبدالله لكن محمد أبو الفضل ظل على هياجه:

t.me/qurssan

- أنا خلصت ضميرى وربنا شاهد عليه... يا خالة صديقة الحقى.

جرت النساء نحوه يمسكن بالطفلين وحضرت صديقة فلقنتهما علقة ساخنة ومحمد أبو الفضل واقف ينظف يده وهو يقول لأمه:

- دى لولاى يامه كانوا ماتوا... كان حامد ابنك مات.

كانت أمه تسبح له وتمسح على رأسه تقرأ له الفاتحة وتدعو له.

- الله يهديك يا ابنى.. الله يجازيك بنيتك الطيبة ويعوضنى فيك خير... وعبدالله يقطع دعاءها لاعنًا هذا المنافق الصغير.

* * *

عندما هبط عبدالمحسن إلى الأرض كان الصبية قد اختفوا تاركين أثرًا من الغبار وبدلاً من أن يتبعهم صوب المدينة قرر أن يعود إليها من جهة الجنوب... فكر أنه قد يوجد أحد ما بالقلعة.. شىء ما سحرى ينتظره... اشتد وجيب قلبه وهو يسمع صوت البارود.

خاض النهر الصغير ثم قفز سابحًا لمسافة مائة وخمسين مترًا ثم انعطف ليصبح بمحاذاة السور الشرقى للقلعة المتهدم.. وطئت قدماه الأرض ثانية أخذ يتشبث بالأحجار والفجوات الصغيرة بالسور وهو يعبر فى طريقه إلى الجنوب ملتفًا حول القلعة... لم تكن المرة الأولى التى يلف فيها حول المدينة من جهة القلعة سابحًا... سمع قصفًا عنيفًا بالمدافع يملأ الفضاء.. داهمه ارتياع شديد وفكر فى أن يعود اصطدم فجأة بجثة جندى مقتول.. أصابته رعدة.. رفع رأسه ليرى القنابل تنفجر على البر الغربى.تمالك نفسه واستطاع أن يواصل سيره... كانت الأسوار خالية والأبراج الثلاثة يسودها السكون ومن فرجة فى السور أطل على ساحة القلعة كما يطل فأر من جحره متوجسًا... مسح الفناء ببصره فلم يجد أحد.. عزم على الدخول باستهانة... قفز ثلاث قفزات متعلقًا بالأسوار قبل أن يصبح داخل الفناء... كان المكان خاليًا من كل ما له صلة بالحياة... مد يده فأمسك أحد البنادق الملقاة.... تلاعب بها قليلاً ثم رفع بصره لأعلى فشاهد السلالم المؤدية إلى الأسوار والأبراج... فتوجه صاعدًا البرج الأوسط ومن أعلى مكان بالمدينة أخذ يشاهد سير المعركة... وعلى صفحة النهر شاهد عبدالمحسن مئات

t.me/qurssan

الجثث الطافية فارتعد أمسك بيده صلب أحد المدافع البارد فشعر بالقوة والخوف معًا يملآن نفسه... لاحظ فتيل المدفع أمامه أمسك بالمشعل وقد بدا أنه قرر أن يختار جانبًا... قرب المشعل جعله يلامس الفتيل الذى اشتعل... فتح الصبى عينه جيدًا متراجعًا عن المدفع خطوتين وهو يرى النار تلتهم الفتيل ثم انطلق انفجار يصم الآذان.. شعر بضربة قوية تقذفه إلى الخلف مصطدمًا بالجدار الخلفى للبرج.. كاد المدفع أن يسحقه عند ارتداده... قام متثاقلاً على نفسه يحاول أن يرى أثر قذيفته فلم يجد شيئًا وسط قذائف المدفعية التى بدأت تنهال عليه من كل مكان...

لم تمض لحظات حتى خرجت الأميرة شريفة من مقرها مضطربة... دارت برأسها فى الفناء فلم تجد أحد نظرت إلى أعلى بدهشة رأت الغلام فنادت عليه بجزع.

- أنت ولد حمار... تعالى هنا... إيش تعمل عندك...

فاجأه صوتها فاضطرب من المفاجأة واستدار ينظر نحوها بتوجس هى والطفلة الممسكة بذيلها صاحت متوعدة:

- انزل ولد... تعالى أحسن تموتى... لكنه لم يتحرك.. فقالت:

- قولى ولد فلاح... إيش تشوفى عندك... إيش تشوفى...

سار عبدالمحسن ناحية النهر ثم عاد قائلاً:

- لا شىء... مد يده ناحية الشمال... صاح العربان:

- إيش تقولى.. إيش تشوفى مجنون.

كان صوت البنادق وطلقاتها المتفرقة تقطع الفضاء... ثارت مخاوفها دفعت بفاطمة إلى الداخل وتقدمت تصعد درجات سلالم الأبراج مثنى مثنى حتى بلغت قمته، دارت بنظرها فى المكان الذى خالت فيه زوجها فوجدت سطح المكان، المياه والبر، مغطى بجثث العسكر والجنود والخيول... أصابتها رعدة.. رأت قلة من الجنود التابعين لعابد آغا يهربون باتجاه سرس الليان وجمع كبير من العربان يطاردهم فى حين كانت البقية الباقية من العربان تسبح فى النهر وهم يقلبون الجثث الطافية يسلبون ما بها من

t.me/qurssan

ملابس وذهب ونقود وسلاح... وبين حين وآخر كان أحدهم يطلق النار على جريح فيرديه قتيلاً... أمسك الرعب بتلابيبها كانت تختنق وهى ترى نفسها امرأة وحيدة بين يدى عسكر القبودان وحلفائه من العربان.. استندت بيدها على كتف الصبى... لم تفهم شيئًا من هذا كله... من المحتمل أن يكون إيداكش فى مكان ما وسط هذه الجثث أثار انتباهها صوت ضربات شديدة قادمة من الشمال الغربى.. نظرت هناك كان جنود الدلاه يضربون بأحد جذوع الأشجار الضخمة الموضوعة على عجلات سور المدينة المصنوع من الأحجار.

صاحت:

- إنهم ليسوا... ولم تستكمل كلماتها إذ أنها رأت بوابة القلعة التى تركها الجنود للسلب فى نشوة انتصارهم مفتوحة... قفزت السلالم قفزًا وهى ترفع ذيل ثوبها من حولها تدعو عبدالمحسن وتنادى جواريها اللاتى خرجن مسرعات... جرت نحو الباب وأخذت هى والصبى يدفعان كل ضلفة بصعوبة بالغة... وقبل أن يغلقاه لمحا أحد تلاميذ الأغا قادمًا وهو مبتل الثياب منهك.. كان مراد.. أدخلاه على الفور وقاموا مسرعين بإغلاق البوابة.. صرخت به:

- إيش جرى يا ولد مراد خزيك... إيش جرى.. أمان ربى أمان..

قال مراد:

- هزمنا مولاتى... واستطرد على وهن... اصعدا بى لأعلى كى أراقب القادمين.

قال عبدالمحسن أنا أحمله... وأصعد معه.

غابت الشمس وتغلغل الليل... تسلل القليل من عسكر مصطفى أغا إيداكش الناجين عائدين إلى القلعة... وبعد منتصف الليل بساعة وصل عابد أغا جريحًا وبعده وقرب الفجر وصل حسين الأشقر.. وفى الصباح بلغ مجموعهم مائة وخمسين عسكرى بين متعب وجريح... علمت الأميرة بأن آخر من رأى زوجها حيًا شاهده متعلقًا بقطعة من الخشب الطافى... وكانوا قد علموا أيضًا أن السنهورى عندما تأكد من هزيمة إيداكش سارع بفتح أبواب المدينة فى جمع من التجار والأعيان مرحبين بالحكام الجدد الذين

t.me/qurssan

أباحوها لجنودهم فاندفع العربان والدلاه يسلبون وينهبون كل ما يجدونه فى طريقهم ومن اعترض قتلوه..

ومن خلف مشربية للدور العلوى كانت بدرية تطل رغمًا عن صديقتها دنيا آزاد تشاهد الحرائق فى أرجاء المدينة وجثث الفلاحين القتلى والفتيات والنسوة اللاتى تجرين أمام العسكر وسط صرخات الفزع والهول.

* * *

على الباب الشمالى للقلعة برزت مفرزة من عسكر على بك الملط يصحبها عدد من العربان حاولوا اقتحام البوابة الضخمة لكن نيرانًا حامية منعتهم من التقدم فرحلوا عائدين حتى لا تفوتهم أعمال السلب والنهب بالمدينة.. وحتى مالت الشمس للغروب لم يبرز أحد من جنود على بك الملط... كان عابد أغا قد كرنك جنوده على كوى البنادق ونقل ثلاثة مدافع على المصطبة الداخلية للسور المواجهة للمدينة.. ثم أرسل عشرة جنود للبحث عن مراكب استعدادًا للهرب فهربوا ولم يعد منهم أحد.

وفى الليل قام عسكر القبودان بالمحاولة الثانية للاستيلاء على القلعة من جهة المدينة قفزًا من فوق أسطح الدور... فعاد البارود ينهمر ثانية.. وألقى بالزيت المشتعل على الدور الخشبية المجاورة فاشتعلت بها النيران ولم يأت النهار حتى كانت هذه الدور حطامًا.. أما طابور العربان الذين تقدموا تحت قياة شيخهم وهم يزأرون يحاولون اقتحام البوابة فقد انطلقت قذائف المدافع عليهم لحظة بلوغهم مرماها، فأصيبوا بخسائر فادحة وسقط الشيخ أحمد بن حبيب من على جواده بعد أن طارت عمامته فقام ساخطًا لاعنًا وهو يقسم أن يقوم بنفسه بسلخ جلود المدافعين.

* * *

وبينما كان الليل يقترب من هزيعه الأخير سمعت ضربات قوية أخذت تشتد ساعة بعد ساعة... صرخ عابد أغا كاظمًا غيظه كاتمًا ألمه.

- لقد بدءوا أعمال التنقيب... نريد قنجة أو مركب للهرب.

قبل أن يشمل الصباح المكان بنوره تسلل عبدالمحسن خارجًا دون أن يشعر به أحد.. ومع أول ضوء للصباح قاد الملط هجومًا ضاريًا على القلعة وانهمر سيل كثيف من

t.me/qurssan

القذائف المدفعية وأخذ القصر فى التهدم، وانهارت واجهته الجانبية فى حين قاد شيخ العربان أحمد بن حبيب ثلاث محاولات للهجوم على القلعة من جهة الشمال وفشل ابن حبيب ثلاث محاولات للهجوم على القلعة من جهة الشمال وثم بذل محاولة رابعة للهجوم من جهة النهر فأصيب بخسائر فادحة... ولما توارت الشمس للمغيب تنفس المحاصرون الصعداء... وانتهى اليوم وامتلأت ساحة القلعة بجثث المدافعين عنها.

ساءت حالة عابد أغا ومراد خزبك وبدأت الضربات تسمع بوضوح.. بلغ التنقيب الجدار الخارجى للقلعة الذى يبلغ سمكه ثلاثة أمتار من الأحجار القوية... وبات سقوط القلعة وشيكًا... بقى الأشقر غير قادر على ترك المدافعين دون قيادة بحثًا عن مركب يهربون فيها ولكن بقاءهم أيضًا كان مشكلة.. هذا ما همس به عابد أغا.. كان خائفًا أن يسلمهم الجنود إلى على بك ملط لقاء حياتهم.. تعلقت فاطمة بأمها فكر عابد أغا أن يستسلم هو والأميرة كى يحفظهم من شرور التنكيل... وكان هذا إيذانًا بهرب الجنود إذ أنه ما أن انتصف الليل حتى خلت القلعة على الأميرة شريفة وابنتها وجواريها وحسين الأشقر الذى رفض الرحيل واختار البقاء مع زوجة سيده ومراد بك خزبك وعابد أغا الجريحين...

عندما خوت القلعة إلا من الأميرة شريفة وماينجتها الساحرات دعت الأشقر على انفراد وبضعف امرأة لا حول لها ولا قوة كشفت له عن مكان كنوز إيداكش وكنوزها المخبأة.. رددت لن يبقوا فى القلعة على جدار واحد دون أن ينقبوه.. ماذا أفعل.. فكر طويلاً... تساءل بغتة: أخبرينى عن سردابها السرى؟

ـ أسفل طباق المماليك.

ـ وإذا اكتشفه أحد.

ـ لن يكتشفه أحد. نظرت إليه متطلعة. قال وبتثاقل: سوف أنسف الطباق فوقه ولن يدركه أحد.

قرب الفجر أطل عبد المحسن من فجوة فى الجدار... قفز إلى الداخل فاندفع بارود كثيف... صرخ معلنًا عن نفسه فتوقف الأشقر عن الرماية... وهو ينظر له دهشًا... فقام إليه.. أشار عبدالمحسن فى الظلام... على مبعدة كانت تطفو قنجة صغيرة... اهتاج الأشقر من الانفعال وسقط يقبل كتف الغلام وهو يقول:

t.me/qurssan

- أنقذت حياتنا يا صديقى... أنقذت حياتنا يا صديقى... دخل به إلى الجميع.

- ولد فلاح عظيم أحضر قنجة قوية... هيا بنا.. هيا بنا.

أصاب الشك عابد أغا فردد.

- هذه لعبة... هذه لعبة...

جرت الأميرة شريفة ناحية النهر.

- محال يا عابد أغا هذا ولد شريف... ما يلعب لعبات... فين قنجه ولد عظيم..

- جنب السور يا ست هانم.

قال الأشقر - نحن نهرب عندما يدخلون.

قالت الأميرة متسائلة بلسان امرأة لا حول لها ولا قوة.

- كيف حسين أفندم؟

* * *

جذب الأشقر عبدالمحسن... وطوال الليل ظلا يوزعان براميل البارود فى أنحاء القلعة.. وعندما انتهيا تسلل الجميع إلى القنجة والأميرة شريفة تسب زوجها إيداكش حيًا أو ميتًا.

كان جنود على بك ملط قد اقتحموا السور الخارجى وشرعوا فى هدم سور البناء... فتح الأشقر باب القلعة وأشعل مشعلاً مشيرًا للعربان بالقدوم وأطلق البارود فى الفضاء منبهًا المهاجمين الذين يحاصرون القلعة من الشمال وقد ظنوا أن المنقبين قد استولوا على القلعة... فاندفع العربان ليشاركوا فى الغنائم والأسلاب.

كان عبدالمحسن قد هبط فى المياه سابحًا وخلفه هبط الأشقر أخرج بندقيته صوبها نحو أحد براميل البارود البعيدة ضغط على الزناد فدوى فى الفضاء انفجار رهيب... توالت بعده الانفجارات وصرخات الاستغاثة والرعب والسباب.. وعلى صفحة النهر كانت ألسنة النيران المشتعلة تنعكس فتضىء المركب الصغيرة المتجهة جنوبًا... رفعت الأميرة شريفة رأسها باتجاه القلعة غمغمت:

t.me/qurssan

ـ ما كنت أظن أن شغلات إيداكش الأحمق بها مصلحة.. حمتنا قلعته.

وفى فيشا توقف الركب خوفًا من الأسر... هبط الأشقر وزوجة سيده وابنتها والجرحى واختبأ الجميع عن أعين الناس ثلاثة أيام... ثم أرسل عبدالمحسن فى اليوم الرابع إلى الشيخ السنهورى طالبًا الحماية.

بعد آذان المغرب شاهدت بدرية وهى جالسة بجوار المنقد هى وأمها ابن خالتها عبدالمحسن يتسلل داخلاً وقد لثم وجهه يحاول أن يدارى وجهه عن الأنظار... صرخت فزعة:

ـ أمه...

ـ إيه يا بت... ظلت بدرية عاجزة عن الكلام...

ـ إيه ياب... وقبل أن تكمل صاحت:

ـ عبدالمحسن واد يا عبدالمحسن... عرفته من ظهره... التفت إليها فقامت تجرى إليه.. ضمته إلى صدرها بشدة... خرجت أمه على الصراخ.. وفى وسط الباحة رأت ابنها حيًا يرزق... فانطلقت تبكى وتضحك فى آن واحد تضمه.. تغمره بدموعها.. تتحسسه.. تدعو له.. استقبل عبد المحسن عواطفهم باستهانة بالغة.

ـ اسكتى يا أمه... اسكتى يا خالتى... لم يجبه أحد... صرخ فيهم:

ـ اسكتى يا ولية... اسكتى يا بنت المفحور. فين أبويه الشيخ السنهورى.

فتحول العناق إلى سباب متصل أطلقته عليه أمه تشاركها فيه خالته حينًا وتهدئ من ثورتها حينًا آخر.

مر وقت طويل قبل أن يجيب أحد سؤاله:

ـ قالت صديقة:فى المندرة.

همس: لوحده.

ـ لأ معاه السيد حسن البقلى..

قال بلهجة آمرة:

t.me/qurssan

- روحى يا خالتى بسرعة أنا عايزه بس فى السر.

نظروا إليه باستغراب وهو يتابع خالته.

- يعنى متقوليش لحد إن أنا هنا... فاهمة... يعنى هو متقوليلوش السبب إلا قدامى.. وأمام السنهورى أخرج عبد المحسن قلادة ذهبية أخفاها فى قبضته... همس فى أذن الشيخ وهو يعطيها له:

- أنا جاى من عند الجماعة... انقلب حال السنهورى على الفور وأخذه معه إلى خلوته. قرب الفجر تسلل عبدالمحسن خارجًا دون أن يدرى أحد... غادر القصر وقد ترك أمه وخالته فى هم ثقيل... وبعد العشاء شاهدته بدرية يدخل متسللاً هذه المرة أيضًا وخلفه المملوك الذى شاهدته يختم القرآن فى المندرة عند أبيها الشيخ وتبعتهما بعد قليل امرأة شركسية تضع على رأسها خمارًا يخفى وجهها وطفلة صغيرة وثلاث جوارى حبشيات ظلت تنظر نحوهم ونحو عبد المحسن بتعجب وقد امتلأت بالتقدير تجاه عبدالمحسن لأول مرة... إذ بدا أمامها يتدخل فى أمور الكبار من أنواع زوجة الأغا ومملوكة والشيخ السنهورى.... وكان عابد أغا قد استكمل رحلته سرًا إلى المنيا حيث التحق بأمراء القبالى ومن هناك أرسل الأخبار بأن سيده مصطفى أغا إيداكش سليم معافى ويقيم مع أستاذه سيد البلاد مراد بك الذى كان قد هرب على عجل ودون أن يستكمل بناء دفاعاته ومتاريسه التى أقامها فى بولاق بغية صد هجوم حسن باشا القبودان إذ ما أن ظهرت مقدمة مراكبه قرب ميناء بولاق حتى زغردت النسوة وضج الناس وصرخ الصبية وصاح الرجال وقاموا جميعًا قومة واحدة على مدافع مراد بك فكسروها ودمروا تحصيناته، فأظهر مراد بك طلب الصلح وهو يضمر الهرب وطوال ليلة الثامن من أغسطس كان عسكر القبودان ينزلوا بولاق وجمع المشايخ والوجاقات يتوسلون فى طلب الصلح عن الأمراء وأنهم يتوبون ويعودون إلى الطاعة وأثناء نظر القبودان فى رسائلهم جاءته الأنباء أن أمراء المصرلية هربوا جميعًا إلى الوجه القبلى من خلف جبل المقطم فأرسل خلفهم المراكب التى استولت على مراكبهم ثم أنه أنفذ رسلاً على عجل إلى إسماعيل بك وحسن بك الجداوى بغزة عدوى مراد بك وإبراهيم بك اللدودان يطلب منهما سرعة الحضور كى يضعهما فى مكان الإمارة على البلاد بدلاً من الأميرين الهاربين،

t.me/qurssan

فى اليوم التالى ركب إسماعيل كتخدا متقدمًا جنوده فى موكب حافل فى شوارع منوف وهو فى زى الدلاه مرتديًا عباءة مطرزة بالذهب وعلى رأسه هيئة قليق من جلد السمور وبيده مخصرة لطيفة على هيئة حربة بطرفيها شعب عليه رسم الجلالة ومعه أحمد بن الحبيب شيخ العربان وعلى بك ملط وشركس بك وأكابر السناجق والآغاوات وأعيان المدينة وتجارها وقد سار خلفه عساكره من الأروام والدلاة والمماليك والعربان يرتدون الطرابيش الملونة، وفى أيديهم مكاحل البنادق والقبانات وفتائلها موقدة، حتى بلغوا جامع سيدى أبو حديد وأمامهم المنادين ينادون...«أمان واطمئنان حكم ما رسم حسن باشا، وحكم إبراهيم بك ومراد بك بطال».

أمر كتخدا القبودان بإبطال أعمال العسكر الشائنة والمعاقبة عليها. وفى اليوم التالى نادى محمد أغا الأرنؤطى والى منوف الجديد أن يسافر إلى بلده كل من كان فلاحًا أو قواسًا أو سراجًا بطالاً ومن وجد بعد ثلاثة أيام استحق العقوبة. وفى اليوم الثالث نودى على طائفة النصارى بألا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجوارى والعبيد ومن كان عنده شىء من هذا باعه أو أعتقه. وكذا عليهم أن يلزموا زيهم الأصلى من شدة الزنار والزنوط. كما أن إسماعيل بك كتخدا القبودان أرسل مكاتبات على عجل إلى الشيخ السنهورى قاضى قضاة منوف للكشف على جميع ما أوقفه المعلم قسطندى على الأديرة والكنائس من أطيان ورزق وأملاك.

وتبع ذلك مكاتبات صارمة بالأمر بالذهاب إلى بيوت الأمراء وكتابة ما يجدونه من متروكاتهم ويودعوه فى مكان من البيت والختم عليه فاقتحمت قصور مصطفى إيداكش وعابد أغا والورفلى وآخرين ونودى إن كل من عنده وديعة أو شىء من متاع الأمراء الفارين ولا يقر به ويظهره فى ثلاثة أيام قتل من غير معاودة فلم يستجب أحد فجمع محمد أغا الأرنؤطى الغفراء ومشايخ الحارات ليدلوه على كل الأماكن غير المسكونة فى حارات وعطفات ودروب المدينة. فدخل كل دار غير مسكونة وفتحها ونقبها دارًا دارًا فإذا به يكشف عن ثلاثة عشر دارًا ملئت عن آخرها بالنهوبات والمسلوبات لمصطفى إيداكش وحده وخمسة دور لعابد أغا ومثلها للورفلى وعشرون دارًا لم يعرف أصحابها وأخرجت الخبايا وختم عليها ورحلت إلى القاهرة مصحوبة بالجند وجمعت عشرات الجوارى بملك السنجق المهزوم وأتباعه فجمعهن وأرسلهن أيضًا إلى القاهرة وفى صباح

t.me/qurssan

اليوم التالى كبس محمد أغا على قصر الشيخ السنهورى، بوغت الشيخ وخرج إليه فى سرواله الداخلى يسأله ما الخبر..

قال الأرنؤطى:

ـ يا سيدنا معى فرمان من الدستور المكرم حسن باشا يطلب زوجة إيداكش ومملوكه وابنته. قال السنهورى غاضبًا:

ـ الناس استأمنت عندى وأعطيتها الأمان، كيف تجعلون منى خائنًا للأمانة.. ارتد الآغا بجذعه إلى الوراء وقال هازئًا:

ـ يا مولانا لا داعى لشغلات العبونات وكلمات فارغات... نحن نعلم بأن ودائع مصطفى إيداكش عندك وزوجته عندك وابنته عندك وبعض عبيده عندك... تسلم لى ما جاء بالفرمان أو أسوى قصرك بالتراب.

هز السنهورى يده فى وجه الوالى قائلاً بغضب:

ـ أنا ما أخاف.

ـ تخاف أو ما تخاف هذا ليس شأنى وما أنا إلا منفذ لأوامر القبودان..

ـ أما تراعون حرمة النساء.

ـ اسمع يا مولانا... حضرتكم تدخلون وتشاورون الأميرة وتجعلونها تفاضل بين محو القصر من الوجود أو ذهابها معنا.

ـ أنا هشوف... واستدار داخلاً.

بعد فترة قصيرة خرجت الأميرة تتبعها ابنتها ومملوكها الأشقر وكل من فى القصر يشيعونها بالأسى والترحم ولسان حالهم يقول (رب ارحم عزيز قوم ذل). شد وثاقهم ووضعت الأميرة وابنتها على حمارة وربط الأشقر بالذيل عارى الرأس بعد أن أطاحوا بقلنسوته وهم يضربونه بالسياط...

طافوا بهم منوف وهم يصرخون.. الحكم بما رسم حسن باشا القبودان وحكم مراد بك وإبراهيم بك وأعوانهم باطل.

* * *

t.me/qurssan

وجدت الأميرة شريفة نفسها حبيسة فى أحد المبانى القذرة وسط مئات الجوارى والإماء.. كانت معها زوجة إبراهيم بك وضرتها أم مرزوق بك... أما زوجة مراد بك فقد اختفت... وكان هناك معها جوارى عثمان بك الشرقاوى ومحظيته التى آخرجت من بيتها بيد القليونجية وجوارى أيوب بك الصغير وأحيط بمنازل ضرب الميضاه بالصليبة وطبليون وحارة المغاربة وكان فيها ودائع وأغلال وكانت النساء فيها خليطًا غريبًا من أجناس العالم روميات. قرويات. قوقازيات. زنوج. بلقانيات وغاليات جلسن يندبن حظهن بخليط غريب من اللغات... وكان الحنق قد بلغ بالأميرة شريفة مبلغًا.. إذ كيف يحدث لها كل هذا وهى الأميرة التركية الشريفة... وكانت تصرخ طوال الوقت طالبة المثول أمام حسن باشا القبودان الذى هو قريبها لا محالة... لم يكن أحد يستمع لصراخها. وكان بخار العرق يتصاعد من الأجساد لحر صيف أغسطس وانتشرت الحشرات القارضة والقمل والبراغيث على أجسادهن تسبب لهم الحك والهرش وعلى الأرض كانت الفئران تنطلق بشراهة مصطدمة بسيقانهن ورءوسهن وآجسادهن آثناء نومهن فكن يقمن فزعات والصرخات العالية تتصاعد متقطعة فى أرجاء المكان.

أمسك الهلع بخناقها.. والجوارى تتناقص... وقد علمت أن حسن باشا أحضر المطربازيه واليسرجيه وأخرج الجوارى بيضًا وسودًا ونودى عليهن بالمزاد الذى أقيم فى حوش البيت... وتقدم لشرائهن بأبخس الأثمان العثمانية والعسكر.

* * *

- ٧ -

جلس حسن باشا متصدرًا المجلس والغيظ يأكله أكلا وأمامه من المشايخ الشيخ السادات والشيخ أحمد دردير والشيخ العروسى والسنهورى ومحمد الحريرى ومحمد باشا والى مصر.. يطلبون الإفراج عن نساء الأمراء وأبنائهم. وكان السادات قد ابتدأ القبودان بالحديث قائلا:

- إنا سررنا بقدومك إلى مصر لما ظنناه فيك من الإنصاف والعدل وعلمنا من حسن مقدمكم وأفعالكم إنما أرسلكم مولانا السلطان لإقامة الشريعة ومنع الظلم، وبيع الأحرار والأمهات والأولاد. لايجوز ولايحل هذا الفعل... اشتعلت عينا الباشا كالجمر مغتاظا وأحضر أفندى ديوانه قائلا:

t.me/qurssan

ـ اكتب أسماء هؤلاء حتى أرسل إلى السلطان وأخبره بمعارضتهم لأوامره... ثم التفت إليهم وقال:

ـ أنا أسافر من عندكم والسلطان يرسل لكم خلافى فتنظروا فعله... ألا يكفيكم أنى كل يوم أقتل من عساكرى طائفة على أيسر شىء مراعاة للعدل وشفقة بعامة الناس وفقراتهم... لو كان قد قدم غيرى لنظرتم فعل العسكر فى البيوت والأسواق.. إنما أوجه غضبة الجند للأمراء وأتباعهم فإن لم أفعل انطلقوا على الناس والبيوت والأسواق...

قال السنهورى:

ـ بيع الجوارى لأجل الجند أن تشتريهم وتعوض بهم فى الاغتراب واجب ومصلحة بل وهو فضيلة... وإنما نحن شافعون فى الأحرار منهم فهذا لايجيزه شرع ولا دين.

قال هازا رأسه:

ـ يدفعن ما على أزواجهن للسلطان ويخلصن.

فقال الشيخ الحريرى:

ـ النساء ضعيفات وينبغى الرأفة بهن.

فصرخ الباشا من الغضب:

ـ لاحول الله... أنتم شركاء فى الظلم وتشفعون له.. هؤلاء الكفرة لهم سنين ينهبون البلاد ويأكلون أموال السلطان والرعية والحرمين وأنتم تشفعون لهم وتزينون لهم الهرب بما ثقلت به أكتافهم من المال والذهب والمتاع من أموال الدولة والمسلمين دون خجل أو مواربة.... أنا قادم من سلطنة لتأديب كفار من أمراء المصرليه... والآن قولوا لى كيف نحارب الموسكوب وأعداء الدين متمكنون من الديار المصرية..

أطرق الشيوخ رءوسهم خجلا... وانتظروا أن يأمرهم بالإنصراف... قال الشيخ الدرديرى

ـ إنما نحن شافعون والواجب علينا قول الحق.

t.me/qurssan

فرفع رأسه وعلى وجهه سيماء الاحتقار:

- أى حق... أنا أقول لكم الحق... لقد خرج أزواجهن على خيولهم وتركوا الأموال عند النساء فإن دفعن ما على أزواجهن تركنا سبيلهن وإلا أذقناهم مر العذاب وبعناهم على مصاطب اليسرجية.

* * *

أشرف صباح اليوم الرابع عشر على الأميرة شريفة وهى ملقاة فى إسطبلات الباشا وكانت الجوارى التى كانت لدى الأقباط تباع على الأبواب بين يدى الدلاه واليسرجية... نودى عليها وعلى ابنتها فحل بها الفزع والهلع وأصابتها نوبة من الهيستيريا والصراخ وهى لاتتوقف عن ترديد عبارة:

- آخر كلام ... أريد حضرة قبودان... كيف يعرف أنه يبيع قريبته وابنة جلدته... أنا أميرة شريفة بنت باشجاويش محمل داردية تركى أصيل مش فالصو... آخر كلام قبودان..

رفضت الأميرة شريفة الخروج فدخل أودباشى اختيارى الحرس فوجدها تقبض بكلتا يديها على مداود الخيول جذبها خارجا. منكوشة الشعر ممزقة الملابس وقد امتلأ جسدها بالقروح والقذارة... فتحت عينيها بصعوبة غير قادرة على أن تتعرف على الشيخ السنهورى... فلما تعرفت عليه قامت غاضبة بشموخ وهى ترى إسماعيل كتخدا بجواره... تقدم السنهورى نحوها قائلا:

- لاتخشى شيء يا أميرة كل شيء على ما يرام... سنرحل عائدين إلى منوف.

أطل حسن باشا وصرخ بالسنهورى:

- من مالك تفتديهن.. شيخ سنهورى أم من ودائع مصطفى إيداكش لص هارب.

قال السنهورى وقد أخذته المفاجأة:

- وحق كتاب الله من أموالى كرامة لله وفعل للخير وحماية للحرائر... صرخ القبودان مهتاجا:

t.me/qurssan

ـ كاذب وحق كتاب الله كاذب شيخ جربوع أنتم تفتدون نساء مراد بك وإبراهيم بك وتلاميذهم الملاعين لا لورع أو شهامة ولا دفاع عن فلاح أو مظلمة ولكن من أجل منفعتكم الشخصية... أغرب عن وجهى يا شيطان يا ملعون ما تستطيع أن تضحك على ذقنى.

رفعت الأميرة قبضتها فى وجه القبودان وهى تصرخ:

ـ أرسلكم حضرة سلطانيم من أجل بهدلة تركيات شريفات.

دفعها إسماعيل كتخدا برفق إلى الخارج وعلى باب القصر دقت الأميرة كعبيها فى الأرض:

ـ حبشيات.. وولد أشقر حالا... ما أسير خطوة من دونهم.. وكل واحد فيهم يفتدى كيف ما يكون.

حار السنهورى فى أمر نفسه وهو يلعنها فى سره بعد أن جلبت عليه غضب الباشا... ألقى بين يدى أودباشى اختيارى العسكر بكيس فأخرج له الحبشيات فوقفن بين يدى اليسرجية فلم يقبل على شرائهن أحد... فاشترى كل واحدة بريال ثم تبعه إلى سراديب القلعة... داهمته روائح نتنه... رطوبة الجدران وبول وإفرازات عشرات الأجساد الملقاة... كمم الشيخ السنهورى أنفه وهو يدور بالمشعل قريبا من وجوه الرجال المنهكة حتى وجد الأشقر يرقد متهالكا... دفع فيه عشرة أكياس كما قدره اليسرجى ودفع مثلهم إلى أودباشى اختيارى العسكر... ألقى بهم جميعا فى عربة تجرها الجياد... فتح باب القلعة وانطلق ينهب الطريق نهبا مبرزا تصريح إسماعيل كتخدا لكل من يعترضه.

قرب الرميله شاهد راكبو العربة أربعين رأسا منتفخة من قتلى القبليين على سرير من جريد النخل وقد شوهتها الشمس بعد أن مر عليها أسبوع... أشاحت الأميرة برأسها وخبأت وجه ابنتها فى صدرها... فى حين أبقت الحبشيات النظر محدقات فى الرءوس حتى عبرن جامع السلطان حسن. أمر السنهورى الحوذى بالإسراع إلى بولاق حيث ينتظرهم مركب صغير سيقلهم إلى منوف.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الخامس

- ١ -

أصبح عبدالمحسن فجأة فى عداد الرجال بعد مغامرته بقلعة الأغا... كان يسير مختالا ممسكا بنبوت مصنوع من شجر الجوز ينظر من بعد إلى الصبية فى غرور واحتقار وهو لاينى يذكر صداقته القوية بحسين الأشقر وعلاقته الوطيدة بالأميرة شريفة هانم. وخاصة محمد أبو الفضل وأخوه حامد... كان يرى حامد مخنثا يتمسح فى البنات أما محمد أبو الفضل فإنه لن يكون سوى مقرئ يعيش على صدقة المقابر أو خادما للشيخ السنهورى.... وعندما يجتمع الصبية والفتيات فى الليالى القمرية ليلعبوا «بات يا واد بات» أو ما يشبهها من الألعاب، كان يسهب فى ذكر المعارك التى خاضها ضد عساكر على بك الملط وعربان بن حبيب.. وكيف صوب المدفع الذى قتل به المئات فى عرض البحر وإلا فليقل له أحد كيف صمدت القلعة يومين كاملين بعد هروب إيداكش... فيحار الجميع جوابا... ثم يحكى كيف أنه قتل ثلاثة ذئاب كانوا يحرسون القنجة التى هربت فيها الأميرة وأتباعها التى هى بنت ملك الجان وهو أمر كان يصعب على الصبية تصديقه... لكنه كان يصر وهو يحلف بأغلظ الأيمان بأن هذه هى الحقيقة فإذا سألوه الدليل فكان يجيبهم وهل لدى أحد دليل على وجود الأسياد... وكان من المنتظر دوما أن يهمس أحد الأطفال طالبا منه أن يحكى قصته مع الأميرة شريفة هانم وابنتها.. هذا يعنى أن الليل قد أوغل وأن الحكايات المثيرة سوف تبدأ فيحل الصمت والترقب لكن عبدالمحسن يرفض أن يحكى هذه القصة بالذات لأن فى الأمر امراة يجب أن يؤتمن على سرها فربما تنتقل الأخبار منهم إلى أهاليهم وتصل الأخبار إلى زوجها فى قبلى فتحدث مشاكل من نوع ما يعرفه الكبار البالغون فقط وليس الصغار من

t.me/qurssan

أمثالهم... ويزداد تمنعه وتعنته كلما كشف النهم والشوق والإعجاب فى عيون الأطفال إلى الحد الذى تبلغ فيه كثرة التوسلات حد الملل الأمر الذى يدفعهم إلى الانصراف... ساعتها يروى عبدالمحسن كيف فوجئت به الأميرة وحيدًا فى القلعة يطلق المدافع للدفاع عنها وعن ابنتها الأميرة الصغيرة فاطمة وقد كادت أن تقع أسيرة بين يدى على بك الملط.. وكيف أنها استقبلته فى مخدعها وهى فى قميصها الداخلى، وظلت تضمه وتقبله وهى لاتتوقف عن ذلك إلا لتلعن زوجها الذى تركها وفر هاربا، وأنه وحده الذى أنقذها وهى لذلك سوف تزوجه ابنتها الصغيرة فاطمة.. ولولا أنه صغير - وهذا بالذات مالا يستطيع الأطفال عنده إلا الانفجار فى الضحك - لتزوجته هى.... ورغم ضحك الأطفال فإنه يستمر ويصر فى كل مرة على هذا الجزء من روايته ولايغيره قط... ولايستطيع إلا أن يقابل ضحكهم بابتسامة متواطئة... إذ أن أى انفجار يحاول أن يقمع به ضحكهم لن يجدى معهم فى هذه النقطة بالذات... وحتى ينتهى الأمر على ما يرغب كان يبرز قطعة ذهبية أو فضية أو خنجر بديع الصنع فيتلهى به الأطفال عن هذا الجزء من قصته... ويذهب الأطفال إلى النوم والأرق يغالب نعاسهم بين الدهشة والتصديق، والحلم بمخدع زوجة الأغا. الوحيدة التى كانت لا تأبه بحكاياته هى بدرية التى كانت أكثر أفراد الجمع عنادا ومعاداة له وتكذيبا لقصته من أساسها بل أنها قادت على حملة شعواء ساخرة تتهمه بالكذب والتخريف وانحلال العقل... وقد أخذت هذا التعبير عن أمها التى أجابتها به عندما حدثتها برواية عبدالمحسن بقولها:

- عبدالمحسن دا مصيره هيكون زى أبوك الحجاج أبو منصور... أو ينحل عقله. وهو ما كان يؤلمه وخاصة أن القصة حقيقية وإن كان بها طبعا شىء من المبالغة.

* * *

استيقظت بدرية هذا الصباح فلم تجد أحدا.. شعرت بحركة غريبة تجرى فى المكان... تسللت إلى الفناء الداخلى فوجدت صناديق ضخمة... عبرت الحرملك الداخلى وأسفل السلم فوجئت بطفلة صغيرة السن ضعيفة البنيان شاحبة الوجه ينساب شعرها الأشقر طويلا خلفها... وقفت الطفلتان كل منهما تتأمل الأخرى.

t.me/qurssan

مدت بدرية يدها تمسك بقلادة فاطمة فتراجعت إلى الخلف مذعورة وهى تضع إبهامها فى فمها مبقية فى داخلها على كمية هائلة من الصراخ.

من الداخل جاء صوت قوى:

ـ فاطمة... فاطمة... تعالى هنا... سمعت فاطمة صوت أمها استدارت تجرى إلى حجرة جانبية بآخر الرواق... صاحت بها الأميرة:

ـ إيش تفعلين بالخارج؟

ـ لاشىء.

ابقى هنا ولاتتحركى

فأجابتها بالصمت ووقفت تقرض أظافرها.

فى الخارج جذبت دنيا آذاذ بدرية وهى تضمها إلى صدرها وتهمس فى أذنها ومشيرة إلى الأميرة شريفة. ـ لقد حلت الغولة الكبيرة ضيفة بدارنا. وضحكت وهى تحمل بدرية إلى حجرتها الداخلية. قذفتا بجسديهما إلى الفراش الوثير فتحرك بهما صعودا وهبوطا وكلتاهما تضحكان.

عضت دنيا آذاد بدرية فتعالى صراخها الضاحك... تمددت بالفراش على بطنها وهى تجذب عودها المطعم بالصدف والعاج وبدأت تضرب أوتاره... هتفت.

ـ هتغنى إيه؟

هزت بدريه كتفيها رافضة... فغنت دنيا آذاد وهى تنظر بطرف عينيها إلى الصبية وعلى وجهها تعبير ماجن.

من محيص القوم نشربه أم هل من سبيل إلى تقبيل عينيك
لا أبغى سوى عينيك منزلة أم هل تجودى أنا عضة بخديك
أو بريق فيك أرشفه أو لمس بطنك أو تغميز ثديك
ردى الجواب على من زاده كلفا تكويرة الطرف فى أجدال ساقيك.

t.me/qurssan

ضحكتا معا ثم عادت تعيد اللحن وبدريه تغنى معها... فلما انتهيا غنت دنيا آذاد ثانية وهى تضرب عودها:

نشرت غدائر شعرها لتظللنى حذر العيون من العيون الرمق.
فكأنها وكأنه وكأننى صبحان باتا تحت ليل مطبق.

توقفت دنيا آذاد عن الغناء وألقت بالعود واقفة... اتجهت ناحية المشربية وهى تسرح ببصرها بعيدا... استدارت فجاءة وقالت:

ـ بدرية ما أجمل شىء فى الوجود... ـ حارت الصبية جوابا

ـ... الحب.. لو أننى أجد من أحبه لقتلت نفسى تحت قدميه وما ساوت كل أموال الدنيا نظرة منه... انظرى إلى ... انظرى إلى الآن... أنا لا شىء ... بكت دنيا آذاد وحارت الطفلة فيما تفعل اهتاجت انفعالا بحزن صديقتها.. وعندما تركتها إلى الخارج وعادت تلعب مع أقرانها شردت هى الأخرى بعيدا إذ ليس ثمة من يهيم بها حبا... فحامد ليس إلا مطية لأغراضها. ومحمد أبو الفضل ثقيل الظل. وعبد المحسن صاحب لسان بذىء ويد طويلة.

* * *

- ٢ -

ابتعد عبدالمحسن عن الصبية والصغار بعودة حسين الأشقر من الأسر الذى داوم الجلوس فى الفناء الخارجى أو باب القصر لايصنع شيئا.. وعبدالمحسن يعلمه لعبة السيجة فإذا تعلم الثلاثية علمه الخماسية ثم علمه السباعية وكان عبدالمحسن يقتنى قطع الأجر الحمراء ويدورها جيدا ويضعها استعدادا لأول بادرة تبدو من الأشقر رغبة فى لعب السيجة عندها يشرع فى همة ونشاط فى اللعب ويتجمع العجائز حولهما وهما يتبادلان نقل الكلاب ويتدخل الجميع لصالح الأشقر وعبدالمحسن كاظما غيظه وخاصة من الشيخ عبدالرحمن أبو الفضل وعندما يصر الأشقر على أن يعيد لعبة منفذا نصائح الشيوخ يكشر عبدالمحسن عن أنيابه قائلا:

ـ طب ما تلعبوا أنتم بقى... والله دى عجيبة.

t.me/qurssan

فيضحكون فى وجهه ضحكاتهم الصفراء وهم يمسدون ذقونهم البيضاء فإذا مل الأشقر اللعب جمع عبدالمحسن الحصى بعناية وجلس معه فى وضع واضح حتى يبين للجميع مدى علاقته بالمملوك... ويظلان بالساعات عاطلين وتصرخ عليه أمه أن يعود فلا يسأل فيها ولا فى خالته التى نصحته فى شفقه أن يتجنب صحبة هذا الملوك محذرة إياه بقولها:

- إنها مهلكة.... صحبة الشر مهلكة..

حدث مرة أن كان الأشقر جالسا وكان الشهر هاتور القبطى... حدق لأعلى كانت السماء كثيفة السحب وقال للفلاحين والخدم الجالسين حوله فى الأرض.

- النهارده مكتوب أن السماء تمطر ماء.... ولم تمر نصف ساعة حتى أمطرت فصاح طربا:

- أنا قلت اليوم السماء تمطر ماء... أنا مكشوف عنى الحجاب... والله أنا مبارك. ولم يسع الفلاحين إلا أن يقبلوا صاحب البركات الجديد إلا عبدالمحسن إذ قال ساخرا وهل تستطيع السماء أن تمطر دجاجا... فضج الجميع بالضحك وبوغت الأشقر ثم قال:

- أنا أقول ما ينكشف لى ومالا ينكشف لى لا أقوله يا بهيم.

فهز الرجال رءوسهم قبولا واستحسانا... ولأنه لاقى تفخيما واحتراما وتبجيلا من الفلاحين يفوق ما يظنه فلقد صار الآمر الناهى على بوابة القصر.

- ليش جاموس وليه بقرات تخرج عريانات فى برد... لازم تتغطى بحرامات صوف... ولد عبدالمحسن ليش يركب شيخ عبدالرحمن أبو الفضل حمارات؟ هو يأكلها من داره.. فيقول عبدالمحسن غامزًا..

- لأ يا أغا بيأكلها من مدود أبونا الشيخ السنهورى.

- عظيم من شأن هيك حمارات لازم تركب الشيخ عبدالرحمن وتقوله. حا. حا.

فيضج الجميع بالضحك بما فيهم أبناء الشيخ عبدالرحمن أبو الفضل محمد وحامد. فيضحك محمد ويقول.

t.me/qurssan

- حاضر يا حضرة الأغا الصغير حاضر.

ويعود ثانية ليتساءل:

- ليش حطب كتير على سقف قصر شيخ مبجل سنهورى.. حطب كثيرات يوقع سقوفات.

ويقول الشيخ عبدالرحمن:

- معلهش يا أغا.. أهه السقف طول عمره بيشيل حطب سيدنا وعمره ما خلى بيه. أصله سقف مبارك.

ويصيح الأشقر مسرعا... نعم... نعم... ولد عبدالرحمن لم لا بركات سيدنا لولاها لسقط السقف من زمن بعيد.

- حضرة شيخ عبدالرحمن ليش باش خولى تبيع غلال سيدنا فى منوف أعطى حضرتنا أذونات وصكوك وأنا نبيع غلات فى ساحل بولاق وإمبابة بمصر من شأن المبجل يأخذ فلوس كثيرات.

فيهز أبو الفضل رأسه دون إجابة.

- يشهد ربى الله ونعم وكيلى أنتم حرامى كبير حرامى عظيم باش خولى عبدالرحمن أبو الفضلات... هاء... هاء ... هاء ... أنا فاهم شغلات... ويضحك عبدالحمن قائلا:

- أبدا والله ياحضرة الأغا الصغير دانى طيب وأمير بس أنت مش واخد بالك منى.

- ولد عبدالمحسن... احضر نرجيله واشعل منقد من شأن نشرب فنجان قرفة جميلات... آه لو تعرف باش خولى أنا عملت إيه فى اغاوات على بك شركس... شلحته... خليته يقلع سرواله ويجرى فى البحر عريان... هاء... هاء.... أنا... آنا عقل كبير. عقل كبير ... وفارس همام زى عنتر تمام.

- آه منك عبدالمحسن عفريت.. إيه أخبار حريمات .. احكى.. ولد عفريت.

- أصلك ما شفتش حرم على بك ملط إمبارح كانت فى السوق حدى أبونا الشيخ السيد حسن البقلى كشفت عن وجهها وهى بتلبس الكردان والحلق.. فلقة قمر يا واد

t.me/qurssan

يا حسين. ويصر عبدالمحسن على عبارة يا واد يا حسين حتى يسمعها الجميع أنه الوحيد الذى يستطيع قولها... ويستطرد همسا:

. آه .. يانى لو أنام وأصحى الأقى نفسى متجوز واحدة من نسوان البكوات اللى زى لهطة القشطة دول... ويضحك الأشقر بسخرية:

. طبعا .. طبعا هتتجوز واحدة شركسية من حريمات جميلات زى فلقة قمرات لكن فى الجنة.. فى الجنة ولد عبدالمحسن... لما تموت .... لكن طول ما أنت حى على الأرض ما فيش غير نسوان قردات صغيرات... هاء ... هاء .. هاء...

وتغضب بدرية عندما تعلم زهده فيها ورغبته فى الزواج من شركسية... فتقول لرفيقاتها ساخطة وعلى وجهها اللا مبالاة:

. يغرق فى النيلة ابن توحيدة.... من وش إيه الحلو حيتجوز... انشاء الله حيسكنها فى قصر الحكورة... مشيرة إلى دار عبدالمحسن التى تقع فى آخر الدرب... فيضج الجميع بالضحك. وتصله تعليقاتها ويشكوها لأمه مرددا ما قالته عنه وتحكى توحيدة لصديقة ما تقوله ابنتها عنهم. وتغضب صديقة لغضب أختها غضبا شديدا... وتصرخ بدرية وأذناها تعقصان بقطعة حجر صغير وأمها تنبهها ألا تشتم ابن خالتها فتصرخ بدرية من الألم وهى تقول.. كذاب ابن توحيدة هو اللى كذاب.. والله أنا ما جبت سيرته ولا سيرة حد.. هو أنا مالى..

نكاية فى عبدالمحسن اشتكى الشيخ عبدالرحمن أبو الفضل الصبى للأميرة شريفة قائلا... أنه.. ويقصد عبدالمحسن. يتثاقل على سيدى الأغا الصغير ويعلمه أشياء بطالة مثل السيجة.

أنزلت رأسها مستفهمة - أى أغا صغير؟

. سيدى حسين الأشقر.

. أغا لعنة الله عليك وعلى هذا الكلب... ليش يظن هذا الصعلوك أنه أغا صغير.. وخرجت تنادى على الأشقر كالمجنونة.

- كيف تجلس يا غراب على باب قصر سيدنا الشيخ فى بطاله... تعالى... اقترب ... اقترب من شأن تأخذ عقاب.. فاقترب محنى الرأس وعيناه مشدودتان تتحركان بتثاقل:

t.me/qurssan

ـ أمان أفندم أمان فى عرض حضرتكم... أوامركم تنفذ فورا... أنت عاوز حاجة أفندم.. أمسكت بإذنه... تعالى حيوان... وأخذت تلويها بشدة.

. وأنا أريد تشتغل فى قصر سيدنا كيف الحيوانات.. كيف فلاح،.. فاهم.

- فاهم أفندم.

- تدخل زريبات تنظف بهائم.. تعمل علوفات .. فاهم؟

- فاهم أفندم.

... لف حول نفسه عدة مرات قبل أن يدخل الزريبة يحاول أن يفعل أى شىء.. أمسك بفاس وشرع فى عزق الزريبة فتدافع الأنفار يأخذون منه الفاس تخفيفا عنه... استدار يحمل الدريس من التبن للبهائم فأخذها عنه نفران قبل أن يخرج... وفى النهاية لم يجد ما يفعله فجلس بمكانه حتى مر اليوم وهو يظن أن شريفة هانم نسيت الأمر ... لكن أحد الخدم استدعاه صباحا لمقابلتها... سألته هى منحنية إلى الأمام نصف انحناءة تخفى سوطها خلفها.

. ولد أشقر ماذا فعلتم فى خدمة قصر مولانا شيخ سنهورى؟

وقف وقد ألجمه القول وتلعثم .

ـ أنا... أفندم .. أنا....

. أنت ما فعلت شىء تريد تضحك على ذقنى مملوك هلفوت.

وعلى غرة انهالت عليه تضربه بمقبض سوطها.. لم يتحرك من مكانه. جلس على الأرض القرفصاء يحمى رأسه ووجهه بيديه وهى تنهال عليه ضربا ثم انقضت على ساعده فعضته عضة ألمته وأدهشته.

فى هذه المرة دخل الزريبة وعزقها وأخذ يحمل الجمال بالسباخ. ولم يعفه هذا من الضرب بمقبض سوطها.. فأهمل عمله وصار لا يفعل أكثر من جلوسه على باب الزريبة الخلفى الذى يطل على المستنقع الكبير يحادث الغلمان ويشاكس الصبية والفتيات.. فإذا دعته ذهب من فوره إليها وحكى لها قصة طويلة عن عمله الشاق.

t.me/qurssan

. قمت صباح اليوم أفندم.. أخذت الخيول إلى الترعة وغسلتها وشربتها ولم تفرق منى واحدة وبعدها أصلحت باب حظيرة سيدنا حتى لا يسرق ريحة مش كويسة تيجى من المستنقعات.

على أن زوجة الأغا كانت كثيرا ما تختلق الأعذار والأسباب الكفيلة التى تدفعها إلى الهياج والغضب ثم تنهال عليه ضربا بالخرزانة ولقد فهم أنها تضربه ضربا دون قسوة وأن ضربا كهذا لا فكاك عنه سواء اشتغل أو لم يشتغل .. وبعد كل علقة ينالها كان يعود إلى مكانه الجديد بجوار بوابة الفناء الخلفية هو يدمدم ويزوم غاضبا ثم لا يلبث أن يستعيد اللحظات الكثيرة التى تلامس فيها جسده مع جسد سيدته وزوجة سيده فيمتلئ بأحاسيس غامضة يقف أمامها مبهوتا عاجزا عن التفكير ويفور دمه وتلتهب النار فى حلقه.. وكانت دنيا آذاذ وبدرية يتلصصان على وقائع الضرب اليومية من خصائص نافذة جانبية فى الحرملك وكان الأشقر يقوم من بين يدى سيدته خاليا من إحساس الألم الجسدى بل أنه ما أن تنتهى الأميرة شريفة من ضربه حتى يقوم مبتسما ابتسامة واسعة.

* * *

t.me/qurssan

الفصل السادس

- ١ -

تواترت الأنباء بهجوم الموسكوب على الأطراف الشمالية الشرقية من الأمبرطورية العثمانية وبدء زحفهم بأمر القيصرة كاترين على بلاد القرم والسهل الغربى لبحر قزوين. وقيل أن الإمبراطورة الساحرة العجوز تقود الجيوش بنفسها وأن السلطان الغازى عبدالحميد خان الأول قد دعى المشايخ فى أنحاء بلاد المسلمين للاعتكاف فى الجوامع.. بيوت أولياء الله الصالحين للدعاء له بالنصر وزوال الغمة وهزيمة جيوش المشركين، وأنه أفرد الأموال لذلك. وتأكدت هذه الأخبار بقدوم المكاتبات تطالب حسن باشا القبودان بسرعة العودة إلى الأستانة... فدعى الأمراء والمشايخ للاجتماع فى الديوان... كان قد مر على قدومه أكثر من عام ولو أنه مات بالإسكندرية أو رشيد كما يقول الحكيم الجبرتى لهلك عليه الإقليم أسفا وحزنا ولبنوا على قبره مزارا وقبة وضريحا بقصد التبرك والزيارة.

وطوال هذا العام ظلت الحرب مستعرة بين حسن باشا القبودان وقائد جيوش البر عابدى باشا وحلفائه إسماعيل بك وحسن بك الجدواى وبين إبراهيم بك ومراد بك أمراء القبالى الذين تراجعوا أمامه تراجعا متواصلا من المنيا حتى أسوان وقوات عابدى باشا تشتد عليهم حتى ملكوا منهم أسوان.. تراجعت قوات إبراهيم بك ومراد بك إلى إبريم وقد أصبحوا فى أسوأ حال من العرى والجوع وقد ارتدى أغلب مماليكهم الزعابيط من الفلاحين فلما بلغ بأمراء القبالى هذا الحال أرسلوا مكاتبات إلى حسن باشا القبودان جاء فيها «إنكم تخاطبوننا بالكفرة والمشركين والظلمة والعصاة... وأننا بحمد الله تعالى موحدون وإسلامنا صحيح وحجينا بيت الله الحرام.. وتكفير المؤمن

t.me/qurssan

كفر ولسنا عصاة ولا مجرمين ولا مخالفين وما خرجنا من مصر عجزا ولا جبنا من الحرب، إلا طاعة للسلطان ونائبه فإنه أمرنا بالخروج حتى تسكن الفتنة وحقنا للدماء ووعدنا أنه يسعى لنا فى الصلح فخرجنا لأجل ذلك ولم نرض بإشهار السلاح فى وجوهكم وتركنا بيوتنا وحريمنا فى عرض السلطان فانظروا ماذا فعلتم بنساء المسلمين ... نهبتهم أموالنا ولم ننهب أموالكم وهتكتم أعراضنا ولم نهتك أعراضكم وبعتم أولادنا وأحرارنا وأمهات أولادنا ولم نبع أولادكم وأحراركم وأمهات أولادكم فمن الكافر ومن المؤمن وما سمعنا بهذا الفعل ولا فى بلاد الكفرة وما كفاكم هذا حتى أرسلتم خلفنا العساكر يخرجونا من بلاد الله تهددوننا بكثرتكم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.. وأن عساكر مصر أمرها فى الحرب والشجاعة مشهور فى سائر الأقاليم والأيام بيننا... ولقد كان الأولى لكم الاجتهاد والهمة فى خلاص البلاد التى غصبها منكم الكفار واستولوا عليها مثل بلاد القرم والودان وغير ذلك».

وكانت نبوءة إبراهيم بك عن القبودان قد آن لها أن تحقق إذ أنه قد أرسل لعابدى باشا بالحضور على عجل فترك حسن بك الجدواى، ومعه عدد من أمراء المماليك من تلاميذ على بك الكبير وإسماعيل بك وجانب من العسكر بعد أن رفض الوجاقلية البقاء لمساندة حسن بك الجداوى على رغبة عابدى باشا بك قائلين «نذهب إلى مصر ونعدل حالنا وبعد ذلك نأتى».

وكان هذا إيذانا بتغير فى ميزان القوى إذ بدأ مراد بك وإبراهيم بك فى أخذ زمام المبادرة وشرعا فى العودة إلى أسوان فدخلوها فى أسوء حال ثم صعودا إلى أسنا ولم يمض شهر حتى دخلوا جرجا وقد بدأ حالهم فى التحسن إذ أن الرسائل جاءتهم من القبودان بالأمان وقبول التوبة إذا كان مقصدهم الصلح على أن يحضر إبراهيم بك ومراد بك ويأخذ لهما حضرة القبودان أمانا شافيا من مولانا السلطان ويوجد لهما مناصب أينما يوجدان فى غير الأقليم المصرى يتعايشان فيه بعيالهما وأولادهما وما شاءوا من مماليكهما وأتباعهما... ويكون لبقية الأمراء الأمان فإن شاءوا أحضروا إلى مصر كانوا فى جملة عسكر السلطان وإن شاءوا عين لهم أماكن من الجهات القبلية يقيمون بها وإن أبوا فليستعدوا للحرب والقتال.

* * *

t.me/qurssan

فى سبتمبر عقد الديوان الذى دعى إليه حسن باشا فحضره إسماعيل بك وباقى الأمراء وكان المجلس متوترا بدأ الباشا قائلا:

- أنا مسافر بعيد الأضحى ولابد من تشهيل المطلوبات وعلى الوجاقلية دفع المال الشتوى.

- نريد مهلة يا باشا.. قال الوجاقلية.

- من أين لنا ما ندفعه وما صدقنا بخلاص المظالم الصيفى ولم يبق عندنا ولا عند الملتزمين ولا عند الفلاحين شىء... أعطونا الجامكية فندفعها لكم فى المال الشتوى.

فصرخ فيهم إسماعيل بك متملقا الباشا:

- أنتم تعيشون فى البلاد مثل الجراد وفئران الطاعون لا يتصدى لكم أحد فإذا طلب منكم ما عليكم من مال للدولة تلكأتم ووضعتم أذنابكم بين أفخاذكم مثل كلاب الدور البليدة... فإنى أقسم أمام سلطانيم قائد بحرية السلطنة وأقول هذا حتى يبلغ كلامى مسامع السلطان.. إن من تبقى عليه شىء ولو ألف درهم لأسلمته للباشا حتى يقطع رأسه. استقبل الأمراء حديثه على مضض.. وفى أواخر سبتمبر عمل ديوانا بالقصر حضره عابدى باشا والأمراء والمشايخ وقرأ على الحاضرين مراسيم حضرت من الدولة وفيها طلب حسن باشا بالسفر لحركة الجهاد إلى الديار الرومية، بعد أن زحف الموسكوب واستولوا على ما بقى من بلاد القرم.... وفى الثانى العفو عن إبراهيم بك ومراد بك من القتل على أن يقيم إبراهيم بك بقنا ومراد بك بأسنا لا يبرح أحدهما المكان الذى حدد لإقامته ويحرم عليهما دخول القاهرة.

«وفى الخامس من أكتوبر ركب الأمراء وأسرهم لوداع حسن باشا القبودان فلما تكاملوا عنده قبض على الرهائن من أمراء القبانى وأخذهم معه رهينة إلى إسطنبول.... قال الحكيم الجبرتى: فى السادس من أكتوبر سافر حسن باشا القبودان من مصر ولم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه إلا الضرر ولم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة بل تقررت به المظالم والحوادث ذلك أن أمراء المماليك كانوا يفعلون مظالمهم مثل السرقة وهم يخافون إشاعتها وبلوغ أخبارهم السلطنة. وقد تقررت السرقة والنهب بحضوره وذهابه فخابت فيه الآمال والظنون وهلك بقدومه البهائم التى عليها مدار

t.me/qurssan

نظام العالم وزادت المظالم «التحرير» لأنه كان عندما أتى قد أبطلها ثم أن إسماعيل بك زين له إعادتها فأسماها بالتحرير فجعلها مظلمة زائدة وبقى يقال رفع المظالم والتحرير فصار يقبض من البلاد خلاف أموال الخراج عدة تفاريد منها المضاف والبرانى وعوائد الكشوفية والفرد المتعددة ورفع المظالم والتحرير ومال الجهات وغيرها.... ثم أنه ترك البلاد على فوهة بركان والحرب الموقوفة يستعر دخانها بين العلوية من أتباع على بك الكبير يحكمون القاهرة ويرأسهم إسماعيل بك وحسن بك الجداوى وهم غررة جهلة خائرو العزم والقوى.. والمحمدين من أتباع محمد بك أبو الذهب ويرأسهم مراد بك وإبراهيم بك يحكمون قتلى البلاد ويتحكمون فى الغلال والأنبار شريرون ظالمون لا يتورعون عن ارتكاب القبائح ينتظرون الوقت للوثوب على القاهرة وطرد العلويين منها».

* * *

- ٢ -

مع بداية موسم جمع الغلة أصيب عبدالمحسن بحالة من الملل والاكتئاب ولاحظ الجميع ابتعاده عن الصبية وعزوفه عن اللعب والمشاكسة والعراك وخيم على علاقته بالأشقر فتور واضح.. لاحظت أمه أنه كثيرًا ما يهجر أخويه عبدالرحمن وعبدالحميد اللذان يكبراه ويعملان أنفارًا موسميين لدى ملتزمى الأراضى لقاء كسوة سنوية وقدر معلوم من الغلال والذرة ويعيش كل منهما مع زوجته وعياله فى قاعة من القيعان الصغيرة التى تحتويها الدار.. وبقلق شاهدته أمه وهو يجمع أقراص الجلة التى تسور بها سطح الدار العلوى ليبتنى لنفسه مقعدا متهالكا... قاومته وتبادلا السباب طويلا بعد تفكير أيقنت أن انفصاله بالعلية سيقلل ازدحام ساحة الدار الصغيرة وكثرة المشادات والأحقاد بين زوجات الأبناء وسيريحه هو من نومه محشورا وسط أكداس النائمين من أطفال أخويه وأمه وأشار عليها الناصحون بأن هذا قد يبقيه فى الدار بدلا من التسكع فى صحبة المماليك... وكانت أختاه المتزوجتان فى نواحى متباعدة من المدينة أكثر تفهما لحاجته إلى الوحدة إذ إن خضرة الأخت الكبرى قالت يوما وهم جالسون حول صحن من الجبن القديم (المش) يتناولونه بحذر وروية.

t.me/qurssan

- اتخط شنبك يا عبدالمحسن... سنة وتتجوز.. وضحكت ... نظر لها بعتاب.

وعلق عبدالرحمن قائلا بسخرية:

- يجوز بنت الأغا ... فتعالى ضحكهم حتى الصغار ... نظر لهم جميعًا بغضب والحنق يملؤه وتبادل هو وأخيه عبدالرحمن نظرات حادة .. أمسك عبدالرحمن بيده جاذبًا إياها يحاول أن يأتى به ناحيته.

- يا واد مالك بتحرن ليه زى البغل.

لكنه قاومه بشدة وهو ينظر إليه بغل.. وبغتة جذب يده فكاد أن يوقع أخيه على ظهره.. كتم الجميع ضحكة... أما عبدالمحسن فقد قام واقفا دون أن يكمل عشاءه الفقير .. تفل من فمه.

- اتفو على عيشتكم عيشة بهايم.. وانفلت خارجا والصخب يلاحقه بما فيهم أمه عدا خضرة التى قالت لأمها مهدئة: أيام وتفوت يا أمه ... الواد بلغ... قالت ستهم:

- بكرة يسافر ويجاور الأزهر الشريف ويبقى شيخ قد الدنيا..

قال عبدالحميد محاولا إخفاء غيرته:

- بس شوف منين بقه تشترى له الجبة والقفطان... ضحك الجميع قالت الأم بعتاب:

- يعنى أنتم شفتوه قام الصبح سافر مصر ولا هو يعنى مسافر مصر.. سألتها خضرة:

- مش آنت قلتى لخالتى صديقة تكلم سيدى الشيخ السنهورى.

- يا بنتى هو أنا قلت لها حاجة... دى هى اللى قالت لى.... هو يتم الختمة والباقى على الله وعلى خالتك.

قال عبدالرحمن لإخواته البنات:

- مستعجلين قوى على شيخ الغفلة... شيخ الموالد والمآتم... صمت الجميع عدا ستهم التى قالت بعد فترة صمت:

- آحسن من الفلاحة محدش لاقى لا قوته ولا قوت عياله.... قالت خضرة:

- لقمتنا مش لاقية الغموس....

- والله على رأيك.

* * *

t.me/qurssan

بدأ الحصاد ليلا فى أحد غيطان السيد حسن البقلى حيث تكون العيدان ندية طرية وليس مثل النهار جافة حادة تترك فى الأيادى جروحا غائرة.. لف على ساعده الأيسر وكفه خرقة ضخمة من الكتان البالى تنكسر عليها عيدان القمح بينما يجمعها بساعده الأيمن.

بدأ الليل طويلا تقطعه أغنيات الحصاد والنكات اللاذعة وسخريات الكبار.. وقرب الفجر جاءت الصوانى محملة بالفطير وأوانى العسل الأسود والثريد يتصاعد منه البخار.

فى هذا الصباح لم يعد إلى داره بل يمم وجهه شطر بحر الفرعونية . مر بمخبئه وأخرج صندوق نقوده الصغير التى جمعها من جثث العسكر حمل منه دينارا بندقيا وأخذ كبشة من البارات الفضية وأعاد الصندوق مكانه ورحل إلى الجنوب. وعندما بلغ بقعة صغيرة لأحد الخلجان تمدد وحيدا على بعد ثلاثين خطوة من خص صغير انبعث منه ضوء مصباح زيتى صغير ثم ما لبث أن أراح جسده المنهك من العمل طيلة الليل فى نوم عميق.

بعد شروق الشمس بقليل انبعثت الحركة من الخص الذى أقيم لحياة الترحال.. كانت جدرانه الهشة من عيدان البوص وسقفه من الحطب ويطل بواجهته على النهر... خرجت امرأة فى الخامسة والعشرين من عمرها ترتدى نقابا وثوبا عجريًا أسود مشغول بالزخارف.... نزلت إلى النهر وملأت جرة ثم عبرت سياجًا صغيرا كان به قطيع من الماعز والخرفان فقامت على حلب ماعزها فى إناء فخارى وانكبت على عملها خرج صغيران من العش وبدأ باللعب وتبعهما رجل غجرى حمل عصاه ورحل ميمما شطر منوف... حانت منها التفاته إلى رداء كان يتطاير على مبعده من خلف الأعشاب العالية... لم تلتفت له وعندما انتهت فتحت سياجها وبدأت فى دفع ماعزها إلى المرعى.. سارت الماعز بجوار الشاطئ. حانت منها التفاتة إلى الجسد النائم... التمعت عيناها ببريق موحش.

استيقظ قرب العصر كان جائعا. حتى المغرب ظل عبدالمحسن ممددا ينتظر مجىء المرأة التى التقى بها من قبل أثناء دق الأصلة فى غيط محمد أفندى الخلوتى.. كانت

t.me/qurssan

قد فتنته بعينيها الواسعتين الشديدتى الاحوار وجسدها الممتلئ القوى الفارع وهى تنحنى أمام زوجها بالشماريخ يدقان الأصلة.. استمع للرجال عندما كانوا يجتمعون للغذاء وهم يتحدثون عنها:

- من يريد الوصال عليه أن يدفع لزوجها المعلوم.

- كيف عرفت ؟

- روح واسأل.

- وإذا قابلنى جوزها ببارودته... هعمل إيه.. هه.

- ابقى اجرى.

وطوال سبعة أيام ظل قابضا على دينارة الذهبى وقد ربط البارات فى كيس من الكتان بالمكان الذى جلس فيه أول مرة لا يدرى ماذا يفعل سوى متابعتها، وهى تبادله نظرات سريعة خالية من المعنى، وفى أحد الأيام استيقظ فوجد زوجها يقف على رأسه، جمد من الرعب وتوجس خيفة أن يضربه بالشمروخ الذى بيده ويهشم رأسه، لكن الأعرابى تركه ومضى فقام يتحسس رأسه والخجل يغمره فى هذا اليوم تبعها طوال سيرها عبر المديرية... دارت دورة واسعة عبر فيشا ثم توجهت إلى كمشوش وأوغلت غربًا إلى منطقة السدود جنوبى منوف بثلاثة أميال... كانت هناك مساحات واسعة من الأراضى التى تم حصادها وتبقت فيها أعشاب جافة انتشرت الماعز تلتهمها على مهل... قرب الظهيرة جلست القرفصاء تحت شجرة توت ضخمة وبجوارها حمارتها العجفاء.. أنزلت خرجا أخرجت منه خبز شمسيا وصحنا من جبن الماعز ممزوجا باللبن المخضوض وحفنة من التمر.. تسلل مقتربا منها حتى صار على بعد عشر خطوات. كان يقلب فى رأسه ماذا يفعل؟ ولسانه لا يطاوعه بالحديث... أخرج خرقة من سيالته وأخذ يلتهم كسرة خبز جافة... رفعت رأسها نحوه متجهمة وأشارت إليه بإشارات فهم منها أنها تدعوه. فقام إليها على مهل... أشارت إليه أن يجلس للأكل.. قالت بلهجة متسارعة وهى تنظر إليه بنظرات نافذة وكأنها تقيسه:

- تبى تدور كيف التيس.. هيا أجلس كل لقمة.. لم يفهم شىء سوى أنها تشتمه وتدعوه إلى الطعام فشعر بالخجل لأنه لم يكن لديه ما يدعوها إليه... فلما انتهى رمقته بنظرة فاحصة.

t.me/qurssan

- أيش تبى؟... أطرق برأسه فى الأرض وحار جوابا.

- ما تعرف.. هزت رأسها تطرده .... هيا أغرب يا صغير ما تعاود يم العش..

اهتز بشدة.. أصابته إهانتها له.. جحظت عيناه حيرة وداخله يشتد عليه تعنيفا وتبكيتا.. ماذا يفيد الدينار الآن... ثمة شىء يجب أن يفعله لقد أعد هذا الدينار لها أخرج من جيبه الدينار الذهبى وألقى به إليها ودار موليا لها ظهره. راحلا.... كان يسير ببطء شيعته بنظراتها هابطا أحد المستنقعات الجافة... دار حول دغل من البوص واختفى جلس القرفصاء مجهدا من رحلته التى أنهكته.... كان يفكر فى مشقة الحصاد طوال الليل.. والأيام السبعة التى ضاعت هباء... هذا ما حزن عليه بعد هنيهة سمع خرخشة وسط دغل البوص... توتر للحظة .. قبض على خنجره الحاد.. فكر فى أنه ذئب.. اللعنة.

- من المجنون الذى يدخل هنا.. هكذا سمع صوتها وهى تدلف من البوص الكثيف.

- ما تخشى الذئاب ... نظر إليها كانت تقف أمامه مباشرة وهى تبتسم بغمازتين كحبتى تفاح.. لجم لسانه ثانية ولم يستطع سوى أن يخرج كيسه الملئ بالبارات وأسقطه على الأرض... هبطت تجثو بجانبه وعلى وجهها ابتسامة... اقتربت منه بوجهها البدرى وعيناها الشديدتا السواد فاهتاج قلبه... تنهدت يا حبيبى ما بك حاجة لاخذى بالنقود كفاك تمضى الليالى ببابى قعودا واستطردت علك لأمست مرة من قبل... هز رأسه نفيا... صرخت بغضب:

- ايش تكون أخرس .... هز رأسه نفيا مرة ثانية.

- نشهد الله أنك لست ساذجا... خوفى لو أن فعلك ساكن سكون لسانك... لكن ايش بيد المرأة إذ بتجد شاب مثلك يقف ببابها صامتا ككلب أليف.

كانت تخلع الآن زنارها وأخذ رداءها الذى تلتف به يسقط بجانبها فرشته أسفلها.

- تعالى... فأقبل... قالت ساخطة.

- ويلى ألا تخلع قميصك فقام إلى الجوار يختفى فرددت ساخطة ماذا أفعل بهذا الصبى... حلت تكتها... آه مثلك مثل الزعرور... بلغ الذروة لحظة أن لامسها... قالت: كسيفة البال: هل تكتفى؟

t.me/qurssan

لكنه لم يكتف... إذ إنها دفعته عن صدرها وهى تهمس:

ـ لعن الله الوطاء... بعدها لم تشكوه قط بل كانت تبتهل له بالدعاء حينا والرجاء حينا.

وقد انهمكا فى صراع كله شوق وعض ونشب أظافر.. ست مرات تسأله وهى تصرخ أو تبكى أو تضحك... هل تكتفى؟ فلا يكتفى.. وكانت الشمس قد بدأت تميل للغروب وجسده قد امتلأ بالكدمات من جراء عضها له ونشب أظافرها لظهره.. لم يتركها إلا عندما صرخت باكية الغنمات.. بحق النبى العويلة بحق النبى يا شيخ ما تخرب على فقام وهو يذكر قطعيها... ارتدى سرواله على عجل وقامت تتكئ على جنبها وظهرها الموجعين.

وعندما خرجت من الدغل وجدت قطيعها يرقد فى قاع المستنقع الجاف وطفيلها يلعبان جانبا... رأته يجرى سمعته يصرخ فى الفضاء الرحب وهو يقفز قفزة عالية رافعا ساقيه:

ـ يا أخى.. هووووه.. اتسعت ابتسامتها... ضحكت وازداد ضحكها وهو يعود إليها قافزا فوق الأعشاب وأشجار الشوك وشجيرات التين الشوكى وهو يهلل فرحا دافعًا الأغنام والماعز للتحرك شمالا جهة منوف... سارت خلفه فاستدار ناحيتها فجأة وضمها بشوق وهو يقبلها همست بسعادة:

ـ صبى يحيا... قالت له يا كبدى إذ بعرف هيك ما تركتك تنتظر كل هذه الأيام.

قبل أن يبلغا منوف صاحت به:

ـ ايش اسمك يا صبى؟ ... قال مطأطئ الرأس:

ـ آنا مش صبى... ضحكت:

ـ آه نطقت يا زعرور.. ايش اسمك ياها الشاب؟

أجاب مسرعا: عبدالمحسن.

مرت فترة صمت ثم جمع أطراف شجاعته وقال:

ـ وأنت اسمك إيه... كانا قد اقتربا من المدينة.

ـ آه خفت ألا تسأل: زاهية... إذا بتيجى لعنا يا هلا ما بنريد نقودك وإذا بتيجى ومعاك رفاق بيرموا حلوانهم.

t.me/qurssan

- وزوجك.

- زوجى هذا يقاسمنى عرضى... بتيجى...؟

قال صارخا بأعلى صوته المتلئ بالسعادة:

- بكره يا زاهية... يا قمر.. وكأنه بابتعاده عنها شعر بشجاعته تعود إليه وأن باستطاعته أن يقول ما يريد.. بكره يا شمس الشموس يا صبح الندا.

قالت وثغرها يفتر بابتسامة صبغت غمازتيها بلون الشفق:

- إيه بستناك يا وش الخير.

* * *

أول ما فكر فيه عبدالمحسن هو أن يصحب معه الأشقر... ومنذ الصباح الباكر كان كل من يمر عليه يتسأل ماذا أصابه وهو يمشى الهوينا فى خيلاء محييا جمع الرجال بتؤده.

- سلام عليكم... سلام عليكم يا أبى الحاج.

- السلام عليكم - انشالله تكون الحاجة بخير.

- بخير يا بنى.

- مش عايز حاجة... أنا فى الخدمة.

- العفو يا بنى.

وأمام الأشقر جلس لايتحرك ساهما يفكر يقابل أفعاله وسخريته مما حوله بلا مبالاه... شعر الأشقر بشرود صديقه فمال يسأله وهو ينتظر إجابة بلهاء لأسئلة بلهاء.

- كيف لون العسل... ملوحا إلى شقائه الذى يمضيه فى الحصاد.. قال بجفاء:

- بيعيش فيه الذباب.

- وأنت ما تأكل منه

- باكل منه ح أقول لأ... ولا الواحد يقول لأ.

- آه... طيب كيف أخبار النساء ... برقت عينا عبدالمحسن وقال مباغتا صديقه:

- تريد واحدة... ضحك الأشقر:

- نعم... ولكن كيف يا فلاح.

- أنا بسألك ... تريد مرة... أنا بتكلم جد.

t.me/qurssan

بهت الأشقر: ايش تقول؟

- زى ما سمعت.. ثم قال معرضا به مستفزا إياه.. راجل.. ولا مرة.

انتفض الأشقر واقفا على قدميه غامت عيناه تحت أمواج من الضباب الكثيف وضرب صدره بيده وهو يقول بتحد موشكا على العراك... راجل... قبض على خنجر وهو يضيق من عينيه: تريد تشوف.

بهت عبدالمحسن لوهلة إزاء رد فعل الأشقر العنيف.. قال بتحد:

- لم تجب على سؤالى... تريد امرأة؟

أجاب الأشقر وهو يخرج خنجره بعصاب حاد:

- نعم أريد امرأة كى أذبحها... وشق الفضاء بنصل خنجره.... لو كنت تعبث بى... ولد عبدالمحسن أعلم... وفح كالأفعى سوف أذبحك.

قال عبدالمحسن: وهو يمد كفه إليه:

- هات.. نظر الأشقر إليه وصدره يعلو ويهبط مكتئبا وقد شعر بعبد المحسن يطل على منطقة حياته المظلمة:

- ماذا.

- هات المعلوم.... دار برأسه يمنة ويسرة:

- معلوم ماذا... قال عبدالمحسن برعونة.

- هى بوابة من غير بواب.

- كم تريد ... فكر بسرعة:

- بندقى لزوجها وبندقيان لهما وبندقان لى... ففر الأشقر دهشة ثم أخذ يهدأ قليلا ثم ابتسم وأخذ فى الضحك وهو يلكز عبدالمحسن بقبضته بقوة فى كتفه.

- أنت بتضحك على يا ملعون... قسما بالله كنت أنوى ذبحك.. فاستمر عبدالمحسن قائلا بنفس نبرة البرود:

- خمسة دينارات وتقضى وترك من امرأة كالبدر... ضاقت عينا الأشقر ثانية ثم ما لبث أن هدأ ثانية أمام برودة أعصاب عبدالمحسن وعدم اكتراثه بعصبيته وتصرفاته الخطرة فعاد يضحك:

- من أين لى بخمسة دينارات بندقية.

t.me/qurssan

قام عبدالمحسن مرة واحدة مغادرا المكان من على مبعده صاح به:

ـ عندما تحضر المعلوم تنال المطلوب... وانطلق يجرى قافزا وهو يخطف عمة أحد المقرئين... جرى الرجل خلفه فألقى بالعمة فى مكان آخر فانشغل الرجل عن مطاردته بجمع عمامته وشاله والأشقر يضحك من بعيد... غاب عبدالمحسن أسبوعا كاملا عن الأماكن التى اعتاد ارتيادها.. لم يأبه لغيابه أحد إلا الأشقر الذى عصف به الجنون... وعندما أقبل يسير مختالا حاملاً عصاه على كتفه معلقا ذراعيه عليها تلقاه الأشقر ضاحكا يشكو غيبته... تحدثا فى كل شىء إلا عن عالم النساء... والأشقر يدور حوله ينتظر أن ينبس عبدالمحسن بكلمة دون جدوى.. قرر عبدالمحسن... أن يثير غيرته... ولهذا تجاهل الأمر.

كان الغلامان يتناطحان... الفلاح بمعرفته والملوك بسطوته وجبروته وفى اللحظة التى انفرد فيها الأشقر بعبد المحسن فوجئ عبدالمحسن بصديقه يمسكه من خاصرته ويجذبه بعنف وقد أمسك فى يده الأخرى نصلا حادا.

ـ أين كنت تذهب طوال هذه المدة؟... بهت عبدالمحسن ثانية لشدة رد الفعل لدى المملوك وقوة غيرته دفعه بعيدا عنه... قال بحذر ـ أنت تعلم.

ـ كيف لى أن أعلم... هل أرسل خلفك البصاصين ؟

ـ وايه شأنك يا أخى...؟

صفر النصل فى الهواء قرب رقبة عبد المحسن.. رمشت عيناه بقوة وخال أنه يقف أمام إنسان لا يعرفه. كان الأشقر قد أسقط رأسه بين كتفيه وقد مدها للأمام وحاجبه يهتز بين فنية والأخرى.. فكر أنه يجب ألا يخبره بأمر زاهية..

قال بعصبية:

ـ قلت لك قدم المعلوم أولا.. صاح الأشقر وثورته قد بدأت تهدأ وقد أسقط فى يده:

ـ أين لى بالدنانير؟...

.. رفع عبد المحسن رأسه

ـ لنسرق.. .

صاح الأشقر سعيدا

t.me/qurssan

ـ لنسرق من؟ حارا لفترة قبل أن يقف عبد المحسن..

ـ تعالى معاى.. أنا حاتصرف.

سار عبد المحسن عابرا طرقات منوف وهو يكاد يعدو خلفه.. كان الأشقر يجد السير متحاشيا الاقتراب من مماليك على بك الملط أو أحد من العربان.. وقرب شارع السوق تمهلا قليلاً وأمام باب حانوت السيد حسن البقلى توقف حتى حاذاه الأشقر.. استدار نحوه.. قال هامسا:

ـ شايف (الينكرجى).

ـ أين؟

ـ اللى قاعد بحانوت السيد البقلى يقسم عليه دخله.

كان عسكر على بك ملط قد انتشروا فى الحوانيت وذهب كل ذى حرفة إلى حرفته التى كان يحترفها فى بلده فيخلع سلاحه ويعلقه ويرسم ركنه فى ورقة أو أعلى باب الدكان جاعلا من نفسه شريكا بالقوة لصاحب الحانوت ويذهب أو يجلس حيث شاء ثم يقاسمه فى المكسب.. دفن الأشقر رأسه بين كتفيه استطرد عبد المحسن:

ـ اخترت لك أثقل حوانيت البلد دخلا والعسكرى اللى قاعد يقاسم السيد البقلى هو أغنى عساكر الحرف الذين يقاسمون أهل البلد مكاسبهم.

رفع الأشقر رأسه وعلى وجهه ابتسامة لزجة تنم عن اللامبالاة وعشق الدماء.. قال:

ـ لماذا لا نأكل الرأس.. نفض عبد المحسن يديه ودفعه قائلاً:

ـ عايز تقوم الدنيا علينا وتقعدها.. فاكر نفسك تقدر تهرب بمال البقلى كده فى السر.. فوق لنفسك هذا الينكرجى لن يفتقده أحد.

هز الأشقر رأسه موافقا..

ـ سوف أضيف لك رصيدا.. بكل جرأة اقتحم عبد المحسن حانوت البقلى، كان الينكرجى يحادثه بلغة تركية وكان البقلى يفهمه فى صعوبة.. قال عبد المحسن ـ سيدى مشى عايز ربنا يخلصك منه.

رفع البقلى يده إلى السماء ـ ربنا يبعت له داهية تأخذه بالطبع يا بنى.. هه.. ليه؟

أشار عبد المحسن خارجا دون أن يلتفت ـ لأن الله أرسل بالفعل داهية عايزة تأخذه.. نظر البقلى لا يفهم شيئًا.. استطرد عبد المحسن هامسا ـ الواقف بالخارج هذا

t.me/qurssan

يقول أنه قتل أخيه وعايز يذبحه فإذا كان فى ده منفعتك ادفع له شيئًا. صرخ البقلى - أمشى يا واد يا عبد المحسن، امشى أحسن ابعت لك الأغا. قال عبد المحسن: سيد حسن بقلى هو عايز بس.. نصف ما تدفعه لهذا الينكرجى عن شهر هز كتفيه مستطردا حسبه مضبوطة، شهر واحد فقط - امشى يا وله هو أنا ناقصك يا ابن المركوب. تراجع عبد المحسن وهو يقول للبقلى - سيد بقلى، أنت حر، أنى قصدى مصلحتك. فى اليوم التالى غاب الينكرجى ولم يأت حانوت البقلى، وفى الظهر مر عبدالمحسن على الحانوت وهو يلقى بالتحية على السيد البقلى غامزًا له بعينيه. لم يأت الينكرجى فى اليوم الثالث.. مر عبدالمحسن بصحبة الأشقر.. صاح عبدالمحسن - السلام عليك يا سيد حسن البقلى، أرجو أن تكون غمتك زالت.. نظر إليه البقلى حائرًا وفى نهاية الأسبوع دخل عبدالمحسن الحانوت وقال له مشيرًا إلى الأشقر - عايز معلومه.. ورأيى يا بوى الشيخ، أعطيه علشان ما يفتكرش ويجى يأخذه تانى بنفسه.. هز البقلى رأسه وعيناه مضطربتان تنظران إلى ابتسامة الأشقر اللزجة.. دفع إلى عبد المحسن بثلاثين دينار.. أخفى نصفها بمهارة، وأعطى النصف الثانى إلى الأشقر.. وكان قد حصل من الينكرجى بعد أن قتله الأشقر على عشرين بندقيا كانت معه.. صاح عبدالمحسن وهو بقذف بالأكياس إلى الفضاء - والآن إلى النساء. وفجأة أمسك عبد المحسن بذراعه. وجذبه ناحيته فنظر إليه الأشقر، قال - من غير سلاح ضحك الأشقر.. فكر عبد المحسن - من غير سلاح. فرفع الأشقر يديه مستسلما وهو يردد:

- من غير سلاح.

كانا يتسللان كل ليلة، بعد أن توقف عبد المحسن عن الذهاب للعمل إلى مركب شراعى ضخم يسير فى الفرعونية وعلى سطحه تتناوب الغوازى الرقص على أنغام الموسيقى والغناء فيظلا يدخنان الحشيش ويضاجعن النساء حتى الفجر، فلما انتهت دنانيرهما شرعا فى اصطياد المماليك خارج منوف.

فى إحدى ليالى مجونهما ارتفعت ضحكات عبد المحسن وسط صياح النساء وصراخ إحداهن وبجواره وقف الأشقر عاريا كما ولدته أمه ينتظر دوره وهو يضحك ضحكة لزجة هىء.. هىء.. وامرأة فى الخامسة والثلاثين تقول لهما - لم تدفعا شىء فى المرة الماضية.. الفضة أولا... سار الأشقر بعريه ناحيتها - سوف ندفع.. هىء.. هىء.. هىء.. فصرخت دعنى أسمع رنينها أولا.

t.me/qurssan

... لماذا تركته هو.. قاصدا عبد المحسن. أشارت تغمز بعينيها إلى إحدى الفتيات ـ أنها تدفع عنه.. والله سأطلب الجرسجية. سوف ندفع هىء هىء هىء.. هىء هىء.

بعد الساعة كان يسمع صوت الخيول بالخارج وطرقًا شديدًا على الباب.. انتفض كليهما عبد المحسن والأشقر مدا أيديهما يجذبان سروالهما ويخطفان ملابسهما خطفا ولواحظ تمسك بهما.. النقود.. يا أولاد الكلب. دفعها الأشقر عنه بقوة وتبعه عبد المحسن وهو يقفز من الشرفة فى اللحظة التى دخل فيها ثلاثة من الجرسجية.. صرخت الفتيات تخفين عريهن وصوت البارود ينطلق من غدارة أحدهم باتجاه الشرفة.. دارا يعدوان فى اتجاه جواد الأشقر امتطياه سويا وهما يضحكان.. وانطلقا رماحة فى الدروب الضيقة.

كانت زاهية تصاب بالغضب لابتعاد الفتى عنها فكان يتطلع لها فى ملاحة ـ لو أنى قلت له عنك لقتل واحد منا. فتضحك وتقول ـ ليش.. فاكرنى بنت الملك حسان بن يزجد

ـ أنت عارفة.. مرة سمعنا صراخ جاى من قمرته.. نزلنا سطح المركب نط.. دخلنا بالعافية.. لقيناه ماسك فى رقبة المرأة وعينيها ولسانها طالع بره.. قام علينا زى المجنون.. شد قطعة حديد من جسم المركب وهاج واللعاب يخرج من فمه.. اجتمعنا عليه وقيدناه بالحبال بالعافية.. وفى الصباح كان قد هدأ.. يا ربى أنا دلوقت بخافه.. لما سألنا البنت وكانت ساذجة.. جديدة فى الكار.. قالت ـ أنى ما عملتش حاجة.

قالت زاهية ـ بتقول جديدة فى الكار؟

ـ نعم.. صديقك هذا سفاح.. قاومته فأطلقت فيه شهوة القتل.

* * *

ـ ٣ ـ

عندما علم محمد أبو الفضل أنه سوف يصاحب فرقة المنشدين فى الاحتفال الذى سيقيمه الشيخ السنهورى لكاشف المديرية على بك الملط والحسينى بك القائم على جمع الفردة والمال الذى عينه إسماعيل بك على المنوفية، أصابته حالة من انعدام الوزن. لقد رأى فى هذا علامة على قرب النزول إلى مصر والالتحاق بالأزهر.. فكر أنه ليجود

t.me/qurssan

صوته ويجعله جميلا حتى ليجعل نساء أمراء البلاد يتمايلن هوى وصبابه.. سرح بخياله وهو يرى الأميرة شريفة تبكى هى وابنتها لجمال صوته وحلاوة الإنشاد والدمع يطفر من مآقيها خشية من الله. فتأتى إليه بشحمها ولحمها قائلة:

ـ يا شيخ محمد أبو الفضل ما أنت إلا رجل فاضل ابن رجل فاضل، نحن نعرفك ونعرف ما فعله أبوك لنا من خدمات جليلة وأنت رجل يسر ابن يسر كل هذا يعرفه الجميع وأنت رجل تقوى وإيمان وزهد فى ملذات الدنيا الزائلة، لهذا فقط وهبتك ابنتى فاطمة عل وجودها معك ينقذها ويشفع لنا من عذابات الجحيم وتكون ونكون من أهل الجنة والنعيم. أطل من فوق سقيفتهم فوجد عبد المحسن يحمل جرار المياه لخالته صديقة وبدرية تساعده، فتمنى لو أن قدمه تزل فيسقط مكسور القدم مهشم الرأس، وتكون بدرية السبب فيجلدونها حتى تقطع أوصال جسدها ويأخذونها للبيع على تكية المجاليب.. لو أن الأميرة شريفة قالت له.. وهبتك ابنتى فاطمة سأقول لها.. سيدتى الأميرة هل يملك أحد أن ينجو بنفسه من عذاب الروح أمام بارئها.. حتى أتحمل ما ليس لى به طاقة، وأحمل وزر جارية لا شفيع لها يوم القيامة سوى سيدى وحبيبى رسول الله ﷺ.. ليس لى حق الشفاعة إنما هو حق المختار حبيب الله.. اذهبى سامحك الله. أنصت لنفسه مستحسنا بلاغته وترفعه. أما إذا أصرت، أخذت ابنتها وحبستها ومنعت عنها الزاد والطعام وأهلكت جسدها ضربا حتى ترتدى مسوح الأتقياء.. هذا هو شرطى.

فى المساء افترش ضيوف الشيخ السنهورى الحشايا، يدخنون النرجيلة ويشربون المسكرات والقهوة أطل محمد بك الحسينى من شرفة القصر فرأى دربا طويلا عليه علامة الصليب.. مال على الشيخ السنهورى ـ لمن هذه الدرب؟ فقال ـ إنه درب النصارى. فمال على على بك الملط وهمس بصوته، فرفع الملط صوته قائلاً: عند الحسينى بك فرمان من عابدى باشا وإلى البلاد بهدم حارات النصارى وركوب الحمير وارتداء الزعبوط والزنار.. تغضنت وجوه الجالسين وظهر القلق على وجه المعلم قسطندى.. فكر إذا كان نصارى القاهرة دفعوا على حارتهم خمسة وثلاثين ألف ريال مصالحة مع عابدى باشا، كم يتعين علينا الدفع فى منوف.. يجب أن أبحث الأمر مع الإخوان.

بعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم بدأت فرقة الإنشاد والمديح النبوى.

t.me/qurssan

وعندما بلغ لليل منتصفه واستحسن الحاضرون صوت دنيا ازاد وبدا أن الوقت للراحة والجلوس بين شارب وطالب طعام وقاضى حاجة.. وبعد فترة انقضت تصاعد صوت أوتار العود تتلاعب به أيدى هاوية غير خبيرة تشاغل الحاضرون عنها ظنا بأن عبثا يجرى خلف الستار الحاجب.. لكن لحنا تصاعد كأنه قادم من بعيد.. ضئيل غير واضح المعالم مشتت التكوين ما لبث أن تباين وتمايز وانساب رقيقا لطيفا يصاحبه غناء جميل.

حـــيـــر الأفـــكـــار بـــدرى

فـى صـــفـــا خـــد الأصـــيل

من بـــغـــصن الـــبـــان يـــزرى

بـــالـــتـــثـــنـى حـــين يمـــيل

ســـيـــدى لـــو كـــنـت تـــدرى

صـــرت من أجـــلـك عـــلـــيل

فـــاغـــنـــتم بـــالـــله أجـــرى

واصـــطـــنع فـــعل الجـــمـــيل

فلما انتهت بدرية من الغناء خيم الصمت على الحاضرين وارتسمت على وجه الشيخ السنهورى ابتسامة عريضة يشوبها فخر بصوت ابنته.. مال عليه البقلى يسأله.

- من هذا البلبل الصداح؟

- ابنتنا بدرية.

- وكم عمرها؟

- يا سيد حسن فيما نذكر أن عمرها لم يتعد الحادية عشرة.. ولا داعى لما تفكر فيه.

- وما عيب الذى أفكر فيه.. إننى أفكر فى الحلال.

- زوجتان.. ألا تكتفى!!

- والله لو كان منظرها فى جمال صوتها لانتظرتها حتى يصير لها ما للنساء وأخذتها منك على سنة الله ورسوله.

t.me/qurssan

ضحك السنهورى.. قاطعه الغناء ثانية وجاء صوت بدرية ليغنى مقطعا شديد الصعوبة:

مـــــا أثـم مـــــا أوضـــــحـــــا

مـــــا أورقـــــا لمـــــا أثـم

لا جـــــــــرم مـن لمحـــــــــا

قـــد عـــشـــقـــا قـــد جـــرم

تصاعد استحسان الحضور إعجابا وقام السنهورى ليدخل عليها مهنئا يتبعه البقلى.. دس محمد أبو الفضل رأسه مغتاظا ليتأكد فوجد السنهورى يرفعها بين يديه ويقبلها سعيدا مبتسما والبقلى من خلفه يصبح.

ـ والله ما أن يتم نضج هذه الحمامة الوديعة لأتزوجها.. أعطنى كلمة يا سيدنا ألست وكيلها.. والله لا أهذر.

شعر محمد أبو الفضل بغيرة شديدة.. همست امرأة تدعو السنهورى بالباب.. حدثته همسا.. فاستدار للبقلى قائلاً :

ـ سأعود بعد قليل.

قامت بدرية تسيل من عينيها خمرة نيلية.. أخرج البقلى دينارا ذهبيا وهو يقيس عودها الرفيع الذى يشبه بوصة عارية من أورقها.

ـ خذى يا صغيرة وقولى لى ابنة من أنت؟

قالت ووجهها كحمل وديع برىء.. بنت المنصور أبو حجاج.

كاد أن ينطق الأكتع لكنه حبس عبارته.. والله.. أنت ابنتنا إذًا.. أمسك بها بسرعة ومال عليها.. كبس على وجهها بشفتيه الغليظتين بقوة.. تراجعت مذعورة وهو يلتفت يمنى ويسرى وعقلة يحدثه.. يا لك من فتاة ـ غنى لنا إذًا يا ابنة الأكتع ولا تمنعى عنا غناءك.

وخزها اللقب تراجعت مذعورة واسود وجهها. جلست تغنى ضائعة.. خائفة.. وعندما دخلت دنيا أزاد بان على الرجل اضطرابه وخرج.. فاندفعت إلى صدر دنيا أزاد وهى تسألها ما بها.. فلا تجيب.

* * *

t.me/qurssan

- ٤ -

مثل كل عام دخل الحجاج مصر على حين غفلة وبينهم السيد حسن البقلى وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع.وما زاد هذا العام عن الأعوام الأخرى أن أمير الحج بعد أن دفع لكبار العربان عوائد سنتين حتى يسمحوا لهم بالذهاب لزيارة المدينة المنورة وقسط الباقى على سنتين، حجز عنده أربعة أشخاص رهائن وخيل له أن يكوى وجوههم بالنار فكان أن تربص به العربان فى الطريق وانقضوا على قوافل الحج المصرية كما ينقضون عليها فى كل عام، لكنهم فى هذا العام لم يكتفوا بنهب أحمال التجار وأحمال أمير الحج أو أمتعتهم بل سبى العربان جميع النساء، ونزلوا تقتيلا بكل الرجال والعجائز. استغاث الحجاج بأمير الحج الشامى فى أمر النساء فقالوا يأخذهن فى مصر على دنانير. وبين السويس والقاهرة نهبت القافلة ثانية فكان ما أخذه العربان ستة آلاف جمل محمل بالبن والقماش والبهار والبضائع ثم إنهم عرضوا نساءهم فى المزاد فكان الرجل يسافر إلى بلبيس ليفتدى أمه وأخته أو ابنته فيجدها عارية ليس عليها إلا قميص فيدفع فيها المطلوب ثم يعود بها.

وكان التجار قد حدثوا قبائل العبايدة فى أجرة يحمون بها القافلة فكان أن نهب القافلة عربان العبايدة أنفسهم.

فلما اشتكو إلى إسماعيل بك شيخ البلاد وأميرها وقائم المقام عليها فإنه أظهر لهم الشماتة ووبخهم قائلا:

- أنتم ناس أكابر.. أنا أطلب من العرب لشيل الذخيرة وأنتم تطلبون منهم حماية أنفسكم وأعراضكم ومتاجركم وتعطلوا أشغال الدولة ولا تستأذنوا أحد فجزاكم بما حل بكم.

قال السيد حسن البقلى الذى كان قد نجى بأعجوبة من هجوم العربان إذ سقط على بطنه دافنا رأسه فى الرمال كالميت حتى انتهت المذبحة).

- ألا نذهب لحج بيت الله الحرام؟

- ومن منعك؟

- ما يحدث للحجاج كل عام.

- وهل بيدى شىء؟

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

ـ أنهم يفعلون ثم أنتم تصالحونهم ولا تأخذون منهم حقوقنا.

ـ وهل تظننى أحارب القبلين بقبلى، والعربان بشرقى. أنتم تساعدون القبلين، وأنا أعلم ذلك.

ـ من عرفت أنه يساعد القبلين حاسبه لكن لا تأخذ مظلوم بجريرة ظالم.

وقام التجار ثائرين.. وعلى الباب الخارجى رفع السيد باكير، عمامته وألقى بها إلى الأرض صارخا.

ـ أكون بريئا من دين الإسلام إذا لم يكن إسماعيل بك يوالى العبايدة على جزء من أموالنا ومال عيالنا.. فوافقه الجميع وقرروا الذهاب إلى والى البلاد عابدى باشا.

نظر إليهم وعلى وجهه ابتسامة فاجرة وقال إنه بلغنى أنكم تختلسون الكثير من المخزون والبضاعة وتأتون بها عن غير جمرك ولا عشور فوقع لكم ذلك قصاصا ببركة جدى لأنى شريف وأنت أكلتم حقى.

ضرب أحد التجار جبهته بيده.. وانتفض آخر وقام إليه السيد باكير.

ـ يا مولانا الوزير جرت العادة أن التجار يفعلون ذلك ويقولون ما أمكنهم وعلى الحاكم التفتيش والفحص.

اهتزت شوارب الوالى واهتز جسده كله.. كان ينتفض من الغل والغيظ ودار برأسه فى وجوه أعوانه وتابعيه.

ـ انظروا.. انظروا هذا الفلاح كيف يجاوبنى ويشافهنى ويرد على الكلام والخطاب.

كانت مصارحة السيد باكير قد أفزعته.. إذ لو أن كل ما يحدث قيل فيه ما هو عليه من الحقيقة لانكشف المستور وبان الغائب. استطرد وهو يقهقه من شدة الغضب.. انظروا كيف أن مثل هذا العامى السوقى يرد على بهذا الجواب.. ما رأيت مثل أهل هذه البلدة ولا أقل منهم حياء.

.. استطرد وأصابعه تهتز.. لولا خوفى من الله لسملت عيونه حتى لا يرفعها فى وجه من هم أحسن شأنا منه ولقطعت لسانه حتى أحمى المتأدبين من عدوان غير المتأدبين، ولقطعت قدميه حتى لا يخرج من حيث يقيم هيا إلى الخارج قبل أن أفعل.

* * *

t.me/qurssan

دخل إسماعيل بك على الوالى قادما من بولاق بعد أن شاهد «شركفلك» الذى قام على صنعه وتشغيله بنفسه بعد أن زاد على ما صنعه حسن باشا القبودان بأن ركبه على عجل يجرونه به وسبك له جللا كثيرة فلما رآه وأعجب به وأطلق منه العسكر المدافع فأحدث خللا كبيرا، أعطى أوامره بعمل شر كفلين على وجه السرعة وذلك على أن يبقى أحدهم فى القلعة التى شرع فى بنائها قرب طرة فى حين ينزل الآخر النهر لحرب أمراء القبلين.

كانت يد عابدى باشا لا تزال تهتز من الغضب ووجهه ممتلئا بالدم. وبعد أن حضر إسماعيل بك شيخ البلاد تقاطر بقية الأمراء والمشايخ لسماع رسائل القبلية التى أحضرها معه الشيخ أحمد يونس.

- إنكم نسبتمونا لنقض العهد والحال أن النقض جعل منكم بتسفير إخوتنا الرهائن وذهابهم مع قبطان باشا إلى الروم وما فعلتم فى بيوتنا وحريمنا، فلما حصل ذلك احتد البعض منا وزحفوا إلى بحرى فركبنا خلفهم نردهم اتقاء للحرب وطلبا للسلام، فلم يمتثلوا فأقمنا معهم.. والحقيقة أننا ملزمون بعهدنا مع نائب السلطان لا نخالفه وتتوجب علينا طاعته.. وهذا.. زفر عابدى باشا زفرة حارة ورفع يده فى الهواء لا يستطيع الكلام كالمجنون فعاونه إسماعيل بك صارخا يفرج عما فى صدر عابدى باشا.

- والله هؤلاء أنما يضحكون على ذقوننا، فهل يعقل أن يزحف مجنون إلى أسيوط فيأتى خلفه عاقل لرده فتكون النتيجة أن يبقى العاقل مع المجنون.. فأى شرع يسود، شرع العقلاء أم شرع المجانين؟!

قال عابدى باشا وقد استعاد هدوءه.

- والله أنا أقول إنما نحن المجانين أن نسمع فى كلام فارغ وألاعيب لا تخيل على عقل. على أنه فى ذات اللحظة دخل رسول آخر من عند القبليين كان يحمل رسالة أخرى قالوا فيها - أننا تركنا لكم بحرى البلاد وأخذنا قبليها وحدود أمارتنا الجيزة شمالا حتى أسوان جنوبا ولكم ما فوق طره حتى البحر الكبير فإن قاتلتمونا على ذلك قاتلناكم وإن اكتفيتم عنا فلسنا واصلين إليكم ولا طالبين منكم مصر ونعقد الصلح فى ذلك فأرسلوا بعض المشايخ والاختيارية نتوافق معهم على أمر يحسن السكون عليه وهذا آخر كلام.

t.me/qurssan

فصرخ الشيخ أحمد يونس قائلا لعابدى باشا.

- يا مولانا خلاصة الكلام إنكم لو أعطيتوهم من الإسكندرية لأسوان ما يرضيهم إلا دخول مصر.

قال حسن بك الجداوى.

- نرسل نعلم الدولة وننتظر ماذا يكون الجواب فإن زحفوا قبل مجىء الجواب خرجنا إليهم وقاتلناهم.

رفع عابدى باشا يديه مقاطعا.

- أنا جاءنى طلرى وبيده رسومات. أشار إلى إسماعيل كتخدا فقرأ المرسوم الأول وكان يطلب مشان ويدك أما الثانى فبسبب القبليين وجاء فيه إن كانوا مقيمين بالأماكن التى عينها لهم حسن باشا بالولاية فلا تتعرضوا لهم، وأن كانوا زحفوا وتعدوا ونقضوا فأخرجوا إليهم وقاتلوهم، وأن احتجتم عساكر أرسلنا لكم.. أما المرسوم الثالث فقد كان مقرر عابدى باشا بالولاية عاما آخر، والمرسوم الرابع فقد كان بالوصية على الفقراء وإرسال غلال الحرمين والأنبار والجامكية.

صاح إسماعيل باشا - فأننا نرسل فى طلب العسكر.

قال الشيخ العروسى بقرف - العسكر الرومية مغارم ومكالف والأولى استجلاب خواطر الجند بالإحسان إليهم فينتهى الأمر مرة واحدة والذى نعطيه للأغراب أعطوه لأبناء البلد أولى وأحسن.

قال عابدى باشا مغتاظا من العروسى: وأنا عندى فتوى من شيخ الإسلام باسلامبول بقتالهم وكذلك أريد فتوى من علماء مصر بموجب ذلك فإخرج إليهم وأقاتلهم.

قال السنهورى: فهذا حق علينا يا حضرة سلطانيم.

فرفع إسماعيل بك يده على الفور وصاح:

- يا أسيادنا يا مشايخ يا أمراء ويا وجاقلية أن جماعة القبليين نقضوا عهد السلطان وتركوا أماكنهم وزحفوا على البلاد فهل الواجب قتالهم ودفعهم.

t.me/qurssan

انتشر لغط وتصاعدت صيحات الإيجاب من أتباعه ونظر المشايخ بعضهم لبعض كفئران فى مصيدة.

قال الشيخ السادات والشيخ السنهورى معا ـ نعم.

فقال إسماعيل بك ـ إن لزم الحال قتال مخالفى السلطان يصرف على المقاتلين من المعسكر وخزين السلطان وأشاح برأسه قائلا للأمراء ـ وليس هنا خزينة فكل منكم يقاتل عن نفسه.

ظهر سخط على وجه حسن بك الجدارى قال:

ـ فأما ما تقوله يا بك إنما يفرق الشمل ويجعلنا نقاتلهم فرادى ويتاح للمترددين البقاء لحين يتقدم المتقدمون فينهزم الطرفان وتئول الجماعة إلى الفرار كل بما يملك، وهم على وحدة فإذا هاجمناهم يفرون حتى ولو بعد أسوان ويعودون مهاجمين إذا تركناهم ويرسل مراد بك وإبراهيم بك اليسرجية والدلائية لشراء الجند ومجالبة الأمراء وإحضار العسكر.. وهم لن يهزمونا مواجهة، ولكن سوف يتركونا حتى نهزم نحن أنفسنا..

قال إسماعيل بك بغضب: وبماذا تشير على. أليس يتوجب بأن نضع فردة على التجار.

فحار الجدارى جوابا ثم هز رأسه موافقة، وجاوبته موافقات مترددة قاطعها إسماعيل آفندى الحلوقى:

ـ وأى شىء يبقى لدينا حتى نصرفه وقد صرنا كالشحاذين لانملك شيئا بعد أن قضى حضرتكم على كل نصف الفضة فى خزينة تاجر.

صرخ إسماعيل بك وهو غاضب: تأدب يا إسماعيل أفندى.

ـ وهل تبقى لنا شىء حتى نتأدب به أو ثوب لنتغطى به.

تنحنح الباشا فى هدوء وقال:

ـ هذا الكلام لا يناسب يا إسماعيل بك أنت تكسر قلوب العسكر والأعيان بمثل هذا الكلام والأولى أن تقول لهم.. أنا وأنتم شىء واحد أن جعت جعتم معى وأن شبعت أشبعوا معى.

t.me/qurssan

رفع إسماعيل بك رأسه للوالى بتصاغر وقال:

ـ أخطأت والله يا باشا.. أخطأت.. وأنتم تصوبونى.

ثم إن الجميع فوجئ به منفجرًا بالبكاء فتقدم إليه الأمراء يواسونه فبقى فيهم ممسكا بجنبه.. مدعيا المرض.

قال بمسكنة تخفى إصرارًا ـ كما يقول أسيادنا المشايخ وأنا أوافقهم الرأى لا نرسل نطلب عساكر ولا مالا من السلطنة والرأى عندى وعندهم عمل تفريدة على القرى والمدن ونجعل على كل بلد مائة وعشرين دينارا.

ـ أموالاً وفرد أخرى.. قال الخلوتى لكن أحدا لم يشايعه وانكمش المشايخ عاجزين عن المحاجاة.

فى صباح اليوم التالى ذهب الشيخ العروسى باكرًا إلى الأزهر وأعد سؤالاً مكتوبا ووزعه على المشايخ.. ما قولكم.. دام فضلكم فى جماعة أمراء وكشاف تقلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والإفساد ومنعوا خراج السلطان والحرمين ومنعوا زيارة النبى عليه الصلاة والسلام وقطعوا علوفات الفقراء وأكلوا حقوقهم وجماكى المستحقين والأنبار أرسل السلطان يأمرهم وينهاهم فلم ينتهوا فعين عليهم عساكر وأخرجهم من البلاد فلم ينتهوا ثم أنه صالحهم حقنا للدماء وشفقة ورأفة بالرعية وقرر لهم أماكن لا يخرجوا منها تسكينا للفتن وقطعا للنزاع وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع للجهاد فى سبيل الإسلام ومحاربة الكفرة المسكوب.. فعند ذلك تحركوا ثانية وزحفوا على البلاد وسعوا فى إيقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهود فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم أم كيف الحال؟

فكتب المشايخ بجواز قتالهم حسب ما شرع مفتى الديار الإسلامية شيخ الإسلام بإسلامبول بل يجب على كل مسلم المساعدة على أن تضاف الفقرة الأخيرة.

«شرط عدم إزالة الضرر بالضرر»

ثم صعد بها الشيخ العروسى بصحبة مجموعة من المشايخ إلى الباشا فاستقبلهم هاشا باشا وقال:

t.me/qurssan

نرسل إلى أمراء القبالى بمكاتبات نوضح لهم الأمر فإن رجعوا سكنت الفتنة وإن لم يرجعوا خرجنا لقتالهم.

* * *

- ٥ -

تهادى القارب وهو يقترب من مرسى المنيا.. نظر السنهورى مليا إلى الشاطئ فوجد ثلة من الفرسان تتجمع عند الميناء ولحظة أن وضع المركب مرساه وألقيت السقالات شاع فى المدينة نبأ وصول رسول من الوالى عابدى باشا إلى أمراء القبليين. فلم يكد السنهورى يصل إلى البر محملا بأثقاله حتى واجهه فارس قوى الشكيمة يتطاير من عينيه الشرر..

انتظر حتى امتطى السنهورى ظهر جواده فلما تحرك اعترض مسار الجواد فى التفافة شديدة.. قفز جواد السنهورى عاليا وبقى واقفا على قائمتيه الخلفيتين.. سقط السنهورى على ظهره وسط ضحكات الفرسان.. قام وقد رسم فى عينيه صورة المسكنة والمذلة.. رفع قامته ممسكا برقعة ملفوفة..

- أنا رسول.. أنا رسول سلام من عند مولانا الوالى نائب السلطان.. قادم لأجل مقابلة آبونا الأكبر إبراهيم بك..

خطف عثمان بك كاشف برديس، والذى كنى بعثمان بك البرديسى، الرقعة من يد السنهورى.. فتحها مقلوبة (لم يكن يقرأ) وأشار لأتباعه ناحية السنهورى ثم لعنه موليا ظهره إياه متجها إلى المدينة.. صرخ السنهورى بس أعرف مين حضرتكم.. تدافع الفرسان أمسكوا به بقوة وغلظة، قيده أحدهم من خلفه - أنا رسول.. وما على الرسول إلا البلاغ.. فين راح تاخدونى.. يا يومك اللى مش فايت يا سنهورى.. أوشك على البكاء وخطفت عمامته.. آه آه يا ابن الكلب. سار عارى الرأس. فشعر بمهانة بالغة فأخذ يشتمهم ويسبهم فانهالوا على قفاه بالصفعات والركلات من فوق جيادهم، دار حول نفسه وهو لا يدرى من أين يتلقى الضربات.

ربطوه بأحد سروج الخيل ثم انطلقوا راكضين فى صياح وطرب وهو يجرى خلفهم متعثرا فى جبته وقفطانه.

t.me/qurssan

والله أنا معكم أنتم فاكرينى مع إسماعيل بك.. دانا حتى مخبى حرم إيداكش وبنته عندى فى بيتى ووسط عيالى.. يا كفره.. يا ولاد الكلب.. كده تضايقوا شيخ عجوز. ركضوا ثلاثمائة متر لهث فيها السنهورى لهاثا شديداً.. قاوم الوقوع على الأرض خوفا من السحل.. من طريق جانبى أطل فارس معتدل القامة أبيض البشرة مشربا بحمرة تظهر على وجهه الوسامة وينضح وجهه بالقوة والبأس الشديد. تهدلت خصلات شقراء من تحت غطاء رأسه.. حدق فى الغبار القادم. عندما عبره الفرسان عبروا عن احترام بالغ بسيرهم فى هدوء منخفض الصوت.. وقبل أن يختفوا صاح فى الفرسان. ـ هيه من هو.. التفت أحدهم ـ أنه.. أنه رسول الوالى.. صرخ محمد بك الألفى بتجهم ـ توقف.. توقفوا أيها الحمقى.. أسرع نحوه.. نزل من فوق فرسه ـ متى جاء ـ اليوم. همس له ـ من أنتم. قال السنهورى فى تعب بالغ

ـ الشيخ السنهورى.

هتف ـ قم يا سيدنا.. الشيخ السنهورى أمام رواق الشاذلية بالأزهر الشريف وخادم مشهد بيت الله بجامع السنهورى الغضبان وقاضى قضاة المنوفية وكاتب السلطنة العثمانية.. صرخ فيهم.. من فعل به هذا. تراجعوا لسماع الألقاب وانتفضوا لسماع صرخته وقالوا ـ عثمان بك..

ـ عثمان بك من؟ ـ عثمان بك البرديسى.

ـ اللعنة.. هذا حمار خنزير.. حضرتكم تخبئون حرم إيداكش وابنته هز السنهورى رأسه وقال ـ لقد أخبرتهم.. فصرخ الألفى غاضبا:

ـ لعنة الله على البرديسى وعلى أجداده عقول كعقول العصافير.. سامحنا يا فضيلة الشيخ.. أين الرسالة.. أشار السنهورى نحوهم:

ـ مع مولانا عثمان بك البرديسى.

اذهبوا.. والله لأعرض الأمر على أستاذنا مراد بك.

* * *

فى المساء وبينما الشيخ السنهورى راقد على فراشه، وقد امتلأ جسده بالكدمات والرضوض وجبر ذراعاه بعد أصابتهما بتمزق داخلى، سمع ضوضاء عالية فى الردهة

t.me/qurssan

الخارجية لدار الألفى ففتح عينيه بتثاقل.. وجدا رأسا بيضاء شقت بحد السّيف وعينان مجنونتان تطلان عليه.

صرخ مراد بك فى تلميذه الألفى.

- وليش يظل رسول حيوان هنا أنا أريد أنتف له ذقنه شعرة شعرة هو واللى أرسله.. إسماعيل الكلب.. حيوان يكون عندى فورا.. ولد ألفى موش تضعوه تحت حمايتكم.. أطل البرديسى بعينين متشفيتين.. لكن الألفى أجاب بثقة: هو مش تحت حمايتنا أفندم إذا شتتم آشوى لكم لحمه تأكله قطعة محمرة وقطعة نيئة.. أستاذنا المعظم.

مال مراد بك على السنهورى ثانية حتى تلامس وجهيهما.. وبصق فى وجهه.. وهو يمسك بشعيرات ذقنه يهزها ويشدها بقوة:

سامحنا ما نريد ندخل جنات أحنا نريد ندخل النار عند ربنا من شان ما نشوف جنس مخلوقات حيوانات أمثالكم.. أنتم خنازير مشايخ محروق أزهر تصدرون فتاوى بأن حظرتنا وحظرة أمراء مصريين كفرة ومارقين عن دين إسلام حنيف ويتوجب الجهاد ضدنا نحن.. نحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله.. كم يدفع لكم إسماعيل بك وعابدى باشا.. قل لى.. كان يمسك بخناقه بشدة والكل يسترضيه والشيخ السنهورى يعتصره الألم ومراد بك لا يرى شيئًا.. وكلما خرجت أفكاره كان يشتد فى ثورته وكأنه عين الفلسفة والحكمة حتى ود لو يفتك بالسنهورى الجاهل.. قل لى هل كفر السلطان على بك كبير عندما أعلن ضم مصر وبلاد الشام.. هل كفر سليم الأول عندما دخل مصر.. هذه حروب حول أموال وعصبيات وأراضى وجدك ونفقات عسكر.. شيخ جحش وليست حروب جهاد من أجل نشر راية الإسلام.. أنتم تدعون بالجوامع لهلاكنا وتثيرون العوام ضدنا وتخرجون الفتاوى لأجل إسماعيل بك وعابدى باشا يآخذون فرد وحلوان ومال يشترون به الأنبار ويصنعون الشر كفلك ويقيمون المتاريس والقلاع ويصنعون البقسماط والذخيرة.. كل هذا من أجل الجهاد المقدس.. لماذا.. قبلى مسلم ونحن مسلم.. احمرت عيناه وامتلأتا بالجنون حتى لم يستطع أحد الاقتراب منه..

- والله لأ زحف على القاهرة من الصباح الباكر وأجلد كل المشايخ عشرين جلدة وأعلق كبارهم من ذقونهم عشرين ليلة حتى أعلمهم كيف يكون الدين الحنيف.. وسوف

t.me/qurssan

يغفر لى ربى أنا.. سوف يغفر لى كل سيئاتى ويزيد على حسنات لأنى طهرت البلاد من إفساد حضرتكم.. وربكم أنتم يجى من شان يشوف وجهه من غير ذقون كاذبات بعد نتفها.. واندفع خارجا وبدون أن يدرى هو ذاته جذب خصلة من ذقن السنهورى وهو خارج فتأوه السنهورى ألما - قال - ربى الشيطان إن كان هؤلاء المشايخ يدعون عباد الله لعبادته هو وليس عبادتهم هم ألفى بك.

- تمام أفندم.

- سلمه لعثمان البرديسى.. لا شفاعة له.

- حاضر أفندم.

تلقفه البرديسى وهو يتوق شوقا لتعذيبه.. لولا أن الألفى نظر إلى البرديسى نظرة صارمة حافلة بالوعيد والتهديد - ماذا ستفعلون به.

صرخ البرديسى كطفل تؤخذ منه لعبته المفضلة.

- وايش تريد يا بك أنت تعدل ورا أبونا؟

- ماذا ستفعل به؟

- أفعل ما أشاء وحضرتكم ليس له دخل.

- حاضر أفندم.. قال الألفى بسخرية.. حاضر برديس بك.. برديسى باشا حاضر صدر أعظم.. سلطانيهم برديسى.. لكن حضرتكم تسمحون وتتكفلون بإرسال حصة أموال جرجا ومنفلوط وتحضر مائة جمل أخذت من الهوارية.

صرخ البرديسى:

- أنت بتباكت فى ألفى أفندم أنت تهددنى.. أنا ما أخاف.

- والله أنت تدفع وإلا نبلغ أستاذنا ووالدنا حضرة مراد بك.

قال البرديسى باستعطاف:

- والله ما معى شىء ألفى أفندم والله ما أكذب ألفى أفندم.

- والله أنت تكذب برديسى ومعك كل شىء ومن شأن هيك سوف تحافظون على شيخ سنهورى كما تحافظون على عيونكم برديسى.

t.me/qurssan

ـ حاضر أفندم أنا نعاقبه عقاب خفيف على إصدار فتوات بأننا كفرة أو هيك شغلات. نظر الألفى إليه نظرة صارمة فصمت.. مال الألفى على السنهورى قائلاً:

ـ سأرسل فى طلب إيداكش.. سيكون هنا قبل غروب الشمس.

هز السنهورى رأسه وفى عينيه دموع الرجاء.

* * *

فى لباسه الداخلى وقف السنهورى فى فناء القلق والجنود تحيط به. ودفع أحد الجنود يده ناحيته وبها حفنة من التراب.. سأله فى استفزاز وهو يلكزه بمقبض سوطه ـ ما هذا؟

صمت يدعو ربه فى سره أن ينجيه وقرأ سورة الكرسى فلما انتهى أجاب بيأس: تراب.. فيلكزه ثانية ـ ما هذا؟

ـ تراب يا ابنى تراب. فيلكزه ثانية.

ـ ما هذا يا أعمى؟.. فيضج العسكر بالضحك.

ـ هذا والله أديم.. أديم الأرض أى قشرتها.. سطحها.. وإن شئت قلت طمى.

.. ضج الجنود بالضحك فقال:

ـ إذًا أنا أحمق ومغفل وجاهل.. قل لى أنت يا أخى.

مال عليه الجندى وهمس كمن يقول سرا: هذا سكر.

قال السنهورى يغالط نفسه: هذا سكر.

- كله إذًا أبلعه.

ملأ السنهورى كفيه بالتراب وأخذ يلتهمه وهو يعلم أنهم سوف يجعلونه يفعل ما يريدون ولكن بقوة ففضل أن يفعل بنفسه.. دفعه أحدهم من ظهره فسقط على الأرض وأمسك برأسه وأخذ يمرغها فى التراب والسنهورى يتململ ويهز رأسه يمينا ويسارا دون جدوى والتراب يملأ فمه ويبتلع منه حتى كاد أن يختنق وأخذت مقاومته تتلاشى وبدأ فى تلاوة الشهادة ويدعو الله أن يرسل إيداكش.. سمع طرقا متواصلا على باب القلق الخارجى وصيحات غاضبة فأخلى سبيله.. قام وهو يتأوه.. وأمامه وقف إيداكش

t.me/qurssan

يصرخ فى الجند وحوله ثلة من جنوده.. أوشك الطرفان أن يتقاتلا والسنهورى ينظر لإيداكش يرجوه: ده أنا ح أموت.. الحقنى يا أغا.. ألحقنى.. واندفع فى البكاء..

-الرحمة يا سيدى البك. الرحمة يا رب.. يا سيد يا بدوى وانطلق فى بكاء شديد.

عندما بلغ نبأ وصول رسول من القاهرة إلى إبراهيم بك بمنفلوط أرسل من فوره رضوان الجوخدار الذى انطلق راكبا جواده من فوره لإنقاذ الرسول من جنود مراد بك وأتباعه ولما بلغ قصر مراد بك دخل مندفعا على عجل يريد مجلس الأمير.. استقبله إبراهيم السنارى كتخدا مراد بك.

ـ أين مراد بك؟

قال السنارى بلؤم: خرج لسمالوط يحارب إسماعيل بك وجنده.. بينما أنتم تتوارون فى منفلوط خلف همته وشجاعته.

جاوبه رضوان الجوخدار باحتقار: وهل حاربتم حربا وانتصرتم فيها.. دعنى أراه على الفور يا بربرى. كان السنارى أسود البشرة لئيم المظهر مخاويا للجان والسحرة.

قال يصطنع الصبر: انظر حولك إن وجدته أكون كاذبا.

قال رضوان بسخرية:

ـ لعلك أخفيته فى سحابة أو حولته لقط.

قال مصطنعا الطيبة:

ـ لا أستعمل قوتى إلا لأجعله أسدا هصورا يا خوند.

ـ فأنا إن نظرت إلى مرآتك السحرية أصير حجرا.

برقت عينا الساحر المشعوذ: الناس تضفى علينا نحن العارفين بالوراء والمتصلين بالجان قوى كبيرة لا قبل لنا بها.. إنما هى قلوبهم التى تحولهم فيصير البعض منهم فأرا لأنه يحتوى فأرا داخل جلده أو قطا لأنه كذا.. فإذا نظرتم إلى مرآتى لن تكونوا إلا ما عولتم قلبكم عليه وأنتم رضوان بك مشهورون كأبكم إبراهيم بك بالحكمة والمعرفة والشجاعة وهم الثلاثة التى لا ينفع معها السحر ولا سلطان له عليها.

ـ هه أو تكشف عن أسراركم كتخدا.

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

ـ إنما نريدكم راضين عنا متفهمين لمقاصدنا الخيرية.

نظر إليه رضوان بك وقال برنة احتقار: ومتى كان للسود مقاصد خيرية.

صمت إبراهيم السنارى على الفور برهة وبهتت ملامحه، أشار تجاه الردهة وقال فى برود:

ـ تفضلوا حضرتكم مراد بك فى انتظاركم.

دخل رضوان القاعة فوجده متربعا على أريكة يأكل بنهم. ألقى إليه بالسلام فلم يرد عليه وإنما نظر إليه شذرا لا يخفى ضيقه.. أشار فرفعت المائدة.. قال بعصبية بالغة:

ـ أبلغ أخونا الأكبر إبراهيم أن هذه أحوال لا تطاق.. أننا نحارب منذ أن تركنا أسوان فى عهد الملعون حسن باشا.. كان يجب أن نتحالف مع المسكوب وأنتم تسيرون من خلفى.. دخل غلام بحوض به ماء فغسل يديه ثم تبعه آخر براكية القهوة ونرجيلة.. استطرد:

ـ أنا نخسر أجنادى ومماليكى وأموالى وأنتم لا تفعلون شيئا سوى مهاترات وكلمات بارعات وقصص مخبولات ونصائح غبيات وشغلات صلح.. وغيره.

ـ يا أمير، الحكمة فى أن يعرف الإنسان ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه.. هذه دولة علية وعرش سلطنة عثمانية. ترسل لنا حسن باشا قائد البحرية العثمانية ومعه جيش جبار وعمارة بحرية. توجه علينا من الشام كل رعديد جبان وينحاز له الخونة من اتباع على بك الكبير إسماعيل بك وحسن بك الجدارى المعين لهما بإمارة بر مصر ولهذا نحن نهرب أمام حسن باشا كالجرذان حتى بلغنا أسوان وفى كل مرة نطلب أمان حتى يصاب حسن باشا بالضعف والخذلان ويذهب لمحاربة المسكوب فالدولة العلية فى شغل عنا بما هو أشد هولا عليها منا.. فنحن نصعد إلى بحرى حتى نبلغ مصر ونطرد منها الأشرار.

صاح به مراد بك بضجر:

ـ أنا عارف هذا الكلام.. ولأنى عارف هذا الكلام فأنا هنا فى المنيا والعسكر سبقونا إلى سمالوط أما أنتم تتلكأون فى منفلوط.

ـ يا فندم.. يا فندم الوالى وأتباعه يملكون بحرى البلاد ويتمكنون من القادم الجى ونحن بأجنادنا معدودون نأتى بالمجاليب من البلاد البعيدة مثلهم مثل البهار والبن

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
والقمح والذخيرة فإذا خلص البن من خزنتكم يتفكر مراجكم وإذا انتهت الذخيرة من مدافعكم تهزمون وتسلمون.. فتناقص عدد المماليك يكسر شوكتنا ويفل عزيمتنا ولا يعود لنا مكان فى البلاد فهم مثل المزروعات إذا حصدت يجب أن تبذر ثانية حتى نبقى بهم على قيد الحياة.. فعلينا أن نقتصد فى الحروب ونحافظ على عدد العسكر نهرب وقت الشدة ونختفى عند أول اشتباك ونهجم وقت الغفلة ونهبط إلى الصعيد الجوانى إذا هم أتوا ونصعد إلى الصعيد البرانى إذا هم ذهبوا حتى يوهن عزمهم ويقل مددهم من قبل السلطان فنقوم قومة واحدة نضرب حلفاء الوالى ونبقى عليه واليا علينا فنملك مصر ثانية وتعود لنا الدوائر ونخرج إلى السويس والإسكندرية ورشيد ودمياط.. التى هى متنفس لا غنى عنها نملأ خزائننا الخاوية بالذهب والفضة وكل نفيس ونعود نستجلب الجنود والمماليك.

كان مراد بك يضيق بصره كلما استمر رضوان الجوخدار فى حديثه ويمد رأسه منتبها حتى كاد أن يغلق عينيه تماما ويقع منقلبا على رأسه فلما انتهى استعاد توازنه وصرخ: إذا فأنا أخسر مماليكى وتضعف قوتى وتوهن عزيمتى ويقل معى الأعوان والعتاد وأنتم على ما أنتم عليه كاملون تامون لا تنقصون.. قفز فى ثورة غاضبة فسقطت النرجيلة وانقلبت راكية القهوة وهو يصرخ: سنارى خنزير ملعون سنارى والله لاقطعن رقبتكم أيها الساحر الأسود الملعون.

دخل جوخدار مراد بك مرتعبا.. ركع على ركبتيه: أمركم أفندم.

جرى بتثاقل إلى سوطه المعلق على الحائط انتزعه فكشف الجوخدار عن ظهره مستسلما: أضرب أفندم اضرب.

فاندفع ورمى بسوطه صارخا: تهلكون قواتى.. أيها الجاسوس الملعون.. حالا أقطع رقبتكم وعاد إلى رضوان بك متوعدا والله لأرجعن بالعسكر إلى ما وراء منفلوط فإذا عاد إبراهيم بك إلى قنا عدت إلى جرجا وإذا عاد إلى جرجا عدت إلى إسنا وإذا عاد إلى إسنا عدت إلى أسوان وسوف نرى من يسبق الثانى إليها وأنا لن أتقدم إلى الحرب خطوة واحدة إلا وراء إبراهيم بك. قال السنارى باضطراب: ولكنه إذا سبقنا يأخذ الغلال ويجبى الأموال ويستولى على مزروعات ويضع على فلاحين وأعيان وتجار فرد وحلوان وجامكية فلا يبقى لنا ونحن خلفه إلا الأراضى الجرداء والخزائن الخاوية.

t.me/qurssan

نظر مراد بك يمينا إلى رضوان بك ويسارا إلى إبراهيم السنارى وقد اتقدت عيناه بالجنون الحائر.

- فأنا تضحكون على ذقنى أنا تضحكون على ذقنى.

قال رضوان الجوخدار وعلى وجه سيماء البرود والثقة.

- الأفضل أن يضع حضرتكم يده فى يد أخيه إبراهيم بك فتحاربان معا يدا بيد وتتقدمان معا يدا فى يد وتتقاسمان البلاد معا، نحن لنا جرجا ولكم منفلوط ولنا المنيا ولكم أسيوط.

- أنا ما أترك جرجا وهى مخزن قمح البلاد.

قال رضوان بك:

نتفق أفندم نتفق نتقاسم غلالها نتفق فأين رسول الباشا.

- رسول.. أى رسول.

- الشيخ السنهورى.

آشار بيده إلى إبراهيم السنارى.

- أين هو؟

قال إبراهيم السنارى.

- فى السجن أفندم.

أجاب مراد بك بنفس النغمة.

- فى السجن أفندم وليش هو فى السجن أفندم؟

- هكذا فعل عثمان بك البرديسى أفندم.

استمر مراد بك مقلدا جوخدار بصوت خافت.

- وليش فعل عثمان بك البرديسى هيك أفندم.

- لا أعرف أفندم.

قال بصوت خافت منغم.

t.me/qurssan

ـ أنت حمار سنارى كيف تكون كتخدا أمير البلاد ولا تعرف.. ثم أنطلق صارخا منفجرا بأعلى صوته.

ـ أحضر شيخ سجين.. حمار أفندم.

* * *

أقام السنهورى عندإيداكش خمسة عشر يوما رحل فيها إلى منفلوط واستقبله إبراهيم بك الكبير ومراد بك معا حيث أخبرهم فى جلسة خاصة أن مشايخ البلاد وأعيانها وتجارها ينتظرون عودتهما ويرحبون بهما حتى يرحل عن البلاد شرور وبلاء إسماعيل بك وأعوانه أما عن إصدار الأزهر للفتوى التى تقول بأن أمراء القبالى خرجوا عن طاعة السلطان خليفة رسول الله وأمير المؤمنين وخرجوا عن الإسلام والدين الحنيف إنما هو تنفيذ لحكم القوى على الضعيف وإنما هم يرون أن أمراء المصريين أكثر قربا ومنفعة وحكمة وقدرة على سوس الرعية والعباد.. وأخبرهم أن عابدى باشا وإسماعيل بك أرسلا يطلبان المساعدة والعساكر من السلطان والدولة العلية ترسل لهم بالوعود والكلمات المعسولة وتمنيهم بقرب وصول المدد والجند وهى عنهم مشغولة بحرب المسكوب واستعادة القرم ومدينة إسماعيل. وأخبرهم أيضا أن إسماعيل بك أخذ يرسل كل يوم واحد حقى من أعوانه لحدود البلاد فإذا جاء عمل فشنك وأطلق المدافع على أنه رسول السلطان جاء حاملا الرسالة التى تحض على حرب أمراء القبالى والخروج لدفعهم ومجاهدتهم والكل يعلم أن هذا ليس إلا لعبا فى لعب وكذب فى كذب وأن السلطان لم يرسل رسولا ولا رسالة ولا يحزنون.

واتفقوا على أن يرسلوا مع السنهورى إلى عابدى باشا الحلوان والمال والميرى عن قلبى مصحوبا برسالة قالوا فيها:

«إن يكن الباشا يريد صلحا فليكن كاملا ونقعد معهم بالبلد عند عيالنا ونصير كلنا أخوة ونقيم ثأرنا فى ثأرهم ودمنا فى دمهم وعفا الله عما سلف فأن لم يرضوا بذلك فلستعد للقاء الحرب وهذا آخر كلام.. والسلام». كما اتفقوا على أن يرسلوا معه مكاتبات بنفس الكلام للمشايخ والجواقلية والأعيان وكبار التجار فى مصر يخبروهم أنهم يسعون للصلح لمصلحة الرعية ورأفة بالعامة والفقراء غرض إزالة الغمة عنهم فإن كان.. كان. وإن لم يكن فليخرجوا لهم على ظهور الخيل كما هى عادة المصريين فى الحروب.

* * *

t.me/qurssan

كانت هذه هى الليلة الأخيرة للسنهورى فى قبلى أمضاها عند إيداكش وقد عزم على السفر صباحا بعد آن أعد له إبراهيم بك مركبا محملا بالغلال حاجياته وخلع عليه فرده سمور وكذلك فعل مراد بك وحملوه خمسين مركب محملة بالغلال خاصة بعابدى باشا.

وفى آخر الليل اختلى إيداكش بالسنهورى وقال له:

- يا مولانا لقد وصلت إلى قرار فيما حدثتنى به...

وكان السنهورى قد أخبره أن الأشقر هو الذى أنقذ الأميرة شريفة وساعدها على تخبئة كنوزه كلها. وأخبره أيضا أن الأميرة شريفة قد حملته رسالة مفادها بماذا يشير عليها زوجها هل تقوم على قتله أو تقوم على بيعه أم تخصيه حتى يصير لها طواشيا وتابعا كما أرادت من قبل.. واستطرد السنهورى قائلاً وهى فى هذا وقد بلغتها شائعات تقول إنك تريد عتقه وتزويجه فاطمة ابنتنا المصونة الكريمة ذات الحسب والأصل الشريف وهو الأمر الذى ترفضه رفضا قاطعا نهائيا.. ولم يكن هناك شائعات من هذا النوع بل هى التى لفقتها ونقلتها إليه وهى تعلم أنها بهذا تثير وساوسه وتدفعه إلى حيث تريد هى.

قال إيداكش للسنهورى لقد فكرت فى الأمر جيدًا.. أرجوك يا أخى أن تخبرها أن الأشقر إذا بعناه باح بسرنا للمشترى الجديد وإذا خصيناه صار ملكا لها هى تفعل بى وبمالى ما تشاء وإذا قتلته صار الكنز ملكها وتفعل بى أيضًا ما تشاء وربما تدفع إلى قتلى - إنما أحوال البلاد فى هرج ونحن فى حاجة للمخلصين من الأعوان الهمام.. وقال لنفسه وكأنه يتأكد من أفكاره.. فإن زوجته فاطمة صار السر بين ثلاثة منهم ابنتى وزوجتى فلا تغويه زوجتى ولا تقدر ابنتى على أمها.. رفع صوته ثانيا وهو يقول للسنهورى.. أرى أن أعتقه وأن أزوجه ابنتى فيصير صهرى وعضدا لى وساعدى فى وقت الشدة التى نحن فيها الآن وأجعل منه كتخدا فأنا أزوجه على سنة الله ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.. ولا تنس أن الأشقر يقرأ القرآن الكريم، والزوجة واجبها الطاعة والامتثال لوليها وزوجها.. أليس كذلك يا سيدنا.. رفع يده مستطردا.. حسب الشرع الحنيف والملة المحمدية التى هى آخر الملل وسنة العالمين..

* * *

t.me/qurssan

شاع بين الخدم أن الأميرة شريفة تنوى عتق مملوكها حسين الأشقر وعقد قرانه على ابنتها فاطمة بعد سفر السنهورى إلى المنيا بأيام قليلة ولم يكن لأحد أن يتأكد من صحة نبأ كهذا قبل وقوعه.

لقد تحولت فاطمة بين يوم وليلة إلى زوجته المقبلة.. كان الأمر بالنسبة له صدمة قوية.. وأصبح هذا الرباط الذى سيربطهما فى المستقبل القريب شيئا غامضا على الفهم.. وقد أراد مرة أن يقترب منها إلى حد الملامسة.. أن يشم جلدها الطرى الصغير لكنه لمح الأميرة تنظر نحوهما من خلف المشربية.. فأختبأ على الفور.. وفى ساعات الليل الطويلة كان يحاول باستماتة أن يستعيد ملامح فاطمة الباهتة دون جدوى فيعود إلى مراقبتها والأميرة شريفة تراقب كل منهما وكلما شعرت برغبة الأشقر فى الاقتراب من ابنتها ملأها فوران عنيف فتدور فى المكان تلقى للأشقر بأوامرها تكلفه بشىء ما وهى تسب وتشخط وتمزق الأغطية التى تحيط بها وتقرض أظافرها وتستبد بالخدم دون توقف.

أما فاطمة فلم تفهم شيئا من هذا كله حتى وصل الشيخ السنهورى منوف ساعتها تأكدت الإشاعة وأعقب هذا اختفاء العروس فلم تعد تغادر الحرملك.. هنا عرفت الطفلة أن أمرا ما سوف يطرأ على حياتها.. ظلت تنتظره وتترقبه بخوف يختفى تحت قناع وجهها البارد.

وفى حجرة الخزين سمعت بدرية إحدى النساء وهى تقسم بأن فاطمة لم يأتها الطمث بعد وأنه لن يأتيها قبل سنتين على الأقل.

فى الليل سألت أمها على حين غرة:

ـ هو الطمث جه للأميرة فاطمة؟

نفت أمها باندهاش.

ـ لا إزاى عرفت يا مقصوفة الرقبة.

لعنت صديقة النساء ثم قالت فى ابتسامة.

ـ لا.. مش قبل سنتين يا بنت المفحور.. وأسكتى بقى.

ـ وهو إيه يا أمه؟ قالت صديقة بضجر:

t.me/qurssan

- هو إيه.. إيه.

- الطمث اللى بيقولوا عليه.

تنهدت صديقة:

- هو اللى بيخللى الواحدة على وش جواز.

روعتها الفكرة وأصابها إحساس بالعجز البارح.

عجلت الأميرة شريفة بعقد قران ابنتها الصغيرة على مملوكها فبعد عودة السنهورى مباشرة دعته ودعت جمعا من الأعيان ووالى المدينة ومن خلف الحجاب أعلنت أنها أعتقت مملوكها على مشهد من الجميع وأخرجت للسنهورى صك حرية الأشقر فحفظه لحين نزوله مصر. وفى ليلة الخميس قام بنفسه على عقد القران ووزع الشربات وغنت دنيا أزاد التى قامت على تزيين العروس الصغيرة بنفسها.

* * *

وفى الهزيع الأخير من الليل شاهد أحد حراس الفسطاط ثلاثة مراكب تقترب متسللة ناحية المتاريس.. نادى عليها فلم يجبه أحد جرى حاملا شعلة بطول الشاطئ شاهد مركبا آخر محملا بجنود لأمراء القبليين حاملين البنادق والسيوف وكان زميله قد شاهده يجرى فجاءه يستعلم الخبر فصرخ بأعلى صوته.

- هجو.. ووم.. القبالى يعبرون النيل ويهجموووون..

فانطلق زميله على جواده وهو يصرخ ضاربا نوبة التحذير.. وحدث من جراء ذلك زعجة عظيمة إذ لم تمض ساعة حتى خرج جميع الأمراء على خيولهم إلى المتاريس وقد أرسلوا أتباعهم إلى كل صوب ينذرون رفاقهم وقام الوالى والأغا يفتحون الدروب بالعتالات ويخرجون الجنود من بيوتهم إلى العرض وأمضت القاهرة ليلتها فى كركبة عظيمة تجرى بها الخيول فى جميع الاتجاهات حاملة الفرسان من كل نوع.. وكل بين محذر وبين باحث عن فرقته ثم إن الوالى خطرت له فكرة فأرسل المنادين يعبرون الدروب والطرقات والحارات يوقظون الناس على الطبول وهم يدعون الالضاشات والجنود والعسكر للخروج لدفع هجوم القبليين ومنع دخولهم المدينة.

فلما جاء آخر الليل هدأت القاهرة وبردت القضية عندما اتضح أن بعض عسكر القبالى كانوا يتسللون عائدين إلى ديارهم بالقاهرة.

t.me/qurssan

ولما كان الأمر مخزيا للباشا وشيخ البلد فقد أصدرا أمرا بالقبض على باقى مماليك الأمراء القبليين وأجنادهم ودفعوا بهم إلى المراكب عرايا ليس عليهم سوى قميص أو صديرى. وبعضهم على رأسه طاقية أو طربوش معمم بمحرمة أو منديل.

وتقرر فيما بعد القبض على نسائهم وأولادهم وإسكانهم الوكائل وبيع متعلقاتهم وماتملكه النساء وجمع ذلك جميعه وإنفاقه على العسكر.. ولم يمض أسبوع على ما حدث فى القاهرة حتى هبط رضوان بك منوف فاقتحم قصر السنهورى وقبض على الأميرة شريفة وابنتها فاطمة وجرد كل ممتلكاتها. فى الوقت الذى كان فيه الأشقر وعبد المحسن يقضيا ليلهما عند الشيخة لواحظ.. وقرب الفجر بلغ عبد المحسن داره.. وجد الضوء مشتعلا بها فلما دخل بوغت بأمه وكل إخواته مستيقظين. ألقت آمه بنفسها عليه وقد ظنت أنها لن تراه بعد اليوم.. وبالكاد استطاع أن يعرف ما جرى للأميرة شريفة... جذب نفسه من وسطهم بصعوبة بالغة وهم يسدون عليه طريق الخروج حتى أنه صعد لسقيفة الدار و أخذ يقفز من الأسطح وقبل قصر السنهورى بحارتين قفز قفزا على صديقه الأشقر الذى كان يعتلى ظهر جواده ويهتز طربا بنشوى ما دخن من حشيش وقبل أن ينطق أدار عبد المحسن مقود الجواد.. أوقفه جانبا قال الأشقر ـ أتريد العودة؟... أريد أنا الآخر.. هتف عبد المحسن:ـ يجب أن تهرب.. قبض رضوان بك على الأميرة شريفة وزوجتك وأرسلت مغفورة إلى الإسكندرية وهم ينتظرونك.. تراجع الأشقر فاتحا عينيه برعب ومن آخر الحارة شاهد أشباحا تختفى فى الظلام قرب مدخل قصر السنهورى تراجع مسرعا.. هتف:

ـ ماذا أفعل؟

ـ نهرب.. استدارا عائدين.

كان اثنان من العسكر قد شاهدا الأشقر يعبر البوابة فأغلقاها خلفه.. ظل الجواد يركض فى الدرب وعندما بلغ نهايته لم يكن على ظهره أحد.. وقف الجنديان يمسكان بالجواد وهم فى دهشة همس أحدهم: ربما يكون قد سقط مخمورًا فى الطريق... لنتبعه .. قفزا سويا على الجنديين من الخلف.. طعن الأشقر أحدهما.. وطعن عبد المحسن الآخر.. فتحا البوابة.. وانطلقا ثانية.. حتى بلغا السور.. دفعه عبد المحسن دفعا.. هتف الأشقر: أين ستذهب بى؟

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

ـ أمش ساكت.. ظلا سائرين حتى بلغا خصا على الفرعونية.. هتف عبد المحسن بصوت خافت. زاهية ... زاهية.. استيقظى.. أنا عبد.. عبد المحسن.. خرجت المرأة بعد لأى.. فوجئت أمامها بشبحين.. نظرت إلى الأشقر ـ أهذا هو؟ هزعبد المحسن رأسه هتف الأشقر ـ من هى؟

ـ عايز تعرف ليه؟... نريد جواد.. ألقى لها عبد المحسن بخمس بندقيات.

ـ ليس لدى إلا جواد زوجى.!

هتفت: خذاه وسأدعى أنه سرق.

اندفعا إليه سويا.. امتطاه الأشقر مسرعا.. جذب المقود ناحيته فارتفع الجواد على قائمتيه الخلفيتين وقبل أن يتقدم الجواد راكضا استدار ناحية عبد المحسن.

ـ يجب أن تعود من فورك إلى المدينة وإلا دارت حولك الشكوك.

هز رأسه بالإيجاب.

ـ تصحبك السلامة.

ـ تصحبك السلامة.

وعندما افترقا لم يشعر أى منهما بأنه خلف وراءه شيئا.. أيام محدودة مرت حتى كان كل منهما قد نسى الآخر منهمكًا فى حياة جديدة.. الأشقر فى معسكر القبليين بعد ان بلغ جرجا حيث سيده وأستاذه إيداكش.. وعبد المحسن الذى أخذ يستعد لختمة القرآن استعدادا لدخول الأزهر الشريف.

* * *

ـ ٦ ـ

فى شهر رمضان المبارك من عام ١٢٠٢ هجرية الموافق النصف الأول من يوليو ١٧٨٨ ميلادية لم توقد القناديل كما هى العادة فقد منعها الأمراء للاضطرابات التى تسود البلاد.

وعلى أبواب الدروب كان الصبية والأطفال يسهرون حول فوانيسهم المضيئة بالشموع بانتظار قدوم المسحراتى يتحدثون عن إنشاد المنشدين وقصص أبى زيد الهلالى والملك

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
حسان ويونس ومرعى ولالا فاطمة.. فتيان تخلفا عن اللعب هذا العام هما محمد أبو الفضل وعبدالمحسن اللذان جلسا فى مندره لدى الشيخ السنهورى مع أتباعه يقومون على تلاوة القرآن يختمونه عدة مرات.. كان محمد أبو الفضل أكثر المتحمسين للأمر فانكب عليه بكل قوته يجوده ويرتله. الأمر الذى دهش له حامد وبدرية وعبدالله وقمر حتى أن حامد شعر لأول مرة أن أخاه يبدو وكأنه يريد أن يصير رجلا عليه وحده يأمره وينهيه لكى يحضر له نعله وملابسه مما جعل حامد يشتكى فى سره فأخوه لا يكتفى بإثارة غيرته الشديدة بكثرة حديث أبيه عنه لأصدقائه وبكاء أمه الذى لا يتوقف وفرحة أهل الدار بقرب سفره إلى مصر بعد أن أتم حفظ القرآن وختمه وهم يجهزون له زوادة سفر وبقجة الملابس ويقيمون وليمة ضخمة يذبح بها عجل كامل ويوزع الشربات وعصير الليمون والمياه المسكرة والقرفة والحلويات على كل رجال البلد ونسائها وأطفالها احتفالا بالتحاقة بالأزهر.

أما قمر فكانت سعيدة رفعة أخيها وعلو شأنه رفعة لها إلا أنها كانت حزينة أيضا.. ليس لأنه صفعها عندما قطعت عليه قرآنه يوما وقام إليها يضربها بالمركوب طاردا إياها خارجا.. ولكن لأن عبدالمحسن هو الآخر راحل لمجاورة الأزهر بعد أن ختم القرآن حفظا هو الآخر، وهكذا سوف تصبح منوف فارغة خاوية بعد رحيل أخيها وعبدالمحسن معا.. وعبدالله هو الآخر كان مشدوها متعجبا لذهاب كليهما، ولكن احترامه لمحمد أبو الفضل كان أكبر ربما لأن مستقبله كشيخ كان أكثر وضوحا من مستقبل عبدالمحسن.

أما بدرية فقد كانت تستمع إلى ما سوف يجرى لمحمد أبو الفضل الذى تستسيغه الآن إلى حد ما وها هو يرحل إلى مصر مرة واحدة ليجاور الأزهر وعندما يكبر لن يكون فلاحا ولن يمسك فأسا، بل سوف يسير فى طريق قد تجعله يوما مثله مثل الشيخ السنهورى، هو ما لم تكن لتصدقه حتى ولو كان محمد أبو الفضل حفظ القرآن كله عشر مرات وليس مرة واحدة أما أن يرحل عبد المحسن أيضا فهو أمر غير قابل للتصديق.. قد يهرب قبل رحيله.. فعبد المحسن لا يصلح إلا ليكون لصا أو نوتيا أو شاطر من الشطار أو شحاذا يجوب الطرقات أو جثة هامدة. لكن الذى جرى فى رمضان المبارك جعلها ترضخ لأشياء يصعب عليها الرضوخ لها. فأن يقيم عبدالرحمن أبو الفضل باش خولى أراضى الشيخ السنهورى وليمة ضخمة فى المندرة حفلت بكل

t.me/qurssan

أنواع اللحوم والدواجن وما لذ وطاب من فطائر ومشهيات وخضار مطبوخ يسيل له اللعاب وعيش مصنوع من دقيق القمح وأن يدعو لها كل كبار المدينة، حتى أن أمها صديقة غرقت لشوشتها وهى تقوم على مساعدة الحاجة بهانة أم محمد بينما كانتا تقومان معا بمساعدة طباخ خصوصى أحضره الشيخ عبدالرحمن، فإنها أمور يتعين القبول بمسبباتها وخصوصا أن بهانة أم محمد لم يتوقف الدمع عن الانهمار من عينيها حتى أن الطبيخ لم يستو فى مياه البئر بقدر ما استوى فى دموع عينيها، وفى أزقة ودروب الناحية وعلى طول الطريق سار الرجال والأطفال والمشايخ يزفون محمد أبى الفضل راكبا بغلة أبيه وجبة وقفطان جديدين فوق قميص صنع من الحرير الأبيض وعلى رأسه عمامة بشال حريرى جميل مزخرف بزخارف ذهبية وامتلأ الفضاء بزغاريد النساء من فوق الأسطح وعلى أبواب الدور ورجال الشيخ عبدالرحمن أبو الفضل يوزعون الشربات والسكر والحلوى ومعهم عبدالمحسن، ويا للعجب فرغم أنه لم يكن يرتدى قفطانا جديدا ولا نعلا ولا لاسه وكان يسير على قدميه حافيا لا يمتطى بغلة ولا حتى حمارة إلا آن الأهالى كاوا يهنئونه أيضا وكان يتقبل تحياتهم بصخب يفوق هدوء ورزانة محمد الذى كان لونه مخطوفا يبدو وجلا وسط الفخامة والأبهة والعظمة التى صنعها له أبوه.

* * *

كبر محمد أبو الفضل فجأة أمام بدرية. شعرت أنه صار بعيد المنال ضخما يستوجب الاحترام والتعظيم تماما مثل الشيخ السنهورى فليست ثمة ضرورة لمناداته بابن بهانة مثلا أو إلقاء القاذورات عليه.

ولما حاولت أن تتأكد من جديد شعورها انتظرت حتى عاد الركب وانفض الجمهور وتبقى فقط المقربون للشيخ عبدالرحمن.. وكان محمد أبو الفضل فى صحن الدار الداخلى. راحت تحاول أن تلفت أنظاره بكل وسيلة فتزيل من أمامه الأطباق وتعيد وضعها وتحضر له الخبز الأبيض الساخن وبرام الأرز المعمر.. وقطع اللحم الموضوعة فى صلصة الطماطم وهو مخطوف اللون لا يبالى بل لا يراها لانشغال فكره بالمستقبل المجهول.. ولما رأت منه هذا التجاهل سحبت من تحته حشية كانت قد أعطتها له أمه ليجلس عليها فسقط على الحصيرة وهى تقول له.

t.me/qurssan

- أبوى عبدالرحمن عايز الحشايا للناس بره.. أوعى يا خوى..

الأمر الذى جعله ينظر إليها شذرا مما أغاظها وبكل برود حملت طبقا من المرق الساخن ملىء بقطع الدهن.. وقلبته على طرف جبته متعمدة التعثر... قام ثائرا يسبها وقد احتقن وجهه من الغيظ.

- آه يا بنت الكلب كده يا بنت المفحور القفطان.. امشى يات بنت المركوب وسقط على المصطبة منفجرا فى البكاء بكل ما كتمه طيلة يومه.

نظرت إليه بدهشة.. جاءت أمها وأمه تجريان واخذا يواسيانه.. وحامد ينظر إليه بشماتة.. وأمه تبكى وهو يبكى.. حتى فاض بها الكيل فصرخت به

- يوه أنت أول المشايخ ولا آخرهم يا محمد يا ابن بهانه.. زعلان ليه.. من شوية مرقه وقعوا على القفطان.. اطمن ما انت طول عمرك مش هتشبع لا أنت ولا قفطانك لا من القرص ولا من الفتة ولا من المرقة.. دى نيلة إيه دى.. ضحك الجميع،. حتى أمه لم تستطع الا أن تتوقف عن البكاء وتضحك مبتسمة.. ينيلك يا بدرية والله ضحكتينى. أما هو فلم يكن هناك ما يضحكه.. وزاده ضحك أمه بالذات غيظا واندفع خارجا فى قميصه الداخلى - بعد أن خلع القفطان ليجف - وهو يجز على أسنان.. استدارت بدرية غاضبة من المشايخ واللذين يريدون المشيخة كذلك، لكن بعد مضى وقت لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير فى العالم الواسع الضخم الذى سينتقل إليه محمد عما قريب وبصعوبة استسلمت هى الأخرى لعالم سيخلو من محمد أبو الفضل الأمر الذى يقلل من بهجة الألعاب فتذكرت أن عبدالمحسن هو الآخر راحل.. لكن هذا لم يثر لديها لا حزنا ولا فرحا.. فى ذلك الوقت كانت قمر تتسلل من باب الفناء الخلفى وهى تحمل على رأسها فى مشقة بالغة صينية كبيرة ملأتها بصنوف الطعام من اللحوم والخبز الأبيض الطرى والمحمر... سارت عبر دروب المدينة ميممة شطر دار عبدالمحسن.. طرقت الباب حتى خرجت لها توحيده.. نظرت إلى الصبية الصغيرة بدهشة.

- أنا يا خاله توحيده أمى قالت لى - ولم تكن أمها قد قالت لها شيئًا - روحى لخالتك توحيدة وقوليلها بتقولك مبروك سفر عبد المحسن.. شوية الزواده دول علشان سفريته الطويلة.. استقبلتها بدهشة مخلوطة بفرحة.. وهى تقول ربما يخليك يا بنتى دا أنت ربنا بعتك من السماء.. قالت الطفلة ببراءة - والنبى يا خالتى؟؟

t.me/qurssan

- أيوه.. ضنا أمك. أيوه يا ضناى.. أنا كنت ظانه إنه حيسافر وممعهوش اللضى.

فى نهاية عيدالفطر ودع محمد آباه وأمه وأخاه حامد وأخته قمر والكل يبكى بكاء حارا وخاصة أمه التى لم تتوقف عن البكاء قط وهى تتفحصه قطعة قطعة قبلته على بوابة الدرب وتوقفت حتى غاب عنها فصعدت تتابعه وهو يعبر سور المدينة إلى مرساها ساترا خلف أبيه وخلفه بغلتين محملتين بالزوادة

عند سور المدينة التقى عبدالمحسن بمحمد وكانت توحيدة أم عبدالحسن تبكى فراق ابنها الوشيك وإخوانه البنات، تحملن زلعتى جبن حادقة وقفصا مملوءًا بالبصل والعيش المقدد، وخالته صديقة، التى خرجت معهم كى تهزر وتفرج عن نفسها تبكى لبكاء اختها.. وقد تقدمه آخواه عبد الرحمن وعبدالحميد حاملين مشنتين أمتلأتا بعيش المطروح وعبدالمحسن يجاهدهن كى يعدن دون جدوى، حيت الأسرتين كل منهما الأخرى، وتبادلت النسوة عبارات الشفقة وعند المرسى بدأ البكاء قليلا وبعد تحميل المركب بأغراض الصبية القليلة انفجر البكاء والعويل.

- معاك عنوان أبوك الشيخ فى مصر.. ظل عبدالرحمن يسأل ابنه محمد هذا السؤال أكثر من مائة مرة ومحمد يجيبه - معاى يا بابا.

- خد بالك منه يا عبدالمحسن دا أخوك ويرد عبدالمحسن - حاضر بابا الحاج، وتوحيدة تنظر إلى عبدالمحسن وتبكى وأخته خضرة تبتسم له فيبتسم لها ثم لا تلبث أن تبكى ستهم فتأخذ خضرة فى البكاء والعويل.

صاح النوتى صيحته فرفعت المرساة وحلت الحبال.. أخذت المركب فى الابتعاد رويدا رويدا عن الشاطئ.. سقطت توحيدة مغشيا عليها.. وعندما صار المركب فى عرض الفرعونية كان الكل يبكى رجالا ونساء وأطفالا بينما جلس محمد أبو الفضل وعبدالمحسن ينظران إلى الشاطئ فى وجوم.. فلما اختفى.. لمح عبدالمحسن الدموع تنساب من مآقى أبى الفضل.. ذهب يربت على كتفه.

- يا أخى بكره تتعود على الغربة.. .. الله.

- بس.. يا عبدالمحسن.. الواحد يعنى فايت أهله كده مرة واحدة.

- مره واحدة.. ولا مرتين بقى يا محمد.. عايز العالمية تشد حيلك كده.. مش عايزها ارجع لأمك بهانه.

t.me/qurssan

الجزء الثانى

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الأول

— ١ —

فى مطلع صيف عام ١٧٩٥ وبعد سبع سنوات من خروج عبدالمحسن ومحمد أبوالفضل من منوف إلى الأزهر للدراسة.. أخذ مركبًا ضخمًا يهبط مسرعا على النيل باتجاه الشمال تاركا خلفه أسوان حيث كان عبدالمحسن يختبئ من حملة المطاردة القاسية التى شنها خلفه كل من صديقه القديم حسين الأشقر كاشف المنوفية الجديد وأستاذه الشيخ السنهورى نقيب الأشراف وشيخ الطريقة الشاذلية.

الآن قبض عليه بعد مطاردة استمرت لمدة عام جاب فيها البر المصرى شمالا وجنوبا وهو يلوذ بالفرار لا يجد من يجرؤ على إيوائه من بطش المماليك وجبروت رجل الدين الصوفى.. اللعنة إذا كان الزمن هو المأوى المؤقت للإنسان من الموت.. مأوى الأبدية اللانهائى.. وزاهية التى التقت به أيام فراره بمديرية الشرقية فالتقطته وصعدت به إلى الصعيد الأعلى.. لكن أى شىء فى المعمورة يبعد عن يدى هذين الجبارين.. قد وقع فى يد أعوانهما بعد أن قتلت زاهية زوجها الخائن وقتلها الجند بعد اغتصابها.

وها هو الآن معلق على مقدمة سفينة، مقيد بالسلاسل ووجهه شاخص فى رعب إلى أبراج منوف المتهاوية التى بناها إيداكش ولم يكملها والتى سيخوزق فى أحد الأيام القليلة القادمة على سفح إحداها أو ربما بأعلاها.

اللعنة.. إذا كان ما يحدث حقيقة.. إذا كان هناك ثمة حقيقة تحدث تحت شمس الصعيد الحارة.. كيف يمكن لإنسان أن يعيش على أرض تكرهه.. ونهر يضن على أهله بالمياه.. رفع عبدالمحسن رأسه ودفعها إلى الخلف ثم بصق بأقصى ما عنده إلى مقدمة

t.me/qurssan

السفينة عاد برأسه إلى الوراء.. حملق فى سماء الظهيرة الصافية.. أدار رأسه دورة كاملة يحدق فيها بتثاقل...

.. بصق ثانية غمغم وشمس الجنوب تصليه نارها... كيف يكون السكون سجنا للإنسان... انهار على الأرض وسط ألواح الخشب والجرار المكسورة وبقايا من عشرات الأشياء المتناثرة ملقيا برأسه على سطح المركب الخشبية وقد طفرت من عينيه الدموع.. مال جانبا.. كان سور المركب خلفه مختفيا خلف تلال من الجبال والأشرعة.. لو أننى لم أولد.. أطل عليه وجه المنصور يبتسم بشماتة.. غمغم، من الذى تمنى وتحققت أمنيته.. سوف تصبح مثلى أكتع مقطوع اللسان.. مخصيا. ضحك المنصور ضحكة عالية.. واستطرد ـ ربما أكثر من يعرف ماذا يفعل. صديقك القديم وأستاذك الشيخ.. هآ.. هآ.. سوف تكون فرجة منوف.. لقد شاهدتهم يعدون عروستك الجميلة تحت البرج الشمالى للقلعة.. هه.. لن تجد من يوارى جثتك.. تلاشى وجه المنصور تاركا أحذية الجرسجية الذين سيلازمونه إلى منوف تسد عينيه.. ركله أحدهم فى رأسه بحذائه فاستدار بوجهه إلى الجهة الأخرى. وهو يصرخ ـ خنزير.. فلاح.. خرسيس والله أنا أقتلك فى البحر وأتخلص من قذارتك لولا أن أستاذنا حسين الأشقر يريدك حيا حتى يتسلى بكم.. يشوى لحمكم يأكلها ثم يلقى بعظمكم إلى كلابه.. لم يكن يرى سوى سيقانهم وسراويلهم المنفوخة.. الآن مال أحدهم عليه.. تلاقت نظراتهما.. أطلت من عينى عبدالمحسن نظرات الاستسلام أما الجندى فكانت عيناه تقدحان شررا.. ماذا يريد، تساءل عبدالمحسن وهو يرى جسد المملوك يميل عليه مقتربا ثم أطلق صرخة مدوية ومقبض سوط المملوك ينغرز فى أحد جراحه التى لم تلتئم بعد. انهالوا عليه ضربا بالسياط حتى سقط مغشيا عليه...

.. يا بنى.. خذ.. هكذا سمع همسات قرب أذنيه وكأنها آتية من قاع بئر عميق لا غور لها.. مثل الأمس الذى لن يأتى قط.. فتح عينيه ببطء.. من خلف غمامة ضبابية شاهد وجهًا عميق التجاعيد يقترب منه.. ثم رائحة بشرته العتيقة.. من تكون.. قابض الأرواح، مرحبا بك.. وإلا فاغرب عن وجهى.. أغمض عينيه ثانية.. شعر بالرطوبة تغمر شفتيه المحروقتين فدفع لسانه يلحس كل قطرة ماء.. بلل العجوز له شفتيه ثانية.. الآن يراه جيدا،... كان وجه ملامح السفينة العجوز يملأ سقف السماء لا يرى سواه وسوى

t.me/qurssan

الحافة الأرجوانية الزرقاء لسماء بلا حدود... رفع العجوز جسد الفتى لأعلى الآن يرى ضفتى النيل العاريتين والتربة الشراقى الحمراء تنتظر الفيضان منذ سبع سنوات ومنازل الفلاحين الطينية المتناثرة بين أشجار النخيل والجميز والتوت والصفصاف تتهادى من حوله تحت خيمة السماء فى بطء.

رفع العجوز إناء الماء إلى شفتيه تجرعها الفتى على عجل ثم أخذ يدفع بالثريد إلى فمه. قال العجوز بتثاقل: إيه اللى عملته.. فتحت عليك أبواب جهنم...

رفع عبدالمحسن عينين ملولتين وأدار رأسه مبتعدا عنه.. غمغم العجوز: معاك حق إيه يفيد أن تحكى.. وقبل أن ينتهى العجوز من إطعامه اللقمة الأخيرة غمغم عبدالمحسن: احنا فين دلوقت يا حاج.. رفع العجوز إليه عينيه محدقا فيه ببلاهة.. ـ إسنا... عدينا إسنا.. من شوية.. وعاد لإطعامه.. وبعد أن انتهى قام وهو ينظر اليه.. أزاح ألواح الخشب بعيدا عنه ومال بيده يزيح بقايا الفخار المكسور من على الأرض الخشبية ـ مستعجل على منوف؟!

تنقلت حدقتا عبدالمحسن بين العجوز والفضاء.

ـ حنوصل الأقصر.. مكان ما قبضوا عليك.. بعد شويه قرب أذان العشاء.. تصاعد نداء الحرس من المؤخرة اهتز رأس العجوز،.. صاح:

ـ جاى.

دفع جسد الفتى فى عجلة شديدة ينظف المكان ثم أداره إلى الجهة الأخرى: هو ده اللى أقدر عليه يا بنى.. دول لو قدروا يمددوك على الشوك.. مد يده إلى رقبه الفتى وأخذ يدير الحلقة الحديدية التى شد إليها كى يريح رأسه ثم قام عائدا إلى المؤخرة.. تابع عبدالمحسن جسده القوى بناظريه.. لن أبلغ من العمر ما بلغت.. زفر زفرة.. استلقى على ظهره مشدودا بقيوده ينظر إلى السماء، تململ وهو يشعر بجلده يحترق بقيظ الشمس اللاهب والعرق المنثال والحشرات التى تلسعه والرغبة العارمة تأكله فى حك جلده فى الأماكن التى لا يستطيع بلوغها.. حدق فى الفضاء مبعدا ناظريه عن الشمس، عبر سرب من الحمام السماء، أوقف ذهنه عن العمل بحثا عن السكينة.. الآن كل شىء يجرى فوق مجرى النيل.. السماء الصافية الزرقة.. القرى والأشجار البعيدة

t.me/qurssan

والأشرعة العالية للمراكب التى تصعد النهر تعبره كأشباح الموتى.. لماذا لا أبلغ الموت إذا كنت ولدت؟ هذه الشمس الحمراء تحرقنى.. تؤكد حقيقة حياتى ولكن أى الأشياء أكثر حقيقة.. الحياة أم الموت؟ لم أعرف الحياة منذ ولدت ولم أبلغ الموت بعد.. أعرف حقيقة واحدة،.. يعيش الإنسان تعبا ويموت تعبا.. اللعنة يعيش الانسان معذبا ويموت معذبا.. فكر فى العذاب الذى ينتظره على يد الأشقر والسنهورى.. غمغم.. العذاب هو الحقيقة الأشد وضوحا من الحياة والموت معا.

توسطت الشمس كبد السماء وتوقفت خلفه مباشرة.. كان يستطيع أن يراها لو رفع رأسه.. فعل مرة فاغرورقت عيناه بالدمع وأصيبتا بالعمى المؤقت.. صاح مغمغما إذا كان الله قد خلقك فلماذا لا يرعى إحدى حشراته التعسة. كان الصهد قد بلغ مداه وبدأ الحديد الساخن يحرق رسغيه.. تقلب بجسده يحاول أن يتلافى سخونة الخشب.. دق سطح المركب الخشبى بقبضته.. فصلصلت السلاسل.. صرخ يا رب رحتمك.. أنا عملت إيه.. عايز أموت.. أطل عليه رأس العجوز.. مال عليه يمسح رأسه بخرقة مبللة بالماء.

ـ مش كفاية.. عايز ميه.. غرفتى بيها.. صب على رأسه وجسده من إناء فخارى مربوط بحبل مصنوع من التيل.. أسقطه فى النهر ثانية.. ثم عاد يسكبه عليه.. صرخ يلعن النهر.. لو أنى... صاح العجوز ـ لا.. لا.. لا تلعن النيل يا بنى.. أوه ه. كان غاضبا.

ـ احترس فى كلامك.. هل جننت.. لا يلعن الخير بسبب الشر.

ـ وهو فيه أشر من اللى احنا فيه سبع سنين مفيش نقطة ميه عند الغلابة الفلاحين.. سبع سنين وهو مش مقصر حدى الوالى والأغوات.

ـ له له.. له.. له.. أنت تعرف عنه ايه.. ميه بتشرب منها.. لقمة عيش ورزق لنا احنا المراكبية.. وأنت عقلك صغير.. ضعيف.. ... أمال درست وأجزت العالمية إزاى.. إنى عارف أنك قعدت فى الأزهر أربع سنين... ما استفدتش من السنين دى بحاجة.. خد اشرب.. وبص حواليك.. إيه المدن دى وإيه القرى دى.. إيه العماير والخلايق اللى بنشوفها من كل أجناس الدنيا. النيل بينبع من الجنة خذ اشرب.. أنا عارف حمى الشمس.. ح أعمل لك ضليله..... رفعه من إبطيه جاذبا جسده حتى بلغ به ظل القمرة.. تركة ثانية.. عدل عبدالمحسن من جسده وغط فى نوم عميق...

t.me/qurssan

كان الفحيح يحيط به.. وهو يرتعد من البرد خائفا. اقتربت منه ألسنة النيران وعلى ذوائبها تتراقص وجوه لسحنات بشعة فتحت أفواهها فكشفت عن أنياب حادة تقهقه كالرعد تريد التهامه. قام من نومه يصرخ مرتعبا.. رفع رأسه عاليا فاصطدمت برأس العجوز الذى كان ينحنى عليه وهو يتحسس جبينه بيديه ويتلو آيات من القرآن الكريم.. تراجع العجوز من الصدمة.. نظر عبدالمحسن حوله بهلع..

ـ أنا.. أنا فين؟

كان العجوز جالسا أمامه وقد أشعل النيران وخلفه كان ضجيج الحرس وقد أسكرهم الشراب.. وتصاعدت رائحة الحشيش فى الفضاء.

قال العجوز ـ مكانك.. لم تتحرك..

ـ شياطين الأرض السفلى تمسك بى هز العجوز رأسه صامتا.. ظلا صامتين لفترة غمغم عبدالمحسن سارحا ببصره.

ـ إيه الفرق بين شياطين الأرض السفلى وشياطين الأرض العليا.. مد له العجوز يده بكسرة خبز ناشفة وقطع من البصل.. أخذ يمضغها على مهل.

ـ قناوى أخذ مكانى على نوبة الدفة الليلة.. أخاف أن أغفو وأنا ممسك بها.. فتصطدم المركب بالجسر أو بمركب أخرى لهذا أتركه يعمل ليلا فهو لا يزال شابا وأجىء أنا إلى المقدمة أشعل النيران حتى تأخذ المراكب القادمة من الشمال حذرها، ملأ العجوز غليونه بالدخان ثم أشعله. أخذ أنفاسا متوالية... تصاعد الدخان تاركا خلفه جمرة النيران الصغيرة... دفع الغليون إلى فمه... فتنفس عبدالمحسن الدخان بعمق. زفر الدخان من فمه وأخذ يتابع حلقاته وهى تضيع فى الظلام.. كان الجو خانقا والهواء ساكنًا ليس به نسمة واحدة وحزارة القيظ قابضة على الليل لا تتركه. أسند العجوز جذعه لسور المركب الواطئة قبالة عبدالمحسن، أخرج نايا وأخذ يعزف عليه ألحانا شجية.. رفع عبدالمحسن رأسه إلى الوراء يتابع النجوم وهى تسبح فى السماء وأنغام الناى تقطعها ضحكات الجرس تشده إلى السكينة.. توقف العجوز.. تفل من فمه..

ـ تعرف.. فى ليلة من ليالى الصيف الحارة.. ليلة زى دى.. كنا راميين المراسى قدام الأقصر.. نزل الجميع وظليت أنا وحدى.. قلت لنفسى ح تعمل إيه.

t.me/qurssan

.. لو نمت لحظة لطلع ظهر المركب اللصوص وبنات آوى.. تشاغلت بالعزف على الناى.. قرب الفجر كان سطح الماء مملوءا بعرائس النهر اللائى زفهن فرعون للنيل.. عذارى.. بكر كن يرقصن، وقفت ملجومًا زى اللى نزل عليه سهم الله.. داروا دورة حوالين المركب.. وجم ناحيتى يبكين.. حصل لى رعب أنكمشت على نفسى أبسمل وأقرأ القرآن يمكن يحترقوا.. اختفوا لحظة فتنفست الصعداء. لحظات ولقيت سور السفينة متغطيًا بأيديهن وشعورهن ووجوههن الغرقى عايزين يطلعوا ظهر المركب.. مش عارف ليه فعلت ما فعلت بالذات.. رحمة ربنا.. لطف الله بى وبعباده خلانى آخذ الناى وأعزف.. لحظة واختفت أيديهن وشعورهن ووجوههن تانى من سور المركب وشرعن فى الرقص من جديد على صفحة النهر.. ومع أشعة السحر بدأت فى التلاشى حتى اختفين جميعا من أول ضوء للفجر.. أنت لا تصدقنى أنا شفتك تبصق على النهر ظهرا، ألا تعرف؟ لقد ذكر بالقرآن..

.. أشاح عبدالمحسن عنه بقرف وأدار رأسه ناحية الشرق حيث كان القمر يبزغ على مهل.. تكدر وجه العجوز مكشرا لتفاهات الرجال وسأله بغضب.

ـ عملت ايه.. هه.. قل لى عملت إيه علشان يعملوا فيك اللى بيعملوه.

لم يجبه عبدالمحسن إنما نظر إليه مندهشا..

ـ أنا أعرف أنت قتلت زوجة السنجق.. هكذا يقولون.. ونظر بعينيه جهة القمرة. ليه قتلتها قل لى.. ليه؟

تقلب وجه عبدالمحسن وتحركت مقلتاه يمنة ويسرة يحاول الهروب.. إلا أن العجوز ظل على إلحاحه ملقيا بنايه جانبا.. ومائلا برأسه إلى الأمام يتناثر من فمه الرذاذ.

تحرك عبد المحسن قبل أن يقول بصوت بارد خافت وهو يهز كفيه أمام الرجل..

ـ لقد أكل زبانيتها أمى.. لم يأكلوها لقد.. خللوا لحمها بالملح المجروش، طرف العجوز بعينيه وقد بوغت من هول المفاجأة.. توقفت لوهلة إلا أنه عاد يميل بجسده وقد وضع يده على ساقيه..

ـ وما شأن زوجة السنجق بزبانيتها.. تململ عبدالمحسن ثانية قبل أن ينطق.

t.me/qurssan

ـ هى.. ذبحت بيديها طفلى أختى ومسحت بدمهما وجوه وأكف ساحراتها الحبشيات.. .. بعدها رمت جثثهم لكلابها.. تراجع العجوز مرتعدا.. نظر إلى الفتى بإشفاق وهلة.. هز رأسه يمنة ويسرة محدقا فى الفراغ.. ظلا صامتين لفترة طويلة.. قبل أن يلتقط العجوز نايه ويعود للعزف ثانية.. كان الوقت يمر متثاقلاً والعجوز يعزف ألحانا شجية،... وعبدالمحسن يتابع القمر وهو يسبح فى السماء وسط المجرات والنجوم توقف العجوز عن العزف.

ـ هل تعرف... كل شىء يجرى فى الدنيا بقانون محسوب... ما أحقر شأن الإنسان فيه. سر هائل وحكمة ربانية لو عرفها الإنسان لهلك.. وكل شىء يجرى لابن آدم مقدر مكتوب على لوح مسطور قال الله للقلم اكتب فقال القلم المشقوق الذى ينبع منه المداد ليوم القيامة. يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب علمى فى خلقى بما هو كائن إلى يوم القيامة فكان أول ما كتبه القلم أن رحمتى سبقت غضبى.. أتعرف من نحن فى أرض الله لا شىء.. لقد خلق الله الأرض من الرياح.. عندما أراد الله خلق الأرض أمر الرياح جميعا أن تثور رياح الجنوب والشمال والصبا والدبور، الرياح الأربعة والرياح النكباء..

فلما خلق الله الأرض كانت طبقة واحدة ففتقها فصيرها سبعا كما فعل الله بالسماء وجعل بين كل طبقة وطبقة مسيرة خمسمائة عام فهذا قوله تعالى ﴿ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ (الأنبياء آية/ ٣٠). ثم سمى الطبقة الأولى أديما والثانية بسيطا فخرج منها الريح وسكانها يقال لهم الطمس وطعامهم من لحومهم، وشرابهم من دمائهم والثالثة ثقيلا وسكانها أمم وجوههم كوجوه بنى آدم وأفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم كأيدى بنى آدم وأرجلهم وأذانهم كأرجل وآذان البقر وعلى أجسادهم شعر كصوف الغنم وهولهم ثياب ويقال إن ليلهم هو نهارنا نحن بنى آدم ونهارهم ليلنا والطبقة الرابعة تسمى بطيما وسكانها أمم يقال لهم الحلهام ليس لهم أعين ولا أقدام بل لهم أجنحة كأجنحة القطا، والخامسة وتسمى حبنا وبها أمم يقال لهم الخشن وهم كأمثال البغال لهم أذناب فى كل ذنب نحو ثلثمائة ذراع وبها حيات كأمثال النخل الطوال ولهم أنياب كالجمال.. والطبقة السادسة تسمى ماسكة بها أمم يقال لهم الحثوم سود الأبدان لهم مخالب كمخالب السبع يقال إن الله يسلطهم على يأجوج ومأجوج حين يخرجون للناس فتهلكهما.. والطبقة السابعة وهى الثرى حيث يسكن إبليس اللعين وجنوده من المرده الشياطين.

t.me/qurssan

قاطعه عبدالمحسن الذى الذى لم يكن يصغى لكلامه.

ـ حيث نعيش الآن... رفض العجوز تلميحه الفتى.

ـ أى.. له.. له.. له... نحن نعيش فى أطيب ثرى الأرض ..

كشر عبدالمحسن وبكراهية ومقت شديدين بصق.. هتف.

ـ إذا كان الله قد لعن أرضنا.. فقد أخطئوا فى معرفتها... أما أنا فأعرف.. أشار برأسه إلى الفضاء المحيط.. هى دى الأرض الملعونة.

ـ أووووه... أووووه.. أنت لا تعرف.. أنا أعلم أن مصيبتك جعلتك لا ترى إلا مصيبتك لقد جعل الله بين السماء والأرض بحرًا لطيفا لا تبلغه إلا البازات الشهب. فوق تعيش طير بعض رءوسها كرءوس الخيل وذوائبها كذوائب النساء لها أجنحة طوال سماء أربعة.. وملائكة نصف أبدانهم من ثلج ونصفها من نار كتب على أطرافهم أسماء أربعة أنهار سيحان وجيحان والفرات والنيل.. قال كعب الأحبار رضى الله عنه أن سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها ضمن أنهار الجنة فالنيل هو نهر العسل فى الجنة والفرات هو نهر الخمر فى الجنة وسيحان هو نهر الماء وجيحان هو نهر اللبن.. وقال إن عناصر هذه الأنهار الأربعة تجرى من تحت سدرة المنتهى.. وتمر من تحت حجر من بيت المقدس.

النيل يخرج من قبة من الزيزجد ويمر على أرض ينبت فيها قضبان الذهب فيفترق هناك نهران أحدهما يجرى إلى أرض الهند ويسمى مهران وقد استدلوا عليه بما فيه من تماسيح وضفادع ويقال إن فرعون مصر نقرواش الجبار بن مصرايم توجه إلى منبع النيل وعمل هناك تماثيل من نحاس عدتها خمسة وثلاثون تمثالا جامعة للماء حتى لا يخرج بمقاطع أذرع معلومة ليكون فيها الصلاح لأرض مصر دون إفساد وقيل لولا أن ماء النيل يمر فى الماء المالح لشرب من مائه ما هو أحلى من العسل وأبيض من اللبن لكن الله فى ذلك حكم فلولا الليمون لوخم أهل مصر من حلاوة النيل وماتوا لكن حموضة الليمون تمنع الصفراء ويقول كعب الأحبار إن فراعنة مصر القدامى من أمروا أقواما بالسير إلى حيث يجرى النيل فساروا حتى انتهوا إلى جبل ينزل الماء من أعلاه. له دوى وهدير حتى لا يسمع صوت من جانبه كما أن واحدا من القوم صعد إلى أعلى

t.me/qurssan

الجبل لينظر من ورائه فلما وصل إلى أعلاه صفق بيده وضحك ثم مضى ولم يعلم أصحابه ما شأنه ثم أن رجلا آخر صعد كى يرى ما وراء الجبل فكان له ما كان لصاحبه ولم يعلم أصحابه ما شأنه فصعد الثالث وقال لأصحابه اربطونى من وسطى بحبل فإذا ما وصلت إلى ما وصل إليه أصحابى وفعلت ما فعلوا فاجذبونى بالحبل فأعود ففعلوا ولما صار فى أعلى الجبل صفق بيده ضاحكا وأراد أن يمضى فجذبه أصحابه فنزل عندهم فلما وصل خرس لسانه ولم يرد جوابا وأقام ساعة ومات فرجع القوم ولم يعلموا غير ذلك من أخبار النيل.. تنفس العجوز نفسا عميقا واستطرد..

- بإذن الله ومشيئته.. إن الله تعالى سخر للنيل كل نهر على وجه الأرض من المشرق إلى المغرب فعن عبدالله بن عمر رضى الله عنه قال: إذا أراد الله تعالى أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يرجع إلى مصدره ومصداق هذا الخبر أن النيل مخالف لكل نهر على وجه الأرض لأنه يزيد إذا نقصت الأنهار كلها وإذا نقص هو زادت هى فصح أن يمتد بمياهها.

فإذا انحدر من أعلى جبل القمر عبو البحر الزفتى وهو البحر السابع لبحار العالم ولونه أسود ومادته من البحر المحيط كريه الرائحة رخيم الهواء فيصير النيل فوقه كالخيط الأبيض على النول الأسود فتبارك الله أحسن الخالقين سبحان الذى أتقن كل شىء.

ولقد بلغنى أن رجلا من سبط العيصى بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام يقال له مصرانيم خرج هاربًا من بعض الملوك الجبابرة فدخل مصر فلما رأى نيلها تعجب منه وأقسم ألا يفارق ساحل النيل حتى يبلغ منتهاه وأن يعرف من أين يخرج أو يموت قبل خروجه.. فسار على ساحل النيل قرابة ثلاثين سنة حتى بلغ جبل القمر فإذا هو برجل قائم يصلى تحت شجرة فلما رآه سلم عليه وسأله من أنت فقال له أنا أبو العباس الخضر.. فما مجيئك إلى هنا.. قال فى طلب معرفة النيل فقال له العباس ستمر عليك حية ترى آخرها ولا ترى أولها فلا يهولنك أمرها وهو معادية للشمس.. إذا طلعت الشمس هوت إليها لتلقمها فاركب على ظهرها فإنها تعبر بك جانب البحر الزفتى إلى البر الآخر للسماء فسر فهناك ستجد أرض من ذهب وبها جبال وأشجار فلما مضى مصرانيم فعل ما قاله الخضر فبلغ أرض الذهب فوجد بها شجرة تثمر مثل

t.me/qurssan

اللوز ولها قشر فإذا كسره خرجت ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بقلم القدرة لا إله إلا الله محمد رسول الله وهى كتابة واضحة جيدة وبها شجرة لها أوراق كبار على قدر ورقة القلقاس مكتوب على كل ورقة بخط أخضر أشد من خضرة الورقة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فإن مصرانيم لما بلغ أرض الذهب نظر إلى قبة من الذهب ولها أبواب فنظر إلى النيل وهو ينحدر من جوف تلك القبة من كل باب نهر يجرى إلى جهة من الأرض وهو سيحان وجيحان والفرات والنيل فلما أراد أن يمضى ما وراء القبة.. أتاه ملك وقال له قف يا مصرانيم فقد انتهى إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة فقال مصرانيم أريد أن أنظر الجنة فقال له الملك لن تستطيع دخولها اليوم فجلس على شاطئ النيل وشرب منه فإذا هو أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج.

ويقال إن مصرانيم رأى الفلك الذى يدور بالشمس والقمر والنجوم وهو يشبه الرحا وقيل إنه ركب الفلك ودار الدنيا كلها وقيل إنه لم يركبه ثم إن الملك أتى مصرانيم بعنقود من العنب من الجنة هو على ثلاثة ألوان أخضر كالزبرجد وأحمر كالياقوت وأبيض كاللؤلؤ وقال له هذا من حصرم الجنة وليس من طيب عنبها ثم إن مصرانيم رجع من هناك إلى بر السماء وركب على تلك الحية لما هوت إلى الشمس عند الغروب لتلتقمها فقذفت به إلى جانب البحر الزفتى بالمكان الذى ذهب منه فأتى إلى الخضر عليه السلام وحكى له ما جرى وقيل إن مصرانيم لم يأكل من أكل الدنيا لأنه أكل من ذلك العنب وعاش عشرين عاما دون طعام ومات بعد ذلك.

فالنيل أشرف أنهار الأرض جعله الله نهر العسل فى الجنة فأهل مصر مشربهم من ماء النيل مثلهم مثل النحل يعملون فى دأب وفى كد ونظام وأما ملوكهم فقد جعلهم الله عليهم من الأعاجم والأغراب فأهل مصر يعملون ولا يصيبون من عملهم ترفا مثلهم مثل شغيلات النحل وملوك مصر الأغراب لا يعملون ويترفون من عطايا النيل الذى إذا شرب منه الغريب نسى وطنه وأعظم من هذا كله ما جاءت به أخبار الشريعة أن منبعه من الجنة تحت سدرة المنتهى.

t.me/qurssan

غمغم العجوز لقد أمضيت عمرى صعودا وهبوطا على متنه.. تغيرت المراكب والمدن والقرى والأشخاص والمماليك وهو باق... هذا الذى تلعنه يا بنى ليس سوى نهر السماء فكيف بالله يلعن..

* * *

كانت النار تخبو وأظلم المكان.. تحرك العجوز ناحيتها وكان قد انتهى. دفع إلى النار بأعواد الحطب وأخذ ينفخ به ولم يعد إلى مكانه.. قرر أن يأخذ تغفيله قبل طلوع الشمس.. مسح أنفه وفمه وقال: لا شك أنك تريد أن تنام أنت الآخر.. استطرد متداركا.... أشعلت لك نيرانًا كثيرة علشان عرائس النهر متأخدكش أسير عند فرعون النهر.. هأ.. هأ.. ها أشار إلى قمرة السفينة: أغراب يتمتعون ولا يعملون.. تصبح على خير يا بنى.. ألقى عليه بحرام قديم وقال البرد شديد سيشتد قرب الفجر قالها وهو يغطى له ظهره ومضى فى خفوت لا يسمع لقدميه حفيف.. ردد عبدالمحسن.

ـ تصبح على خير يا حاج.. فكر فى نفسه: ما اسمه؟.. لا أعرف اسمك. جذب أطراف الحرام بأطراف قدميه وهو يتمدد مستسلما للنوم ولعرائس النهر.

ـ ٢ ـ

فى الهزيع الأخير من الليل توقف كل شىء عن الحركة عدا جسم المركب الذى أخذت أخشابه تئز دون توقف.. تململ عبدالمحسن من نومه صحا وكأن جسده ينوء بأثقال كثيرة.. تصاعد أنين متقطع باك قادم من قاع النهر. شعر بشىء غير عادى، أصاخ السمع.. كان السكون.. يقطعه هذا الأنين، حدق فى السماء بخوف قبل أن يعود إلى نومه ثانية.. لكن رعدة وقشعريرة أصابت جسده.. شعر ببلل فى أطرافه وأمامه انتصبت عذراء ميته تقطر من جسدها مياه النهر.. مدت يدها تبكى.. تلمسه توقف قلبه عن النبض وتيبست عروقه.. صعد الدم إلى رأسه ووقف شعره من الرعب.. كان كل شىء قد توقف عن الحركة إلا المركب الذى كان يسير فى ثبات نحو الشمال مثل تابوت ثقيل يسبح فى النهر يقوده ملك الموت.. وعلى أطراف المركب جلست عرائس النهر تبكى تتساقط من جدائلهن الشهباء قطرات الماء وخلفهن انتصب المدخل القديم لمعبد الكرنك.. فاتحا فوهته الضيقة وكأنه معبر الأحياء إلى عالم الموتى.. كان المعبد القديم يسير هو الآخر أمام المركب.

t.me/qurssan

هتف عبدالمحسن بالمعبد الذى يتبؤه التماثيل الحجرية لرعمسيس الثانى الضخم.. بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لو أن الله كتب لى عمرا لأفنيت عمرى فى إزالة حجارتك حجرا حجرا أو حملتها إلى الموانئ القاصية عن المعمورة فألقيتها متفرقات فى باطن البحر..

ـ ألا تعرفنى.. سمع عبدالمحسن العروس الخرساء إلا من الأنين... تحدثه دون أن يخرج عنها صوت.. كان يفهم ما تقوله دون أن تنطق به استدارت إلى رفيقاتها باكية.

ـ إنه لا يعرفنى.. أجبن جميعا نائحات وهو يتقدمن نحوه.

ـ إنه لا يعرفها.. كان يسمعهن جميعا دون أن يصدر عنهن صوت.

اقتربن منه.. داهمته قشعريرة ثلجية.. هتف دون صوت إننى أموت.. كن يحررنه الآن،،كن برسغيه وقدميه وهو ينظر إلى زاهية بدهشة.. حملنه دفعن به إلى الفضاء.. كان يسبح باتجاه مدخل المعبد.. حاول أن يقول لا.. لا أريد الدخول لقد لعنت هذا المكان.. كانت معه.. عبرا مدخل المعبد إلى الشاطئ الغربى الموحل للنهر وأمامه كانت تنتصب ثانية واجهة المعبد القرمزية بتماثيلها الفرعونية القديمة.. هتف أعوذ بالله من الأوثان.. تدافعت أقدام الجواد تخوض المخاضة.. تعثر الجواد فجأة فأمسكت به زاهية ضاحكة.. ضحك هو الآخر وهو يمسك بها صارخا.. إيه اللى بيضحكك. أجابت فى غنج ـ أنت يا فارس الغبراء مش قادر تمسك بلجام جواد ـ يكفى أن أمسك لجامك أنت.. ضحكت ورنت ضحكتها فى جذل دفنت نهديها العامرين فى ظهره فشعر بخدر لذيذ فعاد إليها بجذعه مزيدا من خدة التلاصق.. وتعلقت به ومالت برأسها على كتفه الأيسر.. سألها ـ أحنا رايحين فين؟

أشارت إلى بناء بباطن الجبل يقع على مسيرة ساعة حيث كان يبرز معبد رعمسيس الثانى.

ـ إلى معبد المساخيط.

حدق فى الأفق على طول السهل المنبسط للوادى بسفح الجبل حتى رآه.

صاح دهشا.. هذا المكان الملعون.

t.me/qurssan

كانت الرياح تعوى فى الأنحاء يجاوبها عواء بنات أوى.. التصقت به وهى تقرص صدره ـ خايف.

كان يريد أن يقول نعم.. لقد غمره شعور داخلى بأن هناك شيئًا مرعبا ينتظره.. هز كتفيه.. غمغم: سخط الله فرعون الجبار لما عصاه لكن فرعون بقى لينتقم من عباد الله، استطردت زاهية..

ـ خايف يا حبيبى؟

ـ أحنا رايحين ليه؟

ـ هنضيع فى الصحراء.. لازم لنا مأوى.

ـ اسكتى بقى. أصلك مبسوطة قوى محدش بيطاردك زيى لماذا تهزرين؟.. خلعت خمارها وألقته بين يديه.. صاح ماذا تفعلين.. ضحكت.. كانت خلفه تخلع عنها ملابسها قطعة قطعة.. عندما بلغا فوهة المعبد كانت عارية.. ضم جسد الأعرابية التى جاوزت الواحدة والثلاثين.. حملها وهو يعبر بها مدخل المعبد.. سبحا فى فضائه وهما يتقابلان فى نشوة.

ـ وحياتك لخليك أحسن من الأشقر والسنهورى نفسه.. ومن مراد بك كمان... همس.

ـ إزاى يا بت ازاى.. أنا مش عاوز حاجة غيرك أنت.

ـ مانى بين إيديك وضحكت.

سقطا على أرض المعبد الحجرية. صار جسداهما كتلة واحدة وكلاهما يلهث فى عمق وصمت شديدين.. وهلة طويلة كان يرى عينيها تتحولان إلى بحر واسع تمتد أمواجه عميقة تلتقى بخط الأفق وجسده يسبح فيه بكل ما يملك.. يريد أن يبلغه.. يمسك به.. وكان يقترب حيث الألوان الأرجوانية الشفقية. أمسك بالضوء الأول هو الآن صاعد.. صاعد فى فرح جنونى وسط قوس قزح الذهبى.. لهث وهو يضحك.. لهث بعنف.. وجاوبته اللهاث والضحك.. ضحكا ولهثا معا. وهما يسبحان فى نهر شديد الاتساع.. شديد السرعة قوى الإصرار يأتى إليه من السماء بقوة دافعا إليها بزبده الأبيض.. كانت تختنق.. تختنق.. غمغمت وهى تسقط متهاوية.

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

ـ أنت الوحيد اللى يقدر.

صعد إلى الفضاء قافزا ملوحا بقبضته.. لقد كانت درزينه.. تابعته وهى تتذكر المرة الأولى التى قفز فيها فى فضاء الحقل ملوحا بقبضته فى وجه السماء بسعادة.. كان وجه المعبد يقف فوقه وآلهته تنظر نحوه نظرة لا زمنية بثبات أبدى تتابعها فى عريهما. مد يده يلمس نهديها بشغف.. قالت:

ـ استخبه فيه من مطاريدك.

ـ لو مسكونى مش عاوز أموت إلا هنا على صدرك.

ـ بإذن الله مش هايقدروا أبدا.

ـ لقد صعدنا النيل من شماله إلى جنوبه وهمه ورانا والأشقر مكلش يوم عن مطاردتى ومش حيكل أبدا ومش حيستريح أبدا إلا لما يمسكنى.

ـ هو مش صحبك..

ـ وهل للذئب صديق.. مسدت رأسه وهى تقبله بحنان.

ـ لو مقلتش على ظهر الأرض مخبأ يخفيك عن عينيهم راح أخبيك فى عيونى.. نظر إليها متشككا.. جذبته بين ذراعيها. غمغمت قبل أن يغطا فى نوم عميق.. حتى لو مقدرتش حنهرب منهم بالموت.

قرب الفجر.. قفز عبدالمحسن من نومه.. هتف: صوت. هناك صوت وقبل أن يستيقظ كانت ثلة المماليك تحيط به.. قام محاولا الهرب لكنهم تحلقوا حوله،، كانوا يضحكون بوجوههم الغليظة وشفاههم القوقازية.. رفع غدارته وقبل أن يطلقها، هوى أحدهم بصفحة سيفه على معصمه فأطارها. يريدك الأمير حيا يا ملعون..

قفز يحاول اختراق الدائرة جاذبا معصم زاهية معه.. لكنهم أطبقوا عليه كانوا ثلاثة عشر فارسًا ينظرون إليه بلا رحمة. ضربه أحدهم بقبضته وكان هذا إيذانا ببدء الطعام... لقد ركلوه وأشبعوه ضربا.. أهلكتنا بحثا عنك.. تريد ذهب الفراعنة.. ضحكات.. ضحكات.. خيل له أن الشخوص المسخوطة فى تماثيلها الحجرية تضحك هى الأخرى .. بل كان ضحكها هو الأقوى.. وأمامه اغتصبت زاهية قبل أن ينزع أحدهم نهديها بسيفه ويبقر بطنها آخر..

t.me/qurssan

اللعنة.. لو كتب الله لى عمرا لعدت إليكم أيها الفراعنة الجبابرة التى سخطها الله حجارة وانزلتكم حجرا حجرا.. مكملا غضبة الله.. هذا آخر مافكر فيه إذ كان لا يستطيع الحديث وهو يخرج من باب المعبد.. ليرى من خلف ضباب عينيه المتورمتين أورطة كاملة من فرسان السباهية نقف فى خط طويل تحاصر المعبد.. ربطوه إلى ذيل أحد الجياد وانطلق به أحدهم يسحله على أرض الصحراء وسط هتاف ثلاثمائة فارس وهم يصرخون بصرخات الحرب المجنونة.

ـ إلى منوف.. إلى منوف.. منوف..

* * *

كانت أشعة الشمس تتسلل ببطء وقد تلونت السماء بضوء السحر الضبابى.. استيقظ عبدالمحسن قلقا.. سمع صرير سلاسلة ضئيلا خافتا.. أمام السكينة الهائلة للكون.. أخذ يثنى أطراف جسده المتصلبة بقدر ما تسمح قيوده.. ثم تمدد ثانية مستسلما للسكون الهادئ الذى سيذهب بعد قليل.. تابع على صفحة السماء المضاءة بلون السحر الأصفر آخرر نجوم الليل وهى تنزوى متباطأة أمام الصبح القادم.. كان المركب يسير بثبات على صفحة النهر يسمع صوته وهو يشق طريقة وسط الماء ميمما شطر الشمال.. وأشباح الأشجار والنخيل تعلو الضفتين الحمراوين فى خيلاء وقد خلتا تماما من الحياة..

حملق مذهولا فى روعة الوجود.. أصاغ السمع إلى اللحن الخافت الذى تعزفه ألوف العصافير والطيور.. كأن الكون يشرع فى الغناء.. أدار رأسه إلى الشرق يرى الوهج الأحمر المعلن عن قرب صعود الشمس وخروج الأحياء من مهاجعها.. عبرته الأشباح الضخمة لأشرعة المراكب التى تصعد النهر تقطع تتابعات أشباح الفلاحين الصغيرة ودوابهم تكد سيرا فى الطرقات لتبدأ يوم عملها. تمدد مستسلما لطيور الحدأة وهى تحلق فى الفضاء.. تابعها وهى تدور دورة واسعة مشرعة جناحها.. استسلم للسكينة التى تستدعى الذكريات.. وغاص يغسل نفسه فى لحن الصباح الذى تعزفه الطيور وخرير الماء.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثانى

ـ ١ ـ

فى الأيام الأولى لدخول الأزهر عقدت لجنة المشايخ امتحانا للمتقدمين .. يذكر أنه انتحى ركنا قصيا هو ومحمد أبو الفضل كانت تملؤهما الرهبة رغم أن الممتحن هو الشيخ السنهورى. وفى جانب من الرواق تجمع عدد كبير من الصبية تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والعشرين بعضهم كان منشغلا بتلاوة القرآن يقرؤه فى سره همسا والبعض الآخر يتجاذب أطراف الحديث والبقية يتبادلون النكات والشتائم والضحكات ولم يمض وقت طويل حتى كان أربعة منهم يتبادلون الضربات والركلات بعنف ولكن بدون ضوضاء.

بكى أحد الغلمان الصغار وطفرت الدموع من عينيه فزاد خوف محمد أبو الفضل وكشر عبد المحسن بشراسة معبرا عن توتره الداخلى.. جرى الغلام يختبئ خلفهما فتحرك محمد أبو الفضل مبتعدا متجاهلا الصبى وانكمش منكبا على كتاب مختصر المعنى فى النحو لكن عصا أطارت عمامته.. ضحك الغلمان وكان عبد المحسن يضحك أيضا.. وكتم محمد أبو الفضل غيظه قبل أن يخطف المعتدى الكتاب من يده وهو يقول له مبتسما وعلى وجهه ملامح الشر.

ـ زعلان يا وله .. وقبل أن ينطق محمد أبو الفضل انهال الفتى بكفه على وجه عبد المحسن ثم انفلت ضاحكا.. جرى عبدُ المحسن خلف الفتى. لكن أصحابه منعوه فعاد يحبس غضبه.. أقبل أحد الصبية الكبار نحوهما.. دفع لأبى الفضل كتابه.

ـ محتاجه للمذاكرة .. ضحك وهو يهتف: بصاص.. تقاذفهما الصبية بالعبارات المقذعة.

t.me/qurssan

ـ تاعبين نفسكو ليه. خايفين من الامتحان ولا بتضحك علينا أنت وهو .. أراهن أنهم حينجحوا.

ـ إحنا مش بصاصين. زام عبد المحسن.

ـ طيب همه هنا ليه؟

ليخبرا شيخهما عن الطلاب الأخيار فينا والأشرار.

ـ حذارى يا رمضان هيبلغوا مولانا بسرقتك الجبنة والخبز من رواق الشوام. قذف الصبى المدعو رمضان المتحدث ببلغته وهو يباكته وكان ضخم الجثة.

ـ وهيبلغوه بتمزيقك قرب السقايين لتصنع منها نعالا لبلغتك المخرومة: ضج الرواق بضحك الصبية.. قفز الصبى:

ـ أنا ألبس قبقاب.

ـ وهل تصعد بالقبقاب ليلا سقف زينب بنت خضرة يا فاسق يا كذاب يا لعين يا مصيلحى ... تصاعد الضحك عاليا وتدافع الصبية يتعاركون .. اقترب منهما أحمد المصيلحى يهددهما بقبضته.

ـ لو عملها واحد منكم هكسر دماغه.

ـ أطل وجه من خلف المصيلحى محدثا محمد أبو الفضل.

ـ بتدخل الحرملك.

ـ حرملك مولانا الشيخ.

ـ آنى .. ابدا ورب العزة.

.. لم يأبه به أحد..

ـ ابن الجاموسة بيدخل حرملك السنهورى.

قام فتى يتمايل وهو يغنى مقلدا سير الغوانى والإماء ويقلد رقصهن فاهتاج الحاضرون وقام آخر يرقص بمواجهته. كشف الأول عن ساقيه رافعا مؤخرة جلبابه وأخذ يهز إليته فى وجه أبى الفضل مخرجا ريحا كريهة من مؤخرته.

t.me/qurssan

ضج الرواق بالجنون .. جذب أحدهم عمامة أبى الفضل متحاشين وجه عبد المحسن المكشر عن أنيابه.

- مالفتش على واحدة يا ابن الكلب..؟

قال وهو يكاد يبكى.

- أبدا والله.

- بيسمنوك...؟

- زى الطور.

- أخبرنا أيها الماكر قل لنا يا تعلب يا ابن التعلب.

قال وهو على وشك البكاء متوسلا:

- إنه شيخى ورزق أبى من خيره.. حاشا لله أن أفعل .. باغته أحدهم.

- ها والشركسية .. هل يقدر عليها مولانا الكركرب.. إنها تنهب قوته..

صمت أبو الفضل .. لم ينبس بكلمة.. قال أحدهم.

- دى حورية من السما. هز حواجبه فى وجه أبى الفضل قائلا بالفصحى - بيضاء داعك يزرف الدمع انهارا على الشباب الذى ولى وراح.

صاح أحدهم فى لهفة وشوق وهو يجرى ليقف قبالته.

- وكيف عرفت؟ قال المتحدث فى برود - لقد رأيتها .. وما كاد أن ينتهى حتى كان هناك عشرون قدما ويدا توسعاه ضربا وركلا مبرحا وهو يضحك سعيدا...

دخل خادم الشيخ السنهورى .. توقف الجميع وحل السكون.. مرت لحظات طويلة كانوا جميعا قد جلسوا فى أماكنهم كالأصنام لا يتحرك أحدهم قيد أنمله.. دخل عليهم الشيخ السنهورى.. عبر الرواق إلى حجرة داخلية.

سمع عبد المحسن أحدهم يقول: - أعطيت الحاجب قروشا .. هز الفتى رأسه نفيا قال الفتى همسا - أنا أعطيته ثلاثين قرشا لإصلاح تكية الشيخ.. قلتلك إذا عجزت بنفسك عن شىء فاجعل المال.. العطايا.. الهدايا سبيلك .. وهو ما لم يفهمه عبد المحسن بدقة لكن ما وعاه منذ اليوم الأول أن السنهورى أجاز محمد أبو الفضل من أول

t.me/qurssan

امتحان له أما هو فلم يستقبله. فاض بالكراهية لكل من أبى الفضل وشيخه الذى لم يراع حرمة خالته صديقة.. حتى أنه نسيه.. خرج إلى أزقة الغورية والحسين وحواريهما يعمل مكارى وسقا وعامل حمامات يتابع الزحام والحركة والنساء المحجبات ومعاصمهن المحملة بالذهب ويترقب عيونهن تطل من خلف المشربيات حتى استقر أخيرا بدرب النحاسين حيث عمل مبيضًا للنحاس.. ثلاثة أشهر مضت قبل أن يجيزه الشيخ الشرقاوى طالبا فى الأزهر بعد أن التحق مع جماعته يسهر الليل فى الذكر والإنشاد والحضرة ويقرأ الأعشار عند ختم المجلس وينادى على المنادين.. يا أبا بكرى مدد يا حفنى مدد يا شرقاوى مدد ولم يجيزه إلا بعد أن حفظ من مؤلفاته حاشيته على التحرير وشرح المختصر فى العقائد والفقه والتصوف ومختصر الشمائل ورسالة فى لا إله إلا الله.. لقد افترق عن محمد أبى الفضل الذى لازم الشيخ السنهورى وأفرد له حجرة فى حدائق قصره وجعله على خدمته.. ولم يعد محمد أبو الفضل يظهر إلا خلف الشيخ أو متقدما له ساحبا بغلته واقفا على خدمتها. ولم يكن هذا بالشىء المهين فقد ظهرت عليه آثار الترف وأصبح دائما يشاهد فى الأزهر مرتديا زيا كاملا .. عمامة وجبه وقفطان.. أما عبدالمحسن فقد ترك النحاسين وانتقل للإقامة فى رواق الشرقاوية فى حجرة يبلغ طولها ستين قدما وعرضها عشرين قدما ويقيم بها ثمانية عشر طالبا من طلاب الأزهر.. كان المكان مكتظا بساكنيه وبأغراضهم وبالقرب من مدخل الباب أقام هو فى مكان أفرده لنفسه.. يلفحه تيار الهواء البارد فى الشتاء ينخر عظامه. كان لصيقا لباحة صغيرة اكتظت بالأوانى النحاسية والمشنات والقفف وأوانى الفخار من مختلف الأحجام امتلأت جميعها بالملابس والخبز الجاف والملح والبصل وجرار الجبن القديمة وأمامه مباشرة يصطف ثمانية عشر زوجا من القباقيب تفوح منها رائحة الروث والمراحيض وفوقها امتدت حبال علقت عليها الملابس والقمصان والسراويل الداخلية القذرة والمغسولة.. على أن كل هذه الأشياء لم تكن لتكفى فقد زحفت إلى جسده جيوش من الحشرات التى تحيا على جسد الإنسان والحيوان معا.. لقد استقبله الجميع بعداء وألقوا عليه وعلى ملابسه المياه القذرة وأشبعوه سخرية حتى توج هذا حفلة قبوله. ففى ظهيرة أحد الأيام وكان الطلبة قد انتهوا من الدرس وبعد أن تناولوا طعام الغذاء تحرش به ثلاثة من الصبية الكبار كانوا قد قرروا التيقن من ذكورته. دفع أحدهم بنعله إلى حيث يرقد وجذبه بشدة دافعا إياه جانبا. قام عبدالمحسن لاعنا هذا الذى أيقظه من نومه.. واشتبك الغلامان فى عراك قاس..

t.me/qurssan

PDF Compressor Free version
تدخل الباقون للتفريق بينهما وقد عقدوا فى داخلهم أمر إذ أنهم أوقعوا عبدالمحسن على الأرض وبركوا جميعا فوقه جاذبين سرواله لأسفل وهو يقاومهم صارخا سابا لاعنا بكل الشتائم القذرة.. وفجأة أخذ يصرخ من الألم .. كانوا ينتفون شعر عانته.. ولم يمض وقت طويل حتى استراح الصبية تاركينه.. قام وكله رغبة فى البكاء لكنه استطاع أن يكبح جماح نفسه من الغضب ولم تمض ساعة حتى كان الغلمان والصبية جميعا يتضاربون ويتعاركون بقسوة وقد أخذ الأربعة الكبار منهم فى نتف عانة كل صبى على حده .. فيتصاعد الضحك والبكاء عاليا فى آن واحد.

ظل منعزلا يراقبهم وعيناه لا تتركان الصبى الذى قام بالمهمة وفى أذان العصر لم يكن هناك سوى هذا الصبى من شلته وستة صبية آخرون.. تقدم نحوه متشاغلا وأخذه على غرة وانهال عليه ضربا بالقبقاب حتى شج رأس الفتى الذى يكبره حجما فقام الفتى يبكى فلما أطل أصحابه صاح بهم.

- يا ولاد الكلب واحد واحد.. الكثرة تغلب الشجاعة.

حار أمر الصبية وتقدم له أكبرهم فضربه بسرعة وعنف فى خصيته فسقط هو الآخر وفى هذه المرة هاجموه جميعا فقام الفتية للدفاع عنه وفى آخر اليوم كان عبد المحسن فى الرواق أحد الفتيان اللذين يهاب أمرهم..

- ٢ -

شعر عبد المحسن بسيل المياه ينهمر عليه فقام منزعجا والبرودة تأكله . ركله أحد الفرسان وهو يصرخ به:

- ابتعد جانبا.

وحوله كان المراكبية يعملون بنشاط فى غسل ظهر المركب.. رفع عبد المحسن جسده وهو يرجو أحد النوتية أن يغسل أسفله حتى يريح جسده من الحشرات وأملاح العرق الذى تكلست على ظهره.

اقتربت المركب متهادية من مرسى مدينة قوص.. اصطف الحرس فى أزهى حللهم وهم يرمقون الجسر .. نظر عبد المحسن ناحية الجسر فشاهده مكتظا بالفرسان. وعندما ألقت المركب مراسيها اندفع عمر بك لاجين وخلفه ثلاثة من كبار عساكره ومن

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
خلفهم تقدم أحد المشايخ ببطء هابطا باتجاه المركب... تقدم كبير الجرسجية مقدما التحية للاجين بك الذى عاجله صارخا:

- أين مكاتبات عثمان بك طبل؟

- ها هى سيدى الأمير.

أخذها منه وراح يقرؤها على عجل لما انتهى صاح فى كتخداه:

- أعطه. مشيرا لكبير الجرسجية صك بالغلال التى سيحملونها من جرجا إلى منوف.. ففعل الكتخدا واستطرد لاجين:

- تنزلون بجرجا فتحملون الغلال كاملة غير منقوصة دون أن ينزل أحدكم البر فإذا علمت أن أحدكم فعل قطعت رقبته.... مفهوم باش جاويش؟.. أجاب كبير الجرسجية بإخلاص وحمية. مفهوم أفندم. نظر لاجين جانبا فوجد فتى مقيدا بالسلاسل فالتفت إليه. كان الشيخ عليش يقف على رأسه.

- ها .. هذا هو عكروت ... حرامى النذور وقاتل الأميرة شريفة؟

- نعم أفندم.

نظر عبد المحسن أمامه فوجد الشيخ عليش أستاذه بالأزهر يقف فوق رأسه وهو يهز رأسه فى شماتة .. همس عبد المحسن يحاول القيام فمنعته قيوده.

- مولانا الشيخ عليش.

- قلت لك وياما حذرتك يا عبد المحسن .. واستطرد بغل .. لكن ديل الكلب ما ينعدل لو علقوا فيه حجر.

- شيخ عليش ألم يبطل سيدنا عمر بن الخطاب فى عام الرمادة حد السرقة؟

- ومؤذن الجامع الذى قتلته؟

كان لاجين بك يقف بجوارهما ويستمع إلى حديثهما مما جعل الشيخ عليش يشتد على عبد المحسن.

- لم أفعل ألم يعترف لكم رضوان بأنه قاتله؟

- ولكن العجوز هتف لى باسمك.

t.me/qurssan

ـ لأنه ما شفش حد غيرى .. والتبعه على من اعترف.

ـ ها .. والأميرة المرحومة شريفة.. هل قتلها رضوان هى الأخرى؟

لا .. أنا اللى قتلتها .. رفع الشيخ عليش رأسه مندهشا.

ـ تنفى عنك تهمة قتل حتة راجل عجوز وتعترف بقتل الأميرة شريفة دا أنت فاجر.. قارح .. ملعون.

نظر عبد المحسن إليه مستاء وهو يغمغم لنفسه لن يفهم هذا الرجل شيئا .....قال:

ـ دا موضوع تانى يا مولانا .... حدجه عمر لاجين بنظرة باردة .. سأله:

ـ كيف يكون قتل الأميرة شريفة موضوع تانى.

قال عبد المحسن بعينين مهمومتين ترجوان أن تجد آذانا صاغية.

ـ يا بك دى ماكنتش إنس .. دى جن .. ساحرة غولة بتذبح الأطفال وتأكلهم ذبحت أولاد أختى وأكلت نخاعهم .. والله . والله . والله العظيم وأحلف على الختمة وأيمانات المسلمين كلها أنا شايف جماجم وعظام الأطفال اللى كانت بتأكلهم هى وماينجتها .. يا جماعة صدقونى أنا ماقتلتش الأميرة شريفة .. أنا قتلت غولة كبيرة.. دا أنا رحمت حسين أغا أنا رحمت الأشقر .. دى كانت مستنية الوقت وتأكله .. دى قتلت إيداكش جوزها ومراد ابن ضرتها وضرتها زليخة وسليمان البواب وحتى بنتها فاطمة غير بقى ميات من الأطفال اللى ذبحتهم تأوه: الشيخ عليش:

ـ شوف .. شوف.. شوف ابن المركوب بيفترى على حرمة الموتى.. اذكروا محاسن موتاكم يا شيخ يا عالم يا فقيه .. فالح بس كل ما زعجه تحصل من العامة والبهائم والحمير والعوام .. وقف الدرس يا شيخ عليش يالا يا طلبة نخرج لأهالينا .. واد يا عبدالمحسن أنت أخذت العالمية؟

هز عبد المحسن رأسه إيجابا.

ـ متستحقاش .. والله لأسحبها منك.. أشاح عبد المحسن رأسه بعيدا:

ـ عالمية ايه يا مولانا دا أنا أيام وأموت .. خلاص بقه بعد الذبح أيه يهم السلخ.

قال لاجين بك عائدا إلى البر: سارق نذور بيت الله .. قاتل النساء هذا .. باش حرس.

t.me/qurssan

جرى الرجل إليه.

- اعمل عروسات وانشر فلقات وأعط هذا اللص ثلاثين جلدات.

* * *

تصاعدت آهاته أولا وغشيت عينيه الدموع ثم ما لبث الصراخ أن دوى فى أرجاء النهر .. لمح الأهالى من على جسرى النيل العارضتين الخشبيتين المتقاطعتين والجسد الملقى فوقها والجلاد يضرب بالسياط.. مشهد ضئيل وصراخ يتردد صداه فى الأنحاء وغول الخوف يكشر عن أنيابه للجميع .. تلاشت الصرخات وسقط مغشيا عليه .. غسل له النوتى العجوز جروحه بالزيت والمراهم وهو يردد اليوم يوم جمعة وهذه الساعة نحس.

مضت ساعات فتح، عبد المحسن فيها عينيه، وهو يتأوه فى أنين خافت .. وعند الظهر نودى لصلاة الجمعة وتردد الأذان فى سماء الوادى... تعاقب النوتية يغسلون أطرافهم للصلاة متجهين نحو المشرق.. نظر إليهم عبد المحسن بتثاقل .. يرى وجوههم أمامه فتنتقل السكينة إليه منهم وهم يسجدون لله يسبحون ويلهجون بحمده فى تبتل وإيمان .. تمنى لو يقوم للصلاة بينهم .. يتحمم من النجاسة، ينظف جسده ينعشه بالوضوء بمياه النيل الباردة.. مرتديا أنظف ما عنده .. جلباب أبيض ناصع ثم يمم وجهه شطر ربه وقد خشعت جوارحه وامتلأ بالأمان وهو واقف بين يدى الله يعلم ما فى قلبه وما انطوت عليه نفسه .. رفع عينيه إلى الصلبية التى جلد عليها فتغضن وجهه وعاد إليهم غاضبا لا يدرى سر سكينتهم .. كيف يصنعون صلبية ثم يقفون فى خشوع بين يدى الله دونما مشقة أو إحساس بالذنب .. صعد الصداع حاملا ألم جسده كله إلى رأسه .. كيف يستطيع الإنسان أن يفعل الخير والشر معا.. كيف يتعاقب فعل الخير والشر على الإنسان ثم يقف بين يدى ربه بهدوء وسكينة ملوثا بظلمه وإثمه. يارب .. مسح بعينيه الفضاء يحاول أن يخترق الحجب والأستار عله يراه أو يرسل إليه علامة.. تأوه من الألم .. - ولكن هل كان نصبهم للعروسة فعل شر؟ بلى لأنهم كانوا يعلمون أنها لجلدى وأنا برىء لم يدينني قاض ... هتف به هاتف .. ولكنهم مأمورون وتردد صدى عبارة أنا عبد الوالى يا بك ... أو ليس هذا شرك؟ كيف يستقيم مثل هذا المنطق.. وكيف يشرك الناس بالله ... كانت الخواطر تترى عليه .. وأى والى يعبدونه ... فتح فاها من الرعب .. المماليك.. رقيق الأرض وعبيده المجلوبين من شتات الدنيا

t.me/qurssan

والمباعين فى سوق النخاسة .. أيجعلون من هؤلاء شريكا لك .. كيف تسنى لنا أن نحكم بمثل هذه الأجناس .. زم شفتيه غاضبا ولماذا يقبل بهم علماؤنا ومشايخنا .. لماذا يتلفحون بغطائهم .. يتعيشون من عطاياهم .. وكيف يصير الحُرُّ عبدا والعبد حُرًا .. استبداد بنى أمية وانحلال العباسيين أم لعنة وانتقام العبيد.

كان يقف أمامه الآن شبح عليش أستاذه بالأزهر يتحدث إليه يعنفه ويوبخه ووجهه يتقلص وعيناه تتقدان وفمه يتحدث دون صوت وخلفه كان عمر لاجين يكبر ويكبر ويستطيل شبحه: يتصاغر أمامه شبح الشيخ عليش يتلاشى وهو لا ينى يتوقف عن الإشارة لعبد المحسن بالوعيد والتهديد حتى تاه وانزوى فى الفضاء وعبدالمحسن يغفو فى نوم متقطع يعود به إلى الأيام الأولى وحلقات الدرس بالأزهر الشريف..

- ٣ -

جرى خالعا نعليه خارج رواق الجامع متأخرا عن الدرس يتخبط وسط الجالسين فى مجموعات متفرقة حول معلميها. حتى رأى رفاقه المرسى والمصيلحى ومحمد المواردى يجلسون مع بقية الطلاب فى حلقة الشيخ عليش... جلس خلفهم يستمع إليه ويصطنت.

... أما بعد فقد سئل شيخ الإسلام علم الأعلام ناصر السنة وقامع البدعة أحمد ابن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله عن القضاء والقدر فقال (إن كثيرا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فإنى انفتحت فيه روزنه فنازعت أقدار الحق بالحق والرجل من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا له..

قال بعض السلف هو الرجل تصيبه مصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، قال تعالى ﴿ما أصاب مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم﴾ (سورة الحديد ٢٢ و٢٣). وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال «احتج آدم وموسى فقال موسى أنت آدم الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شىء. لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال آدم أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه فهل وجدت هذا مكتوبا على قبل أن تخلق؟ قال: نعم. قال فاحتج آدم بموسى».

t.me/qurssan

وآدم عليه السلام لم يحتج على موسى بالقدر ظنا أن المذنب يحتج بالقدر وأن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل ولو كان هذا عذرا لكان عذرا لإبليس وقوم نوح وقوم هود وكل كافر ولا موسى لام آدم أيضا لأجل الذنب فإن آدم قد تاب إلى ربه فاجتباه وهدى ولكن لامه لأجل المصيبة التى لحقتهم بالخطيئة ولهذا قال.. فلماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فأجاب آدم أن هذا كان مكتوبا على قبل أن أخلق.

وقد يقولون من شهد الإرادة سقط عنه التكليف. وهؤلاء يفرقون بين الخاصة والعامة الذين شهدوا الحقيقة الكونية فشهدوا أن الله خالق أفعال العباد وأنه مريد ومدبر لجميع الكائنات وقد يفرقون بين من يعلم هذا علما وبين من يراه شهودا فلا يسقطون التكليف عمن يؤمن بذلك ويعلمه فقط ولكن يسقطونه عمن يشهد فلا يرى لنفسه فعلا أصلا. وهؤلاء لا يجعلون الجبر وإثبات القدر مانعا من التكليف على هذا الوجه.

وقد وقع فى هذا طوائف من المنتسبين إلى التحقيق والمعرفة والإسلام وسبب ذلك أنه ضاق نطاقهم عن أن العبد لا يؤمر بما يقدر عليه خلافه كما ضاق نطاق المعتزلة. ثم المعتزلة أثبتت الأمر والنهى الشرعيين دون القضاء والقدر الذين هما إرادة الله وخلقه الأفعال العباد وهؤلاء أثبتوا القضاء والقدر ونفوا الأمر والنهى فى حق من شهد القدر إذ لم يمكنهم نفى ذلك مطلقا وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة وكفر صريح.

وأما المتقدمين من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالات معروفة فيهم وهذه المقالات هى محاداة الله ورسوله ومعاداة له وصد عن سبيله ومشاقة وتكذيب لرسله وكما قال الزهرى: كان من مضى من سلفنا يقولون«الاعتصام بالسنة نجاة وذلك أن السنة كما قال مالك رحمه الله: مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف غرق وأما أهل الكفر والبدع والشهوات فكل بحسبه».

- ٤ -

تمدد عبد المحسن مستلقيا على ظهره يتابع النجوم ... يتذكر المرة الأولى التى عرف فيها المنطقى عن قرب.

كان المصيلحى يلقى فى أذنه هو والمرسى بأشعار الغزل فى حضرة الشيخ عليش... لم يستطع أن يمنع نفسه عن الضحك. ارتفع صوته فى صرخة بترها على الفور. مما

t.me/qurssan

أغاظ الشيخ عليش نظر فى اتجاه الصوت ونادى أطول الجالسين وكان محمد سليمان.

ـ من الملعون الذى ضحك؟

ـ لا أعرف والله يا مولانا.

ـ لا تعرف .. فوالله عقابك بدلا من عقابه.

ـ والله لا أعرف.

ـ والله لتضربن بالفلقة والفرقلة . تعال هنا.

انتظر عبد المحسن قليلا وقبل أن يقول أنا سبقه كل من المصيلحى والمرسى يعترفون بصنعهم. وكان سليمان قريبا منهم بحيث إنه لابد وأن رآهم... ولم يكف الشيخ عليش سوى عقابهم جميعا .. وعندما انتهى الدرس كان الأربعة يسيرون بعرج أقدامهم يتبادلون الضحكات والنكات.

قال المصيلحى غاضبًا: هذا الشيخ لا يكتفى .. طيب مد سليمان كان كفاية عليه!! أو يترك محمد سليمان!!.. ويكتفى بنا !!

قال سليمان ضاحكا: طبعا نحن المشايخ لا نكتفى .. قيل زلق قاض فى بركة فتدافع الناس لانتشاله قائلين.. هات يدك .. هات يدك.. هات يدك.. وهو لا يفعل. فصاح بهم جحا لا تقولوا له هات لأنه لم يتعود سماعها وتقدم منه مادا يده وقال .. خذ .. خذ يا مولانا يدى فمد القاضى يده وأمسك بها ونجا .. ضحك الأربعة وقبل أن يتوقفوا استكمل عبد المحسن الحديث.. جاء شخص للقاضى وقال له إن الكلب احتك بحائط فكيف نطهره؟ .. قال القاضى .. تهده وتبنيه سبع مرات .. فقال الرجل فهى الحائط التى بينى وبينك ... فقال القاضى .. أما هذه الحائط فقليل الماء يطهرها ضحك الأربعة وهم على باب الجامع .. قال المرسى: اليوم .. لن نصعد الرواق.

استحسن الجميع الفكرة قال المصيلحى: طب وشايف ايه؟

قال عبد المحسن .. ننزل نروح الحسينية أو بوابة المتولى وصفق محدثا نفسه . اليوم لن نصعد الرواق .. فليكن لهو وصفاء..

قاطعة المرسى ـ والنبى سيب الشعر. كفاية علينا واحد .

تحدث سليمان ـ يا جماعة الخير عندى رأى ثانٍ. صاح الجميع: قول .

t.me/qurssan

قال غامزا: نروح بولاق .. نسهر على النيل هاج الجميع بالموافقة. . فقال: كل واحد يورينا باراته. أخرج المرسى مائة بارة والمصيلحى دينارًا وتراجع عبد المحسن خطوة إلى الخلف رافعا يده ... أنا مفلس يا أخوتى واستطرد بصوت كسيف أنا طالع الرواق... فمنعه الجميع من التحرك. إما بك أو لا .. فرفض عبد المحسن غاضبا .. قال سليمان معى دينار ونصف، لك النصف دين عليك ولى النصف وللسهرة نصف دينار ... قال عبد المحسن رافضا: يمكن مقدرش أردهولك ... فضربه سليمان على كتفه.. سوف ترده وإن لم تفعل سأذهب بك إلى القاضى ... هيا بنا .. اندفعوا يعاكسون المارة ويتبادلون معهم القفشات والنكات متجهين إلى بولاق..

... ومنذ ذلك اليوم ربطت بين الأربعة صداقة وطيدة .. كان المصيلحى ابنا لفلاح من طملاى... أما المرسى فكان يعيش فى شما مع أمه وأخوته بعد أن اختفى أبوه هربا من المماليك وطاعون ١٧٧٦.. وكان محمد سليمان الدفراوى أكثرهم يسرا. هاجر أبوه وخاله من جرجا إلى الإسكندرية وعملا بالتجارة والسفر فكان خاله يحضر له شتى صنوف الكتب من كل البلاد لمعرفته بولع ابن أخته بالقراءة.

* * *

من على ظهر المركب المبحرة فى الظلام صرخ عبد المحسن ينادى صديقه.

ـ مازلت مدينا لك يا منطقى.

ـ أطل شبح الشيخ محمد سليمان عبر بوابة الزمان...

قال الشيخ: ـ أيغل عنقك نبر نصف دينار.

ـ بلى.

ابتسم الشيخ: ـ إنما أحمل أنا نير جميلك.

ـ كيف والمرء يشعر بالعجز فى حضورك.

ـ لا تنسى أنك واريت جثتى التراب فحفظت حرمة الموتى .. هذا يكفينى وأنت حر الآن.

ـ ليس الأمر على هذا النحو .. أتذكر يوم عقدنا العزم ونحن نمرح فى حدائق بركة الفيل على أن تمزح أنت مع الشيخ المنيلاوى بالدرس.. هز عبد المحسن رأسه وانعقدت ملامحه.. أنت لا تدرك ماذا فعلت بى.

t.me/qurssan

.. أنت لا تدرك ماذا فعلت بى.. نظر الشيخ إلى أسفل مستطلعا وقام إليه عبد المحسن جالسا القرفصاء فصرت سلاسله.. رفع يده إلى شبحه ترتعد فرائصه والخوف يملأ وجهه.. همس بصوت عجوز.

- ... الثالث المرفوع .. الثالث المرفوع.. لقد وجدته رأيته رؤى العين.. تحدثت معه.

- ٥ -

وقف الشيخ الدرديرى يؤم المصلين لصلاة الظهر مشايخ وعشرات الطلاب والأهالى. فلما ختم الصلاة بقى بعض المسلمين لصلاة السنة على حين تناثر الطلاب فى حلقات الدرس بجنبات الجامع.

تدافع الأربعة يشقون حلقة الدرس للصفوف الأولى وأثار هذا عراكا خافتا انتهى باعتلاء الشيخ المنيلاوى دكة الدرس.. فبسمل وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وقال:

- اليوم ندرس علم المنطق والذى صنف فى المرتبة الثانية من تقسيم العلوم وهو ثانى العلوم البرهانية بعد علوم الرياضة والمنطقى ينظر فى طريق الحد والرسم فى الأشياء التى تدرك بالتصوير وينظر فى طريق القياس والبرهان فى العلوم التى تنال بالتصديق. ويدور المنطق على هذه القاعدة يبتدأ بالمفردات ثم بالمركبات ثم بالقضايا ثم بالقياس ثم مطلب البرهان وهو نهاية علم المنطق.

وعلم المنطق هو الذى يبحث فى صحيح الفكر وفاسده ويضع القوانين التى تعصم الذهن من الوقوع فى الخطأ فى الأحكام فموضوعه الفكر الإنسانى من ناحية صحته وفساده. ويتم ذلك بالبحث فى القوانين العقلية التى يتبعها الإنسان فى تفكيره. فما كان موافقا لهذه القوانين كان صحيحا وما كان مخالفا لها كان فاسدا...

ويذهب الساوى إلى أن المنطق قانونٍ صناعى عاصم للذهن من الذل مميز لصواب الرأى عن الخطأ..

ويقول ابن سينا (والعلم الذى يطلب ليكون آلة - أى صناعة أو فن من الفنون - قد جرت العادة فى هذه البلدان أن يسمى علم المنطق .... وسماه حجة الإسلام الإمام الغزالى إنه (القانون الذى يميز صحيح الحد عن غيره فيتميز العلم اليقينى عما ليس يقينيا، كأنه الميزان أو المعيار للعلوم كلها».

t.me/qurssan

وقد سمى منطقا بإرجاعه إلى الاشتقاق اللغوى فدلوا بالمنطق على الكلام أو النطق.

ولقد هاجم الفقهاء والمتكلمون المنطق الأرسطى؛ لأنه يستند فى أبحاثه فى الوجود والخلق والنظر إلى الموجودات ونواحى الألوهية وقضاياها ومعنى العقل والنفس والوحدانية على ما يخالف الشريعة الإسلامية.. ولهذا كان المنطق تجريبيًّا استقرائيًا عند الفقهاء والمتكلمين.

ولسوف نبدأ بدراسة المفرد والمركب والكلى والجزئى واسم الذات والمعنى.

تنحنح محمد سليمان مقاطعا.

ـ وهل سندرس هذا قبل أن تشرحوا فضيلتكم قوانين الفكر الأساسية.

ـ حدق فيه المنيلاوى غاضبا ـ وايه بقى هيه يا فاسق قوانين الفكر ... انتشرت ضحكة خافتة وسط الطلاب.

ـ أعنى قانون ثبات الهوية.

ـ وما هو بقى يا منافق قانون ثبات الهوية؟

... ضحك الطلاب أكثر.

ـ أقصد يا مولانا قانون الهو . هو ... اهتاج الطلاب ضحكا وانتشرت الغمغمات.

صاح الشيخ المنيلاوى غاضبا: ـ طب متقول من الأول قانون الهو هو يا ابن المركوب .. ثم ايش عرفك يا فالح ... العالم العلامة والحبر الفهامه..

ـ جاء ذكره فى كتاب قرأته.

قالها محمد سليمان وهو يكتم ضحكه.

أدار الشيخ المنيلاوى رأسه ـ طيب اقعد يا سوفسطائى. ليس المهم ما تقرؤه فى داركم وإنما المهم أن تجاز هنا .. واستدار إلى الطلاب .. وأما قانون الهو. هو . أو قانون الهوية كما عرفه المسملون وهو أحد قوانين ثلاثة لازمة فى أصول المنطق.

وأما القانون الأول فهو قانون الهوية ويعبر عنه بأن أ هى أ . أو أن كل ما هو . هو . أو أن كل ما هو . هو ذات ما هو ... فحقيقة الشىء لا تتبدل ولا تتغير وتصور الهوية يتضمن تصور الاختلاف. فنحن عندما نقول أن أ هى أ إنما نعنى فى نفس الوقت أن

t.me/qurssan

(أ) لا يمكن أن تكون (أ) ولا (أ) وذلك أن هذا السليمان هو سليمان ولا يمكن أن يكون غير سليمان فالشيء يحتفظ بذاتيته رغم اختلاف التغيرات عليه. فسليمان ينافق يتمنطق يأكل يجوع تكسر له رقبته... ضحك الطلاب... بفضل تمنطقه ومع ذلك يظل سليمان وهذا يعنى أن ما هو حقيقى هو حقيقى دائما وأن ما هو كاذب هو كاذب دائما وليس هناك أية ظروف تجعل ما هو حقيقى بكاذب.

وأما القانون الثانى هو قانون عدم التناقض فحين نقول إن سليمان هو سليمان فإننا ننفى عنه فى نفس الوقت أن يكون سليمان هو ليس سليمان فى نفس الوقت. وقيل فى نفس المعنى من الممتنع حمل صفة وعدم حملها على موضوع واحد فى نفس الوقت ونفس المعنى. فهذا القانون يقول إن الحقيقة لا تتناقض وقيل أيضا أنه إذا أثبتنا لشيء صفة صادقة فإننا إذا أثبتنا نقيضها إلى نفس الشيء فى نفس الوقت فإننا نقع فى التناقض. تنحنح محمد سليمان فنظر إليه المنيلاوى مكشرًا عن أنيابه. قال سائلا شيخه.

ـ فهل يصح أن يكون الله عادلا وظالما فى نفس الوقت.

أجاب المنيلاوى ـ لله القدرة على كل شيء.

أجاب سليمان.

ـ وإنما الله خير كله عدل كله. لا يأتى ظلما قط وإنما أفعال العباد ترجع للعباد.

فلما انتهى غمغم المنيلاوى . ـ لهذا قيل من تمنطق كفر ـ ورفع إصبعه فى وجهه متوعدا ـ اصمت ولا تسألنى ثانية.... انتشرت ضحكة خافتة بين الطلاب .. فنظر إليهم شذرا لا يحاول استثارتهم قال:

ـ فأما القانون الثالث فهو قانون الثالث المرفوع. قيل فى تفسيره بأن (أ) ما أن تكون (أ) أو لا تكون (أ).

ولا وسط بين ذلك فهو ينفى نفيا قاطعا وجود وسط بين الإثبات والنفى. فالحكم إما أن يكون صادقا وإما أن يكون كاذبا ولا يمكن أن يكون هناك شيء وراء ذلك. وقيل فى هذا المعنى «لا وسط بين نقيضين».

وقال علماء المسلمين فى نفس المعنى «إن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان معا»..

t.me/qurssan

وقيل أيضا إن النقيضين لا يمكن أن يكونا كاذبين معا. بل يلزم أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا. كما لا يكونا صادقين معا بنفس المعنى. فهذا القانون يجعلنا لانقبل الحكم على قضية إلا فى حدود وقيمة لصدق أو قيمة الكذب.. فالنفس لا تستطيع أن تثبت قصتين متناقتين. فالحكم المتناقض. هو بمثابة عدم النفس والهو مقبول فى الأشياء وإلا ما كانت موجودة على الحقيقة.

فالثالث المرفوع هو الصورة النهائية للقوانين الثلاثة التى هى أساس المنطق لا تتطلب البرهنة عليها فهى نظرية بديهية وبدونها لا يتقدم العقل الإنسانى خطوة فى البرهنة والاستدلال.

* * *

نظر عبد المحسن إلى شبحه وهو يحدق به النظر .. الثالث المرفوع لقد وجدته. رأيته رؤى العين تحدثت معه.. الثالث المرفوع .. النقيضان الكاذبان اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان معا .. المسلم الوثنى. الوسط بين الإثبات والنفى والحكم الكاذب معا.. الحر العبد الهوية التى هى وليست هى .. عديم النفس .. خصمى وعدوى حسين آغا الأشقر وأشباهه المماليك.

هز الشيخ رأسه متفهما وضلفتى بوابة الزمان تصفقان عليه بشدة يهتز المكان يعقبها صوت الرتاج وصرير السلاسل الصدئة تفتح برأسه وصوت الشيخ عليش يتردد صداه بلا نهاية.. قفل باب الاجتهاد... قفل باب الاجتهاد... قفل باب الاجتهاد.

ويجيب صوت خافت .. فوئد عقل الأمه. فالآن تحكمها المتناقضات .. عديمى الأنفس.. موتى الأحياء. ويعبث بها الثالث المرفوع.

- ٦ -

لم يكن يشاهد محمد أبو الفضل إلا لماما .. رآه فى أحد الأيام على باب الرواق حاملا صرة هدومه وقفة طعامه إذ أن السنهورى لم يكن يسمح له بالبقاء فى القصر عند سفره إلى خارج الديار.. كان الطلبة الثمانية عشر جالسين القرفصاء عندما ألقى محمد أبو الفضل التحية.. لم يجبه أحد سوى عبد المحسن الذى ردها باقتضاب.. ألقى محمد أبو الفضل بأغراضه وحتى لا يصاب بالحرج قام عبد المحسن راحلا .. فأخذ أبو الفضل يفسح لنفسه وسط الأحذية مكانا ضيقا يسعه عند النوم... وفى آخر

t.me/qurssan

الليل وبعد عذاب شديد وجهد جهيد من الهرش وكتم الرغبة خلع أبو الفضل ملابسه وأخذ ينظفها من البق والبراغيث وجيوش القمل التى امتلأ بها جسده وملابسه.. ومن آخر القاعة لكز أحدهم رفيقه وانتقلت اللكزة خلف الأخرى تصحبها ضحكة خافتة .. وأمامه انتصب الطلبة يسندون ظهورهم إلى الحائط وهم يحدقون فيه بسخرية.

همس محمد سليمان بحقد.

- هو برضه مش فلاح زينا.

- إحنا فلاحين ولاد كلب.. أما عشيق الشركسية لازم يكون نضيف ومغسول.

- زى التفاحة.

ضحك الجميع وتناقلوا العبث والنكات ..

- تفاحة.

- محمد تفاحة.

وقف المرسى قافزا وهو يصرخ.

- أحبك يا تفاحة. وتابعه آخر مقتربا منه.

- أموت فيك يا تفاحة .. محمد تفاحة. أما الثالث فقد وقف فى منتصف القاعة فاتحا ذراعيه عن آخرها.

وبى عند تفاحة سر خفى

به أرق السهاد وأوهن

واستطرد ضاما يديه...

أموت ويحيا فى الفؤاد عشقها

أيا تفاحة لا تقلبى بى ظهر المجن

صرخ الجميع واهتزت الجدران من الهتاف.. نظر محمد أبو الفضل إليهم بانكسار .. جرى مرسى وسط انشغال الصبية بالهرج إلى قفة أبو الفضل أخرج منها منديلا بأويه وعصب به رأسه وقام يراقص المصيلحى.. ازداد جنون الفتية .. التفت عبد

t.me/qurssan

المحسن لمحمد أبو الفضل فرأى الانزعاج الشديد الذى يرتسم على وجهه وهو ينظر إلى المنديل على رأس مرسى قام وهو يكاد يبكى وعلى وجهه رجاء بالغ بطلب المنديل... صرخ المرسى..

- يا مره يا ابن المره.

- ليس لى .... ضحك الجميع.

- لا دا بتاعك .. كان يمد يده يحاول أخذه.. دفعه المرسى وهو يصرخ والرذاذ يتصاعد من فمه.

- بتاع الشركسية.

- أبدا والله العظيم.

- أمال بتاع مين.

- مش حاقول .. كاد أن يبكى .. تغضن وجه عبد المحسن غضبا.. كان يخمن لمن المنديل قام إلى المرسى أمسك برسغه.. جذبه بشدة.

- هات المنديل.. قاوم المرسى لفترة تراجع أمام الشرر الذى تصاعد من عينى عبد المحسن .. جذبه من فوق رأسه ودفعه فى صدر أبى الفضل دون أن ينبس بكلمة...

- ٧ -

كانت الشمس تميل للغروب عندما فوجئت بدرية بالشيخ محمد يعترض طريقها من دغل صغيرة وهى عائدة من بحر الفرعونية جرتها المملوءة بالمياه العذبة.. فزعت وتراجعت للخلف حائرة لكنه لم يزد عن أن يقرئها السلام وهو خافض الرأس مستمرا فى سيره وهو يهرول خجلا .. وفى الأيام التالية زاد اعتراضه لها وزادت التحايا المتبادلة تشجعه ابتسامة واسعة تكمن فى جنباتها اللهفة والألفة..

وكثر الهمس بين الفتيات ولم تأبه بدرية لسخرية زميلاتها بل سعدت وهى تهز كتفيها باستهتار وتعمدت أن تخرج لملء الجرار متأخرة عنهن وعندما ظهر لها أقبلت عليه وكان قد أصابه اليأس لعدم إقبالها.. لما حاذته حياها والعرق يغمره.. سارت على مهل تنتظر منه أن يتبعها لكنه توقف وجمد كالحجر أخذت تنظر إلى الوراء مبتسمة تشجعه أن يتبعها .. وعندما عبرت الطريق الطويلة.. لم تجد أحدًا خلفها فضربت

t.me/qurssan

الأرض كهرة غاضبة وتابعت سيرها حتى ضفة البحر الفرعونى وشعور حاد بخيبة الأمل يملؤها. هبطت إلى قاع البحر ... كان الوقت وقت التحاريق.. غسلت جرتها وملأتها بالماء ثم أخذت تحك بشرة قدميها حتى احمرتا .. التفتت حولها تبحث عن أحد يساعدها على حمل جرتها فم تجد أحدا.. جلست القرفصاء تدمدم غاضبة ثم خطفتها بقوة بكلتا يديها من فوق الأرض فغمرتها المياه وابتلت ملابسها .. لمحت رأسه يطل خلسة من وراء الجسر فابتسمت بانتصار..

فى طريق عودتها خرج إليها .. همس .. بدرية ... رددت فى وهن وداخلها يغلى سخرية.

- جاريتك ياسى محمد ... فارتجف قلبه.

- تعالى .. تعالى أنا عايزك... أشار إلى أكمه بجوار الطريق.

- لأ .. لأ ياسى محمد الناس تشوفنا.

قال باضطراب:

- محدش شايفنا.

- لأ .. لأ .. وقالت بصوت ممطوط .. ربنا شايفنا أنا ماشية ... سارت متعجلة فجرى خلفها.

- طيب .. طيب .. اسمعى أنا جايبلك هدية من مصر.

صرخت فرحة:

- آنا تسلم ايديك.

- شوفى .. وأخرج وشاحًا مطرزًا من قماش رخيص كان ينوى أن يعطيه لأمه لكنه عدل عن ذلك.

فتحت عيناها والفرحة تملؤها ... خدى..

- لا .. لا أمى تضربنى.

- لا تخبريها ... خطفته وهى تردد:

- ربنا يخليك لنا ياسى محمد ... شجعه أخذها للوشاح فأمسك بمعصمها:

t.me/qurssan

ـ تعالى يا بدرية عايز اقولك حاجة.

ـ لأ .. لأ ـ والنبى علشان خاطر ربنا ... قول أنا سمعاك اهه.

ـ أصلها كلمة سر ... ضحكت بخبث:

ـ هو فيه حد سامعنا؟ .....قال بصدق:

ـ هو أنت خايفه منى؟ ... أجابت مستسلمة وهى تتبعه:

ـ بس أمى حتستعوقنى . عايزه أمشى بسرعة .. أسندت جذعها إلى الشجرة دون أن تنزل جرتها ... دار حولها حائرا لا يدرى ماذا يقول... قال بضعف:

ـ أنا حاقولك كلمتين وبدى تجاوبى كلامى ... تنهدت.

.... حاد ببصره عنها وتنهد قائلا وقد جاشت عاطفته:

البدر مملوك جمالك والدجى لأ لأ

ونور جبينك فى أستار الظلام لأ لأ.

كلى متيم تعالى فى هواك لأ لأ

شرفت حسنك وملك الحسن لك وحدك

أنعم بقوله نعم واترك بقى لأ لأ

ثم صمت وهو ينظر بضعف العاشق وبقيت هى واقفة وقد شعرت بصدمة. نظرت أمامها .. كانت هناك رأس تطل عليهما .. لامت نفسها وهى تقول هاربة:

ـ طيب ياسى محمد العوافى عليك.

عندما أصبحت فى الطريق نظرت إلى الخلف كان حامد يوبخه أخوه الأكبر ويعنفه وهو يشوح ساخطا.

دخلت على أمها تضحك ... فاستقبلتها عابسة:

ـ بتضحكى ليه يا بلوه؟

أجابت ضاحكة وهى تنزل الجرة ثم هزت كتفيها وهى تشوح يديها فى الفضاء ومقلدة محمد أبو الفضل:

t.me/qurssan

ـ لأ .. لأ ..

ـ تتضربنى فى قلبك.

ـ يوه هو أنت بتقرى الغيب يا أمه؟

ـ غيب أيه يا مايعه.

ـ أصلى انضربت فى قلبى بحق.. آه وسقطت على ظهرها .. أمسكتها أمها من رسغها وهى تضحك:

ـ قولى يا بت ايه اللى جرالك.

ـ الشيخ محمد .... وضحكت ثانية.

ـ محمد مين .. يا مفعوصه.

ـ محمد ابن الشيخ عبد الرحمن أبو الفضل... فتغير وجهها على الفور وهتفت.

ـ أوعى تكون زعلتيه .. قالت بصوت ممطوط:

ـ آنا أقدر.

ـ آمال إيه؟

ـ أحكيلك.

* * *

عندما آذن العصر افترشت صديقة باب الدار الخلفى وجلست تتحين مرور الشيخ محمد أبو الفضل.. عندما لمحته اتسعت ابتسامتها وقامت وهى تصر على دخوله الدار .. كان يرتدى ملابس الشيخ السنهورى القديمة بعد أن أعاد حياكتها على مقاسة فجأت واسعة .. نادته صديقة:

ـ اتفضل يا سى محمد .. لازم تتفضل.

ـ حاضر يا خاله .. السلام عليكم.

ـ حضر لك الخير يا خويه .. يا سلام على فمك اللى بينقط شهد ... روح ربنا يحبب فيك خلقه ولا يوريك مكروه ويرزقك ببنت الحلال اللى تسعد قلبك يا محمد يا ابن بهانة... تعالى يا خوى ... فدخل وهى تشكره على الوشاح الذى أهداه لبدرية:

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

- أمال أيه دى أختك ومن لحمك ودمك.

عجب لمبالغتها واطمأن قلبه بعد خوف .. ولما قام ليرحل حلفته أن يعود.. وعاد وبدرية تقضى معه الساعات الطوال تجالسه وتقوم على خدمته ... وأسرت صديقة لابنتها بأن تقص قطعة من قميصه أو منديله حتى تأخذ (أثر) وتعطيه لأحد المشايخ كى يصنع له عملا لا فكاك له منه إلا بعقد قرانه على ابنتها. فلما نجحت بدريه رحلت صديقة فى الصباح الباكر إلى طنطا وعادت ومعها عملا كتبه أحد المشايخ فى السيد البدوى الذى قال لها وهو يعد البارات العشر التى أعطتها له أن فعله أكيد وأنه كتب به محمد بن عبد الرحمن أبو الفضل ابن بهانة هو لبدرية بنت صديقة بنت المنصور قالت له:

- لا تذكر اسم الأب.. فنظر لها شذرًا.. لماذا؟ فسكتت. فقال لها:

- هذا يتطلب عشرة بارات أخرى.. فأجابته:

- ليس لدى سوى خمسة... فهز رأسه مستسلمًا فى غضب.. خمسة.. خمسة.. وأعاد كتابة العمل محمد بن بهانة لبدرية بنت صديقة وقال وهو يعد الخمسة قروش إن مفعوله أكيد.

ولما عادت فذهبت من فورها إلى دار الشيخ عبد الرحمن أبو الفضل ودست العمل فى غفلة أهل الدار تحت عتبة الباب ولما جالست أمه قالت عرضًا:

- الفاضل ابن الفاضل الشيخ محمد جاب هدية لبدرية وإذا كان عايز يتجوزها وهى التى أحسن الشيخ السنهورى تربيتها وتعليمها مكارم الأخلاق يروح يكلم أبونا الشيخ السنهورى. ثم قامت وقد تركت بهانة خلفها فى ثورة من الغضب. كيف تجرؤ بنت الأكتع أن تكون للشيخ محمدالمجاور فى الأزهر فلما دخل عليها زوجها راكبًا حماره لم تتركه يتناول عشاءه دون أن تحكى له.. وقام هو الآخر ثائرًا من الغضب يشتكى لمخدومه الشيخ السنهورى وهو واثق أنه سيثور هو الآخر لحماية تلميذه وليس بعيدًا أن يعد بضرب بدرية وأمها المتعوسة بالفلكة.. لكن السنهورى قابل حديثه ضاحكًا:

- لأ لأ يا شيخ عبد الرحمن بدرية دى بنتى وأنا اللى حا أختار جوزها وقال يزيد طمع الشيخ ناظر أملاكه:

t.me/qurssan

ـ سوف أجعل لها مهرًا لم يوجد مثله فى منوف.. هذه الطفلة المسكينة حرمت نعمة الأب ولهذا تبنيتها ومن لا خير له فى ولده لا خير فيه.. صاح الشيخ عبد الرحمن منفعلاً:

ـ هى دى العروس اللقطة.. أجوزها للواد حامد.

ضحك الشيخ ضحكة طويلة وما يفيدها.. حامد.. فلاح كيف أساعده.. كيف أقدم له يد المساعدة كى أساعد ابنتى.. أنزل أسوق له الساقية واللا أزامله فى الطنبور. لا.. لا.. لازم يكون عالم أزهرى أعطيه جامعًا يعطى فيه دروسًا أو مشهدًا ينظره.. وأطلب له راتبًا من الأستانة وأجعله مؤتمنًا على ضريح لولى فيكون شيخ المولد وصندوق النذور.. أو أجعله شيخًا لرواق المنافية فيكون له أتباع وأعوان يصنعون له نفوذًا وسلطان مطاع.

كان العجوز يجهد نفسه ليفهم شيئًا مما يقال إلا أنه فضل أن يمسك العصا من الوسط:

ـ يا مولانا حامد ومحمد ولادك الأثنين وتلامذتك. فى حضورك أنا مالى كلمة. أيوه الكلمة كلمتك واستطرد متعجلاً أن يكون صريحًا... وفيها ايه لما نقرأ الفاتحة؟

ـ متستعجلش يا عبد الرحمن.. متستعجلش.. دى لسه صغيرة.

خطر للعجوز خاطر ألجمه.. ماذا لو أن الشيخ يريدها لنفسه ـ صغيرة وجميلة وهى على الفراش البارد بهجة ترد للشيخ شبابه وتعيد للميت حياته:

ـ هى يعنى عمرها كام؟

فكر الشيخ. لم يكن يدرى ما عمرها بالضبط. ردد لنفسه: ولدت فى عام ١٧٧٨ فى حكم إبراهيم بك ومراد بك بعد هرب إسماعيل بك. ونحن فى أوائل عام ١٧٩١ فى حكم إسماعيل بك وحسن بك الجداوى وبعدها هرب إبراهيم بك ومراد بك... صاح:

ـ عمرها ثلاثة عشر عامًا.. لسه صغيرة.

قال العجوز مترددًا:

ـ وماله با أقول ايه يا مولانا.. أمانة عليك تقدر جهلى. عقل الواحد مايفترقش عن عقل الحمار فى حاجة.. هئ.. هئ..

t.me/qurssan

ـ ليه يا عبد الرحمن؟

ـ بقول يعنى يمكن الواحد اندفع زى الغشيم فى شىء ماكنش الواجب يتكلم فيه.

ـ ليه هو الجواز حرام. دا أصل الدين.

ـ أنا أصلى خطر فى عقلى قلت لنفسى يا واد يا عبد الرحمن يا حمار يا ابن الحمار يا جاموسة يا ابن الجاموسة مش يمكن مولانا الشيخ له غرض منها؟

قال السنهورى بعجب.. ـ أنى.

ـ وليه لأ..؟

ـ قول كلام عاقل.. دى بنت صغيرة.

صاح العجوز غامزًا!

ـ صغيرة ايه يا سيدنا دانتم الخير والبركة وأنتم اللى كرمكم ربنا سبحانه وتعالى وأنتم اللى مولانا السلطان العثمانى اللى عمره ما تكلم عربى ذكر اسمكم أنتم خصيصًا وقال شيخ سنهورى رجل عظيم وعالم كشف أمامه عن سر الأسرار وستار المحجبات وألحق ذاته بالذات العلية.. طيب هى بنت منصور الأكتع تطول تغسل رجليكم الطاهرة برموشها.

صرخ السنهورى مندفعًا ـ جرى إيه يا مجنون يا ابن المجنون حد يتجوز بنته...

ـ الله فيها ايه يا مولانا.. دا كرم أخلاقك وعلو نسبك وسمو دينك.

تراجع وهو يعض شفتيه..

ـ دى زى بنتى يا أخى.

ـ خلاص ما دامت زى بنتك تبقي زوجتك وإن كان يعنى ملهاش نسب ولا حسب وأبوها مش قد كده خليها جاريتك مش لازم جواز.. دى عودها زى الخيزران وحتة بلطية. قرموط.. يلعلع فى المناهدة والملاعبة. صرخ به السنهورى: جرى ايه يا عبد الرحمن جاى تاخد بدرية لمحمد ولا ليك.. قوم.. قوم الله يلعنك.. قام متراجعًا يهز جسده الضخم.

ـ أبدًا والله.. أنا قلت مصلحتك فوق كل مصلحة.

t.me/qurssan

ـ اسمع.. صرخ الشيخ السنهورى به فعاد أبو الفضل يجرى.

ـ أيوه يامولانا..

ـ بكره إسماعيل بك وعابدى باشا حايبيعوا مصر فى المزاد، حضرت نفسك للسفر؟

ـ أيوه ما مولانا بالباره.

ـ خد بالك.. إسماعيل بك مش ح يجيبها لبر فى مزاد السنة دى.. باين عليه ح يرفع سعر أراضى الالتزام ويقلل أراضى الرزقه..

ـ إنشاء الله حيكون خير يا مولانا هو حد يقدر يقرب ناحية عظمتكم.

ـ والله ما حد عارف يا أبو الفضل.. روح من قدامى بقى لحسن أنت عكرت مزاجى.

فتح الرجل ذراعيه محاولاً أن يشرح لكن السنهورى العكر المزاج صرخ به.

ـ قلت لك روح بقه.. روح غور عن وشى.. الله. فخرج الرجل جريًا يهز جسده الضخم.

وعلى باب داره استقبلته بهانة ووجهها يلمع بالبشر.

ـ هيه ضربها.. ـ ضرب من يا مره وصرخ ـ واد يا محمد.. واد يا ابن الكلب.. تعال.. عيال ماتجيب لأهليها إلا المصايب.. جاءه محمد على عجل.

ـ تتجوز بدرية يا ولد.. صرخت الأم ـ لا.. لم يستمع إليها.. قالت ـ أنى مخدش بنت الأكتع لمحمد ابنى.

ـ إنتى مين يا مره.. رد يا اخرس يا ابن المفحور.. تتجوز بدرية.. واستدار لامرأته: بدرية اللى خد طرحة أمه علشان خاطرها.. طالب الوداد يا مفعوص.. واحنا نطول.. اسمع يا فقى يا ابن الفقى الشيخ الستهورى ح يتولاها ويتولاك.. ويخلى منك بنى آدم.. نتكل على الله.

ـ اللى تشوفه يابا.. نظر حامد إليهم جميعًا بفزع.. رد الأب.

ـ اللى تشوفه يابا.. يا سلام على الطوع ياولاد.. روح من قدامى جمل يرفصك.

* * *

t.me/qurssan

عندما دخلت بدرية بطعام الغداء للشيخ السنهورى كانت تعلم بأن حديثًا دار بينه وبين الشيخ أبى الفضل.. كان قد هدأ.

ـ أيوه.. أيوه.. كبرت يا مفعوصة.

ـ كبرت وبقيت وحشه...

ـ وهل يتكاثر طالبو الزواج على باب القبيحة.

قالت وفى صوتها رنة حزن.

ـ من صغر عقلهم.. يعنى ح يلاقوا فيه ايه. وقالت بصوت ملول ـ بنت الغراب قالوا اتجوزت..

اتجوزت مين.. قالوا غراب زى أبوها. ضحك بسرور وأشار لها أن تأتى.

ـ هل تعرفى عن أى شىء حدثنى الشيخ أبو الفضل. قالت بلهفة وهى تزيد فى تجبيس أطرافه.

ـ قال ايه يابا الحاج.

ـ جاءنى اليوم يخطبك منى.

قالت بلهفة ـ لمن.

ضحك ثانية ـ لمن يا سيدى لمين.. طلبك لأربعة..

ـ هو لغز والا ايه.. أربعة.. ازاى؟

ـ أقولك.. طلبك أولاً لحامد..

صاحت بغضب ـ الفلاح.. استطرد ـ ثم طلبك لمحمد.

فضحكت وقالت.. قلت له ايه.

ـ استنى لما تعرفى طلبك لمين تانى. كشرت غاضبة

ـ دا هزار مش جد.

ـ طلبك لنفسه. صرخت.

ـ .. ابن المفحور.. العجوز المخرف.

t.me/qurssan

أمال لما تعرفى الرابع.

ـ مين تانى؟

ـ أنا..

ـ أنت؟!.. نظرت إليه حائرة.

ـ نعم قلت له يا مجنون كبرنا وزهد بنا العمر.. بدرية دى زى بنتى.. هل تعرفى ماذا قال.. قاطعته بشغف.

ـ قال ايه يا سيدى؟

ـ لو كنت مكانك لهجرت مراتى وعيالى وأهلى وأخدتها.. لكزته فى ساقه غاضبة.

ـ الفاسق الماجن.. والنبى لأقول لمراته بهانة الحرامية.. أنا أرضى بغراب البين.. حيه لما تتجوزه.

ـ طيب.. طيب انتى زعلتى عشان عجوز.. قالت مندفعة:

ـ طبعًا دانا أموت وأرمى نفسى فى البحر ولا يقرب منى..

نفث نفثة حارة.

ـ معك حق.. أنت لسه صغيرة.. بس الراجل ما يعيبوش سنه يعيبه كيسه.

كادت أن تندفع صارخة فى وجهه ثانية.. لكنها توقفت متداركة.. قالت وهى ترفع حاجبيها وتنظر إلى الأرض متشاغلة بتكبيس جنبه.

ـ هو لو واحد زيك.. دانا أغسل رجليه بايدى وأبوس الأرض اللى يمشى فوقها وأخليه ينام بين جفونى وألم التراب اللى يمشى فوقه برموش عينيه.

ضحك.. ضحك بهستيريا وهو لا يستطيع التوقف عن الضحك.. نظرت إليه مبهوتة فى غضب.

ـ أنت فاكرنى بهزر.

ـ .. قال وهو يقهقه من الضحك.

ـ انتى زى ما بتقول النسوان قارحة وفاجرة ولم يعلمك أحد الأدب.. واستمر يضحك ابتسمت فى غضب هزت كتفيها.

t.me/qurssan

ـ أنا يعنى كنت متعشمة ما هو أنت زى أبوى هو أنا أقدر أقول لحد الكلام ده..

ضحك بسعادة انقلب على بطنه وأشار لها أن تكبس ظهره انتقلت لمنتصف الفراش بخفة.

ـ طبعًا الحق يبان.. لا أنى فاجرة ولا قارحة.. احنا اللى مش قد المقام.. ح يقولوا سيدنا ومولانا صاحب المقام العالى اتجوز بنت منصور الأكتع طيب دا أنا بعمل حاوى عشان أخاوى الشيخ محمد يبقى أنت.. يوه أنا أروح فين.. دا أنى باحلم.. لكزته برفق وهى تستطرد بخبث.. ما توافق.. مش ح تلاقى حد زيى.. ندر على أجيب لك عيل يشيل اسمك.. ضحك.. وضحكت.. تنهد وزفر زفرة طويلة وقال:

ومن يحمد الدنيـــــا لشىء يسره فسوف لعمرى عن قريب يلومها

إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كـــثيراً همومها

ـ هو أنا كل ما أكلم حد يرد على بالشعر.. هه آنى ماشية.. عايز حاجة منى..

ـ لأ.. روحى أنت نامى

ـ طيب ح تتغدى ايه بكره؟

غام وجهه واظلمته سحابة سوداء..

ـ أنا بكره مسافر أحضر بيع مصر فى المزاد.. ردد لنفسه وهو يعلم مشقة ما سوف يحدث غدًا بديوان القلعة.

ـ ربنا يجعلها سفرية خير.

قالت: سفرية خير.. تروح وترجع بالسلامة..

عبرت الغرفة على مهل وفى الردهة أدارت رأسها ولما اطمأنت إن المكان خالى.. جلست القرفصاء وهى تكتم ضحكة طويلة قوية.. أمسكت بطنها وقامت تجرى وهى تتقلب على الجدران لا تتوقف عن الضحك.. وأمام الباحة الخلفية وجدت أمها أمامها مباشرة تضع العشب الأخضر أمام عنزات ثلاث وتلقى بحب الذرة للدواجن...

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

نظرت إليها صديقة وهى تحدق فيها ببرود

ـ مالك يابت.

ـ تعالى.. تعالى يامه.. عايز يتجوزنى.

ـ ما أنى عارفة.

ـ لا مانتش عارفة.

ـ ليه يا مقصوفة الرقبة.. حد عايزك غير الشيخ محمد وأنا ما عرفش؟

ـ مولانا.. مولانا يا أمه.. أجابت صديقة بسخرية.

ـ مولانا يا أمه.. مولانا مين؟

ـ الشيخ السنهورى.

قامت عنها وهى تدفعها فى غضب.

ـ الشـــــــيخ الســـــــنهورى...!! قومى يا خايبـــــــة قومى وقالت تقلدهـــا... مولانا يا أمه...

هتفت بدرية مصطنعة الجد.

ـ أه والله العظيم فاكرانى باكذب.

ـ أنت؟ .. لا يا حبيبتى..

ـ قصدك بيهزر معاى.. هزت أمها رأسها تسكتها وتركتها دون أن تلتفت حولها.. أدرات بدرية رأسها حولها عدة مرات وموقف أمها يخنقها ثم ما لبثت أن انفجرت فى الضحك مرة ثانية.

قذفت صديقة بحجر تبعد العصافير عن أكوام الغلة صاحت تنادى بدرية.. ياله قومى عبى القمح فى القفف.. آدى حامد جاى هناك اهه.

قالت بدرية برعونة حامد الأهبل..

ـ يا بت عيب دا هيبقى سلفك أخو جوزك.. ضحكت الفتاة بغنج:

ـ سلفى مين يا أمه هو أنا هاقعد معاه ولا هشوفه.. مصمصت الأم شفتيها:

t.me/qurssan

ـ ليه يا أختى. أمال هتقعدى فين.. دار السبيل واللا فى قصر الأغا.. ردت بعناد:

ـ سى محمد هيقعدنى فى مصر معاه.. هيء.. يارب توب عليه بقه من الأرياف واللى فى الأرياف.

ـ يعنى خلاص تسيبى أمك.. وأول ما ييجى عدلك تجرى بره زى القطط.. قالت بكراهية:

ـ يعنى أقعد وشى فى وش أبويه.. طب دنا من صغرى بحب اليوم اللى ربنا يتوب عليه فيه منه.

قالت الأم بحزن: الأكتع الأخرس اللى قدامك ده كان فى زمانه سيد الرجاله استحمليه شوية ينوبك ثواب.. ضربت بدرية صدرها بيدها:

ـ أنا مستحيل.. لو حطوا عليه خمس فدادين مانى مستنية معاه لحظة.. انتى اقعدى معاه أهو جوزك.

ـ ليه با بنتى هو مش أبوكى زى ما هو جوزى..

ـ بيكرهنى يا أمه.. بيكرهنى. تنهدت الأم؟ وغاصت فى الصمت... قال حامد باقتضاب وهو يقفز من ظهر الحمارة إلى الأرض.

ـ العواف يا خاله.. ازيك يا بدرية.. ردت صديقة تحيته وهى تصيح ببدرية:

ـ ياله يابت قومى حملى الحمارة. رفعا سويًا جوالاً من الغلة على ظهر الحمارة ثم عاد يرفع فوق رأسها قفة كبيرة.. انحنت أمامه برشاقة ثم جذباها سويًا وهى تجلس القرفصاء لأعلى رأسها فى خطفة واحدة.

سارا إلى الطاحونة.. تابعت صديقة ابنتها وهى تبتعد فى رضا واطمئنان.. اسم النبى حارسها طالعه لأبوهه.. عفيه زى الجمل.. يارب يا بدرية يا بنت صديقة يكون عدلك خير ويجعل محمد ابن بهانة من نصيبك إنشالله..

* * *

فى طريق عودتهما سألت بدرية حامد وهو يسير أمامها يقود الحمارة مطأطأ الرأس.

t.me/qurssan

- أمته سى محمد هيسافر.... شعر بالألم يحز أعماق قلبه فأجاب ساخطًا:

- ميسافر وقت ما يسافر.. إنشالله يروح ما يرجع.. قالت تؤله وهى تخفى ابتسامة على وجهها:

- يالهوى.. إنشالله أنا.. كده يا حامد دا أخوك يا وله.. زاد ألمه. أجاب مثل جحش صغير:

- آنى ماليش أخوات.. قالت تجذبه للعبتها:

- ليه يا حامد أنت زعلان منه واللا ايه؟

- أزعل منه.. دا ايه شيخ الغفلة ده.. والله ما عبره بنعلى.. أنا زعلان منك انت يا بدرية.

- يا قلبى يا خويه.. طب وأنا أعمل ايه.. أبوك هو اللى قال لابويه الشيخ أنا عايز بدرية لمحمد.. ماقلش أنا عايزها لحامد.. أنا أعمل ايه.. أيوه يا خويه ماتزعلش منى.. ازعل من خلق الدنيا كلها إلا أنا هو أنا أقدر على زعلك..

ابتسم بوله لأول مرة وانشرح قلبه وقد فرج عنه حديثها.. قال مستسلمًا للوضع الراهن ــ دنا بحبك قوى يا بدرية.. أنت فاكره إن محمد هايسعدك دا واد غشيم.. بيقلع الشيخ السنهورى بلغته كل ليلة تأوهت باستسلام آه يانى.. ترك مقود الحمار وتراجع إليها بعطف.

- القفة ثقيلة عليكى يا بدرية.. هاتيها. هاتيها الحمار يشيلها وخلى عنك أنت.. سارت فى طريقها..

- مانى شيلاها.. أدينى طول عمرى باشيل.. أمتى يارب تتوب على بقى من العيشة القرف إللى أنا عيشاها.. أمسك بساعدها ومد يده ينزل القفة من قول رأسها.. اصطدم مرفقه بنهدها فشعر بقشعريرة لذيذة تغزو جسده ألقيا بالقفة على ظهر الحمار المسكين.. تنهدت تنهيدة طويلة...

- أمتى يا رب تتوب على بقى من عيشة الأرياف بقى.. أمتى يا محمد تاخدنى من هنا.. اضطرب بشدة واسود وجهه وقال ــ ياخدك على فين..

t.me/qurssan

- على مصر.. طيب دا أبويا الشيخ قال بنفسه للشيخ محمد بكرى بيت فى الفحامين واللا الغورية.. أبويا الشيخ قال له.. ماتسيب قصرى أبدًا هوانا وافقت على جوازك من بنتى بدرية علشان تاخدها منى.. أنت وهى حتسكنوا فى قصرى. قال بحنق.

- يعنى حتسكنى فى قصر مراد بيك ولا عابدى باشا..

- يوه ياحامد عايزنى أبقى فى منوف كل من هب ودب يتحكم فى.. دا الشيخ محمد لما يسافر مصر وأبويا الشيخ يمسكه جامع السلطان حسن ولا جامع الكخيا.. يقوم السلطان ينعم عليه براتب ٦٠ قرشًا فى السنة وينعم عليه الوالى محمد باشا عزت بجماله ايش سمن وعسل وغلة وريال فضة وايش من ده وايش من ده.. سار حامد خلفها مغيظًا والغيرة تنهش قلبه.. استطردت ـ هو بقه زى مانت عارف الشيخ محمد صوته زى صوت الكروان.. يقرأ القرآن فى المعازى والأفراح.. احتد مقاطعًا إياها:

- ويخرج فى الترب والقرافه يلم الكحك والقرص.

- تف من فمك.. الشيخ محمد هيبقى خليفة أبويه الشيخ فى الرواق.. فتح فمه دهشًا وصرخ فى ثورة:

- دا لازم الشيخ محمد الطرى اللى دقنه قش وبيصلى وهو نجس ولباسه متعاص.. هيبقى نديم مولانا السلطان، طيب بقه والله وتالله مانى مخليه يحط قدمه فى الدار الكلب ابن الكلب.. والله لانى قتله ومخلله.. طب يا بنت صديقة.. دفع الحمار وهو يضربه بالخيزران بشدة ينفث فيه غضبه..

حا يا حمار الكلب.. حا يالئيم يا ابن اللئيم.. أهل الكرم والجود مالهم حظ.. والندل حكم فينا وشال وانحط. ابتسمت ابتسامة ماكرة.. وبعد ثوانى وقعت على الأرض باكية. نظر حامد إلى الخلف وهو ينوى ألا يستدير نحوها ودون أن ننظر إليه هى الأخرى صاحت ـ كعبى.. كعبى التوى. رفعت ثوبها فظهرت سمانة ساقيها البيضاء عاد مقتربًا وفى صوته رنة لوم وقسوة:

- تستاهلى ماهو أنت أصلك مايعة ووسطك سايب.

- استكانت له كأنثى ضعيفة ورفعت عيناها إليه فى مذلة:

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

ـ انى يا حامد.. الله يسامحك. وعادت تبكى. تولاه ضعفه استطرد رغما عنه.

ـ أيوه.. هو اللى يقول الحق يدخل الشق.. ما هو أصل انت لو زى مخاليق ربنا عدله ومستقيمة مكانش يجرالك اللى جرى ولا اللى هيجرى..

أجابته بنهنهة. فصاح وهو يملأ صوته رجولة ممسكًا بكاحلها:

ـ اسكتى بقه.. اسكتى هى رجلك انقطعت. فصمتت على الفور مشبعة غروره..

حرك كفى قدميها يمنة ويسرة وهى تتأوه من الألم.. لمح بطن فخذيها.. فانبعث فى داخله شعور بالثقة. وامتلأ داخله بمشاعر عفيفة فياضة عذبة وحب عذرى. وعندما قامت قبضت على كفه بقوة وهى تستند عليه. فشعرت بجسدها كله يلتصق به وخاصة نهدها الأيسر.. استمرت تنهنه.

ـ آه يانى يا حظى وبختى المايل.. منك لله يا امه انت السبب.. انت اللى جبتينى الدنيا الوحشة دى.. لو كنت مت يوم ما اتولدت.. يارب خدنى وخلصنى بجاه سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى. قاطعها ساخطًا.

ـ ماهو انت اللى جيباه لنفسك. أجابت بصراحة مباشرة أذهلته:

ـ يعنى هقطع نفسى حتتين.. أنا والله زهقت.. يا حامد يا خوى خلاص أنا هكون زوجة مخلصة لكم انتو الاثنين.. يرضيك دا.. نظر إليها بعرفان شديد يراها طاهرة مثل قدسية.. همس:

ـ دا انت ملاك طاهر. ضمها بقوة ـ أنا بحبك يا بدرية. وعاد يضمها ثانية. تلوت بين يديه مثل بلطية صغيرة تتركه يرتشف من جسدها أمواجًا راعشة لذيذة وعلى وجهها أبقت على ابتسامة منفصلة وحيدة.. دفعته برفق ضاحك.

ـ أوعه يا خويه دا انت بغل. تركها وعلى وجهه ابتسامة رضاء ماكر وزهو وخيلاء وعندما دخلا دارها كان الشيخ محمد أبو الفضل جالسًا على المصطبة بصحن الدار ينتظر بدرية. رآها قادمة من على بعد تستند على أخيه حامد وعندما رأته لم تبتعد عن حامد بل أبقت على ساعده ترتكن عليه وعلى وجهها اشتدت معالم الألم وقد زادت من عرج قدمها المصابة.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثالث

- ١ -

طوال يومين والقنجات الفاخرة القادمة من المديريات البعيدة ترسو على ساحل بولاق ومن المناطق القريبة تدخل العربات والخيول المطهمة القاهرة ويهبط منها كبار الأمراء والسناجق وكبار الأعيان والعربان والوجاقلية والمشايخ يتقاطرون جميعًا من أنحاء البلاد لحضور المزاد الذى سيعقد فى ديوان القلعة لبيع مصر. وفى الصباح الباكر ليوم المزاد توافدت العربات والخيول على باب القلعة ينزل منها الأمراء من ذوى النفوذ والسلطان والأعيان من أثرياء البلاد فرادى ومثنى وقد ارتسمت على وجوه أكثرهم ملامح الكآبة. كانوا جميعًا شاردى البال مشغولى الفكر بالساعات القليلة القادمة.

وفى قاعة جانبية جلس الأمراء المتربعين على قمة السلطان يتهامسون حينًا ويتشاجرون حينًا آخر وقد ارتسمت على وجوههم علامات الحنق والقلق المكبوت فى انتظار تقاطر الأمراء وبدء المزاد. قال إسماعيل بك موجهًا حديثه إلى حسن بك الجداوى.

- واجبكم دفع الميرى المتأخرة على الأراضى المصرية. رد قاسم بك مندفعًا.

- وهل كفيت نفقة العسكر حتى ترسل الميرى للسلطان.

هاج الجمع الجالس.. قال عابدى باشا بغضب:

- ماذا يكون أوجب؟ نفقة بيت المسلمين أم مأكل العسكر ونفقتهم؟؟

قال إسماعيل بك بسخرية لقاسم بك.

t.me/qurssan

- لن نأكل عليك نفقة الجند. هيا قل لنا ماذا يكفيك؟ عقد قاسم بك ذراعية حول صدره وقال ببرود:

- أما أنا فلا يكفينى خمسين ألف ريال.

صرخ إسماعيل بك وامتلأ الديوان بصوته.

- فهذا لأمثالك.. لازم احنا نرسل لمولانا السلطان اللى فى حرب مع المسكوب ونقول له أرسل لمماليك المصرية خزانتكم حتى تشبع.

قاطعه على بك غاضبًا يعبر عن غضب الجميع.

- كيف تتحدث هكذا.. وأنا صرفت على التجريدة الأولى وشهلت أربع باشوات والأمراء والأجناد وانت من جملتهم وما صادرت أحد فى نصف قفه.

قام إسماعيل بك ثائرًا من مقعده مغتاظًا وقال لعلى بك.

- اعمل انت كبير البلد وافعل ما تفعل وأنا أعطيك المال الذى تحت يدى والذى جمعته من الناس وانت خذه اصرفه بمعرفتك.

فانطلق خارجًا فى غضب ومحمد أغا البارودى يجرى خلفه يسترضيه.

مال إسماعيل بك على حسن بك الجداوى وأخرج له ثمانية عشر ألف ريال متنهدًا

- هذه نفقات العسكر يابك

- كم؟

- ثمانية عشر ألف ريال.

- لماذا هل نحن فى نزهة.. نحن فى حرب يابك وهذه عساكر إن لم تجد نفوقات ثارت.. وقطعت رقاب.

قال إسماعيل بك بتصاغر:

- هذا والله حاصل تقسيم أموال البلاد. وأنتم تعلمون أن هناك متبق لحسن باشا القبودان. ثم أشار لمحمد كتخدا فأحضر له ألفين من الريالات وضمها إلى الثمانية عشر الأخرى فلم يرض حسن بك إلا بثلاثين ألف ريال.. وقال مغمغمًا.

t.me/qurssan

- هذا جزاء سوء النفوقات.

اهتزت شوارب إسماعيل بك وتغضن وجهه.

- .. كيف يا بك؟

- تتشددون على الرعية والالضاشات للحرب وهم لا يدركون فى الأمر شيئًا فإن أنتم أخذتموهم سخرة فلن يعمل أحد بالسخرة وإذا أعطيتموهم نفقة فالأولى بذلك من هم أولى وأهم فالنفقة للفرسان المقاتلين أما الوجاقات والالضاشات فليس عليهم إلا ترك البلد والقلعة. فلما خرج مال على بك عليه هامسًا: لن يقترب من أراضينا. لو أنه ظل بعيدا عنا ما نفعل له شيء.

قال الجداوى وهو يشيح بيده. وهل سينفعنا ابتعاده إذا كانت نتيجة تشدده وطمعه انصراف الأمراء والمشايخ عنا.

- هل تظن يا بك؟.. عبر قاسم آغا عن تساؤله بغضب.

- أظن.. ماذا أظن وكل شيء واضح للعيان ما أن استدار حسن باشا القبودان عائدًا للديار العثمانية حتى سارع إسماعيل بك باغتصاب كل شيء من تحت يد من نحن فى أشد الحاجة إليهم.

فى الردهة الموصلة إلى قاعة الديوان وقف الشيخ محمد أبو الفضل منزويًا فى أحد الأركان ينتظر إشارة الشيخ السنهورى وهو يتابع جمع المشايخ والأعيان وملامح الكارثة تبدو على وجوههم. همس السنهورى فى أذن الشيخ العروسى وهو يشير إلى محمد أبو الفضل بأن ينتظر خارجًا، فخرج خافض الرأس.

- والله يا مولانا إن هم سألوا مال زيادة لأنى سايبها..

قال العروسى: وهل عادت تأتى لنا بنصف فضة؟

قال البقلى: الأنفار هربت يا سيدنا.

قال السنهورى: بطون خاوية والفلاح أمكر خلق الله.. ميرفعش عينه فى عينك وإن ضربته بالكرباج صرخ وبكى لكن برضه ما تقدرش تاخذ منه شيء.. كسول ولحوح زى

t.me/qurssan

الحمار العرجان.. تضربه مهما تضربه اللى فى دماغه حيعمله.. وإن دورت عنه وشك رفع ايديه وقعد يغنى.

قال السادات ـ بيهربوا.. قال الصاوى مؤكدًا: أيوه بيهربوا لم يتبق عندى فلاح واحد.. سايبين لنا النسوان نعمل بيهم ايه.

قال السنهورى بعزم: والآن حان الوقت كى نصدر فرمانًا يحرم هروبهم ويعاقبهم عقابًا شديدًا.. ما الذى سيئول إليه أمر البلاد عندما يأتى الوقت الذى لا تجد فيه فلاحًا يزرع الأرض؟ غمغم السادات: تمهل يا شيخ سنهورى اعتصم بالصبر فمثل هذا اليوم الذى لا تجد فيه الأرض من يفلحها لن يأتى قط.

بينما الجموع تتكاثر بالديوان تجمع بالأروقة حشد هائل من رجال الالتزام الذين أتوا مع أصحاب الإقطاعات للتشاور.. كم سيدفع الباشا للسلطان وكم سيدفع السنجق للباشا وكم ستدفع أنت حتى أعرف كم سأدفع أنا كى ترسو علينا القرى..

وأمام إسماعيل بك المتوسد أريكته وقف السيد حسن البقلى فى تصاغر..

- تريد أن تكون روزمانى أفندى بقلى.. هز البقلى رأسه فى ضراعة ونهم.

- هل تعرف كم أعطى للباشا؟.. وأشار بيده ناحية عابدى باشا والى البلاد.. سبعمائة وخمسين ألف مدينى.. هذا ما تقرر به العادات القديمة.. لكنه يستولى أيضًا على تسعمائة ألف مدينى رواتب إنفاقات أما الميرى المقرر للمال الشتوى والصيفى على الأطيان فيبلغ ثمانين ألف ألف مدينى وعلى الوظائف إحدى عشرة ألف مدينى وأما الجمارك والمضاف والبرانى ورفع المظالم والتحرير فيبلغ إجمالى المال مائة وعشرين ألف مدينى.. يخص إنفاقات مكة والمدينة وحدهما ما يزيد على ثلث المبلغ اثنين وأربعين ألف ألف مدينى. وقال بقرف وهو يشيح بوجهه ـ يسرقها العربان كل عام.. انظر هناك وأشار إلى المشايخ.. نظر البقلى فوجد بعضهم ينظر إليه مستطلعًا.. استطرد إسماعيل بك وهو يهز يده قرفًا ـ أنا أنفق عليهم من الميرى ألف ألف مدينى.. وحدهم.

أشار العروسى ناحية السيد البقلى..

- ماذا يريد صاحبك؟ قال السنهورى مدهوشًا..

t.me/qurssan

- لا أعرف.

هز السادات رأسه: الروزمانية..

حدق السنهورى بدهشة : الروزمانية.. .. آه.. لقد سأله وهما قادمان لمن كل هذه الهدايا والتقادم.. تذكر أن حسن البقلى أشاح بوجهه قائلاً ـ تجارة يا سيدنا تجارة.. إذن هى الروزمانية.. كيف يستطيع أن يأخذها حمار كهذا حتى لو أهدى إسماعيل بك بأضعاف ما تحمله من مراكب. استطرد إسماعيل بك محدثًا السيد حسن البقلى ـ لكن على الباشا أن يدفع ضريبة مال ألف وستمائة ألف مدينى للسلطان وعلى البكوات وسناجق المديريات أن يدفعوا ألف ألف مدينى ضرائب للسلطان.. أنت مثلاً إذا حصلت على الروزمان عليك أن تدفع ثلاثين ألف مدينى ضريبة مال سنويًا.. الأوجاقات سبعمائة وخمسين ألفى مدينى.. أما أمين العربخانة فيدفع وحده ستمائة ألف مدينى وأمير الأجانب يدفع أربعمائة وأربعين ألف.. أنا أريد أن أبنى قلعة عند طره كى أوقف زحف القبالى هناك.. من أين أحصل على المال.. هل تستطيع أنت ؟.. هز البقلى رأسه بحماس.. قال إسماعيل بك ـ كيف؟.. لقد حاول المخبول حسن باشا القبودان.. وهز يده باحتقار وتغضنت ملامح وجهه كى يكسب قلوب العامة والرعاع أن يعيد العادات القديمة للسلطان سليم فيبقى من الضرائب فقط على الميرى فيصبح مال الفدان سبعة ونصف نصف فضة.. ضحك لقد قلت له.. هل تعرف هؤلاء الفلاحين.. مكر الله لا يفلهم.. إنهم يسيرون عراة حتى يخفون عنا نحن أصحاب البلاد ما يملكون.. لا تراقبهم أنهم لعنة الأرض وشياطينها. وكان البقلى يهز رأسه موافقًا بحماس ـ كيف يقبلون ضرب السياط دون دمعة.. دون بكاء.. نحن نقول لعسكرنا.. يا خوند لا تأخذك رأفة بفلاح مصرى.. جرت العادة بأن نعامله أحقر من الدواب.. أما فلاح فحد الله.. لا يعرفه إلا هو سبحانه وتعالى.. على ماذا يجلس وماذا يخبئ لقد قلت لسلطانيم، اللعنة.. من أين نجهز الجند وكيف يحارب السلطان المسكوب.. بالدعاء فى الجوامع.. هذا جميل والله.. لكن الجند فى حاجة إلى يمك وذخيرة وبقسماط ورواتب.. ونحن كيف نحافظ على رءوسنا. أشار حانقًا ـ يجب أن نستحضر المجاليب.. لا.. لا يا سلطانيم.. المضاف لزوم الأوجوقات والبرانى وخرده الملاهى والمال الشتوى والصيفى.. لقد رفعت كثيرًا من الضرائب القديمة ثم عادت فى ضريبة رفع المظالم. كان يتحدث بانفعال. توقف ورفع

t.me/qurssan

رأسه للبقلى وقال ـ والآن كيف أبنى قلعة طره.. وكيف أشترى المراكب الحربية وكيف أبنى شركفلكات وأصنع الجلل للمدافع.. انظر إلى هؤلاء الأقباط (وأشار إلى جمع من الأقباط كان منتحيًا مكانًا قصيًا بمواجهة المشايخ) هؤلاء منذ دخل الإسلام هذه البلاد وهم وحدهم يعرفون والله وحده يعلم لماذا .. مساحة هذه البلاد وبجوار كل كشاف تجد وكيلاً قبطيًا يبكى إذا اقتربت ناحيته صرخ الرحمة يا بك بحق العذراء البتول بحق عيسى وهو لا يخجل أن يستحلفك بحق النبى محمد.. وحق القرآن الكريم.. تفو.. فى حين أنهم وحدهم.. الله يعلم.. كم يدخل جيوبهم من مال السلطان.. كم يقتطعون من مال السلطان.. .كم يقتطعون من مساحات الأراضى.. هل استطعت لحظة أن تعرف ماذا يكتبون بلغتهم القبطية اللعينة. فتح ذراعيه متسائلاً والبقلى يحاول مقاطعته مع كل كلمة يتحدث بها عن القبط. ولم يأبه له إسماعيل بك صاح: سيدى.. .. .. وكان يبدو أن إسماعيل بك لن يتوقف عن الحديث فقال رافعًا صوته مشيرًا له بطلب الحديث: سيدى هذا ما أريد قوله. ثم إنه خفض صوته حتى لا يسمعه أحد مستطردًا فى بطء وابتسامة جهنمية على وجهه.

- أنا.. سوف أقدم لكم ما لم يستطع أحد أن يقدمه.

قال إسماعيل بك ساخرًا ـ ماذا؟ فرق بن.. أم مركب غلال..

قال البقلى دون أن يعير سخرية إسماعيل بك انتباهًا ـ أرض مصر.

قال إسماعيل بك غاضبًا ـ وهل هى فى يمين أحد آخر.

- لا.. لا.. العفو لا أقصد ذلك. مال عليه هامسًا ـ سوف أعطيها لكم مرتين. ضاقت عينا إسماعيل بك فاستطرد البقلى فاتحًا ذراعيه جالسًا القرفصاء أمام قائم مقام البلاد..

- عندما تباع أراضى البلاد فى المزاد يتغير كل شىء.. ما فى يد الأمير زيد يصير فى يد الأمير عمرو وما فى يد أمراء القبالى فعلاً يصير فى يد أمراء المصريين اسمًا.. كل شىء يتلخبط.. هل رأيت؟

تساءل البك ساخرًا ـ هذا يحدث كل عام وليس به جديد..

t.me/qurssan

ضاقت عينا البقلى وهو يشير إلى الأرض وإلى نفسه.

- هنا يكون دورنا.

- دوركم..!!

- نعم آنا أفندية الروزمانة الجديد.. طبعًا بعد موافقتكم. وأشار إلى ثلاثة من الأقباط واستطرد قائلاً عندما نعيد مسح الأرض سوف تعلنون أنتم على الملأ فى فرمان مبارك أن أراضى البلاد قد زادت الضعف..

أعاد البك رأسه إلى الوراء فى حركة انفعالية وقد برزت على وجهه ملامح الفكر العميق واستطرد البقلى - بفضل بركات أولياء الله .. لا تنس يا بك إنها كلها أرض السلطان وباستطاعته أن يضاعفها مرتين أو ثلاثة. هز كتفيه قائلاً: أنها ملكه أليس كذلك.. وبرغبة آمير المؤمنين وخليفة المسلمين أن أراضى مصر صارت مضاعفة.. وبهذا فإن ما انتقل لإقطاع حسن من يد حسين صار ضعف ما كان عليه بفضل بركة الآولياء وبركة مسيحيينا القبط فإذا سعد الناس بفضل مازاد فى يدهم.. وأفتى المشايخ بآن هذا رضا من الله على شعب مصر المبارك.. تعين عليهم أن يدفعوا المال ضعفًا على ما هو يحتاج نصفه. أنزل البك رأسه.. نظر إلى الأقباط الثلاثة وقال بصوت منخفض..

- وهل يقدرون؟. قال البقلى مسرعًا وبيقين قاطع لكل شك - إنها صنعتهم.

أنزل البك رأسه ثانية - هه.. هه.. ثم رفعها - هه.. هه. ثم أخذ فى الضحك.. هى.. ثم بدأ ضحكه فى التصاعد.. تصاعد بشدة حتى أنه أسقط يده وهو مستغرق فى الضحك ليضعها على ركبة البقلى الذى أفتر ثغره عن ابتسامة واسعة وكذا ابتسم الجميع وهم لا يدركون لابتسامتهم سببًا سوى أن البك يضحك. قال من خلال دموعه: بقلى.. حرامى.. لعين لم أر مثله فى حياتى.. حتى ولو لم تكن لتستطيع أن تضاعف أراضى البلاد فإن عقلاً كهذا يجب أن يجد ما يفعله. ثم استغرق فى الضحك ثانية والبقلى يحدثه بلهفة - أهى لى إذًا؟. أهى لى إذًا؟

- هى لك.. هى لك.. وأشار إليه وهو يقف معتدلاً معلنًا أن الوقت قد حان لبدء المزاد.

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

- ابتعد عنى الآن.. وعقب.. ولكن ليس كثيرًا.. لا.. لا.. بل التصق بظهرى.

تصدر الديوان الكبير عابدى باشا والى البلاد وإسماعيل بك قائم مقامها وحسن بك الجداوى شريكه فى الحكم. بعد اكتمال الحضور تصاعدت الضوضاء وتواترت الحركة فى الأرجاء ووقف رضوان بك الدفتردار خلف أحمد أفندى الصفائى والكوريكجى لطرح القرى فى المزاد وحولهما جلس أفندى المقابلة المراجع لحسابات كل من أفندية الولايات وحسابات الميرى والغلال وأفندى تكاليف نفقة السلطان ومصاريف المدن المقدسة.. دق ناقوس صغير فساد الصمت وتجمعت الرءوس وأنصتت فى ترقب. صرخ أفندى المقابلة: كشوفية القليوبية.

تقدم إليها على بك شركس وقاسم بك وحسين بك وأنصت الجميع. صاح أفندى المقابلة.

- ستة ألف ألف وستمائة ألف. مدينى.

صاح قاسم بك ـ أنا أدفع سبعة ألف ألف مدينى.

اعترض رضوان بك ـ لم يفتح المزاد بعد يا بك.

- كشوفية القليوبية ستة ألف ألف وستمائة ألف مدينى عن المال الشتوى والمطلوب سنة ونصف كلفة الأوامر السلطانية وأربعمائة ألف مدينى حلوان عام طرف حسن باشا القبودان وعاما ونصف كلفة حرب أمراء القبالى ومائة ألف مدينى للمال الصيفى فتصير الجملة تسعة عشر ألف ألف وثلثمائة ألف مدينى.

ضجت القاعة وانتشر الضجيج فى أنحاء الديوان وتصاعدت الصيحات.

- كيف بالله؟

-أنتم تأخذون اللحم والعظام معًا.

ـ لن يبقى فلاح فى بر مصر.

- ليس لنا بهذا المال طاقة.

- ربما سوف تزرعها الملائكة.

t.me/qurssan

- أو الشياطين.

- أو أنكم تريدونها أرضًا خراب.. لقد تخلينا...

- تخلينا..

صاح أفندى المقابلة.. صمتًا.. صمتًا.. صمتًا.. فلم يجبه أحد.. نظر له إسماعيل بك فصرخ بأعلى صوته.

- فتح المزاد.. وأخذ الجرس يرن بتواصل... لكن أحدًا لم يسمعه وقف إسماعيل بك.. قال بسخرية . أتتخلون عما يتوجب عليكم إزاء السلطان وتعصونه بالفرار.

قال السنهورى:

- لسنا نملك دارًا لسك النقود.

قال إسماعيل بك:

- وخزانتكم هل فرغت؟

قاطعه حسن بك الجداوى:

- مالك وخزانة القوم.. دع المزاد يستمر.. لن تجد مشتر.

دق الجرس ثانية.. حتى ساد الصمت فصاح أفندى المقابلة.

- من يشترى من يشترى؟

لم يجبه أحد.. حل نوع من الطمأنينة مالبثت أن تلاشت فى اللحظة التى وقف فيها محمد أغا البارودى كتخدا إسماعيل بك.. قال فى هدوء:

- أنا أدفع. ساد لغط شديد واندفع من القاعة عشرات من علية القوم إلى الردهات الخارجية حيث يقف عشرات الملتزمين.

- هل تستطيعون دفع مال أربع سنوات؟

- كيف؟

وقبل أن يطرح أفندى المقابلة بقية المديريات فى المزاد صرخ به حسن بك الجداوى.

t.me/qurssan

- كيف قدرتم المال إذًا؟ فصاح أفندى المقابلة.

- كما قرر السلطان سليم وعلى ما جرت به العادات القديمة والجديدة.

- هل جفت أقلامكم؟.. قاطعه رضوان بك مهدئًا وقال:

- اشرح لهم أحمد أفندى الصفائى كيف تم حساب المال.

فتقدم أحمد أفندى قائلاً . ليس فى الأمر لغز يا بك..

فقاطعه رضوان بك.

- اشرح إذًا.

فقال . ثلاثمائة ألف ألف وثمانين مدينى أصل الميرى وثلاثون ألف ومائتى مدينى أعمال تطهير الترع.

فصرخ به قاسم أغا . وأى الترع هى التى طهرت؟

فقال أحمد أفندى:

- هذا ما جرت به العادة وجاء به فرمان السلطان واستطرد.

- واثنان وستون ألف مدينى تذاكر جاويشية. وثلاثمائة واثنان وثمانون ألف مال الجهات و٢٣٥ ألف خدمة العسكر ٤٤ ألف كلفة و ٧٢٧ ألف رفع المظالم.. فهذا أصل المال الميرى. صرخ حسن بك . وماذا سيكون الفايظ من حق الملتزم؟

قال أحمد أفندى الصفائى مبتسمًا: ليس قليلاً يابك تسعة ألف ألف مدينى ونصف ألف ألف برانى قديمة وخمسة ألف ألف ونصف ألف ألف برانى ستجد أن المبلغ خمسة عشر ألف ألف مدينى عن عام واحد فيكون خاصة الملتزم ستين ألف ونصف ألف عن القليوبية.

.. صرخ قاسم بك.

- آه.. أين تذهبون.

- إنه مال أربع سنين..

t.me/qurssan

وتصاعد اللغط ثانية.. تدخل حسن بك الجداوى.

- .. يا باشا .. سلطانيم عابدى باشا .. لقد فوجئ القوم.. لم لا نؤجل المزاد لمدة ساعة حتى يتشاور الأمراء مع وكلاء حساباتهم ومشايخ المراكز؟

رفع عابدى باشا رأسه ـ الحق معك يابك.

حاول إسماعيل بك أن يتكلم لكن عابدى أشار بيده لإسماعيل كتخدا وصاح:

- نؤجل المزاد ويعقد بعد ساعة.

اندفع الجميع إلى الخارج فى هرج ومرج شديدين وهم يصبون اللعنات على رأس إسماعيل بك وخاصة أن كتخداه محمد أغا البارودى قد تقدم لشراء كل الأراضى المطروحة للمزاد. جرى السنهورى كالمجنون حتى وجد الشيخ عبد الرحمن أبا الفضل والمعلم إبراهيم جالسين معًا وبعيدًا عنهم جلس محمد أبو الفضل.. عندما لمحه تابعاه قاما إليه مسرعين.

- كم سندفع سنويًا؟

حاول محمد أن يتحذلق فأسرع يسبق أبيه.

- سبعمائة ألف ومائة. وقبل أن يكمل هوى السنهورى بكفه الضخمة على قفاه وهو يصرخ به امش يابن المركوب.. امش من قدامى.. قوامك فهمت. جرى الشيخ محمد كذبابة تافهة والسنهورى خلفه يتابعه بالصفعات والشتائم والركلات.. عاد يلهث إلى عبد الرحمن أبى الفضل ينظر إليه شذرًا.

قال الشيخ عبدالرحمن مرتبكًا وقد ملكه حزن أشد من حزن سيده.

سبعمائة ألف ومائة وستون برانى عن فيشا وكمشوش وأراضى السدود.

أمسك السنهورى برأسه ـ علينا أن ندفع ألف ألف وثمانمائة ألف مدينى.. آهه.. هل.. هل نستطيع؟ كان ينظر إلى وكيله بتصاغر عندما جمع المعلم إبراهيم كل ما عنده من شجاعة وحكمة مكتفيًا بهز رأسه بالنفى فتبعه الشيخ عبدالرحمن.. لو جمعنا فلاحين القرى وبعناهم بعيالهم فى المزاد لما حصلنا عشر المبلغ.. نظر إليهما شذرًا

t.me/qurssan

والجميع يعودون للإيوان وسط صيحات السخط والغضب البالغ.. هتف وقد أسود وجهه كالطين العفن ونضحت تجاعيد الكارثة على بشرته وقد اهتزت قدماه من تحته

ـ يا بوز النحس.. كان المزاد قد بدأ ثانية.. صرخ أفندى المقابلة وكرر خلفه الكوريجى.

ـ الشرقية.. فتح المزاد بعشرة ألف ألف وأربعمائة ألف مدينى عن أصل الميرى وتطهير الترع وتذاكر الجاويشية فى الجهات وخدمة العسكر والقلعة القديمة ورفع المظالم ويكون إجمالى المطلوب لخمس سنوات اثنين وخمسين ألف ألف مدينى.. شهق الجميع والجرس يرن ـ من يشترى؟ من يشترى؟ خاص الملتزم ٦٦ ألف ألف مدينى.

وقف حسن بك الجداوى ـ أنا أشترى.

قال السنهورى ـ لا يشترى إلا من يستطيع.. تقدم مقتربًا من على بك الملط وأفندى المقابلة يصيح على كشوفية البحيرة ـ واحد وثمانون ألف ألف وثلثمائة ألف مدينى.. تقدم إليها محمد أغا البارودى.

قال السنهورى لعلى بك الملط الذى عزم على شراء المنوفية ـ تخليت يا بك.

قال له ـ لست وحدك يا مولانا.

واستدار السنهورى خارجًا وقد فقد أراضى الالتزام التى كانت بيده.. رأسه يدور يتخبط فيمن حوله لا يراهم وهم يبتعدون عنه مندهشين.. ردد لنفسه لم يتبق سوى أراضى الوسية والرزق بلا مال.. عشرون فدانًا.. نفث من صدره بشدة وهو ينظر إلى المستقبل بخوف شديد وردد.. سوف يأتى زمن صعب.. فكر أن مشايخ جددًا سيكون لهم شأن مع إسماعيل بك أما هو فلن يكون له شأن بعد الآن.. بقى لى وقف أضرحة الشيخ عثمان والشيخ أبو حديد لكن الخوف هزه بشدة سوف يطرده المشايخ الجدد عن كل شىء.. سوف يلقونه للكلاب.

بالخارج سمع النداء ـ كشوفية المنوفية.. فأصاغ السمع وقد لعب به الأمل بصدره وقلبه معًا.. اثنان وثمانون ألف مدينى.. دق رأسه بشدة وانقضت عليه المطارق.. تهاوى وهو يسمع ـ خاصة الملتزمين من الفائظ والبرانى القديم والجديد مائة ألف ألف مدينى. هتف من يستطيع أن يجمع من الفلاحين مبلغًا كهذا.. خرج يتخبط فى الردهة وسط الأمراء والبكوات والأغوات وكبار الأعيان والتجار اللذين وقفوا فى انتظار إعلان

t.me/qurssan

ضرائب الحرف والوظائف الميرية وقد اسودت وجوههم حتى بلغ الساحة الخارجية.. كان الوقت فى الظهيرة.. نظر إليها ومن خلفها ميدان الرميلة.. صدمته الآلاف المؤلفة من حزم الإشعاعات التى كانت تنعكس قادمة إليه مبهرة تخلب اللب.

مئات الخيول التى تركها الأمراء وكبار البلاد فى الساحة خارج الأبواب بكنابيشها وسروجها وكساويها الفاخرة وأعناقها المزينة بالحلى الذهبية والفضية واللالئ والجواهر والياقوت والزبرجد تتلألأ تحت أشعة الشمس.. مشهد آية من آيات الجمال.. يذهل الألباب وتخطف بريقه الأبصار.. لكنه لم ير فيه إلا معالم الكارثة القادمة.. غمغم كالمشدوه وهو يحملق فى آلاف الحزم الضوئية المتلألئة.

ـ أرى الطاعون على الأبواب..

قطع عليه محمد أغا البارودى مستحفظان حبل أفكاره.

ـ أين تذهب حضرة سيدنا. هز يده مشيحًا بعصبية.

ـ ليس لى شىء هنا. ابتسم كتخدا إسماعيل بك.

ـ كل شىء يا سيدنا لكم.. أهذا كلام والله.. أنا فى هالوقت أرسلنا أبونا اسماعيل بك من شأن يقول لكم أرضكم وقراكم تبقى فى حوزتكم كما هى.

قال السنهورى باستخفاف ـ أبونا إسماعيل بك يطلب مال خمس سنوات مقدم ثم يرسل حضرتكم يسترضينى.

مال عليه أغا مستحفظان غامزًا ـ ما تقدرون على دفعه.. ثلاث سنوات.. سنتان ونصف.. هل تخاف ألا يدفع فلاحوك.. أنا أتولى تأديبهم رضوان بك يتولى تأديبهم.

ـ أنتم تريدون منا حسب مقرراتكم ألف ألف وثمانمائة مدينى.

قاطعه أغا مستحفظان بلؤم واستنكار.

ـ حضرتكم تتحدثون عما نأخذ وأنتم لا تنظرون ما تأخذونه فنحن لا نأخذ شيئًا هذه تكاليف الميرى وخاصة السلطان والقبودان.. لا تقل لى إننا نأخذ شيئًا، استطرد يغمز.

ـ ألا تريدون منا أن نجهز لحرب أمراء القبالى.. قل يا مولانا ألم تكن امرأة إيداكش وأهله عندكم.

t.me/qurssan

قال السنهورى بضعف: هذه عوائد أهل البلاد وهذا واجبنا حماية من لا طاقة له كالنساء والأطفال. واستطرد - سواء كانوا نساء أمراء القبالى أم نسائكم.

لم يتوقف الأغا عند ذلك. كان يريد أن يقول له.. تلعبون ياسنهورى لعبة إمساك العصا من النصف ولكنه عوضًا عن ذلك قال:

- حسنًا أنظروا لما تأخذونه أنتم مقابل ما تدفعون.. لا أعرف لكن ألا يقارب خمسمائة ألف مدينى للعام. فتح ذراعيه غاضبًا - ليس لك أن تغضب يامولانا.

قال السنهورى بطمع: نعم ليس لى أن أغضب لكن من أين لى بأن أدفع ألف ألف وسبعمائة ألف مدينى؟

قال الأغا بهياج: كرباج مولانا.. كرباج. استطرد غامزًا - أنتم تجيدون استخدامه - كى تدفع ما تريدون.. وآخذ ما تقوله فكل ملتزم صغير وكل شيخ مدينة وكل شيخ قرية وكل قبطى أن تأخذها من الفلاحين مضاعفة خمس مرات..

- كيف يستطيع الفلاح أن يفعل والترع غير مطهرة لا تأتى بالماء والفئران تتربص به.. ألا تترفقون بهذا المسكين.. ضحك أغا مستحفظان.

- قلبكم ضعيف يا مولانا يصعب عليكم فلاح خنرير. رفع السنهورى يديه معترضًا فى غضب - ليس هذا ما نقوله.. كيف يؤتى هذا المال.. إسماعيل بك اشترى الأراضى لأنه باستطاعته أن يجبى أموالها من الفلاحين.. ولا أدرى كيف وأيم الله وقد لا يجنى لأنه ربما لا يدفع مثل هذا الميرى للسلطان.. حضرة أغا إذا كان لديك فدان ينتج عشرة أرانب قمح فإن أقصى ما يمكن أن تأخذه من ضرائب هو عشرة أرادب قمح لا يتبقى منها لزارع الأرض فى العالم التالى حبة قمح واحدة.. فإذا افترضنا حدوث هذا وقبلنا به يجب على حضرتكم أن تجيبونى كيف تستطيع أن تأخذ من الفدان خمسين أردبًا من القمح وقد أنتج بالفعل عشرة أرادب فقط.. هذه هى القضية..

ضحك الأغا وأمسك بساعد الشيخ السنهورى.

- أمان ربى أمان.. أنت غضبان كتير سيدنا.. لا تستطيع أن تدفع مال ثلاث قرى خذ قريتين فقط.. خذ قرية واحدة.. أبونا إسماعيل بك سوف يغضب جدًا، هو يريد رضاكم وأنتم تغضبونه.

t.me/qurssan

ـ لا وايم الله هذا شيء.. وهذا شيء. فكر السنهورى مليا قبل أن يقول ـ سوف آخذ أراضى السدود فأغلب أراضيها بور وضرائبها أقل..

انفرج وجه الأغا عن ابتسامة واسعة.

ـ موافق يا سيدنا موافق.. ولكن أراضى هذه المنطقة لا تغل إننى أنصحك بشراء كمشوش أيضًا بجانب أراضى السدود.

رفع السنهورى يده بتخاذل.

ـ لا أستطيع يا آغا فاعذرونى.

ـ رضاكم هو مبتغانا يا مولانا فرضاكم والكل يعلم فهو رضاء الرعية.

انتهى السنهورى لكن كل هذا لم يكن ليمحو الحقيقة المفجعة.. لقد فقد أجود أراضيه. كان قد بلغ باب الجبل.. عبر ساحة الرميلة وميدان الرماية وهو يتوكأ على عصا سأله المعلم إبراهيم.

ـ أين ستذهب يا مولانا..

ـ هل ستبقى بالقاهرة أم سترحل؟

ـ همس بتعب وإرهاق بالغين.

ـ منوف..

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الرابع

- ١ -

أشرقت الشمس على القاهرة وامتلأت الطرقات بالمارة الذاهبين إلى أعمالهم وفتح الباعة الحوانيت وانتشرت الحركة فى ردهات المجاورين، وأثناء خروج الطلاب للاغتسال وتناول الفطور سمع دوى الطبول قادمًا من بعيد. بدا أن أمرًا جللاً موشك الوقوع وفى الردهات كان أحد الطلاب يجرى صائحًا.. العسكر يهاجمون الأهالى.

حاول سليمان أن يستفسر عما يجرى لكنه لم يستطع.. ألقى كل منهم مافى يده واندفعوا خارج الأروقة قفزًا وطبول أهالى الحسينية تستنفرهم... ولم يمض وقت طويل حتى امتلأت الحارات والأزقة المحيطة بالأزهر عن آخرها بالجموع الهائلة. فى الطريق وقف الجميع معًا يستطلعون الأخبار... كان إسماعيل بك قد فرض الضرائب الباهظة على أصحاب الحرف بعد بيع البلاد فى المزاد ورسوا أغلبها عليه.. فأغلقوا جميعًا حوانيتهم معلنين الإضراب وعندما أرسل الوالى أحمد أغا أعوانه لطلب أحمد سالم الجزار شيخ الطائفة البيومية ثارت جميع الطوائف وأمسكوا بأتباع الوالى وأشبعوهم ضربًا وتسلق الثائرون أسطح المنازل وانطلقت النداءات لغلق الأسواق والدكاكين.

تجمع أغلب الطلاب للدرس حول مشايخهم وقد خيم عليهم التوتر. دخل الشيخ عليش متجهمًا من باب الجامع ووجهه متوعد ممسكًا بعصا فى يده ينظر فى وجوه الحاضرين شذرًا يحاول أن يعرف المتغيبين عن الدرس. هز رأسه...

- نصفكم متغيب عن الحضور.

همهم الطلاب ينظر كل منهم إلى الآخر فى تواطؤ ثم ران عليهم الصمت تحدث

t.me/qurssan

محمد المواردى.

- يا مولانا...

فصاح به الشيخ.

- اسكت يا ابن المركوب هو مين أذنك تتكلم. تعال... عشرين عصا.

صاح الفتى والخوف يملأ عينيه.

- لم أقصد يا سيدنا والله لم أقصد. لكن الشيخ عليش كان غاضبًا تركبه العفاريت يود لو يأتى المتغيبون فيجلدهم واحدًا بعد واحد حتى يشفى غليله. ولهذا كان ينهال على المواردى دون شفقة أو رحمة. ولما انتهى من ضربه بدأ درسه.

- أما اليوم فدرسنا... وقبل أن يكمل ظهر المصيلحى وعبد المحسن فصاح بهما غاضبًا - ادخل يا ابن المركوب... ادخل الدرس واقعد هذا درس الامتحان ومن لم يجبه لأقسمن بالله لن يجاز.

بحث عبد المحسن عن مكان خال فأفسح محمد أبو الفضل له مكانًا بجواره.. سأله محمد.

- إيه اللى جرى؟

- دى القيامة قايمة برة والدروس هتبطل فى الجامع.

تنهد الشيخ عليش عائدًا إلى درسه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين... أما اليوم فدرسنا هو تقسيم العلوم لمحمد ابن محمد المطوس وكنيته أبو حامد الغزالى حامى السنة وهادم البدعة حجة الإسلام أستاذ المدرسة النظامية فى بغداد التى أسسها وزير السلاجقة نظام الملك فى أخريات الدولة العباسية وهو صاحب علم ترقية الروح والنفس الإنسانية والسمو بالذكر والخلق لدرجات اليقين الحقيقى أى المعرفة الحقة التى طريقها الكشف والذوق يحصلها المؤمن بطريق المجاهدة والترقى الذاتى من جهة والعوذ والمدد الربانى من جهة أخرى وهذا هو مضمون معنى التصوف فى أبسط معانيه. ويقسم حجة الإسلام الشيخ أبو حامد الغزالى العلوم قسمين: علوم شرعية وعلوم عقلية. أما العلم الشرعى فينقسم قسمين أحدهما فى الأصول وهو علم التوحيد الذى ينظر فى ذات الله تعالى وصفاته القديمة

t.me/qurssan

والفعلية والذاتية وفى أحوال الأنبياء والأئمة من بعدهم والصحابة. وينظر فى أحوال الحياة والموت والقيامة والبعث والحشر والحساب ورؤية الله تعالى وأهل النظر فى هذا العلم يتمسكون أولاً بآيات البله تعالى من القرآن ثم بأخبار الرسول ﷺ ثم بالدلائل العقلية والبراهين القياسية وأخذوا بمقدمات القياس الجدلى من أصحاب المنطق الفلسفى.

اعتدل الشيخ وتنحنح ثم عاد لحديثه دون أن ينتبه له أحد من طلابه إذ دخل من باب الجامع فى زعجة عظيمة عشرات من الطلاب وهم مهتاجون... انصفق باب الجامع فى عنف يحاول البعض منعهم من الدخول. حتى تغلبوا عليهم واندفعوا يثيرون الفوضى فى الأرجاء.

استطرد الشيخ عليش غاضبًا... ولحجة الإسلام الشيخ أبو حامد الغزالى تقسيم آخر للعلوم فى كتابه المنقذ من الضلال لا يختلف عما ذكر قبلاً (لكن صوته ضاع وسط الضجة والصياح فاستمر معاندًا وهو يرى أعدادًا متزايدة من الطلاب تتجمع حول حلقة درسه يصرخون ويلوحون غاضبين يطالبونه بالتوقف)... أضاف فيه السياسات والأخلاق ثم توقف قائمًا يبحث عن بلغته.

- إيه يا ابن المركوب أنت وهو.. عايزين إيه؟

صاحوا جميعًا يريدون أبطال الدرس... قال المرسى:

- الأهالى ثائرون بالخارج بسبب الضرائب المزادة.

- وما بال العلم والدين بالضرائب المزادة... نظر إليهم باحتقار ملوحًا بعصاه - ياللا أنت وهوه عودوا إلى أماكنكم.

تحدث محمد سليمان محاولاً كبح جماح ثورته.

- يا أستاذنا يا شيخنا الفاضل الكريم... إنهم آباؤنا وأخوتنا وأخواننا ومصدر عيشنا. فالتجار والأعيان مصدر رزق لنا وللآخرين أما صناع الطوائف وأصحاب الحرف هم أيدى العباد أن توقفوا ولم يجدوا قوت يومهم لأصاب البلاد ما يصيبهم... وأن جمهرة كبيرة من طلاب الأزهر الشريف مجاورين ومنتسبين تعد أصحاب الحرف

t.me/qurssan

وطوائف الصناع أخوة لهم فنحن مثلنا مثلهم طائفة وأن ارتقينا عنهم بالعلم الشريف هذا فى المبدأ والأساس أما الواقع فهذه الجمهرة تعمل عندهم ومعهم يدًا بيد طلبًا للقوت والرزق فهى تعرف آلامهم وعظائم مصائبهم ولهذا توجب أن تكون معهم قلبًا وقالبًا وتعين علينا قولة الحق نحن طلاب ومشايخ الأزهر الشريف.

فعن النبى ﷺ قال «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان»...

تغضن وجه الشيخ، تجمعت أعاصير الغضب فى جبينه ودارت يده يمنة ويسرة فى حركات متشنجة، نظر إلى سليمان يريد أن يفجر غضبه ومحمد سليمان يستطرد... فهل من العقل والدين أن نرى أخوتنا على هذا؟ وهل من المنطق... وقاطعه الشيخ عليش صارخًا...

ـ من تمنطق كفر.. من تمنطق كفر. واستطرد سليمان والشيخ يقاطعه بنفس العبارة ـ وهل من المنطق أن نرى قومنا وعشيرتنا وأهلنا يهاجمهم ويفتك بهم العسكر ونقف منهم فى مقعد المعتزل والمتفرج؟

توقف الشيخ عليش رافعًا يده وصراخه يدوى فى أرجاء الجامع ـ من تمنطق كفر.

تقدم المشايخ يدفعون جمهرة الطلاب ناحية الشيخ عليش.. وقام عبد المحسن واقفًا يصرخ.

ـ ليه يا سيدنا بتناقض نفسك (وقال مقلدًا الشيخ الذى لم ينس له قط تقليده له)... من تمنطق كفر.. من تمنطق كفر وأنت لسه قايل فى تقسيم العلوم عند حجة الإسلام أبو حامد الغزالى أن المنطق يأتى فى المرتبة الأولى من العلوم العقلية.

ضج الطلاب فى قهقهة صاخبة وضحك المشايخ معهم على استحياء وأصاب الشيخ عليش صمت مطبق...

صاح به طالب مختفى ـ أيوه طب كده متحطش منطق. غمر الشيخ العرق البارد وسط القهقهات الصاخبة التى انفجر بها الطلاب... تقدم إليهم الشيخ مصطفى المنيلاوى طالبًا منهم الهدوء والسكينة. سألهم.

t.me/qurssan

ـ ماذا تريدون؟. أجاب المصيلحى.

ـ إبطال الدرس لأجل أخواتنا وأهالينا... كيف نجلس هنا نتلقى زيد فاعل وعمرو مفعول والعسكر يفعلون بهم أفعالاً شائنة ويضربونهم بالسياط والنبابيت. قال الشيخ المنيلاوى.

ـ وما شأن إبطال الدروس بالفتن والزعجات أنا آت من الخارج ولم أرَ نبابيت ولا يحزنون وإنكم تخلون بهيبة الأزهر وتتخلون عن حيدته بين الأهالى والمماليك والحفاظ على حيدته تؤهله لدور الوساطة بين الأهالى والمماليك.

شاهد عبد المحسن صديقه محمد سليمان يقفز معتليًا إحدى الدكك بمؤخرة صحن الدرس... ضحك بعض الطلاب وجمد البعض يستمع وهم يتندرون... المنطقى سيتحدث.. هكذا كانوا يكنونه.

ـ هذه المحايدة لا تحق. فالعلماء ورجال الدين وإن أصابهم الغنى والثراء هم من جنس الفلاحين وليسوا من جنس المجلوبين والمماليك. اضطرب من فى الصحن جميعه وأحمرت وجوه المشايخ ومحمد سليمان يستطرد ـ فالمحايدة إذًا باطلة وهى فى قول آخر مهادنة ومساومة.. فالعلماء هم عقل الأمة ونورها فإذ لم يضيئوا للفلاح والصانع الأمى الطريق.. من سيفعل إذًا؟.. استطرد رافعًا يده بسخرية ـ المجلوبين. المماليك.. أم الأتراك لا تبيعوا أهل البلاد من فلاحين وأهالى الحرف كما باع يهوذا مسيحه...

صرخ أحد المشايخ ـ ماذا يخبئ قولك تكثر من الكلام ولا تقول شيئًا.

قال شيخ آخر:

ـ ماذا يريد ابن المركوب هذا. وماذا يهم إذا كنا من جنس المماليك أم لا. قال سليمان مقاطعًا.

ـ المحايدة باطلة. ونحن نريد فتوى بجواز محاربة المماليك فإن وجدتم فى هذا مشقة اجعلوها فتوى بمحاربة الظلم فيجاز مدافعة المماليك إذا ظلموا.

تعالت الأصوات حتى هز دويها صحن الجامع والشيخ عليش يصرح وخلفه بقية المشايخ.

ـ إنها الفتنة إذًا إنها الفتنة.

t.me/qurssan

جمع الشيخ المنيلاوى جبته وتقدم معتليًا ركن الدرس طالبًا من الجميع السكوت... توقف حتى خيم الصمت وأمامه فى آخر الصحن مباشرة بقى سليمان واقفًا وعبدالمحسن يخترق الجمع ناحيته يتبعه المرسى والمصيلحى. تنحنح الشيخ المنيلاوى ثم قال:

ـ الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضله فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا عليه وعلى آله تسليمًا...

زام الطلاب يقاطعونه... فرفع يده طالبًا الصمت ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الذى أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله وهو من الدين وقوله تعالى فى صفة نبينا ﷺ. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. هو بيان لكمال رسالته فهو عليه السلام الذى أمر الله على لسانه بكل معروف ونهى عن كل منكر. ولا يجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل أحد بعينه بل هو على الكفاية والجهاد من تمام ذلك فيقوم به كل قادر حسب قدرته. فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإتمامه بالجهاد من أعظم المعروف الذى أمرنا به.

ومن النهى عن المنكر الذى أمرنا به إقامة الحدود على من خرج عن شريعة الله ويجب على أولى الأمر وهم علماء كل طائفة وأمرائها ومشايخها أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر فيأمرونهم بما أمر الله ورسوله كشرائع الإسلام وهى الصلوات الخمس فى مواقيتها والصدقات والصوم وحج البيت الحرام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر شره وخيره ومثل ما أمر به الله ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة ومثل إخلاص الدين لله والتوكل على الله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما ورجاء الرحمة من الله والخشية من عذابه والصبر لحكم الله والتسليم لأمر الله.

ضج الدرس وهاج الطلاب وضاع صوت الشيخ المنيلاوى وسط الدوى الذى امتلأ به سطح المسجد فتوقف رافعًا يده يطلب الصمت ثانية فحصل عليه بعد جهد جهيد فقال: أما المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله وأعظمه الشرك بالله وهو أن يدعو مع الله آخر كالشمس والقمر وأحد الملائكة أو نبيًا من الأنبياء أو رجلاً من الصالحين أو أحد الجن

t.me/qurssan

أو تماثيل هؤلاء وقبورهم فكل هذا وأشباهه من الشرك الذى حرمه الله. ومن المنكر الذى حرمه الله أيضًا أكل أموال الناس بالباطل وقتل النفس التى حرم الله قتلها بغير الحق. كذلك قطيعة الرحم وعقوق الوالدين والسرقة فى المكيال والميزان. والإثم والبغى وكذلك العبادات المبتدعة التى لم يشرعها الله ورسوله ﷺ وغير ذلك.. توقف وهلة ثم استمر قائلاً:

الإخوة المؤمنون...

إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات. لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة.. ورفع صوته قائلاً:

إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب والله لا يحب الفساد.. فحين كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته لم يكن مما أمر الله به وإن كان قد ترك واجبًا وفعلاً محرما. إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباد الله وليس عليه هداهم. وهذا من معنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم). والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الواجبات لم يضره ضلال الضلال... ونسترشد بما جاء فى حديث أبى ثعلبة الحبشى سألت عنها. (أى الآية) رسول الله ﷺ فقال. «بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ورأيت أمرًا لا يدان لك به فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام فإن من ورائك أيام الصبر.. الصبر فيهم مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله.. وعن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال «ستكون بعدى فتن لا يستطيع المؤمن فيها أن يغير بيده ولا بلسانه. قلت يا رسول الله وكيف ذلك.؟... قال ينكرونه بقلوبهم. قلت يا رسول الله هل ينقص ذلك إيمانهم شيئًا؟ قال. لا. إلا كما ينقص القطر من الصفا.. صدقت يا رسول الله.

ولهذا أمر النبى ﷺ بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال: «أدوا إليهم حقوقهم وسلوا الله حقوقكم».

ولهذا كان من أصول السنة والجماعة: لزوم الجماعة. وترك قتال الأئمة وترك القتال فى الفتنة.

t.me/qurssan

توقف الجمع وقد جثم على صدورهم قول الشيخ. وعندما سمعوا صوت سليمان ثانية أصاغوا السمع.

ـ عرفت يا مولانا أن تغير المنكر يكون تارة بالقلب وتارة باللسان وتارة باليد فأما القلب فيجب بكل حال. إذ لا ضرر فى فعله ومن لا يفعله فليس هو بمؤمن كما قال النبى ﷺ. (وذلك أدنى أو أضعف الإيمان)[1]. وقال فى حديث صحيح رواه البخارى ومسلم. (ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)... فهل تأمرون المماليك بالمعروف وتنهونهم عن المنكر بالقلب. أم تمدون لهم يد المصالحة والصداقة، وتتبادلون والآمراء المنافع والمصالح.

هاج الطلاب هياجًا شديدًا بين الغضب والسرور لفترة طويلة تصايحوا.. توقف الشيخ سليمان حتى صمتوا فاستطرد يتحدث فى صوت قوى واضح النبرات وقد سيطر على جمهرة المستمعين وحواسهم.

ـ قيل لابن مسعود رضى الله عنه: من ميت الأحياء؟... فقال: الذى لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. فاشتد ضجيج وهياج الطلاب على المشايخ ـ فمن هو ميت الأحياء اليوم؟ الجاهل الأمى أم العالم الفقيه.. الفلاحين وأرباب الصناعات والحرف أم الأئمة والعلماء...

... هاج الطلاب هذه المرة هياجًا بالغًا والشيخ المنيلاوى يسأل وقد امتقع وجهه من شدة الغضب.

ـ من هو هذا الكافر؟ من هو... وصاح الشيخ عليش ـ تريد فتوى بجواز قتال المماليك. والله لتأخذها منى أنا ياملعون. فتوى بحل دمك.

صرخ الشيخ أبو المعاطى الصاوى ـ والله إنما أنت المفتون الموصوف فى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فى الصحيحين (تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير)[2]... وما أنتم إلا دعاة فتنة.

اصمت يا طالب الفتن يا عدو الإسلام.. اصمت يا شيطان يالئيم.

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه مسلم.

t.me/qurssan

أجابه محمد سليمان ـ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خطبته (أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية «عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وإنكم تدعونها على غير موضعها. وإنى سمعت رسول الله ﷺ قال إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك يعمهم الله بعقاب منه) ولك يا مولانا فى عاد وثمود عبرة لقوم رأوا المنكر فلم ينتهوا عنه.

قفز المرسى بجوار سليمان. قال بصوت جهورى ـ إنما الرأى عندى يا أساتذتنا الأفاضل أن فتوى العلماء والمشايخ بجواز مجاهدة الظلم ومدافعته إنما تقوى قلوب العامة والضعفاء والفقراء من أبناء البلاد وتذهب بقلوب المماليك فأعطونا الفتوى بجواز قتالهم تصنعون فى أبناء البلاد خيرًا.

قاطعه الشيخ المنيلاوى:

ـ قال أستاذ فاضل وعالم جليل قبلى أن رسول الله ﷺ أمر بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة. وهم يقيمون الصلاة وقال (أطيعوا ولو ولى عليكم عبدًا حبشيًا).. فلا يجوز إعطاء فتوى فى ذلك. وأقول جازمًا وبكل وضوح وعلى عكس ما قال أهل الأهواء والبدع والضلالة كالخوارج والمعتزلة.. أقول إن من أصول السنة لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة وترك القتال فى الفتنة.

صاح المصيلحى موجهًا حديثه للطلاب ـ الناس تدهس بالخيول وتضرب بالسياط فى الحارات والدروب وليس بقدرة علمائنا أن يجتهدوا.

... الاجتهاد. الاجتهاد.. غمغم المشايخ.. قفز الشيخ عليش صاعدًا الدكة مشوش الرأس يصرخ فى هيستيريا.

ـ بموت الإمام أحمد بن حنبل قفل باب الاجتهاد.. قفل باب الاجتهاد.. قفل باب الاجتهاد..

خيم على الصحن الصمت التام فلما انتهى قال الشيخ سليمان فى صوت بارد: نعم يا شيخنا الفاضل نعم.. قفل باب الاجتهاد فوئد عقل الأمة والآن تحكم بالعبيد..

وعقب عبد المحسن شاخصًا إلى الأبواب: وحق أن يبلوها الله بالطاعون.. إلى الأبواب. واستمر بأعلى صوته ـ إلى الخارج... إلى الخارج.

t.me/qurssan

اندفع الطلاب من أبواب الأزهر فى جموع كثيفة.. رأى عبد المحسن محمد أبو الفضل منزويًا خلف أحد الأعمدة يخفى وجهه جذبه من كم قفطانه وهو يسأله بعتاب غاضب ـ ألن تأتى؟ رفع أبو الفضل رأسه إليه فى خجل ـ أنت حر يا عبد المحسن أما أنا... ألمح بعينيه للشيخ عليش الذى تربع فى صدر الدكة مصرًا على إتمام درسه ـ يخبر مولانا السنهورى.

ـ إذا حضرت الدرس تخون زملاءك وإذا لم تحضر لا يبقى عليك شيئًا ولا يلومك أحد فقد خرج الجميع. نظر إلى الأرض وهو يهز رأسه رافضًا.. حاول عبد المحسن أن يقول شيئًا.. ود أن يبصق عليه لكن قدسية المكان منعته وكذا أصدقاؤه الذين جذبوه معهم خارجين.. سار معهم يفكر فيما هم مقبلون عليه من أمور جسام لا يتساوى معها إقناع رعديد جبان.

تابعه محمد أبو الفضل وعينيه مملوئتين مقتًا وكرهية وغضبًا أسود.. غمغم فى حقد ـ عايز تحارب المماليك يا ابن توحيدة.. روح بحق جاه النبى بارودة تأخذ روحك..

لم تمض دقائق حتى كان الشيخ عليش يؤم الدرس وليس أمامه سوى طالب واحد.. سأله وهو ينظر إليه متهكمًا ـ ما اسمك؟

أجاب أبو الفضل فى تعب. ـ محمد عبد الرحمن أبو الفضل يا مولانا.

غمغم ساخطًا ـ والفتى مقطوعة ساقيه أم من العميان.. دا حتى العميان بره فى الحارات بيحاربوا مع الأهالى.

خفض أبو الفضل رأسه وغمغم خجلا: أنا تابع سيدنا ومولانا الشيخ أبو الأنوار السنهورى.

هز الشيخ عليش رأسه: فهمت يا ابن المركوب؟.. فهمت.. طيب اسمع بقه. واستمر الشيخ عليش فى الدرس.

- ٢ -

على الأسطح كانت الطبول تقرع وانتشر الرجال فى الأسواق.. بعد ساعتين أقبل الشيخ العروسى على بغلته.. وطوال الطريق كان المارة يهتفون فى وجهه ويدفعون بغلته إلى الأمام وهو حائر يريد العودة ولا يستطيع وعندما بلغ الجامع عنفهم بسبب قفل

t.me/qurssan

أبواب الأزهر فأمسكوا به غاضبين.. جذب أحدهم نعليه وقذفهما فى الهواء فتجرأ آخر وحاول جذب عمامته.. جرى المرسى وعبد المحسن مع بعض المحاورين يحاولون إنقاذه من وسط العامة ويدفعون الناس عنه وهو يصرخ ضاربًا بذراعيه فى كل اتجاه.. يا أولاد المركوب.. أنا ح أوريكم.. كيف تهزءون بشيخ عجوز مثلى؟ كان يهز رأسه متأثرًا وينادى أين المشايخ.. جذبه الطلاب إلى رواق المنايفة. قرب الظهيرة توافد عليه الشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومى والشيخ دردير والشيخ محمد الصاوى.. جلسوا يفكرون فى الأمر وفى اجتماع كبير ضم تجار البن والبهار ونصارى القبط والأروام والشوام وشيخ المغاربة وباعة القماش والقطن والبطانة والمنجدين والصاغة والجواهرجية والنحاسين وتجار الغلال. تحدث الجميع عدا الشيخ السنهورى الذى وصل لتوه إلى القاهرة عائدًا من الصعيد بعد مقابلته أمراء القبالى واكتفى بالصمت والمشاهدة.

كتب المشايخ والأعيان عرضحالاً إلى إسماعيل بك يطلبون منه رفع أسباب ذلك. حملها الشيخ الدردير وما أن خرج من باب الجامع حتى تدافع إليه العامة يسبونه ويستهزئون به ويتصايحون عليه والمجاورون يدفعون عنه الناس بالعصى. وما أن وصل إلى باب زويلة حتى سارع بالاختباء بجامع المؤيد وأرسل إسماعيل بك يخبره بالحال فأرسل له تذكرة تفيد بأن الأمر كان على سبيل القرض والسلفة من القادر وأنه أعطى الناس الأمان ودعى الناس للانفضاض ولن يطالبهم أحد بشىء.

تصايح الناس عندما علموا بالأمر وقالوا إنها مخادعة كى تطمئن قلوبنا.. فعندما تسكن الهوجة سيأخذوننا واحدًا فواحدًا.

قرب العصر جاءت الأخبار من بولاق بأن القليونجية هاجموا أصحاب الحوانيت واختطفوا البضائع بدون ثمن وانهالوا بالنبابيت على عمال السواحل وأن أفرادًا من الأهالى قد سقطوا قتلى.. تدافع مئات من الطلاب والأهالى باتجاه الساحل وطوال الليل شوهدت أضواء المشاعل فى سماء الحسينية والوكالة والغورية. وفى الحارات والأزقة استلقى الناس حتى الصباح بينما استنفر الوالى عساكره على البوابات.

قبل الفجر تفاذف الظلام طلبة تقفز فوق الأسوار والبوابات. ومن المنعطفات الشاحبة المطلة على الميناء برزت رأس عبد المحسن قرب قليونجات إسماعيل بك.. تبادل إشارة مع أشباح متناثرة ثم هبط زاحفًا باتجاه الساحل.. رفع رأسه مصوبًا فوهة غدارته ناحية أحد القليونجات.. أطلق البارود ثم قام يجرى تكشفه أشعة الصباح

t.me/qurssan

الاولى.. تصاعد الصياح عاليا فى عسكر القليونجية واندفعوا يجرون فى كل الاتجاه يجمعون أسلحتهم وهم يصرخون صراخًا عاليًا ولمسافة مائة متر عبرها فى أنحاء متعرجة متجهًا إلى الحى تاركًا جسده هدفًا لبارود عسكر البحر الذين تجمعوا لمطاردته.. وعندما توغل القليونجية كثيرًا فى الأزقة والحوارى بدأ البارود يحصدهم من فوق الأسطح ومن خلف النوافذ والأبواب جماعات جماعات.. وبينما كان القليونجية يحاولون الانسحاب من المذبحة التى استدرجوا إليها كان المغاربة قد هاجموا المراكب وقطعوا حبالها ورموا صواريها إلى النهر.

* * *

فى مساء هذا اليوم طالب المجتمعون فى ساحة الأزهر بعزل الوالى فرفض المشايخ بشدة.. قال الفيومى للأعيان ومشايخ الحرف:

ـ أنتم تطالبونا بما لا طاقة لنا به.

وقال الشيخ الأمير ـ وما الفرق بين بكتمر وباش بكتمر كلهم نفس العجينة.

وقال العروسى ـ ... اطلبوا غير هذا الأمر.

فى هذه الليلة انتحى السنهورى بالشيخ العروسى جانبًا واستغرقا فى حديث هامس.. اليوم تمر ثلاثة أعوام بالتمام على رحيل حسن باشا القبودان فى أكتوبر ١٧٨٧ وأشار بيده.. وهو الآن الصدر الأعظم للسلطنة.. فلم يستقر حال البلاد لا به ولا بصنائعه إسماعيل بك وحسن بك الجداوى. لقد غالى كل منهما فى النهب والسلب ولم يكتفوا وعجزا عن إقرار الأمن فى البلاد فهى تسير من سيئ إلى أسوأ ولا هما يشبعان من المال فيأمنا حال الرعية وثورتها ولا هما على وفاق فيصيران قوة كما هو الحال بين إبراهيم بك ومراد بك فيهزماهما ويستقر حال البلاد وينصلح حال الزراعة والتجارة وأصحاب الحرف.. فيروق الحال للجميع.. تطلع إليه العروسى مستشفًا ما يريد.

همس..

ـ أراك قد حددت جانبك شيخ سنهورى. رفع السنهورى حاجبيه.

ـ إنما نحن نمسك العصا من المنتصف.. أنا أفعل.. أنت تفعل.. كل رجال العلم العاقلون يفعلون.. أليس كذلك..؟

t.me/qurssan

لم يستطع العروسى أن يخالفه أو يدخل معه فى مجادلة عقيمة. هز رأسه بالإيجاب فقال السنهورى ـ فالمستحسن أن نمسك العصا من المنتصف.. وأمساك العصا من المنتصف فن يا سيدنا. إنه فن أخذ كل ممكن دون فقد كل شيء. هز العروسى رأسه موافقًا على شيء لا يفهمه جيدًا طالما ظل مجرد حكمة.

ـ وماذا ترى..؟

ـ الآن يعانى الصديقان اللدودان إسماعيل بك وحسن بك من الشقاق والضعف فيما بينهما.. وهناك قلق العامة وثورتهم وفقد الأمراء للدعم والتأييد من رجال الأزهر بسبب هجومهم على حقوقنا وامتيازاتنا.. وإعادة بيع البلاد دون أن ننال منها شيئًا مع تزايد قوة أمراء القبالى وضغوطهم الحربية عليهما. كل هذا يجعل قوتهم محدودة بل ربما معدومة.

رفع العروسى رأسه... ـ أفصح...

قال السنهورى ضامًا حاجبيه الكثيفين ـ أقول يا مولانا.. إنه باستطاعتنا الآن وفى هذه اللحظة أن نؤيد طلب العامة بعزل الوالى. فقبول إسماعيل بك بعزله ضعف له وقوة لنا نحن المشايخ.. وعدم قبوله ضعف له أيضًا وزيادة فى الاضطراب والقلق..

دمدم العروسى ـ ... وهل تريدها فتنة مشتعلة...

أغمض السنهورى عينيه وقبل أن يقوم راحلاً غمغم : إنما أريد أن ينتهى سوء الحال الذى نحن عليه منذ قدوم حسن باشا القبودان.

فى الصباح ذهب وفد من المشايخ إلى إسماعيل بك يطلب عزل الوالى فأجاب معتذرًا بأن الوالى يتبع حسن بك فقال العروسى إلى الجداوى الذى قال بقرف أنا أعزل الوالى التابع لى ويعزل هو الآخر الأغا تابعه ويعزل رضوان كتخدا المجنون من المقاطعة ويعزل مصطفى كاشف من طره ويطرد عسكر القليونجية والأرنؤدى.. ثم قام غاضبًا.

طوال أسبوع دارت مناوشات متكررة وحادة بين الوالى والأهالى الذين زاد تحرشهم به وتبادلوا الضرب بالنبابيت وكثر خروج العامة حتى رضخ كل منهما للأمر فعزل إسماعيل بك الأغا وعزل الجداوى الوالى وعينا كشافين على مديريات خارج البلاد.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الخامس

- ١ -

كانت الشمس كرة حمراء قانية تسرع نحوها المركب والنيل ينحنى غربًا... ظل ينظر إلى صفحة المياه تتلاحق عليها الأمواج بلا نهاية حتى تبلغ القرص الأحمر المعلق على حافة الأفق... اغرورقت عيناه بالدموع. أمامه تدلى شبح صديقه الشيخ محمد سليمان مشنوقا من عنق الشمس.. تمامًا كما تدلت أسفل بوابة النصر منتفخة تفوح رائحتها بنعل حرارة شمس الصيف الملتهبة، وعيناه المفتوحتان إلى الفراغ فى تساؤل غاضب تشوبه مرارة وآسى ومسحة حزن وقد امتلأ جسده بآثار التعذيب.

كانت الأحداث قد هدأت وتراجع إسماعيل بك عن الضرائب التى فرضها.. فهدأ الناس والعامة وذهب كل إلى حاله وفى الأيام التالية أرسل شيخ البلد إسماعيل بك وقائم مقامها الوالى والأغا يهاجمون الدور ليلاً فيأخذون المطلوب الذى فرضه قبلاً من المال والفرد، والناس مستسلمة عاجزة تشكو ولا تقدر على أكثر من الشكوى والدعاء إلى الله بالانتقام من السلطان ومن ولاة الأمور.

وطوال أسبوع اختفى سليمان المنطقى خرج الطلاب والمجاورين بحثًا عنه حتى ظهرت جثته معلقة على باب النصر والمنادى ينادي على نقرات الطبول... فلاح جاء من جرجا... سرق عنزة وجمل... فحل عليه حكم قاضى القضاة وأمر مولانا إسماعيل بك قائم مقام السلطنة بالموت شنقًا وبالمقرعة... والعبرة لمن لايعتبر.

قال عبدالمحسن لشبحه الذى ملأ الأفق أمامه ـ كيف يؤدى بك المنطق إلى هذا المصير يا أعز الأحباب. وانهار باكيًا.

t.me/qurssan

ابتسم له شبح المنطقى هازئًا ـ وهل كان لديك أنت الآخر منطق حتى يكون هذا مصيرك.

نظر إليه من خلال دموعه... هيه... فأنت الذى تحدثت به وأنت الذى دفعتنى لسؤال الشيخ المنيلاوى... لماذا قيل من تمنطق كفر... فحار جوابًا فتقدمت أنت. ـ إنما هى ضغينة ادعاها النحويون على الفلاسفة كرهًا للمنطق وضيقًا به ـ فكأنك فتحت باب جهنم. ونهر الكراهية... نهل بشوق من وجهه الأسمر الحاد القسمات.. لم يكن لدينا منطقى سواك.. أما ما أنا فيه فهو الأقدار تدفع الإنسان فى لجة اليم لا يدرى أين المفر من عذابات روحه فينشد الهرب من الحياة بالموت من الدنيا بالآخرة عسى أن يجد المأوى وحسن المصير..

ـ ليس ثمة قدر فى هذا.. إنما هى سمة من المنطق تعلقت بها... اعتراف بالعقل..

سقطت الشمس واختفى قرصها الأحمر خلف الأفق وتلاشى شبح المنطقى... حاول أن يذكره فصاح ـ لقد أتانى الشيخ عليش... لكن صديقه رحل تاركًا خلفه ضلفتى بوابة الزمان العملاقة تنغلقان بصرير موحش... على أشعة الشمس النهارية شاهد زخارفها ونقوشها وطلاسمها السحرية...

.. ضج فى الفضاء صوت رتاج يقفل بشدة ورنين سلاسل صدئة.. كان يعلم أن الظلام سيهاجمه الآن سمع صوت صديقه يأتى من أعلى... قفل باب الاجتهاد فوئد عقل الأمة... فالآن تحكم العبيد... فكر عبدالمحسن وحق أن يبلوها الله بالطاعون.

* * *

عبرت المراكب قرية البيسلينا فى الهزيع الأخير من الليل.. وطوال الليل كان عبدالمحسن يتابع أشباح الفلاحين وهم يعملون بدأب وعجلة فى تقوية الجسور تحسبا لمجىء الفيضان.. فى الصباح لوحت له امرأة بيدها ومثلها فعل كثير من الصبية والأطفال وعندما كان المركب يقترب من الجسر كان الفلاحون يشاهدون قيوده وسلاسله بوضوح فترتسم على وجوه الشيوخ نظرة حزن حكيمة أما النسوة فكن يرفعن أيديهن إلى السماء بالدعاء الحار له بالرحمة والسكينة على أمه.. وبصوت حازم كن يمنعن أطفالهن الذين كانوا يقذفونه بالحجارة ويشيعونه بالشتائم واللعنات الضاحكة..

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

وطوال الضحى كانت مقدمة المركب تسير باتجاه الشمال الغربى حتى توقفت فى الظهيرة عند ميناء جرجا.. تأكد الجرسجية من شد وثاقه وقبل أن يذهبوا للبر ضربه كبيرهم فى وجهه بمقدمة حذائه ثم خرج يتبعه جنوده.. لم تمض دقائق حتى هبط المركب كاشف جرجا عثمان بك طبل الذى سلم القاهرة فى عام ١٧٩١ منذ أربعة أعوام إلى مراد بك وإبراهيم بك بعد موت أستاذه وعدوهم اللدود إسماعيل بك بالطاعون.. خلفه كان هناك جمع من التجار والحمالين.. .. هرول باتجاه عبدالمحسن ووقف أمامه ممسكًا بسوطه.. انحنى عليه يمعن النظر جيدًا باستغراب ودهشة.. دفعه فى كتفه وقبض سوطه وهو يحدث نفسه ـ أهذا من دوخ حسين بك الأشقر طيلة عامين وأفتى فيه الشيخ سنهورى بحل دمه.. نشهد الله أن كليهما مجنون.... ضربه بمقبض سوطه على وجهه تاركًا جرحًا نافذًا...

ـ إنت إيش جلبت على نفسك لص قاتل؟

رفع عبدالمحسن إليه رأسه متضرعًا فى صمت.. ضحك عثمان أبو طبل ضحكة مجنونة وانحنى عليه وقد رسم على وجهه فزع شيطانى.. سوف يشويانك.. الشيخ والسنجق.. سوف يشويانك حيًا.. هـا.. لماذا لا يتخليان عنك لى.. فرك يديه كمن يستعد لالتهام وليمة عامرة.. كنت سأسلخ جلدك قيراطًا قيراطًا.. كنت سأخوذقك.. كنت سأنتف شعر عانتك شعرة شعرة قبل أن آخذ بيضتيك لأسحقهما مع خلطة هندية وخصية ثعلب وعظمة ديب أحمر والله لقد دخل سلطان تلمسان بهذه الوصفة على أربعين بكرًا فى ليلة واحدة... اهتاج الرجل عن أفكاره الشبقة دار حول نفسه دورة كاملة ثم سقط جالسًا القرفصاء مد يده فاتحًا فخذى عبد المحسن فتدلى قضيبه من بين حقويه.. أزاحه ممسكًا بخصيته.. وجاس فيهما فى غلظة وعنف.. صرخ عبدالمحسن من الألم فابتسم عثمان بك طبل.. إنهما ضعيفتان.. يجب أن يطعموك جيدًا.. صرخ على الجرسجية ـ يجب أن يأكل جيدًا سيموت قبل أن يبلغ منوف يا أغبياء.. سمعت أنه صديقك.. هل خانك.. لا شك أنك قتلت زوجته تنفيذًا لرغبته.. الأشقر هذا خبيث.. خانك كى يبرأ ذمته.. هه.. قل لى جربوع كبير.. هز عبدالمحسن رأسه نفيًا فرجع عثمان بك أبو طبل إلى الخلف مندفعًا وهو يجأر بالصراخ وعاد ينهال عليه ضربًا بالسياط.. فلاح خنزير.. كيف تجرؤ أن تقتل الأميرة شريفة التركية الأصل

t.me/qurssan

الكريمة المحتد سليلة الحسب والنسب.. أمان.. أمان.. أمان ربى أمان.. صرخ على الجرسجية.. هل تريدونه أن يموت قبل أن يأخذ حقه من العقاب.. وأنت.. أشار إلى كبيرهم

- قبل أن تترك جرجا مر على لأعطيك رسالة إلى حسين بك الأشقر.. أنا أريد خصيتيه.. صرخ ثانية...

- أطعموه جيدًا خنازير أغبياء من شأن جلاد يقدر على تأديبه .. يشويه على النار.. يخصيه بالسكين يخوزقه بسيخ محمى.

نادى كبيرهم بغلظة... قولى حمار إذا خنزير لص حرامى صار ضعيف مكسور أو مات منكم كيف يقدر جلاد على تأديبه وتهذيبه.. فهمت حمار كمان أخبر أبونا وسيدنا الشيخ السنهورى إنى أمسكت له عصفوره وأطعمته جيدًا كى يكون سمينًا عند الذبح فليدعو لنا بالبركة وحسن الختام وليحدث السلطان عنا..

صاح على رجل وقف على ميزان فشرع فى العمل على الفور.. قبل أن يصعد إلى أعلى أشار إليه وهو يفح...

- سوف أجعلك أمثولة لبر مصر من قبلى إلى بحرى.. أشار إلى كبير الجرسجية إشارة فهمها على الفور وطوال ساعتين كان نوتية المركب ينفذون ما أمرهم به كبير الجرسجية بينما اندفعت الأجساد الهزيلة العارية للحمالين فى طابور طويل باتجاه قاع المركب وهم يحملون جوالات الغلال.. غاص المركب رويدا رويدًا هابطًا فى قاع النهر تحت ثقل الحمولة.. قرب أذان العصر كان نوتية المركب قد انتهوا من تنفيذ مهمتهم التى كلفهم بها قائد الجرسجية.. شاهد النوتية باندهاش صارى المركب وهو يرتفع عاليًا.. سأل كبير النوتية إذا كان سينشر القلاع فنهره قائد الجرسجية.

- إذا كنا ذاهبين إلى القاهرة فكيف ننشر القلاع يا غبى.. غمغم الرجل حائرًا وهو ينظر إلى الصارى المرفوع..

- لماذا رفعنا الصارى إذًا؟

قال كبير الجرسجية مشيرًا إلى عبدالمحسن..

t.me/qurssan

- سوف ننشر هذا.

تدافع أربعة من الجرسجية بنشاط وفكوا قيدوه من أماكنها.. نظر حوله لا يدرى ما الذى ينتوون فعله.. دفعوه دفعًا ناحية الصارى.. رفعه من الأرض خطفًا ليجد نفسه معلقًا بمنتصف الصارى مصلوبًا من ذراعيه على عارضة أفقية.. ربطوا ذراعيه وفخذيه وجسده جيدًا بالحبال ثم تركوه.. رويدًا أخذ ثقل جسده يحمل على ذراعيه.. شعر بالألم الطاغى يزداد ثقلاً على عضلات ساعديه وكتفيه، ورأسه لا يجد ما يستند به عليه.. ظل يكبح الألم الذى ينهش جسده.. أمامه كان يرى الحمالين يهبطون باطن المركب ويعودون لا يجرءون على رفع أعينهم إليه.. مرة واحدة شاهدوه مصلوبًا معلقًا فى مقدمة السفينة فداهمتهم رياح.. عواصف قشعريرة من الخوف ناءت به رءوسهم وهم يتلون آيات القرآن الكريم.. على البر شاهده قلة من الناس بوجوههم السمراء المنخفضة والرعب يفتح أفواههم.. أدار رأسه بتثاقل إلى الضفة الأخرى من النهر.. طويلاً ظل هكذا وقبل أن يدير رأسه عائدًا إلى الضفة الأخرى شاهد من خلف ضباب الدموع حشدًا هائلاً من الفلاحين يحملقون فى صمت وكأن على رءوسهم الطير.. كانت جرجا قد تجمعت لمشاهدة المصلوب. دوت فى الفضاء صرخة ألم عالية فاهتز الجمع. واغرورقت الأعين بالدموع. نظر إليهم نظرة أخيرة قبل أن تسقط رأسه إلى الأمام مغشيًا عليه..

هز الفضاء صوت انفجار عنيف أيقظه.. فتح عينيه.. خلف غمام ملون كانت الشمس تهبط فى الأفق الأرجوانى وقد طاف به بقعتان سوداوان. حدق النظر.. رأى على كل من طابيتى المدينة الموجودتين فى شرق النهر وغربه راية سوداء.. إنه الطاعون.. فتح عينيه رعبًا ثم أغلقهما وهو يدمدم.. هكذا أموت قبل أن أبلغ منوف.. وتحته شاهد الجرسجية يتحركون بجنون وهم يدفعون الحمالين إلى الخارج تحت ضربات السياط.. كانت المركب قد قاربت على الامتلاء.. رفع النوتية مرسى المركب دون أن يأبهوا بالحمالين الذين تساقطوا قفزًا إلى النهر.. أسرع قائد الميناء ينادى من فوق البر.

- أنتم ممنوعون من المغادرة...

t.me/qurssan

لوح له قائد الجرسجية فاعلاً فعلاً قبيحًا بساعده.. كانت المركب قد بدأت فى التحرك بالفعل ولم تمض لحظات حتى ابتعدت عن الشاطئ فى هوجة وارتباك وزعيق يأكل كل أفرادها.. صرخ شيخ بصوت جهورى من الشاطئ مناديًا كبير الجرسجية.

- يارجل.. اسمع حديثى هذا. قال كبير الجرسجية بسخرية وهو يحث النوتية على الإسراع - قل ما تشاء... أنا أسمع لك...

- سأل أسامة بن زيد ماذا سمعت من رسول الله فى الطاعون؟ فقال.. قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل أو على من كان منكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه».

صاح به قائد الجرسجية - فنحن إذًا سمعنا به فى أرض لا ندخلها.. ونحن عنها راحلون.. وطوال دقائق طويلة كان يشاهد الجرسجية يرمون الحمالين الذين تبقوا فى المركب إلى النهر فيقفز بعضهم عائدًا إلى البر سابحًا ويسقط الذين لا يعرفون السباحة غرقى فى النهر.. ولم تمض دقائق حتى غابت جرجا عن الأنظار.. خيم الظلام على ضفتى النهر إلا من أضواء شاحبة قليلة تأتى متناثرة من بعيد وقد بدا بر مصر قفرًا إلا من دوى المدافع الذى كان يأتى بانتظام من المدن القريبة معلنًا ظهور الطاعون.. وعلى سطح المركب تجمع عدد صغير من النوتية حول النيران وقد انعكست ألسنة اللهب على وجوههم الشمعية فبدوا كالأصنام التى طواها الزمن وتخلى الناس عن عبادتها.. كانوا يرفعون عيونهم إليه خطفًا.. ويعودون لينظروا إلى النار مطرقين.. قطع النوتى العجوز الصمت.

- أيجىء هذا الطاعون كما جاء الطاعون الكبير منذ أربع سنوات..

تناهى إلى عبدالمحسن صوت النوتى العجوز وهو يتحدث:

- لقد ظل إسماعيل بك ست سنوات مؤيدًا من السلطان العثمانى نفسه ووزيره حسن بك القبودان لا يستطيع إبراهيم بك ومراد بك المرده هزيمته والقضاء عليه حتى قضى عليه الطاعون الكبير فى عام ١٧٩١ فكان الطاعون يحصد من بر مصر خمسة آلاف نفس فى اليوم حتى مات به هو وأعوانه وأتباعه وقضى عليهم فدخل مراد بك وإبراهيم بك القاهرة دخول الفاتحين. غمغم أحدهم:

t.me/qurssan

- سبحانه جل شأنه الخالق الواهب الرحمن الرحيم القادر على كل شيء.. يا رب أعنا على ما ابتلينا به.

غمغم عبدالمحسن بحزن كسير - لو أن إسماعيل بك لم يمت لما دخل إبراهيم بك القاهرة ولما أصبح السنهورى نقيبًا للأشراف ولا أصبح حسين الأشقر سنجقًا للمنوفية... تأوه. جاءه صوت النوتى الذى كان قد جمع النوتية فى حلقة للذكر وهما يرددون وراءه لا إله إلا الله محمد رسول الله.. أغثنا.. نجنا يا رسول الله.

تساءل عبدالمحسن ورأسه يتهاوى مغشيًا عليه.. ماذا أرى.. كان الآن يسبح فى الظلام لا يقطع السكون سوى دوى المدافع والأطراف السوداء لرايات الطاعون.. تناهت إليه أصوات خافتة رتيبة من على بعد تقطعها صيحات خرساء وبكاء وعويل متقطع.. نظر لأسفل لم يكن هناك أحد حول النار ولا سطح مركب... لا نهر... لا عجوز.. كان يسبح فى السماء منشورًا على ظهر الرياح وأمامه فى الأفق رأى أضواء مفترشة قلب الظلمة ومشاعل متناثرة على اتساع جهد العين للنظر.. حدق مبهوتًا.. عندما أخذت الأضواء تتحدد عن دروب تتلوى كالثعابين وشوارع تفتح أفواهها للدروب ودور تصطف كالمقابر وقصور تخبوا أضواؤها البهيجة لتذوب فى الظلام فلا يبقى منها سوى أشباح تهرول لقوم يكتنفهم الموت من كل جانب.

-٢-

كانت القاهرة ترزخ تحت الوباء.. وقد خرج أهلها ألوفا مؤلفة لا هم لهم سوى الطاعون والموت.. وفى الدروب كانت النعوش تتحرك صفوفًا متراصة وخلفها الرجال والنساء الشعث لا يدركون ما هم فاعلون لا تحكمهم سوى آلية دفن الموتى.. وفى الظلام كانت غلالات الضوء الصفراء تكشف عن دوامات من الكتل البشرية.. عسكر ورجال يحفرون الحفر الصفراء تكشف عن دوامات بمئات من الأطفال والشباب والجوارى والعبيد والعسكر المماليك من أفراد وسناجق وقليونجية.. ومن بيوت الأمراء والعامة كانت الجنازات تخرج خلف النعوش بالعشرة والكتل المتراصة من الناس تتزاحم فى طوابير وتتقاتل على أبواب الجوامع طلبًا للمغاسل والعدد والحمالين وفى داخل صحون

t.me/qurssan

المساجد والمصليات كان المصلون يصلون على النعوش بالعشرة مرة واحدة.. وفى الشوارع تساقط الناس موتى بالطاعون.

عند مفارق الطرقات والدروب تجمعت أعداد غفيرة من الأهالى حول عدد من المشايخ والقصابين ممسكين بالسواطير تحلقوا جميعًا فى حلقة يتوسطها ثور قيدت سيقانه الأربع فى قيدين متباعدين يرددون خلف المشايخ الأدعية طلبًا لرد الطاعون.

... اللهم إنى أسألك بأسمائك يا قوى يا مهيمن يا قريب.. خلصنا من الوباء والطاعون.. يا الله الآمان.. يا ذا النعمة السابغة.. يا ذا الكرامة الظاهرة.. يا ذا الحجة البالغة.. خلصنا من الوباء والطاعون.. يا الله الأمان.. يرددها الأهالى خلف المشايخ.

.. يا حى لا يموت.. يا صمد لا يطعم.. يا غنى لا يفتقر.. خلصنا من الطاعون والوباء يا الله الأمان..

يا الله يا رحيم يا أقدم من كل قديم.. يا أعظم من كل عظيم.. يا آكرم من كل كريم خلصنا من الطاعون.. يا الله الأمان..

اللهم إنى أسألك بأسمائك الحسنى يا أول الأولين وآخر الآخرين يا أرحم الراحمين اعصمنا من جميع الآفات وخلصنا من البليات وارفع عنا الوباء والبلاء برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا..

وقبل أن يبدأ الشيخ فى تلاوة سورة الإخلاص يجذب الرجال الحبال التى تربط الثور فى اتجاهين عكسيين فيقع على ركبتيه الأماميتين ويشرع واحد من كل جهة فى ضرب الثور بساطور حاد.. واحد خلف آخر ويندفع الدم الغزير يتناثر على الجميع وفى وسط بركة الدم يوزع على الواقفين كل منهم قطعة من اللحم حتى يحصن من الطاعون والبلاء والطاعون يشتد دون جدوى حتى أكل الناس الحمير والكلاب والقطط الضالة.. ثم سقط إسماعيل بك قائم مقام البلاد ميتًا بالطاعون فخرج فى نعشه وحوله أحفاده يدفنونه على عجل وهم يبكون ومات الأغا والوالى فعين بدلاً منهما فماتا أيضًا.. ثم نازع حسن بك الجداوى على بك الدفتردار فى الإمارة.

وجاد طرطرى على عجل ومعه مرسوم من عند السلطان بعزل الباشا فاستعد من فوره. للرحيل لكنه ووجه من الأمراء.. هتف حسن بك الجداوى فى وجهه:

t.me/qurssan

- هذا غير مناسب يقال إن الباشا أخذ مال معه وهرب... فأجابه مغتاظًا:

- أنا أبقى عندكم الكتخدا فحاسبوه نيابة عنى.

فقال له على بك الدفتردار:

- أنت تبقى فى القصر العينى للمحاسبة.

وأرسل عثمان بك طبل الوالى والأغا يناديان على الساحل والبر المراكب بأن كل من يحمل شيئًا من متاع الباشا ويرحل يستاهل ما يجرى عليه وطرد النوتية من المراكب حتى حضر الباشا الجديد فصعد إلى القلعة من فوره وعقد ديوان المحاسبة وعمل حساب الباشا المخلوع فطلع عليه مائتا كيس ولكن بشلى من الروم حضر وبيده مرسوم من السلطان يطلب محاسبة الباشا المخلوع ابتداء من شهر توت فأرسلوا له ثانية وحجزوا على الباشا المعزول وآخرجوا عزاله من المراكب ونادوا على الساحل مرة ثانية.

وفى آخر الطاعون أعطيت الإمارة لتابع إسماعيل بك. عثمان طبل. وكان أول ما واجهه ظهور إبراهيم بك ومراد بك على مشارف القاهرة فأرسل على بك فتحصن بطره وصالح بك تحصن بالجيزة وحفر خندقًا من البحر إلى المتاريس ونادى على الفلاحين للحضر وفى آخر يونية ١٧٩١ دخل عمر مكرم أفندى الأسيوطى رسولاً من إبراهيم بك ومراد بك فاستقبله السنهورى وعدد من المشايخ سرًا والتقى بشيخ الأزهر الشيخ العروسى وأخبره أن عبدالرحمن بك قد حضر من الأستانة عن طريق الشام وصعد من خلف الجبل إلى قبلى حاملاً رسالة من السلطان بالعفو عن أمراء القبالى وسألهم ماذا يرون فأخبروه بضعف الأجناد وانكسار شوكتهم وبلغوه برسالة إلى مراد بك وإبراهيم بك بسرعة القدوم والأمراء فى القاهرة على هذه الحال من الضعف وقبل أن يفيقوا من غفوتهم فيرسلوا فى طلب العسكر من كل البلاد والأجناس ويحضروا اليسرجية والمماليك والمجاليب فتقوى شوكتهم فتكون الطامة على العباد من أهل البلاد.

وقال السنهورى: إن الباشا الجديد لا يعرف زيد ولا عبيد ولا يحمل ضغينة لأحد وهو ليس وثيق الصلة بأى أمير وهم أى المشايخ سيدعون للصلح والوئام.

وفى اليوم التالى والقاهرة لا تزال مظلمة تتناثر فى أرجائها الجثث والجيفة والأوساخ اجتمعوا فى ديوان القلعة لدى الوالى الجديد محمد باشا عزت وقرأ السيد

t.me/qurssan

عمر مكرم رسالة أمراء القبليين «إننا فى السابق طلبنا الصلح مع إخواننا والصفح عن الأمور السابقة فأبى المرحوم إسماعيل بك ولم يطمئن لطرفنا وكل شىء نصيب والأمور مرهونة بأوقاتها والآن اشتقنا إلى عيالنا وأوطاننا وطالت علينا الغربة وعزمنا على الحضور إلى مصر طلبًا للصلح وبيدنا مرسوم من السلطان بالعفو والرضا والماضى لا يعود ونحن أولاد اليوم. تقولون من يضمننا هاكم أسيادنا المشايخ سدنة الإسلام وعلماء الحق وحماة الدين الحنيف.

التفت محمد باشا عزت إلى المشايخ..

- ما قولكم؟

تقدم العروسى هز رأسه قائلاً: إن الخلاف بينهم وبين أمراء المصريين الموجودين هنا الآن.. فإذا كان الأمر كذلك فإنكم تخرجون إليهم فتقاتلهم رجل لرجل ولا تظلوا خلف الحصون حيث لا غالب ولا مغلوب فهذا يهلك العباد وإذا كان غير ذلك فنحن نترجى فيهم الشفاعة والصلح فالحال على هذا لا يطاق والواجب أن يأتى الوارد ويفرج عن الغلال والأموال فتزول الغمة وتروج الحال.

استدار الباشا إلى عمر مكرم وقال:

- عليكم بالرجوع إلى مكانكم وإرسال المال والغلال ونرسل نحن عرضحال إلى الدولة بالإذن لكم بالدخول فإن الأمراء الذين بمصر الآن لم يدخلوها بسيوفهم بل بأمر السلطان الذى أخرجكم منها فإذا حصل الرضا العالى عنكم فلا مانع من قدومكم ودخولكم فنحن جميعًا تحت الأمر..

* * *

عسكرت جيوش المتنازعين جنوب القاهرة فتقدم إبراهيم بك ومراد بك خيولهما إلى حلوان وتمترس حسن بك الجداوى وعلى بك الدفتردار والباشا عند طره.. ومن بعيد شاهد كشافى على بك الدفتردار إبراهيم بك مدافعه بالمراكب فتراجع على عجل يبلغ قائده بنزوح إبراهيم بك عائدًا إلى قبلى فقرر على بك العودة إلى القاهرة وقبل أن

t.me/qurssan

يجمع عساكره للانسحاب.. كان صالح وأحمد بك المعسكران فى العادلية ينهبان الارض نهبًا باتجاه طره.. دخلا خيمة أستاذهما حسن بك الجداوى والذى بوغت بهما فنهض واقفًا فى قلب خيمته. وقبل أن يقرأ السلام صاح أحمد بك.

- القبالى يخرمون من وراء الجبل جهة العادلية.. صرخ حسن بك فيهما:

- ماذا تقولان.... أجاب أحمد بك:

- لقد شاهدنا محمد بك الألفى وعمر لاجين يتحركان باتجاه سبيل علام ويعبران جبل المقطم قفز حسن بك الجداوى من مكانه قفزا وهو يصرخ بهما.

- عودا إلى أماكنكما ونادى قاسم بك ومصطفى الكاشف يأمرهما بالدعوة إلى انعقاد الديوان بالقلعة على الفور.

شهد الطريق إلى القلعة تتابع الفرسان وهى تأتى مسرعة وكان حسن بك الجداوى جالسًا على يمين الباشا بصدر الديوان فلما اكتمل الحضور تساءل على بك الدفتردار ساخطًا.

- لماذا دعوتم الأمراء للحضور من المقدمة ونحن فى حالة الحرب هذه.

فأجابه الجداوى:

- يا أمير لقد أخبرت بأن عسكر القبالى يتحرك باتجاه العادلية.. وقف على بك الدفتردار وقد نال به الغضب مبلغه.

- مرة عائدين إلى قبلى ومرة قادمين من العادلية.. خبرونى با& عليكم جن أم شياطين كى يكون القبالى فى ثلاثة أماكن فى لحظة واحدة استطرد ساخرًا.. ربما معهم الشيخ أبو خطوة أو أن مراد بك ينتعل حذاء علاء الدين. ابتسم عثمان بك طبل وهو يمسد ذقنه ساخرًا وقام يتحدث فى تؤده.

- يا جماعة الخير إن صعود المقطم والقدوم من عنده هو مشقة ما بعدها مشقة وهؤلاء القبليين أجناس من الجبناء فروا أمام حسن بك القبودان والمرحوم إسماعيل بك حتى أسوان دونما جهد ولا تجريده فهم لا يأتون إلا من عند حلوان والرأى عندى أن نظل حيث نكون. قام حسن بك الجداوى منتفضًا من فوق مقعده وقد استشاط غضبًا وصرخ فى وجه عثمان بك وقال:

t.me/qurssan

- بئس الأمير أنت وبئس الرئاسة عندما تكون فى غير أهلها والله لا أنام فى دارى حتى لا أوخذ فى فراشى ومن بين الحريم فأساق كالنعاج.. استدار محدثًا على بك الدفتردار..

- كيف يعودون إلى قبلى وهم لم يتوقفوا لحظة عن طلب القاهرة أيام كنا فى منعة وقوة فهم قادمون أكان هذا فى طريق طره أو عبر الجبل.. فأنا أقوم وأحاربهم وحدى حتى أرسلكم إلى جهنم الحمراء.. استدار خارجًا فاعترضه الجميع.. غمغم على بك الدفتردار:

- نحن لسنا فى حاجة إلى من يدفع فى قلوبنا الشجاعة.. ونحن اتفقنا على محاربتهم.

قاطعه عثمان طبل:

- أولسنا نحاربهم الآن.. قولوا لنا ماذا نفعل ولا داعى للهيجان والغضب.. استدار حسن بك الجداوى عائدًا إلى صدر الديوان ووقف على يمين الباشا حتى صمت الجميع.

- الرأى عندى أن يذهب على بك الدفتردار وعثمان بك طبل بعساكرهما إلى العادلية وسوف أبقى أنا وعسكر الباشا فى طرة تصاعد الصياح بالرفض فمد يده غاضبًا واستطرد وقد رفع صوته.

- فإذا جاءوا إلى طرة استقبلتهم بجنودى وتحملت عبء قتالهم وحدى فلا يقول أحد أنا عسكرت بالعادلية وجاء القبالى من طرة أوهمنا حسن بك بقدومهم من العادلية فلم يصبه مكروه وظل وحده على منعة وقوة.. وإن جاءوا من العادلية يكون هناك من يدافع عنا ويزود.. تعالى الاستحسان وإن كان الباشا قد رغب هو الآخر فى النزول للعادلية قرب القلعة فاستطرد قائلاً:

- لنرسل إلى المشايخ بالخروج غدًا لإظهار تأييدهم لنا ولنرسل المنادين أمام الوالى والأغا ينادون على الرعية والعامة كافة بالخروج صباح الغد ليشاهدوا المشايخ فى صحبة الأمراء والباشا فيشاع عند الخصوم والرعية أن المشايخ معنا.

t.me/qurssan

وطوال الليل شوهدت أعداد هائلة من المشاعل تهبط من القلعة ووسط ضوضاء شديدة وعلى طول الطريق إلى العادلية تجمعت أعداد هائلة من الجنود يجرون مدفع شركفلك الضخم الذى صنعه إسماعيل بك مع جملة من المدافع الأصغر فى جلبة هائلة ظلت حتى صباح اليوم التالى.

وفى داخل القاهرة خرج المنادون ينادون على الرعية والعوام بالخروج كافة فلم يخرج أحد لا من الرعية ولا من المشايخ وكان أول العازفين عن الخروج الشيخ السنهورى.

قرب الضحى طرق باب قصر السنهورى ثلاثة فرسان ملثمين ودخلوا على السنهورى على عجل.. استقبلهم السنهورى مبهوتًا لا يدرى أى طارق سوء يأتيه فى هذه الأوقات العصيبة وعندما كشف عثمان بك طبل تلميذ إسماعيل بك المصروع وقائد عساكره عن وجهه لم يتوقف عقله عن التفكير فى المصائب القائمة.

ـ تفضلوا حضرة عثمان بك طبل..

أشار عثمان بك إلى حارسيه فتخلفا وبقى هو منفردًا بالشيخ.

ـ أنا أريدكم فى شغلات سريات مولانا.. دلف به السنهورى إلى الإيوان.. أجلسه وهو يحدثه باهتمام بالغ.

ـ خير يا بك.

ضاقت عينا عثمان بك وهو يركزهما بشدة فى عينى الشيخ. قال بصوت بارد وهو يمد له يده..

ـ أعطنى عهدًا بكتمان السر.

ـ لك هذا يا بك. فلما أقسم له الشيخ بعهد الله ألا يخبر أحدًا بما سوف يحدثه به البك اقترب عثمان بك برأسه من رأس الشيخ وهو لا يزال ممسكًا بيده وتحدث بصوت خافت والسنهورى مخفض العينين ينظر لأسفل.

ـ مولانا الشيخ.. اكفينى الأمان عند إبراهيم بك ومراد بك فإن فعلت أعطيتهم القاهرة من جهة العادلية.

t.me/qurssan

رفع السنهورى عينيه إلى عثمان بك يملؤه الشك خوفًا من أن يكون الأمر كمينًا له..

ـ ولماذا يا بك أتخادعون رفاقكم.

شعر السنهورى بيد الفارس تسحق يده :

ـ شيخ سنهورى وهل يهمكم أمر الجماعة.. جميل.. الجماعة على فرقة وخلاف والأمر مآله لإبراهيم بك ومراد بك فأنا أسلم لهم القاهرة دون إراقة دماء وقذف مدافع وشغلات فارغات مقابل أن أصير مع الأخوان إبراهيم بك ومراد بك المعظمان..نأكل من خيراتهم وبقايا فتات مائدتهم ونبقى فى هذا البلد الجميل. وبدلاً من الشحاذة فى بلاد الشام والأروام أو مد اليد فى أراضى الحجاز الشريفة ليس مطمعى أكثر من كشوفية أو ولاية مديرية... فلما انتهى جذب السنهورى يده والألم يعصرها وهو يهز رأسه موافقًا:

ـ افعل يا بك.. افعل.. اعذرنى كنت أخشى أن يكون فى الأمر مكيدة.. اعذرنى يا رجل.. الآن أرسل رسولاً إلى إبراهيم بك على وجه السرعة فيأتيك الخبر قبل آذان الظهيرة.. ألا تعلم أن المشايخ لا ترغب فى أن يصير قتال من أجل العوام والناس.. فمن لا يرحب بما تفعله وهو خير للجميع أنتم وأمراء القبالى والمشايخ والعامة..

ـ أنت سنهورى شيخ عفريت.. شيخ حويط.. كنت تختبرنا قبل أن تقدم على خطأ يودى بك إلى هلاك محتوم.. هاء.. ها.. ها.. الآن اذهب حتى لا يحدس أحد سر غيابى.

ـ كيف تعلمون إذًا يا بك.

ـ أين ستصلون العصر؟

ـ فى الجامع الأزهر. قاطعه وهو يقوم.

ـ اجعله فى جامع السيدة عائشة.. هناك نلتقى. أسرع خارجًا على عجل وهو يعيد اللثام إلى وجهه وانطلق على جواده وخلفه تابعاه.

عند آذان العصر جلس عثمان بك طبل خلف السنهورى الذى كان يؤم الصلاة فلما انتهى مال عليه مسلمًا وهو يهمس قائلاً:

t.me/qurssan

- الأميران يعطياك الأمان وكشوفية أعظم مديريات البلاد وأغناها.

فتح عثمان بك طبل عينيه عن آخرها..

- أى كشوفية شيخ سنهورى ولك البشارة.. القليوبية؟

- لا.. جرجا. قام عثمان بك مبتهجًا.

- لم أكن أتوقع.. لم أكن أتوقع.. هذا خير عظيم.. والله هذا خير عظيم.

* * *

كانت الشمس فى كبد السماء تلقى بحرارتها اللافحة على سفح جبل المقطم.. عبر العسكر الجبل وقد أنهكهم الحر الشديد وأخذ بهم الإرهاق كل مأخذ لا يجدون بالجبل مكانًا يستظلون فيه وقرب الظهيرة شاهد المدافعون عن القاهرة ثلة من الفرسان تطل من أعلى الجبل وقفت هنيهة ثم ما لبثت أن اختفت.. مر الوقت بطيئًا قبل أن يطل حسين أغا الأشقر يقود طليعة جيش مراد بك.. هبطوا من الجبل بأقدام أثقلها الإجهاد والحر اللافح. نادى على بك الدفتردار بالاستعداد للهجوم لكن عثمان بك طبل قاطعه فى عجلة.

- إذا هاجمتهم الآن تتشاغل بهم وهم قلة على حين يكونوا هم قد دبروا خدعة فيجيئون عن طريق طرة.. ورأيى أن نمتنع عن الاشتباك بهم الآن فإذا كان غرضهم حصارنا تراجعنا وكرنكنا بالقلعة أما الآن فنقف على استعداد.

وافق على بك الدفتردار وأمامه كان عساكر القبليين فى ازدياد متواصل حتى اكتمل جمعهم ولم يشتبك الطرفان وإنما اتجه الأشقر بجنوده باتجاه سبيل علام منتظرًا قدوم محمد بك الألفى مقدم عسكر مراد بك وأستاذه مصطفى أغا إيداكش. كان القلق يسيطر على أوساط المدافعين وكانت الخيول تدق الأرض وسقط الجنود منطرحين على الأرض حاملين حرابهم وبنادقهم وغداراتهم وسيوفهم لحين نفخ النفير للحرب وبدا أن القلق لدى الأمراء أشد عنفًا عنه لدى العسكر. وكانت حلقة القلق تشتد وتشتد، ثم إنها بدأت فى الانفراط لوهلة عندما قام الباشا معلنًا أن العصر قد أزف ولن تكون هناك حرب اليوم ولسان حاله يقول إذا كانت الحرب قادمة والنصر فيها غير مأهولة لأحد

t.me/qurssan

فلماذا اختار جانبًا عن جانب فإذا خسر الجانب الذى أنا فيه الآن صرت تحت رحمة إبراهيم بك ومراد بك وإنما أصعد إلى القلعة فإذا وقعت الحرب الآن أكون من غير الفريقين.. ثم إنه اختفى بجنوده لا يمنعه أحد وكان رحيل الباشا هو الإشارة فمن الميسرة حدثت جلبة يسيرة من خلف انثناءة الجبل لم يشعر بها أحد.. كان مصطفى الكاشف ينادى فى جنوده سرًا فإذا اصطفوا نهض مرة أخرى وإذا هم يتقدمون بالخطوة السريعة باتجاه سبيل علام حيث قدم نفسه إلى أستاذه القديم محمد بك الألفى..

لم يفهم أحد من معسكر المدافعين عن القاهرة ماذا يجرى بالضبط وعلى حين غرة إذا بمحمد بك المبدول ينفصل بأتباعه مكبكبًا فى نفس الاتجاه الذى سار فيه مصطفى الكاشف من قبل.. صرخ على بك الدفتردار يتابع محمد بك المبدول بالشتائم متهمًا إياه بالخيانة ونقض العهد... ركض على بك بجياده فى كل اتجاه ثم توقف بغتة نادى على عساكره لقطع الطريق على محمد بك المبدول لكن عثمان بك طبل اندفع نحوه وهو يدعوه كى يتراجع صارخًا وهو يشير إلى الميمنة.. إنها الخيانة.. الخيانة.

نظر على بك الدفتردار مشدوهًا وهو يرى قاسم بك متجهًا نحو مراد بك بسبيل علام. كانت الصحراء ترى جوادًا ينهب الطريق نهبًا من اتجاه طرة عندما وقف حسن بك الجداوى أمام على بك الدفتردار وعثمان بك طبل فاستقبله الدفتردار ساخطًا..

- أتتركنا هنا أمامهم جميعًا وأنت بطره.!

- لولاى لما كنت أنتم الآن بالعادلية ولكنا جميعًا نهرب من طره متجهين إلى قبلى وهم يدخلون القاهرة.. واستطرد بحزم :

- نحن أبناء اليوم لنتعاهد ثلاثتنا على الوقوف أمامهم وصدهم ولا يزال الأمر بيدنا نحن نتراجع إلى القاهرة ونغلق أبوابها ونكرنك بالقلعة.. فنضرب عليهم من أعلى فنحصدهم حصدًا.. فاطمئن على بك الدفتردار وانبسطت أساريره وأقسم عثمان بك طبل أنه ليحارب القبالى معهم أو وحده حتى تأمن البلاد شرهم أو يلقى ربه ولم ينفصل عنهم حتى العشاء، وفى غلائل الظلام أشار أحد مساعدى الدفتردار باتجاه الشرق.. حدق على بك فى الظلمة مشدوهًا وهو يرى الكتلة الضخمة من الأحناد.

t.me/qurssan

تتحرك باتجاه سبيل علام.. فتح فمه دهشة وقبل أن ينطق جاءه أحد سناجقه حاملاً رسالة من عثمان بك طبل.. قال السنجق..

- عثمان بك طبل يبلغك السلام ويقول لكم إذا شئتم فاتبعوه وإن كرهتم فأرض الله واسعة.. شهق على بك الدفتردار وسقط مغشيًا عليه وعندما أفاق ركب مع حسن بك الجداوى وسناجقه وصالح بك وعلى بك وخلفهم عساكرهم وأجنادهم من خلف القلعة على طريق طزة إلى قبلى..

أصبحت القاهرة لمدة ساعة خالية من الأجناد إلا من الباشا وطوال الليل شوهدت المشاعل تضىء القاهرة وطلائع أجناد المنتصرين تجوب الأزقة والحوارى وقد احتمى الأهلين فى بيوتهم خوفًا من أعمال السلب والنهب..

وفى الصباح الباكر دخل القاهرة طابوران طويلان من الديناصورات والغيلان وخلفهم سار ركب طويل من الحملان والجمال ظل حتى الظهيرة ثم تقدم إبراهيم بك فشق القاهرة ومعه سناجقه ومماليكه على ظهور الخيل ومترجلين ولابسين الدروع حاملين السيوف والبنادق والغدارات.. ثم تبعه سليمان بك وأحمد بك كلارجى وعلى أغا وسليم وقائد آغا وقاسم بك الموسوكبى وكشافيهم وأغواتهم فى عدة الحرب.. أما مراد بك فإنه دخل عن طريق الصحراء ونزل إلى الرميلة وصحبه عثمان بك الإسماعيلى حيث كان جمع المشايخ فى انتظارهما.. كان أول من نودى عليه هو الشيخ السنهورى فتقدم فى تؤدة فنزل له إبراهيم بك عن ظهر جواده وانحنى مقبلاً يده. أما مراد بك فامتنع لسوء صحته وكان قد علم أن السنهورى قد بلغ الشأن الأكبر. ثم إنه سلم على بقية المشايخ وعاد إبراهيم بك إلى جواده يتقدمه المشايخ ومعهم كشافوهم وأغواتهم وصعدوا جميعًا إلى القلعة فوجدوا بابها مفتوحًا حيث أعلن لهما قائد القلعة بأن الباشا ينتظر قدومهم جميعًا.

- ٣ -

تقدم الشيخ السنهورى إبراهيم بك وعدد من أتباعه المقربين عابرًا حرملك قصره ثم ما لبث أن دلف إلى حجرة واطئة أشعل فيها مشعلاً.. دفع حجرًا فانكشف باب صغير فى أحد الجدران وخلفه برز سرداب طويل ظلوا يسيرون فيه لمسافة طويلة... حتى

t.me/qurssan

خرجوا فجأة فوجدوا أنفسهم فى مقبرة مقفرة تقع خارج سور القاهرة.. أشار السنهورى إلى القبر فتقدم عدد من الرجال الأشداء فقاموا على فتحه.. هبط السنهورى متجهم الوجه إلى أسفل ثم ما لبث أن ظهر وجهه وعليه ملامح السرور هتف.

- هذه أمانتك يا بك كاملة غير منقوصة..

أشار إبراهيم بك إلى أتباعه فهبطوا يساعدونه على الهبوط.. وفى داخل المقبرة كان هناك سبعة عشر صندوقًا مملوءة بالجواهر والياقوت والذهب والفضة.. وطيلة الظهيرة كان إبراهيم بك يتأكد من كمال وديعته التى أودعها لدى السنهورى قبل هروبه من القاهرة منذ ست سنوات أمام عسكر حسن باشا القبودان.. ثم إنه خرج متهلل الوجه منفرج الأسارير.. وقبل أن يصعد قال الشيخ السنهورى الحلوان يا أمير.

فتح إبراهيم بك عينيه وقال منبسطًا.. لك ما تريد اطلب ما شئت.. مال السنهورى على يد الأمير يقبلها والأمير يتراجع باحترام.. وهو يقول بتبجيل:

- العفو يا سيدنا ومولانا.. العفو.. التواضع من شيمة أهل الكرم والجود.

- ود. ووو.. أريد..؟

- أمرك؟ - المشهد الحسينى.

- إنها فى دار البكرى منذ زمن بعيد.

- إن مراد بك يتوق إلى الانتقام من السيد البكرى وأخاف أن يولى المشهد لأحد المشايخ غيرى.. هز إبراهيم رأسه موافقًا.

- لم يصن البكرى ما أودعه مراد بك لديه كما حفظتها أنت لى.. كشر السنهورى وجهه وهو يقول موغرًا صدر الأمير على السيد البكرى.

- يا أمير أراد البكرى أن يخطب ود حسن باشا القبودان دون أن يراعى حق الأمانة.. ... فجزاؤه جزاء خائن العهد والأمانة.

- سيكون المشهد الحسينى لك.

* * *

t.me/qurssan

بعد انتهاء المصلين من صلاة العشاء مال الشيخ المهدى على الشيخ البكرى الذى كان يصلى بجانبه هامسًا:

- المشايخ يريدون زيارتكم بعد الصلاة.

فتح السيد البكرى عينيه فقد كان يعيش أيامه منذ دخول مراد بك القاهرة فى ذعر وقلق وترقب.

- على الرحب والسعة.

وطوال الساعة كانوا يتقاطرون عليه فحضر الشيخ العروسى والأمير والصاوى والشرقاوى وكان السنهورى آخر من جاء وبدأ الشيخ المهدى الحديث قائلاً:

- يا سيد يا بكرى.. نحن نعلم أنكم فى كرب وغمة وكى تفوت على مراد بك فرصة التنكيل بكم اتفق المشايخ على أن يتكاتفوا معك.. وأول ما ينوى أن يفعله مراد بك هو عزلكم عن المشهد الحسينى والرأى أن تتنازل عنه أنت بنفسك إلى الشيخ السنهورى فإذا مر وقت يسير تنازل هو لكم عن المشهد النفيسى وبهذا يحفظ حقكم ولا يخرج المشهد لغيركم وأنتم أهل عز وأهل كرم.. وكذا نفوت على الأمير مراد بك انتقامه وليكن معلومًا أن كل ما يتم الاتفاق عليه إنما بموافقة الأمير إبراهيم بك.

تهللت أسارير السيد البكرى وقام من فوره معلنًا عن موافقته ولم يخرج السنهورى من دار البكرى إلا وفى يده وثيقة التنازل فلما حصل عليها واستولى على الدفاتر نكث عهده ولم يتنازل عن المشهد النفيس بل أخذ يخطط وبعد العدة للاستيلاء على المشهد الشافعى والمشهد الزينبى وباقى الأضرحة لكثرة إيرادها حيث يودع فيها الخلائق من كل المدائن والفلاحون من كل القرى والأنحاء القرابين والزوادات والنذور. فلما تم له ما أراد بموافقة الأمير إبراهيم بك ترفع عن لبس التاج وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج وحضور مجلس ورد الشاذلية الذى هو رئيسهم ومحل عزهم وخلع العصابة وصار يلبس قاووقًا بعمامة خضراء تشبهًا بأكابر الأمراء وامتناعًا عن التشبه بالمتعممين من الفقهاء المقرئين.

قبل أن يتهيأ العامة للصلاة بالمسجد الحسينى سمع المصلون ضجة وكبكبة عظيمة على دار مباشر المشهد الحسينى السيد محمد البدوى الذى كان من وجهاء الناس الذين

t.me/qurssan

يخشى جانبهم. فخرج جميع المصلين وبينهم كبار المشايخ وتجمعوا جهة الدار.. وفوجئ الناس جميعًا بالشيخ السنهورى يقف وقد أحاطه العمالقة من طلبته ومن المتعممين من أشياعه فى نصف دائرة وقد حمل كل منهم نبوتًا وهم يصرخون ويصيحون على السيد محمد البدوى.. يا كافر.. يا زنديق.. يا متعدى على أموال بيوت الله.. يا ظالم الفقراء والمحتاجين.. اخرج أيها المستهزئ بأهل العلم والشريعة.

خرج الرجل على عجل لا يدرى ما الأمر فاستقبله الطلبة بالشتائم والسباب.. جرى الرجل إلى الشيخ السنهورى مستفهمًا متضرعًا.. يحاول أن يقبل يده مستغفرًا.. لكن السنهورى جذب يده بعيدًا وهو يستغفر الله بصوت مسموع وهو مربد الوجه غاضب السحنة.

ـ أستغفر الله وأعوذ به من الشيطان الرجيم ومن كل نجس وسخ.. وصرخ فى وجه الرجل:

ـ أتريد أن تنجس يدى يا ابن المركوب... سقط الرجل على ركبتيه أمام الشيخ هاتفًا وقد ارتج عليه الأمر:

ـ ما أذنبت بحق أحد يا سيدنا.

ـ وهل يعترف السارق بسرقته والله لآخذ حق الفقراء والغلابة ومريدى وجهه منك.. أشار إلى رجاله فأمسكوا بالرجل وأوقعوه أرضًا فسقطت عمامته وتدحرج على الأرض وعيناه تجولان فى وجوه القوم دهشة وفزعًا لا يدرى ماذا حل به وما سيحل. شدوا وثاقه ودفعوا قدميه عاريتين لأعلى بعد أن أوثقوها بالفلكة.. وأمام الجمع الخفير من الناس وأمام أهله وحريمه ورواد بيته انهال السنهورى على قدميه يضربه بجريدة محمصة وهو يردد.

ـ إذا كان السيد البكرى قد ترك يدك فى أموال المسلمين تسرقانها وتنهباها سويًا فأعلم أن هذا العهد قد ولى، وإن تأديبك واجب على حتى تكف عن ذلك وإن لم تردع يا شيخ المنصر لأخلعن عنك عمامتك وجبتك وأضعك بالقلعة بين اللصوص والقتلة حتى تتأدب.. كان الرجل يصرخ.

t.me/qurssan

- برىء يا سيدنا والله العظيم برىء يا مولانا.. ثم ما لبث أن بكى والشيخ يصيح به.

- تكذبنى يا كافر.. والله لأزيدن فى عذابك وعقابك رحمة بك من عذاب النار وجهنم حيث لا مفر ولا مهرب. فلما انتهى من عقاب الرجل طرده من منزله ودخل يؤم الناس بالجامع الحسينى وبدأ خطبة الجمعة على المنبر قائلاً:

«بسم الله الرحمن الرحيم وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأستغفر الله وأتوب إليه أما بعد فقد حكى عن أبى ذر الغفارى رضي الله عنه أنه قال... قال رسول الله ﷺ: ما من مؤمن إلا وله كل يوم صحيفة جديدة فإذا طويت وفيها استغفار يكون بها نور يتلألأ. فأستغفر الله العظيم... فيا أيها الناس ما من أحد فى الدنيا إلا وعليه ملكان موكلان من الله تعالى يحفظانه.....

* * *

كان لهذا الحدث دوى عظيم وظن الباقون أن ما حدث ليس إلا زوبعة سلطان وخبل مجنون لن يلبث أن يردعه زملاؤه لكنهم فوجئوا به فى اليوم التالى يهاجم عظماء السدنة ودورهم وصوامع غلالهم واتبع المشهد الحسينى بالمشهد الشافعى والزينبى والنفيسى والجيوشى وزين العابدين فأخذ صناديق النذور عن آخرها وهو يصرخ فى القوم.

سوف أوقف القليل الذى صادرته من الكثير لديكم على بيت مال المسلمين فأنذر جزءًا منه للفقراء وجزءًا لكسوة الكعبة والباقى نرسله إلى جيش المسلمين ضريبة الجهاد فى حرب الكفرة المسكوب. ولم يعرف أحد ما هو بيت مال المسلمين هذا إلا أنه ظل يراسل ويحاسب ويشامخ على أدنى شىء وكان يكاتب فلا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقدرة فى الدفاتر، ثم إنه أعفى من كل مال نسب عليه منذ قدوم حسن باشا القبودان. وبعد أن طرد السيد محمد البدوى من داره واستولى عليها وأخذها لسكنه هدمها من فوره ثم شرع فى بنائها من جديد.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل السادس

- ١ -

قضى عهد إسماعيل بك وحسن بك الجداوى وأحكم إبراهيم بك ومراد بك سلطانهما على البلاد ثانية.. وفى منوف شاهد الفلاحون على بك ملط يفر مع جنوده باتجاه الشام ولم يمض يومان حتى دخلها سليمان البواب كتخدا ومقدم عسكر كاشف المنوفية القديم مصطفى أغا إيداكش ثم جاءت الأميرة شريفة وابنتها فاطمة من سجن الإسكندرية على مركبة مطهمة تجرها ستة جياد.. وشاعت الأنباء بقرب عودة مصطفى أغا إيداكش الذى قلد سنجقا.. وتبودلت القصص حول مصرع حسين أغا الأشقر مملوكة فى المنيا.. حيث أقام له أستاذه ضريح فخم وتركه باكيًا عليه.. على أن الإشاعات القوية بزواج الأغا من ابنة كتخداه سليمان البواب قويت بشدة.

أشار الشيخ السنهورى على سليمان البواب أن يأخذ لأستاذه قصر على بك ملط الذي كان قد شارف على الانتهاء من بنائه عدا الأبراج العلوية للقصر وأسواره ودعا الأميرة شريفة وابنتها للإقامة فى قصر السبيل الذى كان مواجها لقصر على بك ملط والذى كان ملكا لرضوان بك.. ومنذ الصباح الباكر شاهد الفلاحون العمل قائما على قدم وساق وبعد قرابة أسبوعين خرج موكب كبير من أعيان المديرية ووجهائها وكبار مشايخها يتقدمهم الشيخ السنهورى والسيد حسن البقلى والشيخ عبد الحى نور الدين قاضى قضاة المدينة باتجاه بحر الفرعونية حيث وجدوا سليمان البواب واقفا يتقدم أورطة تشريفة وأورطة مدفعية على المرسى بانتظار وصول كاشف المديرية القديم.

وقف الأعيان والمشايخ يثرثرون بنوادر وفكاهات طريفة حدثت فى عهد الأغا القديم كان هو بطلها ومن حين إلى آخر كانوا يتطلعون إلى الجنوب بانتظار قدومه.. غمغم السيد حسن البقلى :

t.me/qurssan

- الصبر فالنيل فى أوطى منسوبه وربما يعوق المراكب.

قال السنهورى..

- إنه يأتى على مهل لأنه لا يجد تيارا يدفعه.

نظر إليهم سليمان البواب وقال بعزة وافتخار العالم وحده بالأمور.

- سيأتى راكبا قنجة خفيفة أما أحماله فتأتى محملة على مراكب خلفه.

قرب الظهيرة برزت من جنوب الخليج مقدمة قنجة كبيرة فشخص الجميع لها بأبصارهم. لمحوا فوهة المدفع والمملوك المدجج بالسلاح الواقف بجواره. تدافع الجميع نحو المرسى وقبل أن يصبح على مبعدة ثلاثمائة ذراع برزت ثلاث مراكب ضخمة واحدة بعد أخرى وهى تسبح فى المياه مثل أوزات سمينة.

وقف السنجق على ظهر القنجة بجسده السمين الضخم فاتحا ذراعيه مهللا وقد امتلأ وجهه بالبشر فتزاحموا وتدافعوا يلوحون له وقد مست بشاشته شغاف قلوبهم. أشار سليمان البواب إلى قائد أورطة المدفعية فانطلقت فى الفضاء ثلاثة مدافع على التوالى مرحبة للقادم.. ومنذ أول طلقة أصيب إيداكش بحال ذهول.. دار حول نفسه غير مصدق ثم ألقى نفسه على الأرض وهو يصرخ.. خيانة.. اندفع جنوده إلى المدافع وخلال لحظات كان جانب القنجة قد تحول إلى ترسانة من السلاح.. فتدافع جمع المستقبلين يلقون بأنفسهم على الأرض دافنين رءوسهم فى الطين.. وسقط بعضهم فى الماء طالبا الفرار سباحة وكادت أن تحدث مذبحة لولا أن حسين الأشقر صعد إلى ظهر القنجة وهو يعلن فى سخط ألاعيب سليمان البواب السخيفة.. وأمر عسكر القليونجية بالتراجع.. وعندما نظر إلى المرسى كاد أن ينكفئ من الضحك وهو يرى الرءوس والعمائم قد اختلطت بالطين والوحل وتبللت اللحى.

قام إيداكش ثانية وقد عادت إليه ابتسامته الواسعة.. ألقى عسكره بالمراسى فتقدم نازلا.. فشرعت طبلخانة الطبول فى عزف لحن السنجقية.. وتدافع نحوه القوم يستقبلونه بالتبويس والأحضان.. سقطت دمعتان من عينى السنهورى وهو يحاول جاهدا أن يبقيهما حتى يلحظهما السنجق وقد فاض قلبه بجيشان العواطف لصديقه القديم.. دار الأشقر ينظر إلى الجميع قفل راجعا إلى الجانب الآخر للقنجة.. قفز إلى مركب الغلال حيث اختفى.. هبط يسير على الساحل دون غرض وهو يملأ ناظريه من المكان

t.me/qurssan

الذى عاش فيه قبلا.. قادته قدماه دون أن يدرى إلى مرسى القلعة القديم.. جاب بناظريه المنطقة ثم توقف أمام الأبراج الثلاثة.. حدق بها.. شعر وكأنها حية تنبض.. داهمه الصداع وأصابه دوار وهو غير قادر على أن يرفع عينيه عنها.. عبر الجوار جرو يعدو فأفاق عائدا إلى المرسى الجديد وعلى الطريق الترابية الموصلة إلى منوف تحرك طابور طويل من العسكر متقدمين أستاذهم الذى ركب جواده بين مسقبليه تتبعه ثلة من الفرسان وخلفهم سار خط طويل من العربات الخشبية أثارت دواليبها الضجيج والكركبة وهى تصطك بالأرض تاركة سحابة ضخمة من الغبار ولم تمض الساعة حتى شاع وصول مراكب الغلال فتدافع الفقراء على طول الطريق لا يستر جلودهم شىء يصرخون من الجوع والقحط الذى حل بهم حتى قنطوا من رحمة الله. عجز الجنود عن حفظ النظام فأصيب الأشقر بانفعال.. أشار بيده فركض الفرسان بجيادهم يحرسون العامة ويطلقون غداراتهم فى الهواء.. تساقطت الجموع تحت السنابك فى هرج.

أشار الأشقر ثانية فتوقف الفرسان.. تسمرت الجموع تحيط بالركب من على بعد.. لمح إيداكش آلاف العيون التى أكلت أفواهها لحوم الحيوانات الضالة وذاقت طعم اللحم البشرى.. نادى على الأشقر وكرشه يهتز فأشار الأشقر بيده إلى أعوانه.. فحمل عشرة من الفرسان عشرة أكياس من الغلال وانطلق كل منهم مسرعا إلى أحد الجهات والجموع تجرى من خلفهم ألقوا بالقمح على الأرض فتدافع الجميع يتقاتلون نحوه وعندما عاد الفرسان إلى الركب كانت هناك عشر مذابح يسيل فيها الدم.. دفع الأشقر فتى قوى العود يرتدى قميصا مهلهلا من الكتان محزما وسطه من لحاء النخيل وعلى رأسه طاقية مصنوعة من وبر الجمال كاد الفتى أن يتعثر.

نظر عبد المحسن خلفه فوجد فارسا فارع الطول أبيض الوجه أشقر الشعر قوى الشكيمة مفتول الساعدين تجلس رأسه على رقبة ثور. على وجهه ابتسامة ساخرة لرجل ميت منذ زمن بعيد يمتطى جوادا عجولا ومن عينيه انبعثت رياح ثلجية باردة.. لم يعرفه عبد المحسن فى البداية لكن الأشقر لكزه ثانية بمقبض سوطه.

ـ لقد اخضر شاربك. صاح عبد المحسن ضاحكا .

ـ الأشقر.. حاول أن يندفع لعناقه لكن الأشقر جذب عنان جواده متراجعا بصلف وعلى وجهه ابتسامته.. تحدث عبد المحسن بصوت منخفض.

t.me/qurssan

ـ تغيرت.

ـ وأنت كبرت عجل كبير. وضحك مستطرد.

ـ ولكل عجل أوان للذبح ثم ضحك واستدار مبتعدا.. عاد إليه فجأة.

ـ إيه أخبار النسوان..

أدار عبد المحسن ناظريه فى اتجاه الجموع من العرايا.. عاد إلى الأشقر ينظر فى عينه بعمق ـ وهى فين النسوان؟.. لم يترك الطاعون نسوان.

بوغت الأشقر لوهلة حتى فهم.. ثم ما لبثت أن اتسعت ابتسامته الميتة وتدلى فكه الأسفل كذئب يلهث.. قال شامتا منتفخ الأوداج.

ـ فيه نسوان فى كل أوان.. فيه نسوان حتى فى زمن الطاعون.. مال بجذعه إلى أسفل وقد ملأت ابتسامة الموت المشرقة كل وجهه.

منازل الأثرياء والأعيان.. وبصوت هامس.

ـ وقصور المماليك.. وبصوت أشد همسا.. وأنفاسه تلفح وجه عبد المحسن ـ وكذا قصور آبائنا المشايخ المباركين.. تراجع عبد المحسن إلى الخلف قال وهو يتحاشاه.

ـ عارف طبعا.. لكن أنا مالى ومال نسوانكم.

رفع الأشقر حاجبيه مفكرًا وعاد بجذعه لأعلى قليلا واستطرد بابتسامة. غامضة وهو ينظر إلى الجموع المحتشدة ـ هذه إذًا نساؤكم.. أخبرهم أن يخلدوا لدورهم بعد ضوء الشمس مباشرة.. فيه ناس تتحول ذئاب.. هه.. تنهش لحم البشر ليلا.. ثم ضحك.. ضحك بهستيريا وهو يستدير بجواده مبتعدا.. وقف عبد المحسن مبهوتا والرعدة تسرى فى أوصاله.. اصطدم بأحد الحمالين فأفاق.. حمل أجولة القمح من جوف المراكب ونزل بها إلى العربات الواقفة أمام المرسى.

جرى الأشقر يشق الجموع المحتشدة يضربهم بالسياط يريد اللحاق بالركب وأمامه مباشرة قفزت امرأة وبيدها طفلة فى الرابعة عشرة.. جفل الجواد وهو يشد مقوده بقوة وعندما وقف رفع سوطه وانهال عليها.

ـ حيدى يا ملعونة عن طريقى.. لكن المرأة بسرعة خاطفة شقت ثوب ابنتها نصفين كاشفة عن عورتها وهى تصرخ به.

t.me/qurssan

ـ خذها لقاء أردب غلة.. الله يرضى عليك.. كانت الفتاة تنظر إليه بغباء. رفع صوته وانهال عليها وهى تصرخ.

ـ طب نص أردب. كيلة.

فيما بعد كانت الغلال تنقل من المراكب إلى القلعة تحت الحراسة المشددة للعسكر والجوعى حولها بالآلاف وكل ليلة كان العسكر يقتلون ما يزيد عن عشرة منهم فكانت جثثهم تختفى قبل الصباح.. ساد الوجوم فى الأرجاء وحل الصمت وحدس أكثر الناس تشاؤما أن البعض يستعد للمجاعة بتخليل اللحم البشرى وتمليحه وحفظه لوقت الحاجة..

* * *

على أعلى مكان بقصر السبيل وقفت الأميرة شريفة وابنتها فاطمة فى انتظار قدوم زوجها حتى لمحت فى الأفق طابور العربات الخشبية الطويل. صاحت ها هم.. دق قلب الأميرة وهى تحدق تحاول أن ترى زوجها.. جاست فى المكان علها ترى امرأة معه.. لمحت زوجها يخطر بجثته الضخمة على جواده.. صعدت فاطمة بتثاقل إلى المكان الذى تقف فيه أمها.. تلاقت أعينهما.. كان يجمعهما رجل واحد.. توتر المكان فجأة.. شعرت الأميرة شريفة بشعور طاغ بالملكية لكل شىء.. الأرض.. السماء.. الحقول.. المزروعات.. الفلاحين.. الحيوانات.. المشايخ.. الرجال.. النساء.. حتى روح ابنتها.. نظرت فى عينها فلمحت فيها تصاغر قالت بصوت بارد آمر..

ـ ها هم.. هيا نهبط.

فى أسفل القصر كان الخدم والفلاحون يتزاحمون من خلف النوافذ وطاقات صوامع الغلال وأسطح الدور وحظائر الماشية لرؤية سنجق المديرية.. تسللت بدرية من بين أرجل العامة تنظر إلى الأميرة شريفة بحسد وغيرة.. ها هو الأشقر قادما سوف ينصبه السنجق أغا على منوف. همست وهى تراه ينحنى أمام زوجة أستاذه.. الأميرة شريفة.

ـ يا لتأدبه وحسن معشره.. لكن شعورا داهمها بأنها ليست سوى حشرة فاستدارت غاضبة تدفع حامد عنها. لكزته بكوعها بقوة وعافية وهى تهتف.

ـ أوعه كده ابعد عنى.. إيه اللزقة دى.

t.me/qurssan

جاءت اللحظة الحرجة.. نزل إيداكش من على جواده مهللا وخلفه سليمان البواب والأشقر.. رفع رأسه إلى زوجته الأميرة شريفة وابنته فاطمة فاتحا ذراعيه وهما واقفتان فى الشرفة فتقدمتا نحوه مسرعتين.. نظرت شريفة إلى البواب وهو يبتسم بسخرية المتمكن فشعرت بقلبها تعتصره يد حديدية فنزت عصارته خليطا من البغض الأزرق والكراهية السوداء.. انحنت تقبل يد زوجها.. وأثناء قيامها رددت لنفسها.. أنه يستحق ذبح النعاج.

كانت تقصد سليمان البواب.. لكن عيناها التقت بعينى زوجها إيداكش فكرت.. لماذا لم يمت فى قبلى.. وكانت هذه المرة تعنى إيداكش.. كان الأشقر واقفا خلف زوجها بابتسامته الميتة.. نظرت إليه نظرة قاسية. تداخل الجميع يحى كل منهم الآخر وعندما توجهوا إلى قاعة الضيافة انفصلت المرأتان.. نزلت فاطمة إلى دار السبيل وعلى وجهها كآبة ذلك آن زوجها لم يأبه بها.. أنه حتى لم يرها.. أما الأميرة شريفة فصعدت إلى أعلى وقد رسمت على وجهها سعادة هزيلة مفتعلة.

* * *

صفت الأميرة شريفة شعرها على طريقة نساء القازوقلية وضعت لها الماشطة عمامة مربوطة بمناشات ملونة مسماة بالمدورات فجعلتها شبه الكعك وأمالتها على جنبها وعقصت شعرها الأسود الفاحم ودلت منه خصلات على جبهتها وأذنيها وجعلتها تدهن جسدها بالطيب واللبن وعطر القرنفل وكحلت لها عينها بالكحل الدمشقى وقامت ترتدى قميصا من الحرير الهندى المقشب بالقصب وقد جمع أسفل نهديها بحزام من الخرز المون تدلى طرفاه حتى فخذيها فوق سروال من نفس القماش ولبست فوقه حبرة من الصندل وجلست تنتظر صعود زوجها لتناول طعام العشاء.

فلما أذن المؤذن وانتهى المصلون من صلاتهم صعد إليها متوجسا ينتظر معركة حامية الوطيس لمواجه عليها.. ابتسم لنفسه ساخرا وهو يتذكر ابنه الصغير الأمير مراد.. عندما دخل الغرفة كانت تنتظره بابتسامة واسعة.. كاشفة عن نهديها الضامرين.. خمن على الفور أنها تبغى استمالته.. حياها فردت بخير منها وقامت تخلع عنه ثيابه فاتسعت فى وجهه ابتسامة السخرية وأظهر معالم الإرهاق.

قالت:

- تعبتم من الطريق.

t.me/qurssan

- كان سفرًا طويلاً.

- غبتم عنا فكنا كالطيور مقصوصة الجناح.. هزئوا منا ومثلوا بنا وعذبونا أولاد الملاعين كادوا يبيعوننا فى سوق النخاسة رقيقا لولا رحمة الله ودعائنا لكم بطول العمر وعودتكم لنا سالمين.. مدت يدها تخلع عنه حذاءه وأشارت إلى المائدة.

أكل دون شهية وهى تلقمه الطعام بأصابعها وتسقيه الشراب المسكر.. أنهى طعامه وقام يغتسل فحملت له أبريق المياه الدافئة دون غضاضة.. بلل يديه وفمه وجلس معطيا لها ظهره ثم أراد القيام خارجا.

هتفت بولع.

- أين تذهبون سيدى؟

- نحن نقوم للديوان من أجل أعمال البلاد.. لكنها قفزت بخفة الغزلان تمنعه.. صفقت بيدها فدخلت الجوارى حاملات النرجيلة والشراب.. نظر ممتعضا.. ردد فى نفسه.

- بلهاء مهما تفعل.. قاطع تفكيره صوتها.

- تسهرون عندى الليلة يا سيدى.

- أعمال وشغلات كثيرات.

- من أجل خاطرى.

نادى طواشيه مستسلما.

- اذهب وأخبر سليمان أغا ومولانا الشيخ السنهورى أن لقاءنا بعد أذان العشاء.. برق محياها وهى تلتصق به وتصب له العرق فلما اعتدل مزاجه قالت بصوت عادى

- كيف حال ستى زليخة حرمكم المصون وابنها الأمير الصغير مراد.. رفع حاجبيه الكثيفين دهشة ونظر لها فوجد الإخلاص والطيبة برتسمان على وجهها.

- بخير.. بخير.. يقبلون أيديكم.

- أستغفر ربى أنا التى تقبل أقدامكم وأقدام من تحبون.

قال مبتهجا: كريمة.. أصيلة وابنة كريم.

t.me/qurssan

ـ أنتم كل مسرتى وحياة قلبى ورغباتكم عندى قرآن منزل من عند ربى سبحانه وتعالى.

ـ جميل هذا والله جميل.

ـ وإنما أنتم الأعظمين وأبناء الأكرمين.. حباكم ا& بابن من صلبكم وهذا نعمة لنا أجمعين.. دفع إيداكش بثوبه جانبا وبصحاف الشراب والفاكهة وصاح يجذب شريفة نحوه..

ـ شريفة.. تعالى حرمنا المحبوب.. إنا والله نحبكم ونشتاق لكم.. دفعها بخفة وأدار لها ظهره متوجعا.. ظهرى يوجعنى.. كبسى لى ظهرى حرمنا.. قامت بخفة.

ـ أمركم أفندم.. نام على بطنه وهى تدلك ظهره وفخذيه وأرادفه بلطف وهو يئن برخاوة. مالت عند رأسه وقالت بصوت لطيف..

ـ ومتى تحضر سيدتى زليخة وسيدى مراد الصغير.. رفع رأسه مستغربا وقد عاد شكه فرددت سؤالها ثانية.. متى تشرف منوف سيدتى كريمة المحتد.. نبيلة المنبت زليخة وسيدنا مراد.. قال وهو يحاول التحديس..

ـ بعد خمسة عشر يوما.

قالت وهى تملأ صوتها بأقصى ما تملك من رنة الأسى والمهانة.

ـ نفكر لو ننزل لها عن غرفتنا.. لمعت عيناه..

ـ ولم؟

ـ المكان الجديد للتجديدات وهذا يتسع لهم وللأمير الصغير.

فكر برهة وتساءل:

ـ وأنت أين تذهبين؟

ـ لأسفل سوف نسكن الطابق السفلى.

رفع جذعه منتصبا:

ـ لا.. لا والله لا يمكن.

t.me/qurssan

- لا تغضب بالله يا سيدى كبرنا وأصابنى الهرم ولم نعد صالحين لشىء سوى خدمتكم وخدمة ابنكم كريم الأصل وأمه كريمة النسب.

قال بصدق وهو يرجو أن تغير ما عزمت عليه

- لا والله.. أنت أمنا جميعا.

- إن هذا يرضينا ويشيع فى قلبنا سرورات وهناءات.. غدا فى الصباح الباكر سنقيم بالطابق السفلى بجوار ابنتنا.

- إذا كانت هذه رغبتكم فسوف نخلى لكم الجناح السفلى ولتنتقل كريمتنا فاطمة وزوجها الأشقر إلى قصر دار السبيل.

- نعم ما تقول حضرتكم.. نظر إليها فوجدها تدمع.

- أتبكين يا أم القلب الطاهر.

- لا لسنا نبكى.. قال ضاحكا وهو يميل عليها يحتضنها بساعديه المترهلين.

- لتكونى أول من أرى فى صباح يومى وآخر من أرى فى مسائى.

قالت والعبرات تخنقها:

- لا نريد إلا رضاكم.

قام جالسا فى هياج:

- اضحكى.. تبسمى.. اسعدى.. يا ولد انزل الديوان وأخبر أصحاب الشأن من المشايخ والأعيان والأغاوات، إن البك سوف يلقاهم غدا فى ديوان المديرية عند الضحى.. ثم استدار إليها وهو يرقص طربا.. وأنا الآن أبقى معك يا أميرة قلبى.. مسحت دموعها وهى تضحك سعيدة.. صفقت فدخلت المغنيات والراقصات والعازفات فاستقبلتهن فرحة:

- أين كنتن يا جميلات.. قامت تتوسط الحلقة.. دفعت بالحبرة بعيداً عنها فكشفت عن ساعديها وذراعيها ونهديها.. ثم أخذت ترقص فى غنج ومجون.. تهاوى من الطرب والخمر.. وفى الهزيع الأخير من الليل حملته هى وجواريها إلى الفراش وعندما أصبحت وحيدة خلعت ملابسها وهى تنظر لنفسها فى المرآة.. برقت عيناها متوقدتين

t.me/qurssan

من نار الغضب. جلست مسهدة تنفخ من جوفها النيران وهى تتنفس لأول مرة بارتياح بعد أن مثلت دورا ثقيلا على نفسها لكن راحتها لم تدم طويلا.. تذكرت أن الأشقر ينام الآن فى أحضان فاطمة.

فى صباح السبت بينما كان القصر مشغولا بتنقلات واسعة أرسل إيداكش المنادى يدعو تجار المدينة وأعيانها محددًا سعر الأردب الذى كان قد باعه لهم بثمانية ريالات بخمسة فقط، ثم أحضر صالح أغا والى منوف الذى كان تابعًا لعلى بك ملط فعلقه فى سوق المدينة من قدميه وهو يصرخ طالبًا العفو دون أن يدرى سبب غضب كاشف المديرية عليه ثم أحضر الأشقر عصا وانهال بها ضربا على الأغا العجوز أمام إيداكش فلما تعب أنزله.. تقدم إليه إيداكش قائلا سحنته وفح فى أذنه.

ـ نحن راجل عجوز ما نمتلك الصبر لأنه عند العطارين.. وأنت رجل عجوز مستعجل لاستقبال وجه ربك.. صاح العجوز متوسلا:

ـ لا أفندم نحن بعد صغير.. خمسة وستون عامًا فقط.. قال إيداكش منشرحا:

ـ هذا يكفيكم صالح أغا.

صرخ الرجل مرتعداً.. لا أفندم.. ما يكفينا.. فى الدنيا مسرات كثيرة أفندم فى الآخرة جهنم الحمراء أفندم.. ضحك إيداكش:

ـ أنا نضمن لكم جنات صالح أغا.. أعطنى روحك أعطيك جنات صالح أغا:

قال الرجل ضاحكا:

ـ حاضر أفندم.. كما تشاءون حضرتكم أفندم.. إيش تريد أفندم.

اقترب منه إيداكش وعلى وجهه توعد المماليك الرهيب.

ـ نحن وصلنا منوف بالأمس فقط.. تمام صالح أغا.

ـ تمام أفندم.

ـ وأنتم تعملون على المدينة والى منذ عامين تمام أفندم.

ـ تمام أفندم.

ـ كل واحد عنده حبة قمح.. كل تاجر يخزن غلال.. مسكرات خلف أقفال.. أفندم.

t.me/qurssan

ـ تمام أفندم.. حضرتكم أفندم..

أشار إلى الأشقر فأنزله.. دفع به فوق بغله واندفع يهاجم منازل التجار ومخازنهم واحدا بعد واحد وفى الظهيرة أعلن قائمة بتفريدة على التجار والأعيان جميعًا..

ثار السيد البقلى لأن إيداكش جعلها مضاعفة عليه وحده فصرخ إيداكش فى وجهه.

ـ ألم تكن عاملا على الروزمانة سيد بقلى؟..

فأجابه غاضبا.

ـ لقد دفعت لإسماعيل بك كل من أملك من أجلها ولم أبق حتى أستعيد ما دفعت.

ـ تضحك على ذقنى سيد بقلى أنت تدفع ضعف وخرج البقلى من أمامه وهو يكاد يحترق.. لم يكد البقلى يبلغ بوابة قصره حتى كان الأشقر يندفع خلفه فسمر متاجره وحوانيته وحظائر ماشيته ومخازن غلال،ه ثم جميع التجار الذين رفضوا الدفع متعللين بالفقر فدفعهم أمامه وجمع غفير من الناس يسيرون خلفهم. وعلى الأشجار التى تحيط بمنوف سمرهم جميعا من آذانهم.. ثم إنه عاد وسط تهليل العامة وصياحهم طربا وسرورًا فشق منوف إلى قصر السيد البقلى فلم يجده بالمضيفة.. دخل عليه الحرملك راكبًا ولم يستطع البقلى أن يتلفت حوله إذ وجد الأشقر يدخل عليه حجرته يكاد يصعد فراشه بجواده.. جذبه وهو عار ملقيا عليه خطاف حباله وسحله على الأرض حتى خرج به إلى الطريق عارى الرأس فى قميصه الداخلى تدفعه الصبية والأطفال حتى بلغ سور منوف فسمره من أذنيه بأحد الأشجار فظل على هذا الوضع وهو يصرخ متألمًا حتى غابت الشمس وكان المغرب قد أذن عندما حضر الأشقر بصحبة الشيخ السنهورى الذى أخذ له من إيداكش السماح والعفو.

-٢-

فى الهزيع الأخير من الليل دفع الأشقر بقدميه باب مخدعه بقصر دار السبيل. جلس على الفراش يخلع ثيابه.. لم ير زوجته الأميرة فاطمة وهى تتمدد كتلة صغيرة لم تتعد أربعة عشر عاما.. نهضت فزعة من نومها القلق تسمر وهو يرى وجهًا حاول التذكر تحرك نحوها يغنى طربًا فاتحًا فمه وعلى ركن فكه الذئبى الضخم ابتسامة ماجنة.

ـ من أنت أيها الشيطان المؤمن..

t.me/qurssan

رفع غطاء رأسه وانحنى وهو لا يتمالك نفسه قال بصوت ثمل.

- إذا كنت قد أتيت لتأخذ روحى فهى ليست معى..

ضحك وأشار بيده نحو النافذة واستطرد هامسا.

- آخذها آخرون من زمن بعيد.. هيء.. هى.. لن تجد لديك عملا.. اصطنع الجد.. اذهب إلى الذين أرسلوك وأخبرهم لم أجد لديه روحا.

واستدار يكمل خلع ملابسه وكأنه نسى وجودها.

عندما عاد يتمدد فى فراشه وجدها لا تزال جالسة عليه لم تغادره.. قال محدقا فيها وقد أضاف إلى ابتسامته الماجنة دهشة الموتى وأطلت من عينيه محاولة لإجهاد ذهنه فى حل هذا المعضل.

- هل تريد أن تشاركنى الفراش أيها الجنى اللطيف.. أية ورطة هذه.. أضاف مفكرا.. لم يحدث هذا لمملوك من قبل.. لقد عاشر المماليك كل كائنات الأرض لكن أحدا منهم لم يعاشر شيطانا على أن أستفسر الأمر لدى عمر بك الأجين.. وحده يعرف.. فكر ثانية ماذا كان سيجيبك.. قال دائما عندما تواجهك معضلات فكر ماذا سأجيبك لو سألتنى.. أخذ يضحك بمجون.. انقلب على ظهره وجنبيه.. واستدار يحدث زوجته..

- نحن شيطانين.. لماذا لا نتعاشر إذًا.. توقف بغتة.. أشاح بكلتا يديه فى وجهها وأدار لها ظهره وهو يغمغم.

- هيا.. هيا.. ابتعدى عنى.. لست مستعدا الآن.

- هل أنت ثمل:

-.. استدار لها مستغربا.

- هه.. أنا.. لا..

- أنت لا تعرفنى.

- من تكونى إذًا..

- زوجتك.

t.me/qurssan

ـ زوجتى؟ بالطبع ستقولى هذا..

قامت تضىء النور.. تراجع متذكرا:

ـ أهو أنت.. لقد كبرت.

ـ تذكرتنى إذًا:

ـ أووه لقد أخفتنى.. ألقى بنفسه على حشايا بأرض الغرفة وغط فى النوم فقامت مبتعدة عنه ولكنها فجأة تعثرت..

صاح متعجبا:

ـ ماذا تفعلين.. قالت بصعوبة

ـ أخلع ملابسى.. سألها مندهشا.

ـ لماذا.؟

لم تستطع أن تجد ردا مناسبا

ـ أخلعها وكفى كما تفعل الزوجات.

صمتت وكأن لسانها قد شل. كانت تنتظر هذه اللحظة كل يوم خلال العامين اللذين تركها هاربا فيهما.. وعندما اقتربت هذه اللحظة امتلأت بالخوف والتوتر. فلما خلعت عنها كل ملابسها نظرت إليه حائرة غير قادرة على النطق. كان يغط فى نوم عميق وهى تفكر فى أمها.. سوف تأخذه متى فشلت معه.. هتفت مستجمعة كل شجاعتها.. الآن.. الآن.. قامت تمثل المشهد الوحيد الذى تعلمه من الجنس.. ركعت على أربع مثل الأبقار والخيول وإناث الكلاب ثم نادت عليه بصوت أصم:

ـ ألن تعاشرنى.

قام يلتفت إليها وقد استغلقت عليه معالم الفهم .

ـ هل جننت.

لم تجبه إلا بهزة يسيرة من أرادفها.. هز رأسه متعجبا لغرابة أطوار الأنثى ضحك ضحكة قصيرة استند بجذعه على الجدار.

t.me/qurssan

- من علمك هذا.. أهى أمك؟

هزت رأسها نفيا بغضب.. قالت وهى تلتفت إليه برأسها - رأيت.

- ماذا رأيت.. هه..؟

- ثور يعتلى بقرة.

- ها.. قام يقعى على ركبتيه وساعديه قبالتها مباشرة.. مسح منخاريه فى أنفها واستطرد بصوت هامس متواطئ.. وماذا رأيت أيضا أيتها الشريرة الصغيرة.

قالت وقد داخلها قليل من الأمان - رأيت معاشرة الخيول والماعز والأوز والدواجن والحمير. ضحك مبتعدا إلى الوراء وقد عادت إليه ابتسامة الموت الماجنة.

- ولكننا معشر المماليك لا نلد.. عاد إليها ثانية.. نحن نبيض.. هوه ه ه . هل رأيت معاشرة البغال. هزت رأسها بالإيجاب فأعاد سؤاله.

- هل رأيت معاشرة البغال..

- نعم.

قام يضحك بجنون وهو يهز رأسه يمنة ويسرة مرددا:

- أيتها الكاذبة الصغيرة.. أيتها الكاذبة والشريرة الصغيرة.

نظرت إليه بتوجس وهو يعود إليها ثانية.

- هل رأيت أسدًا يعاشر ناقة.. ضبعا يعاشر حمامة.. يأخذها فى أحضانه ويمسدها ويضمها ويضع منقارها الصغير الوديع بين أنيابه.

قالت دون أن تعدل من وضعها وقد بان فى صوتها خيبة الأمل:

- ماذا تقول؟.. قال بصوت هادئ ضاحك كمربية داعرة يطل المجون من عيونها تشرح لطفل ما يخفى عليه.

- أقول لك ذكر ذئب يعاشر ثورا ذا قرنين.

قالت فى خوف.

- كيف؟

t.me/qurssan

وقف على ركبتيه فاتحا يديه وابتسامة الموت الماجنة تزداد إشراقا علىٰ وجهه وقد ضم بؤبؤى عينيه إلى الداخل قال بجدية يشوبها خلل عقلى.

ـ نحن موتى.. أشار بيده إلى صدره.. أنا ميت.. إذا خلعت جلدى وجدتى تحته جثة ماتت منذ خمسمائة عام. قام واقفا مبتعدا عنها وهو يغمغم محدثا نفسه فى المرآة المواجهة له وقد فقد التناسق البدنى.

ـ أنا ميت.. نحن جميعا موتى.. وهذه الجلود وهبتنا لنا مع سيف الخلافة الجارية التى استطاعت أن تؤسس منذ خمسمائة عام أول مملكة للرقيق.. للعبيد.. أول مملكة للموتى.. كشر مفكرا وهو يهرش رأسه ينظر إلى ردفيها العاريتين فى المرآة.. أشار إليها.. وهى أيضا ميتة.. أنا وهى وأمها.. إيداكش وسليمان البواب والأميرة وعثمان الطنبرجى والألفى والسنارى والأميران الكبيران.. مجرد موتى يحكمون مملكة من الموتى.. لقد قضى نحبنا فى جوف مراكب العبيد وسط القذارة والأوساخ وعندما انزلونا فى الموانى وعبرنا المكوس نزعوا عنا جلودنا القديمة وألبسوا كل منا جلد جديد فهذا طواشى وذلك قليونجى وهذا قائد ألف وذاك أمير وذاك طبلخانة وسمينا أسامى غريبة.. مماليك.. مماليك.. قال محدثا قرينه الواقف فى المرآة ينصت إليه وهو يرفع يده إلى الفضاء.. يجب أن تكون لى مملكتى.. فكر مشدوها.. جبال.. سفوح.. هضاب مغطاة بالجليد.. سهول مغطاة بالعشب ترعى فوقها قطعان الماشية والأغنام.. لو أردت.. استطرد وقد عاوده الدوار محدقا فى القلاع والسهوب والوديان وقمم الجبال التى ظهرت ضبابية فى المرآة.. أبراج.. أبراج.. أبراج.. لوح فى الفضاء يحمى رأسه من ندف الثلج المتساقطة ضاما جسده من البرد القارس الذى يداهم السهوب الجليدية.

ـ ... هل تعرفين نحن موتى كسليمان الحكيم.. مات واقفا على عصاه.. لعام لم يكتشف موته إلا بعد أن نخر السوس عصاه نحن متنا وقضى نحبنا منذ مئات السنين وسيف الخلافة يتدلى من خصورنا وأمثال السنهورى هم العصا التى تخفى موتنا. لهذا نبجل عصينا.. نحترمها نقدم لها فروض الاحترام والتبجيل وعصينا ترهبنا لأننا أشباح شيطانية باغية مدمرة تعصف بكل شىء.. أشباح شياطين تحيا تحت الجلود التى سلمت لنا عند بوابات المكوس.. مد قرينه يديه نحوه يتحسس جراشيف جلده.. قال بصوت مبهور والأشقر يحدق فى قرينه يرى رأسه يتحول إلى رأس إيليا الصغير.

ـ جلد مسحور.. وفى المرآة سبح وجه زوركا الصغيرة.. حدق فى المرآة يتابع وجهها

t.me/qurssan

الشمعى وكأنه يحدق فى الفراغ بحثا عن شىء ضاع منذ زمن بعيد.. صرخ الأشقر يجأر بالبكاء ساقطا على الأرض.

ـ من قال إنى أحتاجه.. خذوه.. سقط وحده على الأرض باكيا تسلل قرينه من المرآة مخترقا فاصل الزمن.. تسلل نحوه يتلمس حراشيفه دون أن ينم عنه أنه يشعر ببكائه.

قامت إليه فاطمة تأخذ رأسه بين نهديها الصغيرين.

مد قرينه يده يمسد شعرها..

ـ تعالى يا حبيبى.. فجاءها إيليا.. جذبها برفق فانصاعت منسحبة كطيف ملائكى تاركة الأشقر يسقط على الأرض مغشيا عليه.. بعد لحظات قام يهز رأسه ويشعر بها ثقيلة ساخنة.. نظر إلى المرآة كالمسحور.. وجدها ممتلئة بالضباب.. رأى وجه زوركا الشمعى يمتقع تأخذه الزرقة الداكنة وشعرها يتساقط ثم ما لبث أن ذاب جلدها الأسود مخلفا وراءه جمجمة تتلاشى فى الضباب. ردد مذهولا.

ـ هل رأيت معاشرة الموتى.

قالت فاطمة فى حزن.

ـ أنا زوجتك.

استدار لها:

ـ أنت لا تعرفين.. واستطرد وكأنه يحدث طفلة فى الرابعة من عمرها.

ـ نعبث مائة عام لكننا لا نستطيع أن نلد طفلا.. نستطيع أن نأكل الأطفال.. نمتص دماءهم.. نجذبهم إلى آبار السواقى وأحجار الطواحين وإذا أصررت.. فكر كثيرا قبل أن تعود إليه ابتسامة الموت الماجنة المتجهمة. ليس أمامنا سوى طريقة واحدة نقعى القرفصاء نصيح.. نق.. نق.. نق.. نق.. نحك مؤخراتنا مثل الضفادع لأنه ليس لنا إلا مؤخرات ونقول فرحين.. نق.. نق.. نق.. كان فرحا لأن الموت عاد إلى وجهه ثانية.

ـ إذا أردت الحياة فابحثى عنها حيث الموت.. سار باتجاه المقابر كالمسحور وهى خلفه منومة والضباع تتبعها صامتة تتشمم الأرجاء عن كثب.

دخلا مقبرة.. وفى وسطها وقف.. مد يده إليها يضمها فجاءته وعلى وجهها ابتسامة.. مرغ كل منهما وجهه فى الآخر وهى تسحق نهديها على صدره وتصاعد فى

t.me/qurssan

داخلها رحيق النشوة الساخنة.. انصفقت الأبواب القريبة واندفع تيار بارد شديد وبدأت الأرض الطينية تهتز وتتحرك تحت قدميها والرياح تعوى عواء مريرا.. اندفعت الضباع تقف بينهما فى إخاء.. دوى فى فضاء المقبرة عواء شيطانى وبكاء ممطوط لطفل صغير.. توقف كل شىء فجأة.. وصمت إلا من صوت حاد يناديها.. قال دون خوف.

ـ أين أنت يا سيدى.. أين أنت؟؟ هل رحلت؟؟ وتطلعت إلى مدخل المقبرة لكنها انتفضت برعب.. صاحت:

ـ من تكون.. أجابها غلام جميل الطلعة يقف عاريا فى منتصف المقبرة وقد أضىء جسده كله بنور سحرى مشعا بالبهجة.

ـ إيليا بتروفيتش.

ـ ما الذى جاء بك إلى هنا..

ـ أنا هو..

نظرت حولها كالتائهة.. كان كل شىء مغلقا مستوحشا على الفهم.. قالت وفى صوتها رنة الوحشة.

ـ أنت هو.. تعال.. تقدمت نحوه وأخذته بين ذراعيها بنشوة كان ساخنا كولد اقتربت بشفتيها تلثمه.. فى نشوة عارمة.. شعرت بسخونته تتلاشى وبنشوتها تهرب حاولت الإمساك بها لكن البرودة حلت سريعا.. دهمها الزمهرير.. بقى متعلقا وهو يصير جثة هامدة بين ذراعيها وأمامها سقطت رأسه جمجمة عظمية تطل منها حفرتين من الظلام تجهمت ببرود ومالت عليها تقبلها.. داهمها برود الموت لحظات وسقطت على أرض المقبرة جثتان وفى الفضاء الخارجى تجاوب عواء الضباع وأبناء آوى مع صرير الرياح.. عندما أفاقت كانت على فراشها بدار السبيل وبجوارها كان الأشقر يغط فى نومه وفى المرآة كانت تطل عليها ثلاثة وجوه للموت.

-٣-

أمضت الأميرة شريفة بحجرتها فى الطابق السفلى سبعة أيام وليال متواصلة وحيدة تدور حول نفسها تأكل فى قماش أثوابها والغل يأكلها. وعندما أفرغت المراكب حمولتها أعلن فى منوف أن كاشف المديرية مصطفى أغا إيداكش سيقوم وزوجته بزيارة

t.me/qurssan

مشهد السيد أحمد البدوى لتقديم النذور وإعطاء البشارة عرفانا بنصرته وعودته إلى منوف سالما وخاصة بعد أن أعطاه الله ولدًا ذكرًا وهو فى هذا أعجوبة وأمثولة العصر والأوان. وقبل أفول شمس النهار كانت القنجة تغادر مرسى منوف إلى الشمال.. ودعها الأعيان حتى غابت عن الأنظار فرحلوا عائدين. وفى ظلام الليل انعطفت القنجة عائدة تبغى القاهرة.. كان إيداكش قد خرج مع زوجته يريد استعادة كنوزه وأمواله التى لا يعرف مكانها سوى الأميرة شريفة ومملوكه حسين الأشقر. وتحت مقام شيخ مجهول أودع إيداكش كنوزه ثانية وبهذا أمن شر الأشقر فلما انتهى شعر بالاطمئنان يعود إليه لأول مرة منذ غادر منوف سابحا هربا من أمام على بك ملط.. وشرع فى العودة إلى طنطا لزيارة المشهد البدوى كما أشاع.

عندما عبر القاهرة فى صحبة ثلة من جنوده لم ير الخيول التى تتابعه على البر الشرقى للنهر عن بعد. وقرب قليوب رست القنجة طلبا للطعام وقضاء الحاجة. هبط إليه بعض العربان.. صاح أحدهم.

- هل هذه قافلة مصطفى بك إيداكش؟

- نعم.

قال الأعرابى:

- الشيخ حبيب الجهمى يعرض عليه أشياء ومنهوبات قافلة الحجاج فإذا أراد أن يشترى فبرخص التراب.. دق قلب الأميرة شريفة وظهر عليها القلق.. لم يخطر ببال إيداكش كيف علموا بوجوده فى قليوب لأن الحديث عن المنهوبات جعله يتهلل فرحا.. صعد خلفهم وقرب الخيام نادى إيداكش على الشيخ حبيب الجهمى فأشاروا عليه أن يذهب إلى خيمة بعيدة.. دلف إلى الخيمة فلم يجد أحد ولوهلة وجد نفسه محاصرا بعشرة من الأعراب الملثمين.. أمسكا به وكتفوه.. ضربه أحدهم بنبوت على أم رأسه فسقط على الأرض فاقدا الوعى وعلى رأسه وقفت الأميرة شريفة. صاحت.

- أريده جثة هامدة لا روح فيها.. حملوه فى قنجة صغيرة.. صعدت معه.. ظلوا يجدفون حتى بلغوا منتصف النيل وقبل أن يستعيد وعيه شدوا وثاق قدميه.. أفاق وهم يحملونه ويلقون به إلى النهر.. صرخ طالبا النجدة وهو لا يدرى حتى لماذا هو كذلك..

t.me/qurssan

غاص فى المياه وعندما صعد وقبل أن يضربه أحدهم بالنبوت شاهد وجه الأميرة شريفة يحدق فيه بتشفى.

ـ حتى لا تتزوج على يا إيداكش الكلب.. أنا شريفة سليلة النسب الشريف.. بصقت فى وجهه والنبابيت تنهال عليه.. غاص إلى أسفل صانعا دوامة مختلطة بالدماء ثم صعد يفهق فضرب ثانية.. وقد امتلأ صدره بالمياه فضرب ثانية وثالثة حتى غاب عن الأنظار.. عندما عاد القارب إلى البر أخرجت الأميرة شريفة خمسة أكياس ذهبية فألقت بثلاث منها إلى شيخهم واثنين إلى الدليل.. وعادت ثانية إلى القنجة.. دفعت بها إلى منتصف النهر.. شقت ثوبها ونكشت شعرها وجعلت تصرخ حتى عثرت بها أحد المراكب القادمة من الصعيد فحملتها على حالتها إلى منوف.. حيث أعلنت أن قنجة مجهولة هاجمتهم بينما كان إيداكش يهبط إلى مصر لاستقبال امرأته الثانية وابنها فلما وصلوا إلى الشاطئ هربا منهم هاجمهم العربان وقتلوا كل من فى القنجة بما فيهم إيداكش سنجق المنوفية، أما هى فقد اختبأت فى باطن القنجة فلم يرها أحد.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل السابع

- ١ -

أثناء ذهاب الفلاحين إلى حقولهم فجرا سمعوا حركة كثيرة وزعجة عظيمة تأتى من ناحية قصر السنهورى فجدوا السير تجاه الجمع يحدوهم حب الاستطلاع.. فوجئوا بعشرات من الطلاب المتعممين المنتسبين إلى مجاورين المنايفة يجتمعون على الفلاحين يخطفون منهم حميرهم وبهائمهم وجمالهم ويسوقونها عنوة وخلفها أصحابها لحمل التراب والمؤن والحجارة والملاط من مرسى خليج الفرعونى إلى الجهة البحرية للقصر يدفعون بعدد من الفلاحين المقبوض عليهم للعمل سخرة فى هدم الدور المجاورة واقتلاع بساتين كادت ثمارها أن تنضج وهم يصيحون - بركة من سيدنا ومولانا وتبرك من الطاهرين فصاح الفلاحون - وحقولنا رد عليهم شيخ عملاق فى الأربعين.

- أعمل يا مؤمن بمقدار يوم يبارك الله فى حقلك مقدار عشرة أيام.

وقرب الظهيرة كان فلاحو وفلاحات منوف يعملون بالسخرة فى توسعات قصر السنهورى وفى اليوم التالى هوجمت دور الأعيان والأثرياء وأخذت منها البغال والجمال والجياد وطوال الليل كان الطلاب المنتسبون ينتشرون فى المدينة بحثا عن المواشى التى خبأها أصحابها فيتصنتون على أبواب الحظائر ومن فتحاتها فإذا سمعوا حركة بالداخل نهق أحدهم مثل الحمار فترد الحمارة أو الجحش بالداخل فيدقون الأبواب ويكسرونها وهم يصيحون..

- مولانا خير الدين شوكت كبير كتاب السلطنة قادم على ضيافة مولانا وقد أقسم سيدنا الشيخ السنهورى بأن يدخل منوف من باب جديدة وينزله فى قصر جديد.

t.me/qurssan

بعد أيام قليلة لاحظ الفلاحون أن الطلاب المتعممين قد انقسموا فرقا يرأس كل منها شيخ وتفرقوا على نواحى المدينة يأمرون وينهون ويتحسسون الأخبار عن أماكن المؤن والعدد وأحجار البناء فإذا بلغهم نبأ بأن شخصا يبنى دار أو سقيفة أو حظيرة هجموا مجتمعين فينهبون العدد والمؤن والأحجار وهم يصرخون ـ لبركة مولانا الشيخ المبجل والشريف المعظم أبى الأنوار السنهورى. وعندما حاول المعلم قسطندى أن يستجديهم العذر لحين الانتهاء مما فى يده كان جزاؤه علقة ساخنة قام على أثرها إلى والى المدينة وهو يصرخ فى الطرقات قائلا:

ـ سليمان البواب.. هذا أنا أعرفه بحق المسيح وسيدنا محمد ما فى غيره يأخذ حقى.

وعندما شرح المعلم قسطندى للوالى الأمر كاملاغير منقوص حالفًا أغلظ الأيمان أنه كان ينوى السير معهم.. لم يرفع فمه من النرجيلة إلا بعد أن انتهى من جذب نفس طويل.. وكان قسطندى قد انتهى من صياحه ـ العدل يا أفندينا.. العدل..

أدار سليمان البواب وجهه قائلا ـ ما تريد أن تصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيا.. عاد ثانية يجذب أنفاس النرجيلة وهو يدير رأسه بعيدًا عنه.. قام المعلم قسطندى مقهورًا.. وخارج قصر الأغا توقف كثيرًا ثم إنه عزم على السير إلى قصر الشيخ السنهورى يسترضيه ويقوم على العمل المطلوب منه.

اعتلى عبدالمحسن سقف دارهم ينظر عجبا إلى الفلاحين وهم يعملون تحت سياط المجاورين.. نظر إلى مقام سيدى الغضبان المجاور لقصر السنهورى والذهول يملأه. كان قد صار عاريًا بعد أن خلعت واجهته المقامة على عشرة أعمدة من الرخام وإحدى عشرة باكية وزاوية وجدار مصنوع من الجرانيت وقد كانت نقوشها غاية فى الجمال والبروز والإتقان وأدخلت الواجهة فى واجهة المضيفة الجديدة التى أصبحت تشرف على البستان الكبير..

وطوال الأيام التالية كان عبدالمحسن ينظر إلى الغرب وهو يرى البنائين يقيمون بوابة ضخمة مقامة على أعمدة من الرخام بسور القصر بانقباض شديد وكأن يدا حديدية تعصر قلبه. أخذ يشاهد والسخط يعقد لسانه الدور تختفى واحدة بعد الأخرى بأيدى الفلاحين وتحت سياط المتعممين ليحل محلها طريق مستقيم يصل بين

t.me/qurssan

بوابة القصر الجديدة غربًا ومرسى الفرعونية شرقًا.. ودارهم تقع فى المسافة بينهما.. وذات صباح سمع آلات التنقيب تقتلع جدار القاعة التى تنام فيها أمه وأخته.. قاموا كالمجانين يجمعون ما يمكن جمعه ويضعونه خلف الجدار دون جدوى، كان المجاورون خلفهم كسيل عارم يدفع أمامه سدًا متهاوياً صغيرًا.. اندفع المجاورون داخل الدار كالمجانين يصرفون وينهالون عليهم بالسباب واللوم والتقريع وعندما شاهدوا محاولات الأسرة لإنقاذ نفسها جن جنونهم وهم يأخذون عليهم جرأتهم فى مقاومتهم.. أخذوه من بقايا داره عاريا يدفعونه بقبضاتهم ويركلونه بأقدامهم حتى بلغوا به ساحة السوق فى زفة عظيمة وفى ساحة السوق أوثق بالعروسة حيث قام أحدهم بحلق شعر رأسه بفظاظة وشرع آخر بجلده ثلاثين جلدة بينما أمه وأخته اللتان منعتا من إنقاذ حاجاتهم القليلة البائسة تبكيان حوله طوال يوم كامل وليلة. فلما أنزل أخذوه إلى مكان خرب مفترشين العراء وطوال الليل كانت الذئاب تعوى حولهم لا ينقذهم منها سوى النار المشتعلة.. فى الصباح جمع كل منهم كومة من الحجارة وشرعوا يبنون عشًا صغيرا من الطين والأحجار.

* * *

أشرقت الشمس وعبدالمحسن ممدود على حزمة من القش يتابع من خصاص البوص أشعة الشمس وهى تتحرك ببطء وحوله تحلق إخوته وأمه يطيبونه بالأعشاب والمراهم والشفقة... بقيت أمه تولول بهستيريا خلعت منديل رأسها المهلهل وهى تصب لعناتها وتدعو الله أن يصب نقمته على الشيخ السنهورى وعصابته، ثم راحت فى بكاء وعويل طويل وهو ساكن لا يريم تطل من عينيه نظرات اللامبالاة.. بعد أيام قام ضاربا الدنيا كلها عرض الحائط.. خرج لا يدرى ماذا يريد ولا أين ستكون وجهته.. هبط إلى السوق.. ظل يتسكع حتى الظهيرة.. مد يده يسرق حبة البطاطس.. التهمها نيئة أمام أحد المقاهى وهو يتابع بعينيه الأعيان وهم يرفلون فى رياشهم الفاخرة فى السوق وبصحبتهم نساؤهم.

شاهد أحد الفلاحين الأثرياء.. رجل ربعة فى الخمسين من عمره يبدو أنه شيخ أحد القرى أو النجوع القريبة وخلفه زوجته كانا يقفان أمام حانوت لبيع البذور.. أخرج كيسه.. شاهد المعدن الأصفر وهو ينتقل من يد التاجر ليد الرجل فارتجف وعندما رحلا تسلل بفعل قوة قاهرة يتبعهما.. دار الثرى فى أنحاء السوق يبيع ويشترى وأمراته

t.me/qurssan

تتركه إلى حوانيت العطارة وتعود له ثانية وخلفهما كان عبدالمحسن يسير بتكاسل فى الظهيرة. رأى الرجل يرحب بثلاثة من الأعيان فخفق صدره.. تنفس الصعداء وأصابه ابتهاج وارتياح قرر أن يرحل مبتعدا ولكنه رآه يودع أصدقاءه ويسير مع زوجته فوجد قدميه تسوقاه خلفهما ثانية.

قبل أذان العصر خرج الرجل من السوق على بغلته وخلفه زوجته على أتان وقد حمل البغل والحمار بثلاث زكائب مملوءة بما اشتراه طوال اليوم. عبرا أسوار المدينة إلى البرارى القاحلة باتجاه الغرب. خمن عبدالمحسن أن الرجل من طملاى القريبة.. ظل يتابعه وبعد مسيرة نصف ساعة عبره عبدالمحسن مسرعا وعند أكمة من البوص أخذ يكتم أنفاسه وعندما بلغه الرجل قفز نحوه يلقيه أرضا.. سقط الرجل على الفور.. انهال عليه عبدالمحسن المجنون بعشرين طعنة.. استدار عبدالمحسن حوله.. سمع المرأة تصرخ فوق أتانها طالبة النجدة.. جرى خلفها وهو يلهث وهى تنظر إليه يقترب منها فى رعب فتضرب بطن أتانها بركابها فى قوة وخوف حتى لحقها ودفعها فسقطت على الأرض تتدحرج.. سقط فوقها ممسكا بعنقها بين يديه.. ظل يضغط ويضغط حتى تدلى لسانها ميتة..

سلبها ذهبها.. عاد مسرعا إلى زوجها فقلب فى صديريته وكيسه فوجده مليئا بالدراهم وعشر بندقيات ذهبية.. فتش الرجل جيدا وقام يجرى ثم عاد ثانية فخلع عنه ملابسه وصديريته وبلغته.. اندفع صاعداً إلى الجنوب وغد. السير وقبل بهواش بثلاثة أميال توقف عند أرض السدود. عبر المستنقعات حتى وجد مكانا خبأ فيه كنزة ثم قفل مسرعا إلى منوف قبل أن تغلق أبوابها.

-٢-

عادت الحركة فى قصر إيداكش ثانية وطوال اليوم كانت الخادمات تنقلن متاع الاميرة شريفة من الطابق السفلى إلى العلوى الذى كان مقررًا أن تقيم فيه زليخة ابنة سليمان البواب وابنها مراد بعد أن ألقت بمتاعها فى الأوحال وهى تلعن وتعلن أمها معلنة أن المرحوم مصطفى إيداكش ليس له من ذرية سوى واحدة هى ابنتها فاطمة وأن ما يقوله سليمان البواب محض ادعاء.. رفع السنهورى رأسه وقال فى حكمة ورصانة وهو يشير بأصبعه محذرا.

t.me/qurssan

- زواج إيداكش بك من ابنة سليمان البواب كان وسط أمراء القبالى.. عاشرها عامين وحملت منه ابنهما مراد.. هتفت بغضب وهى تضرب الأرض بقدمها.

- اللعنة.. اللعنة على خنزير كبير ناكر الجميل كنا نعيش سجناء فى قلعة الإسكندرية وهو يلهو ويعبث بالنساء.. هتفت كالمجنونة - إيش أعمل يا أبونا.. أيش تشير على؟ اندفعت تمسك كفه بكلتا يديها تقبلها.. مد يده يهدئ من روعها.. ولما عرفت أنه اكتشف دموعها أطلقت لنفسها العنان.. بكت بقهر المكلوم.. وربت فوق رأسها فى وقار حتى هدأت.

- عقبتك يا ابنتى فى هذا الطفل الصغير.

.. الآخرون ضباع يمكن استرضائهم حتى زليخة ليس لها مثل مالك، ولكن الطفل الصغير غيرهم جميعا إنه وريث شرعى، والمالك الفعلى لكل ما يخص أباه..

صرخت.. قامت تجأر وهى تجرى فى ردهات القصر - أريد الأشقر.

عندما أحضروه استقبلته بجفاء وهى تلعنه هو ووالى المدينة وقائد عسكر إيداكش فاستدار خارجا. أبقته.. وقفت تحدق به... فكرت إذا كان عليها أن تعتمد على رجل فليس أمامها سوى هذا الشاب.. أفاقت.. صاحت به فى جفاء - ماذا تنتظر نظر مندهشا وقال فى تباطؤ وهو يستدير خارجا - أمر مولاتى.

عندما بلغ سليمان البواب نبأ تعيين الأشقر واليا على المدينة ملأته الهواجس والشكوك كان عدد جنوده لا يتجاوز مائتى جندى شوهدوا جميعا وهم ينسحبون فى طابور خارج المدينة فاطمأنت الأميرة لكن اطمئنانها سرعان ما تلاشى عندما استدار شرقا وعسكر على الأطراف الجنوبية للمدينة.

فى عصر اليوم التالى وجه سليمان البواب أورطة من عسكره فقامت على احتلال بوابة منوف القبلية دون مقاومة وفوجئ الفلاحون العائدون من حقولهم بجنود البواب يجمعونهم بالقوة ويسخرونهم فى عمل المتاريس وتحرك البواب بنفسه باتجاه القلعة القديمة بغرض السيطرة عليها كرأس جسر لحين وصول مدد عثمان بك الطنبرجى وعلى أثر ذلك انتشرت زعجة عظيمة وسارع التجار بغلق حوانيتهم ودخل الناس دورهم وأغلقت بوابات الدروب وفى الليل سمع صوت البارود بشدة فى الجزء الجنوبى من المدينة، كان الأشقر قد قام بهجوم مضاد عند البوابة فاحتلها عند الفجر ووجد سليمان

t.me/qurssan

البواب نفسه محاصرا هو وجنوده بالقلعة. ولو أن الأشقر هاجمه لقضى عليه لكنه لم يفعل بعد وتحت ستار الليل تسلل سليمان البواب ناجيا بجلده وعساكره فبلغ معسكر جنوده وهم على وشك الهرب باتجاه الشرقية.. أوقفهم وسارع يستعجل نجدة من عثمان بك الطنبرجى كما أرسل فى طلب ابنته زليخة وحفيده الصغير الأمير مراد.. وطيلة أسبوع كامل هبط البواب بعساكره على سرس الليان وكمشوش وفيشا ورملة الأنجب وبهواش حتى بلغ أشمون فأهلك المزروعات وقتل الأهالى والأطفال والعجائز واغتصب النساء وجعل على كل قرية فردة ألف ريال وتوقف فى شما حيث لحقت به ابنته وحفيده فى تجريده من خمسمائة فارس وجندى فتوجه ثانية إلى منوف حيث عسكر بجنوده على أطرافها، وفى منتصف الليل دخل رسول سليمان البواب منوف لمقابلة الأميرة شريفة والشيخ السنهورى طالبا عقد الديوان الذى عقد فى اليوم التالى حيث قرأ رسول البواب إعلانا باعتبار أراضى الكشوفية أراضى أموات يحل عليها الحلوان وأنه حسب ما رسم عثمان بك الطنبرجى نائبا عن مراد بك تنقل أراضى إيداكش بك الكبير إلى ورثته الشرعيين ويقوم على الفصل فى الأمر قاضى قضاة منوف الشيخ عبدالحى نور الدين. ويصير حكمه نافذا لا رجعة فيه ثم استطرد الرسول.. فإن وافقتم تتركونا ندخل المدينة أنا وابنتى وحفيدى فى خمسين من عساكرنا لعرض الأمر وإعلان الحكم والفصل وإن رفضتم سيرنا على المدينة عساكرنا فسويناها بالتراب وعلى الباغى تدور الدوائر.. ران الصمت طويلا قبل أن تعلن الأميرة موافقتها.. دعت الأشقر للتداول قال لها ببطء..

- هذا أوان صيد الفريسة.. إنها تأتى بأقدامها إلى شراك الصيد.. يا أميرة.. اتركى الأمر لى.. قالت مؤكدة - ثلاثتهم؟

أجابها - نعم ثلاثتهم..

فخرجت إلى الرسول وهى تقول بابتهاج.. على الرحب والسعة.. وقبل أن يرحل الرسول عرج على الأشقر فى قصره خفية وسلمه رسالة من سليمان البواب لمحتها الأميرة فاطمة.. يقول فيها.. ..

- ولدنا الهمام حسين أغا الأشقر.. إنما يجمعنى ويجمعك الأمير المرحوم الذى أنت أدرى به ووفاؤك له عليك حق. فأنت ربيبه وفى مقام ولده وأنا صديقه فى مقام أخوه فليجتمع الابن والأخ فى خدمة الأمير إيداكش الصغير وفاءً وحقا لإيداكش الكبير..

t.me/qurssan

ضع يدك فى يدى يعطيك الأمير حقك وإذا كنت فى شك من أمرى فأحضر وقابلنى الليلة فى شما.

ذاع فى منوف أن الحكم فى قضية بلاد الأموات سيتم الإعلان عنه بعد صلاة الجمعة القادمة ونودى فى الأسواق بالأمان.. قبل أن يرحل الأشقر لمقابلة البواب جرت خلفه الأميرة فاطمة وكأنها تشك فى وجهة زوجها.

. أين تذهب. أجاب بابتسامته الميتة وعينيه اللزجتين

. للخارج.

قالت بضيق . أنت ذاهب إلى آمى.. نفى ذلك ببرود.

قال برعونة .

أنا ذاهب لأعدائها..ماذا أفعل عند أمك.

. لا أعرف.. تغير وجهها وبان عليه التردد والخجل.. استجمعت شجاعتها

. إذا استطعت بيع الأميرة..

. نعم . وقف مدهوشا.

. هه.... افعل.

صاح وهو يدلف من الباب خارجا تاركا إياها خلفه.

. هوه... هوه... هوه... للنساء عقول حادة تتوق للدم الساخن:

- ٣ -

دلف الأشقر من بوابة شما وهو يتشمم الفضاء كذئب متوجسا الخيانة.. تبع الحرس داخل قصر قديم أقام به البواب حديثا حتى بلغ الردهة الخلفية المهدمة.. تقدم منه حارسان طلبا منه نزع سلاحه فنظر إليهما مبتسما ابتسامة ميتة تتوهج على أطرافها السخرية وعينان ساخنتان. تقدمه أحد الحراس إلى حديقة داخلية ثم ما لبث أن تركه وهو فى دهشة أمام بناء حجرى جميل.. وقف وحده لفترة خالها طويلة قبل أن تظهر جارية أشارت إليه فتبعها.. دخلت به غرفة واسعة قسمتها ستارة لمح خلفها خيال وسمع بكاء طفل فجمد كالصنم مصغيًا.

t.me/qurssan

جاءه صوت نسائى . ألا تلقى السلام.

أجابها الأشقر بقحة . قبل أن أعرف فى حضرة من أكون؟

. سيدتك وابن سيدك الأمير مراد .

تقدم منحنيا لمسافة أربع خطوات من الستارة.. ركع على الأرض:

. العذر يا مولاتى.

. هل يدهشك وجودى هنا ..

. لم أكن أعتقد .

. أتصدق ما تقوله شريفة عنى.

. لا .. لا .

. أكنت شاهدا على زواج سيدك :

. نعم.

. هه الآن أعلم لماذا تقف فى صفها .

قال مندهشا:

. أنا؟ لماذا يا مولاتى؟؟

. رغبتك فى فراش سيدك.. ضاقت عيناه وهى تستطرد بصوت بارد . ولك شهرة واسعة فى شرب الدماء.. أنت تحب ضحاياك.. تستمرئ دماءهم.. لم ينبس ببنت شفة . ومع ذلك ترفع فى وجه ابن سيدك وولى نعمتك.. وتتحالف مع هذه المرأة المجنونة.

صاح يحاول الإنكار

. مولاتى.. أنا .. قاطعته..

فى أى صف تقف يا أغا.. هه.. لا تجيب.. تريد مال.. ذهب.. كم أعطتك.. أعطيك ضعفه.. هل أنت عبد.. هل أنت حر.. أجب على سؤالى يا أغا .

. حر يا سيدتى.

. عليك أن تدافع عن ابن سيدك حسبما شرع الإسلام الحنيف.. أما إذا كنت لا تزال عبدًا فاشترِ حريتك.

t.me/qurssan

حدثت جلبة خلف الستارة راحت المرأة الشابة تنهر ابنها مراد أن يكف عن العبث لكنه أفلت منها زاحفا من أسفل الستارة.. لمح الأشقر ساعدها العاجى وأساورها الذهبية.. شعر بالغصة تملأ حلقه.. حدق الطفل بالفارس الضخم فضحكت زليخة ضحكة أنثوية تشوبها خلاعة.. قالت للطفل..

- هل تريد أن ترى أباك.. ها هو.. انظر إليه.. استمر الطفل يحدق فى الأشقر..

وتابعت وهى توجه حديثها إلى الأشقر بنبرة حازمة.. هل تريد أن تكون أباه...؟ انحنى وهو ينظر إليه بتصاغر شديد.. غمغم قائلا:

- شرف عظيم تمنحيه إياى.

عقبت بسرعة

- أعطنا أذًا منوف.

ساد صمت طويل قبل أن يتساءل بوجه متجهم - هل يعلم الأغا بما تقولينه

- أبى.. نعم.. نحن نفكر سويا.. عقبت .

- فيما بعد سنفكر أنا وأنت.. فقط طبعا.

- قال مترددا :

- تعرفين..

- نعم.. ابنة شريفة الزوجة العذراء. ضحكت ضحكة منخفضة أغاظته.. استطردت.

- طلقها.. لا.. لا .. ستكون جارية لى.

حدق فى الأرض بعينيه الساخنتين الحمراوتين يحاول أن يستشف ما وراء الستارة.. هههووف... هووووف.. يبدو أن الله أعطى النساء عقولا ماكرة لكنه نسى الأشقر فتركه بدون عقل.

فتحت الستارة ثم رفعت نقابها.. نظر إليها مبهورًا.. شعر بالسخونة تجرى فى عروقه.. حسد إيداكش وتساءل.. يا له من زير نساء خبيث كانت جميلة بدرية كالقمر.. طويلة ممشوقة القوام.. جمعت زنارها حول وسطها وجعلت الحرير يسقط على ردفيها.. قالت وهى تعيد الخمار تغطى وجهها:

t.me/qurssan

- اجعلنى عقلك.

هز رأسه وهو ينفخ - هووووف... هووف.. سأفعل.

- ٤ -

فى ظهيرة الجمعة كانت الأميرة شريفة تدور فى قصرها هائجة فى انتظار ذبح سليمان البواب وابنته زليخة والأمير الصغير.. وفى جامع الشيخ الغضبان كان الشيخ عبدالحى نور الدين الذى عقد العزم على رفض وراثة مراد بك دون إثبات حسب ما أخبرته الأميرة شريفة والأشقر وحسب أعداد العسكر التى تقف على باب داره بانتظار الحكم اختلط عليه كل شىء فجأة عندما رأى البواب يدخل عليه وبصحبته الأشقر وعساكرهما..

نظر ناحية الأشقر - هل تعنى أن الوريث سيكون مراد؟ هز الأشقر رأسه موافقا فنطق الشيخ حكمه بثبات..

- وراثة مراد شرعية لأبيه مصطفى بك إيداكش ويعين سليمان أغا البواب وصيا على التزام إيداكش وممتلكاته..

- عندما بلغت الأنباء الأميرة شريفة.. كاد أن يغشى عليها.. دارت فى القصر كالمجنونة وهى تصرخ.. الأشقر.. أين الأشقر.. أسرعت تنوى الهرب من الباب الخلفى وأمامها وجدتهما معا.. الأشقر والبواب.. نظرت إلى الأشقر بغل شديد.. اندفعت نحوه تقذفه بآنية زهور وجدتها أمامها - أنت معه خائن جبان.. بكم اشتراك؟

أجاب البواب يناكدها

- ليس لدينا ما نشترى به أحد.. حسب ما رسم قاضى القضاهة .. هه .. هل تنكرين عليه أن يخدم ابن استاذه.

صاحت بغضب وهى تتمالك نفسها

- سفلة.. لصوص.. خونة.

قال ببرود - ونحن الآن نريد أموال الأب والابن.

أجابت بغل.

t.me/qurssan

- لا أملك درهمًا واحدًا.. باره..

- وأنا سأنقب جدران هذا القصر كلها حتى ينهار كله.

- أمامك القصر افعل به ما تريد.

حاولت الخروج فمنعها البواب

- غير مسموح يا أميرة.

عادت داخل الحرملك وقبل أن تدخل غرفتها استدارات إليهما.. نظرت إلى البواب وهى تشير إلى الأشقر - أهذا هو أشجع الشجعان.. هه.. أنا الأميرة شريفة ابنة شويكار ابنة أحمد قاووغلى التى انتسب إلى النسب الشريف كنت أنوى أن أجعله طواشيا لكن المرحوم إيداكش لعنه الله نجاه من بين يدى.. غمزت بعينيها وهى تبتسم بجنون.. مررت سيف كفها كسكين على باطن الكف الأخرى تشير إلى قطع الخصيتين.. أبلغونى حينما يصل..

- من؟

- الشيخ السنهورى بالطبع.. من غيره.. ملك الجان..؟ وربى مجانين.

-٥-

«أنا الناشئ فى دولتك.. المتقلب فى نعمتك المؤمل لخدمتك.. الوضيع فى رفعتك.. هب لى وعدك فضلا عن نفسك وهنئ سائلك بحلاوة نعمتك واجعل ميلك إلى ذلك فى الكرم. حثا على اصطفاء شكر الطالبين على بابك. . تشهد لك القلوب بحقائق الكرم والجود وتلهج الألسن بنهاية الحمد والشكر لرفعتك وذاتك العلية..».

بهذا المكتوب بدأ الشيخ السنهورى نقيب الأشراف دعوته إلى خير الدين شوكت رئيس كتاب السلطنة وأحد كبار الدولة إلى الحضور لقصره بنوف.. مصحوبا بطلبه رفع المال عن فيشا ورملة الأنجب من حوزة الالتزام الذى يدفع إلى الديوان كل عام واعتبارها أراضى رزقه بلا مال.. وطلب أيضا مده بالمعونة لإعادة بناء وترميم قصر أجداده وصِحِب ذلك بالغالى والنفيس من الهدايا الفخمة والذهب والمجوهرات وخنجرًا مقبضه فض به فصين من العقيق الأحمر ولؤلؤة وزاد ذلك بإهدائه دنيا أزاد التى كانت قد بلغت الخامسة والعشرين فتكورت وتدملجت ونضجت وأصبحت امرأة تشتهيها

t.me/qurssan

الأنفس ويهفو لها الوجدان..

فقبل خير الدين دعوته بكل رضا وسرور.. وفى اليوم الموعود عبر الموكب السلطانى العظيم الطريق الذى شقه السنهورى حديثا تحت أقواس الزينات التى انتشرت من بوابتى المرسى اللتين شيدتا خصيصا من أجل الكاتب السلطانى.

فى صدر الإيوان تصدر المجلس كل من الشيخ السنهورى وضيفه وتقدم وجهاء الدولة والأعيان والأكابر والمشايخ وقد أخبرهم تلميذه محمد أبو الفضل كل على حدة بمبلغ ما يكون عليه من الوجاهة والأدب مشيرًا إلى أن هذه أوامر عظيم السلطنة ومقسما إياهم طبقتين.. كبارهم وأصاغرهم.. وتتابع الوجهاء والأعيان يتقدمهم كبارهم بنحو ذراعين. . فإذا عبروا مدخل الديوان صاح كل منهم.

- يا مولاى يا واحد. . فيرد الشيخ السنهورى.

- يا مولاى يا دائم يا على يا حكيم.

ثم يعبر الإيوان فإذا بلغ صدر المجلس بنحو ذراعين حبا على ركبتيه ومد يده طالبا تقبيل يد السنهورى أما الأقل شأنا فقد كانوا يكتفون بتقبيل ثيابه. . وخير الدين باشا شوكت الذى لم يقل شيئا، لم يرسم أمرًا جالس لا ينبس ببنت شفة محدقا فى الداخلين مستغربا مدهوشا بمبلغ عظمة الشيخ السنهورى وسطوته وإمارته. . وعلى الجانب الآخر جلس الأعيان والتجار والمشايخ منبهرين بمدى ما بلغه الشيخ السنهورى من جاه وعظمة واتصال بذوى الشأن والسلطان فى الدولة العثمانية وأصحاب الخلافة فازدادوا خوفا منه ورهبة وبالغوا فى تبجيله وتفخيمه.. وقبل أن ينتهى الحفل أشاع بينهم بأن الاحتفال بمولد الأولياء والأمراء الحسين والسيدة نفيسة والإمام الشافعى والسيدة زينب وسيدى الغضبان سيكون خمسة عشر يوما وليس يومًا واحدًا وسوف ينادى فى الأسواق على الحوانيت بالسهر ليلا وإشعال السراج والقناديل فظهر البشر والسعادة على وجوه التجار لما فى ذلك من خير كثير لهم وأخبرهم بأنه سيجعل مقابل هذا وقفا لصالح أوقاف مشاهد الأولياء وصناديق أموالهم..

فى اليوم التالى وقبل أن يرحل كاتب السلطنة خير الدين باشا شوكت أعلنت الأميرة شريفة على مشهد منه وعلى يد الشيخ السنهورى وسليمان أغا البواب وابنته زليخة ومراد الصغير وحسين أغا الأشقر بقبولها التحكيم واستسلامها لقضاء الله وعزمها

t.me/qurssan

على تسليم كنوز مصطفى أغا إيداكش إلى سليمان البواب الوصى على الفتى الصغير واقتسامها معه مناصفة حسب الترضية التى ارتآها كاتب السلطنة بين الطرفين المتنازعين.. وأمام خير الدين شوكت ركعت زليخة أمام الشيخ السنهورى وقبلت يديه الاثنتين وقدمت ابنها الصغير إليه كى يباركه بقراءة الفاتحة على رأسه ثم رفعت زليخة خمارها أمام الجالسين فكشفت عن جمالها الهادئ النافر مما أشعل نار الغيرة فى قلب الأميرة شريفة.. كادت أن تحترق وهى تخمن ما سوف يحدث بعد لحظات وأمامها وعلى مرأى من عينها.. وما خمنته حدث بالفعل إذ أن زليخة بعد أن تقدمت للشيخ السنهورى راكعة خفضت رأسها وأعلنت والخجل على محياها بعزمها على الزواج من الأشقر تلميذ زوجها ووصيفه.

قال السنهورى بوجه يخلو من كل معنى:

- زواج مبارك.. زواج مبارك.

-٦-

هتفت شريفة دون صوت وهى مختلية بالسنهورى

- سيتزوجا. . مكننى منها. . مكننى منها. قال السنهورى وهو يستغفر الله فى تواضع.

- صبرا يا ابنتى صبرا استعينى بالصبر الجميل.

- مكننى منها.. مكننى منها.. وضعت بين يديه عقداً من اللؤلؤ الثمين فلم يحرك ساكنا وإنما كرر:

- صبرا يا ابنتى وليأمر الله بما يشاء..

رحلا إلى القاهرة سرا.. حيث استقبل إبراهيم السنارى كتخدا مراد بك امرأة تخفى وجهها بنقاب وخلفها جارية فى حجرته المليئة بالمراهم والمساحيق والقرود والثعالب الصغيرة. . ابتسم الرجل ابتسامة شيطانية.

- ماذا تريد الأميرة.

- هذه هدايانا العلية لشيخ المصريين وأمير البلاد مراد بك.

- وماذا تريد الأميرة؟

t.me/qurssan

- وهذه ألف ريال حلوان عن بلاد الأموات ومال ميرى أراضى التزام المرحوم مصطفى بك إيداكش..

- .. وماذا تريد الأميرة؟

- وهذه جارية خاصتك.. من أجل خاطر رضاك وسرورك.

- وماذا تريد الأميرة... . فحت وعيناها تتسعان.

- أراضى زوجى وأمواله. . عشت عشرين عاما أزرع وأقلع وأبنى فيها وأنا التى شردت من أجلها أنا التركية الأصل والشريفة النسب كدت أباع فى الأسواق من أجلها ومن أجل زوجى المرحوم.. قال بعينين حمراوين.

- نريد إقطاع أشمون ثلاثة أعوام.

- كما تقول حضرتكم وأنا أريد فرمانًا من الأمير.

أخذ الرجل يمسد ذقنه. لقد أعطى عثمان بك الطنبرجى فرمان لسليمان البواب وإنا نريد نقضه.. أعاد الرجل تمسيد ذقنه وهو يفكر وقال..

- ولكن هناك عقبات تمنعنا يا أميرة. . صرخت بخوف... من؟

- الوريث الحقيقى. . . ضحكت بشيطانية.

- أعطنى فرمانًا من فضيلتكم وأنا نشوف شغلات أخريات.

- ٧ -

كان سوق السبت غاصا بالفلاحين من ندرة المعروض وارتفاع الأسعار وعلى جانب الطريق وفى الخرائب والساحات على السوق تجمع عشرات من الجوعى والشحاذين والكلاب الضالة يقتاتون من بين أكوام الزبالة أو يتصيدون ثريًا يسرقونه، وكانت قد كثرت تعدياتهم ولهذا أحاط الأثرياء أنفسهم أثناء ذهابهم وعودتهم من السوق وبالألضاشات والشطار وبين جماعات الجوعى والباعة والمشترين تتقل عبد المحسن فى الأرجاء بخفة وحوله من على مبعدة تتاثر خمسة من رفاقه يمسحون السوق بأعين حادة كالصقور بحثاً عن ضحية.. التقط عبدالمحسن أحد فرسان السباهية غارقا فى الشراب يسير مترنحًا فى السوق.. دفعه بقوة فسقط الرجل على الأرض فتقدم ثلاثة.. المرسى.. وأحمد مصيلحى وصالح رفيق المنصور القديم. نحوه فركل المملوك المرسى

t.me/qurssan

بعيدا وأطاح بصالح.. وأمسك برقبة المصيلحى بقوة.. أزرق وجهه وهو يختنق.. دفع عبدالمحسن بسكين حادة فى خاصرة الرجل.. صرخ الرجل صرخة واطئة ثم سقط على الفتى.. ظل ينزف حتى مات.. ركض جواد الفارس على غير هدى فى قلب السوق. . ارتعد الأصدقاء لجرأته.. همسوا والغضب فى عيونهم.

- يعنى ما تقتلش إلا واحد من فرسان السباهية.. صاح بهم.

- يعنى أسيبه يموت المصيلحى.. أجرى يا وله أنت وهو. .

قال صالح:

- على فين يا ابن المركوب.

أجاب - خذوه على الخرابة.. وضع صالح كتفى المملوك بين ذراعيه وحمله الثلاثة الآخرون من قدميه.

هتف المرسى مزمجرا وركبتاه تصطك:

- دول جايين ناحيتنا.

ردد صالح

- امسك أعصابك.. دى الأميرة زليخة مع ابنها الأمير مراد محمولا على محفة بتلف بيه السوق عشان الكل يشوفه.

- ليه عيان.

- لا.. عشان تعلن على الملأ عودة الإمارة له..

قال صالح

- أنام معاها ليلة واحدة أعطيها شاب عمره عشرين سنة.

- مرة واحدة؟ - مرة واحدة.

لكزه أحدهم من الخلف

- مش حتجيب منك إلا دودة.. ضحك الجميع بجفاف وصرخ عبد المحسن - يالا يا وله. . من هنا.. دلفوا إلى حارة جانبية وحملوا الجثة إلى ساحة دار مهجورة.

* * *

t.me/qurssan

كان الخدم يحملون السيدة زليخة على محفة وأمامها طفلها الصغير وعلى وجهها ابتسامة عطف واسعة ومن خلفها الأشقر راكبا جواده ومن خلفهما فارسين يلقيان بالدراهم إلى الغوغاء والعامة فيستقبلونها بالهتاف والترحيب وهم يتقاتلون على الدراهم وبين الحين والآخر كانت تنزل لشراء شيء ما.. تشير نحوه فيندفع إليها خادمان يدفعان إلى التاجر المحظوظ نقوده ويأخذون منه ما اشترته..

عند جامع الهجين شاهدا خيمة غريبة الشكل كخيمة أمير تترى.. صاح عليها غجرى فى الخمسين من عمره يلوح لها بثوب من الحرير الهندى فى يد وعقد من اللؤلؤ الثمين فى يده الأخرى وبجواره وقفت غجرية شابة فى الثلاثين من عمرها تقف أمام صندوق صغير به فتحة زجاجية تسع إنسان.. نادت قائلة ـ صندوق الدنيا.. ترى الشام وبيت المقدس وإسطنبول وبمباى ودمشق.. الجامع الأموى.. ومراكب البندقية.. إسبانيا.. الصرب.. وبلاد البوسنة.. بلاد المغرب والجزائر وسور الصين وأفيال الهند.. بدينار ذهبى.. أشارت الأميرة لخادمها بالوقوف.. نزلت وعلى وجهها السعادة والحبور والطمأنينة.. ذهبت إلى الصندوق.. وضعت وجهها.. أخذت تصيح بالإعجاب بين الفينة والفينة كلما رأت مشهدا متحركا والأشقر خلفها يريد أن يرى هو الآخر ما تراه فلما قامت جلس مكانها... صاحت الغجرية ـ دينار ذهبى يا سيدى.. فدفعه لها غير راض.. عبرت أمامه مشاهد الشام ودمشق والهند كان سعيداً عندما بدأت مشاهد هضاب الأناضول والقرم والدانوب.. أصابه الدوار وهو يرى البندقية ومراكبها ثم رأى أراضى البوسنة والصرب.. جبالها وسهولها.. وهضابها العشبية.. قال هذه... نسى اسمها.. كانت الأراجوزة .. قام من أمام الصندوق كالتائه.

دخلت الأميرة الخيمة مبهورة.. استقبلتها المرأة الشابة بانحناءة كبيرة.. أخذا يعرضان عليها بضائع غريبة وعقود وحلى وجواهر ثمينة وفصوص من الزمرد والعقيق المبهر.. سجاد طشقندى وزيت يطيب لأوقات السحر والملاعبة. لمح الأشقر رغبة السيدة زليخة فى عقد من اللؤلؤ. . نظر إلى الرجل.. صاح..

ـ خمسة آلاف دينار ومن أجل خاطر الأميرة ثلاثة آلاف دينار.. مد الأشقر يده. . جذب العقد بغلظة ثم استدار ناحية الأميرة وبطريقة مهذبة وضعه حول عنقها العاجى.

ـ ليس هناك شيء أغلى من خاطر الأميرة.. هدية الخطوبة منى... نظر للرجل

t.me/qurssan

. سوف تأخذ ثمنه بحلول المساء.. خلعت الأميرة العقد تعيده إلى الرجل. . لاحظت الأميرة دون اهتمام الغجرية وهى تمد يدها للصغير تأخذه ليشاهد صندوق الدنيا.. مد الطفل رأسه لا يفقه شيئًا حوله.. جذبت المرأة الحاجز الزجاجى من طرف خفى وهى تحكى للطفل القصص التى حكتها لأمه والأغا من قبل.. شاهد الطفل رأسا ضخمة تبرز أمامه فجأة وهى تتلوى.. ضحك وسكت لحظة وانقضت الحية بلمح البصر تعضه.. لم يفهم الطفل ما يجرى فصرح باكيا من الألم.. استدارت إليه أمه فاندفع إلى حضنها وقبض الأشقر على خنجره متحفزا والغجرية الشابة تضحك وهى تقول... لقد افزعه وجه امرأة صينية... ضمت عينيها تقلد نساء الصين... وضعت كفها حول وجهه.. ألقمته شيئًا فى سرعة خاطفة فهدئ وسكن ثم أخذت تلاعبه.. وضعت يدها على رأسها وأخذت تحركها وهو يلوح عنها غاضبا.. مد الغجرى يده بالعقد فى صندوقه المصنوع من المخمل وهو يصر على أن تأخذه الآن فانفجرت أساريرها وذهب عنها انقباضها... دعت الغجرى لأن يحضر إلى قصرها ليلا ليعطيه الأشقر ثمنه، ثم قامت خارجة وهى تسأله أن يعرض عليها غرائبه عندما يأتى ليلا ليأخذ ثمن العقد. للحظة مضت فوجئ الغجريان بالأشقر داخلا وقفا مبهوتين..

أشار إلى الصندوق صاح فيهما.. بكم هذا؟. . قالت المرأة

. ليس للبيع.

قال . أريده. . كم تريد فيه.

. ليس للبيع. .إنه سبيل رزقنا..

. سيكون من أجلى للبيع.

أشار إلى رجلين فدخلا من فورهما فحملا الصندوق.. جرت المرأة إليه تحاول منعه فدفعها بعنف فسقطت أرضا مرتين قبل أن يراها أمامه تتكئ على مرفقها وقد اشهرت خنجراً معقوفاً فى وجهه... ضحك الاشقر من قاع فمه... هه... ألقى إليها بكيس به عشرون دينارًا ونظر إليهما بإهمال وخرج خلف زوجته المقبلة.. وما إن رحلا حتى شاهد التجار والأهلون الغجريين يجمعان حوائجهما على عجل ويرحلون مسرعين.

قال أحدهم بحسد . باعا اليوم بيعة طيبة.. أرزاق ربنا مقسمها.. هز التجار رءوسهم

t.me/qurssan

علامة على الموافقة والحسد.. أما الغجريان فقد بلغا خارج منوف بسرعة بالغة حيث وجدا بانتظارهما جوادين ورجل.. دفع إليهما بصرة ضخمة من الذهب وفرا على جناح الريح إلى الشرقية.

* * *

دفع عبدالمحسن ورفاقه الخمسة جثة الفارس إلى باب جانبى حيث خلعوا عنه ملابسه وفتشوا جيوبه وانتزعوا منه ساعة فضية وثلاثة خواتم ذهبية.. جذب عبدالمحسن حافظة جلدية كبيرة دفعها لأعلى وأفرغها على الأرض فتساقطت عشرات الدنانير الذهبية اندفعوا يجمعونها مهللين.. جلسوا يعدون غنيمتهم.. واجتمعوا لدفن الجثة.. على حين غرة سمعوا ضجة وصراخًا وصيحات وسط صهيل الخيل وضرب السنابك تتصاعد من جهة السوق.. خرج أحدهم ليستطلع الأمر فترة وعاد مندفعا إلى الداخل.. لهث فترة يجمع قواه المنهكة قبل أن يصرخ وهو ممتقع الوجه.. مات مراد بن الأغا إيداكش وسليمان البواب والأشقر ينهبان السوق بحثا عن غجريان.. إنهما مادمان.

اندفعوا من الباب لكنهم تراجعوا على الفور كان عسكر القلعة قادمين من أول الطريق يفتشونه بيتا بيتا.. وقت طويل أمضوه فى انتظار أن يعلقوا على المشانق قبل يصرخ لهم عبدالمحسن بفكرته..

اندفع جواد إلى مدخل الدار وخلفه أربعة من العسكر فوجدوا أمامهم جثة ممددة مغطاة بخرقة بالية وعلى رأسها جلس متعمم يرتل القرآن وحوله فتية يبكون.

وقف الفارس أمام الشيخ مباشرة فحول نظره إليه وحدق فى عينيه بقوة ثم عاد يرتل القرآن فى خشوع. . صرخ المملوك..

- من هو.. قال صالح وهو يبكى

- أبى رحمة الله عليه.. قتله الطاعون.. انتفض وجه الفارس.. تراجع بجواده منقبض الوجه صاح فيهم:

- هل رأيتم غجريين.. لم يكمل حديثه.. كانوا جميعا ينظرون إلى الأرض فى لوعة وأسى يبكون.. خرج راكضا وهو يردد... اللعنة عليهم خنازير.. فلاح حمار.. كيف لشيخ معمم يغامر بحياته بتلاوة القرآن على الطاعون.

t.me/qurssan

عندما تيقنوا من رحيل رجال الدرك اندفعوا ثانية عبر الدرب محاولين الهرب.. كانت الشوارع خالية من المارة والدهماء.. سمعوا سنابك الخيل فالتفتوا يبحثون عن مأوى.. تسللوا إلى جامع سيدى الغضبان.. تدافعوا إلى حجرة المقام فوجدوها خالية..

ترى من أول من فكر فى صندوق النذور.. لا يذكر عبدالمحسن جيداً.. كان أمامهم وهم يحاولون الابتعاد عنه دون جدوى فعلى المداخل كانت الأبواب محاصرة فكانوا يعودون إلى الضريح الخالى.

طيلة الليل وهم على هذه الحال وقبل آذان الفجر بساعة قام رضوان بخلع قائمتى الصندوق.. ودون مجهود يذكر تحرر الصندوق. هتف عبدالمحسن وهو ينظر إلى صندوق النذور:

- كيف بالله.. دا مال نذور وغلابة.

دفعة الآخرون:

- لنا أحسن ما يأخذه غيرنا..

خرجوا ملثمين.. على باب الضريح اصطدم عبدالمحسن بحارسه الشيخ محمد علوى.. عجوز طاعن السن.. سقط عنه لثامه.. هتف العجوز غير مصدق... عبدالمحسن؟ وخرج يصرخ - .. لصوص.

أخرج صالح سكينا ودفنه فى خاصرته من الخلف. سقط العجوز مضرجا بالدماء

ردد عبدالمحسن مهموما:

- .. ليه قتلته.. ليه.. سامحنى يا شيخ محمد.. والعجوز يصرخ - يا حرامى الإسلام يا قاتل..

سمع الرجال أصوات ناس تقترب فانطلقوا فارين بصندوق النذور.. كان أول من اصطدام بجثة العجوز مشايخ قدموا للصلاة.. قبل أن يلفظ العجوز أنفاسه الأخيرة أسر العجوز للشيخ عليش - عبدالمحسن بن توحيدة.. هو الحرامى.. هو القاتل.. حرامى مال المسلمين.. ونطق العجوز الشهادتين وسقط ميتا.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثامن

- ١ -

اندفعت بدرية تجرى فى ردهات الطابق العلوى باتجاه مخدع الأميرة شريفة.. دفعت الباب وهى تلهث.. التفتت إليها الأميرة شريفة وهى غاضبة.. وقفت بالباب وصدرها يعلو ويهبط من الانفعال.. صرخت بها شريفة:

- كيف تجرؤين.

- مولاتى.. مات مراد ابن سيدى.

- هه.. انتفضت شريفة واقفة.

- بيقولوا فى السوق أن..

- أن ماذا؟

- أن الأميرة شريفة قتلته.

- نحن؟.. ونحن هنا.. قامت تدور حول نفسها.. والآن على أن أسابق الزمن حتى أنجو بنفسى من الموت.. رددت بدرية... دى بتقول إنها قتلته

- استطردت الأميرة.

- لا لن يعجبهم موتى سريعًا.. سوف يخوزقونى لو وقعت فى أيديهم من يستطيع أن ينير لى طريق إنقاذى.. يا ربى.. ليس لدى سوى طموحاتهم ولكن الأغبياء لا يعرفون كيف يستخدمونها.. أنا أملك كل كنوز إيداكش.. لابد أن أسابق الزمن وإلا ضعت إلى الأبد.. خطرت لها فكرة كالبرق.. قالت بانفعال..

t.me/qurssan

ـ ابنتى بدرية.. أنت صديقة ابنتى فاطمة.. ضحكت ضحكة مكتومة يشوبها الجنون واستطردت تتحدث فى سرعة.

ـ اذهبى بسرعة إلى ابنتى فاطمة.. قابليها.. شاغليها.. حدثيها فى أى شىء وكما تطرأ على الإنسان فكرة قولى لها.. هل عرفت يا مولاتى.. ستقول لك ماذا.. الأميرة شريف.. مالها.. سوف تتزوج.. تتزوج !! نعم.. سليمان البواب.. ـ هل هذا معقول.. كيف عرفت ـ لقد شاهدته بعينى التى سيأكلها الدود يطلب يد الأميرة راكعًا.. نظرت إليها بدرية كالصنم وهى ترى الأميرة شريفة تدير العالم وتحركه.. أمسكت الأميرة بكتفها.. هزتها بعصبية تحاول أن تتحكم فيها.

ـ كما تشائين ولكن عجلى.. أما أنا فعلى أن أسرع إلى قصر أبونا السنهورى أحتمى به منهم.. لم تحاول هذه المرة أن تجمع شيئًا لكنها هبطت السلالم مسرعة متجهة إلى فتحة فى السور تطل على الدروب الخلفية لمنوف.. غطت وجهها بخمار كثيف وكذا فعلت وصيفتها وهرعتا معًا تختبآن بظل الدور القديمة إلى قصر الشيخ السنهورى.

* * *

فى طريق عودتها رأت بدرية عسكر سليمان البواب يحيطون بالدروب المؤدية إلى قصر الشيخ السنهورى.. دلفت إلى أحد الدور المجاورة وأخذت تقفز فوق الأسطح تسابقهم إلى مدخل القصر.. كانت أمها تقف بالباب تبحث عنها فلما رأتها نادت عليها أن تسرع.. كانت خيل البواب تلهب الدروب.. عبرت بدرية الساحة راكضة.. دلفت من درجة فى باب القصر الخشبى الضخم المسلح بعارضات من الحديد.

صرخ بها السنهورى بلهفة أدهشتها:

ـ أين كنت يا ابنة الكلب.. هزت كتفيها برعونة وهى لم تعهد هذه الشتائم فى لغة الشيخ لها:

ـ كنت أؤدى خدمة للأميرة.

وجدته يفقد أعصابه للمرة الأولى.. انهال على وجهها بصفعة مدوية وهو يصرخ بها..

t.me/qurssan

- ما دخلك بالاميرة.. بتدورى على موته سريعة.. هيا اعترفى عن وجهك.. لم تأثم بدرية ولم تكن حزينة لأن السنهورى ضربها.. كانت تتساءل إن كان يهتم بحياتها إلى هذا الحد.. أمامها مباشرة وجدت جثة رجل مصلوب على عروسة خشبية وقد شوه وجهه وعلى جلده ظهرت آثار الجلد الحارقة.. نظرت له بشفقة والقشعريرة تملأ جسدها.. فوجئت عندما لم تجد يديه.. قال لها أحد المتعممين من طلبة السنهورى.. - واحد من الذين سرقوا صندوق نذور سيدى الغضبان.. كان رضوان..

- هل أمسكتم بهم كلهم؟

- لا .. ليس بعد ولكن الشيخ السنهورى عرفهم واحدًا واحدًا وقد أقسم أن يقبض عليهم ولو بلغوا الصين...

- أين الشيخ السنهورى.. سأل سليمان البواب على جواده.

- أنا هنا تعال..

صاح متقدمًا رجاله.

- هل يأوى فضيلتكم قتلة.. تجهم وجهه وضاقت عيناه.

- أنا لا آوى قتلة.

- والأميرة شريفة أليست تختبئ عندكم.

- وهل ثبت ضدها شىء.

فكر البواب..

- ليس بعد.

- هيأذًا استجارت بى.. وأنا مجيرها.

- هل تجيرها منى.. إن يدى طويلة.. نظر إلى جنوده ينوى اقتحام القصر.

نظر إليه السنهورى وتقابلت عيناهما..

- احذر ماذا ستفعل.. أنا الذى استعصى على الوزير الأعظم حسن باشا القبودان أن ينال من عندى ودائع إبراهيم بك شيخ المصرلية وعدوه اللدود.. أنا رجل يرعى الأمانة فى وجه كل طغيان.. كانت حلقات المتعممين تزداد وتتجمع وهى تمسك بالنبابيت

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
والعصى والسيوف وراء السنهورى.. كرر ثانية أنا رجل يرعى الأمانة والأميرة جعلت من نفسها أمانة عندى وإذا سولت لك نفسك أن تفعل.. .. كان وجه البواب تتضاءل فيه الصلافة والتجهم وتتوارى فيه ملامح القوة والبغى وتحل فيه ملامح الكراهية.. .. كراهية مقيتة.. أستطرد السنهورى.. إذا سولت لك نفسك أن تفعل فلن أستمطر عليك اللعنات من عند الله أو الدعاء عليك فى الجوامع ولكن من سدنة القلعة نفسها ـ أشوى لحمك ولن أستريح حتى ترسل الأستانة من يطلبك للذهاب إليها مكبلاً بالسلاسل والقيود.. هل فهمتم.. لو كان لك حق استحكم فيه قاض القضاه وما يحكم به وجبت علينا جميعًا طاعته.. رفع السنهورى يده فنزل سليمان البواب مسرعًا ينحنى عليها يقبلها.. ثم عاد إلى جواده واستدار رافعًا حصاره عن القصر.

* * *

فى الفناء الخلفى لقصر السنهورى جلست بدرية القرفصاء تغسل الأوانى النحاسية الضخمة وتجلو عنها الأوساخ وبقايا الزنك برماد الكانون.. شعرت بعيون خفية تراقبها وتتفذ فى عظامها.. أجالت النظر حولها مضطربة.. لم تجد أحدًا فعكفت على عملها ثانية إلا أن الشعور بأنها مراقبة لم يفارقها.. بغتة رفعت بصرها لأعلى وفى شرفة بالطابق الأعلى للحرملك رأت الأميرة شريفة تحدق بها.. أسقطت عينها فى خوف على عجل.. ثبتت عينها على الباب الموصل بين الفنارين.. أصابتها رعدة وسرت فى جسدها قشعريرة رعب.. كان الأمر فى وضح النهار وظل يستقيم فوقها وأمامها رأت ثيابًا نسائية فاخرة تبرز من أسفلها القدم المشقوقة للسلعوات.. شعرت بيد تمسد رأسها.. نظرت إلى الباب فوجدته مغلقًا.. رفعت عينيها مرتعدة وقد تهاوت مفاصلها.. هل هبطت لها فى الهواء من الطابق الثانى؟. رأت وجهًا يتماوج بين وجه الأميرة ووجه السلعوات.. فحت أو همست لا تدرى بدرية..

ـ هل أنت غاضبة منى.. تعالى.. تعالى.. أخذوا منى ابنتى فاطمة.. لقد أبعدوها عنى.. أبعدوا ابنتى عنى وحبسونى هنا.. القتلة ليس لهم قلب.. من يعرف قلب الأم سوى أم مثلها.. أخبرينى ماذا يجرى هناك؟

تحدثت بدرية وهى تلهث:

ـ الأميرة فاطمة سعيدة.. تقول إن البواب سوف يتزوج بك..

t.me/qurssan

البواب يقول إن الزواج بك أحسن وسيلة لا.. لا..

- ابنتى سعيدة لأننى سوف أبعد عن زوجها.. الفاجرة.. ما أشد عقوق البنات على أمهاتهم.. قولى لى.. قولى.. استطردت وهى تداعب وجهها بأناملها المعروقتين.

- قولى يا ابنتى الصغيرة.. ولا تخافى.. هتفت وهى تلهث.

- أحسن وسيلة للقضاء عليك والاستيلاء على كنوزك..

- كنوزى.. هه .. كنوزى.. دارت بغنج.. إن كنوزى كثيرة.. مالت على الفتاة بعهر.. أى كنوزى يعنون.. أموالى.. أم مفاتنى.

كانت بدرية تنظر إليها فى رعب استطردت وهى ترتعد.

- مولاتى فاطمة تقول إن هذا لا يرضى الأشقر.. اتسع وجه شريفة بالابتسام.. يقول إن البواب قد خدعه وخانهم.. ضحكت شريفة بنزق.

- وما حال زليخة؟

- أبوها حبسها فى غرفة مظلمة.. تبكى زوجها وابنها.. تقول إنك قتلت زوجها مصطفى أغا إيداكش وابنها مراد وأنك سوف تقتلين أبوها سليمان البواب وهو لا يستمع لبكاتها.. فتح الباب الموصل بين الفناءين فجأة وأطلت منه وصيفة الأميرة وهى تصيح فى اهتمام.

- مولاتى.. سليمان أغا البواب واقف بالباب يريد مقابلتك.

تحدثت فى رنة تصطنع فيها الهدوء.

- أخبريه أننى لا أستطيع أن أظهر على الرجال.. أنا امرأة مات زوجها ولم يمض على موته أربعون يومًا.. لو كان يريد أمرًا عليه أن يقابل أبونا السنهورى.

استدارت راحلة.. شعرت بدرية بعينيها تنجذبان رغمًا عنها إلى خطوات الأميرة نظرت إلى قدميها فوجدتهما قدمين عاديتين لإنس.. هزت رأسها متعجبة وعادت تجلو الأوانى.. حانت منها التفاتة للأرض كان عليها آثار أقدام غريبة تشبه أقدام الماعز.. قامت تجرى تصطدم بالأشياء إلى دهليز القصر الداخلى وقد شل لسانها من الرعب حتى اصطدمت بجسد ضخم ففك لسانها وانطلقت من فمها صرخة مدوية.. أخذها السنهورى فى أحضانه وهو يهدى من روعها.

t.me/qurssan

ـ كنت معها؟

ـ نعم.

قال وهو يقرأ على رأسها الفاتحة والصمدية إحدى عشرة مرة.

ـ ألم أمنعك من هذا.

لم تستطع الحديث.. تشبثت به وهى تفهق.

ـ ٢ ـ

بعد يوم مرعب قضاه الأشقر فى عراك مع البواب لخطبته الأميرة شريفة وزليخة التى هجرها بمقتل ابنها دون معرفة سبب لموته.. وامرأته فاطمة التى كانت تدور فى أنحاء القصر تكنسه بيدها كمن أصابها خبل. أمضى ليلته يحلم بأحلام مموهة وكأنه يبحر فى بحر من العماء على الحد الفاصل بين الظلام والجحيم.. يقاوم الشياطين التى أخذت تضيق على أنفاسه تجذبه عن خط الصراط إلى الجحيم.. وقرب قوس قزح انفجرت عروقه وتناثر دمه وانطلق يسبح على الخط الفاصل بين بحر الظلمات ودائرة الشفق.. وروحه تهوى فى هاوية يشتد صقيعها.. أدرك والبرودة تسرى فى أطرافه أن الهاوية هى حياته.. قام مهرولاً فى قميص نومه وهو يرتعد من الحمى يبحث عن صندوق الدنيا الذى اغتصبه من الغجريين.. وجده ملقى بإهمال فى غرفة الحرس.. حمله بين ذراعيه عابرًا به ردهات القصر حتى بلغ قاعة الشتاء المطلة على الحديقة الخلفية لقصر دار السبيل.. وضعه أمامه.. دفع رأسه داخل فتحته الزجاجية.. لم ير شيئًا.. حمله إلى ضوء الشمس.. وحاول ثانية فرأى صورة ليس لها ملامح.. مد يده فى فتحاته يحاول أن يضبطه دون جدوى.. حركه يمنة ويسرة وفى جميع الاتجاهات.. أخذ يعبث به بإنهاك شديد وفى كل مرة يعود ينظر من الفتحة الزجاجية فلا يرى سوى صورة ضبابية.. ظل يحاول قرابة الساعة حتى أصابه غضب شديد فركله بقدمه ركلة قوية فسقط على ظهره.. ودار فى القاعة حول نفسه وهو يجهد ذهنه فيما يجب أن يفعله.. فكر فى الخروج إلى السوق لكنه عاد ثانية إلى الصندوق الملقى أمامه.. فى هذه المرة قلبه وعندما نظر شاهد أمامه صورة للجامع الأموى ومدينة دمشق.. تهلل فرحًا وانكب فى اهتمام يحدق فى الصورة.. فتحت زوجته الباب عليه

t.me/qurssan

وجدته فى قميصه الداخلى أشعث الرأس مفتوح الصدر مائلاً بجسده على الصندوق ينظر من الفتحة الزجاجية وكأنه غائب عن الدنيا.. نادت عليه.

- سيدى ألن تتناول طعام الإفطار فلم يجبها.. فتقدمت نحوه تعيد سؤالها.. مدت يدها تنبهه فى رفق وقبل أن ترفعها بوغتت بصيحة هائلة وهو يهز قبضته أمام وجهه - اغربى عن وجهى.. تراجعت غاضبة وهى تصرخ فيه.

- سألتك تأكل مش دفنت سكينات فى ظهرك خسيس أغا.. لم يجبها إلا بصرخة أخرى.. احمرت عينيه بالدم القانى.. تقلصت أصابع يده فتراجعت خارجة فى غضب خانف.. عاد يلهث إلى صندوقه يحاول أن يحرك الصورة الموجودة داخله كما فعلت الغجرية دون جدوى.. دار حوله يتحسسه باهتمام بالغ يحاول أن يجد بابا صغيرًا أو فتحة يستطيع أن يدخل منها يده فيبحث عما يريد.. قرب الظهيرة أصابه اليأس.. دار حول نفسه وهو يكاد ينفجر من الغضب تصاعد البخار من منخاريه.. دار حول نفسه دورة وهو يصرخ قبل أن يطوح به فى المرآة فتساقط قطعًا مهشمة. وقبل أن يدرك ما حدث انتصبت أمامه حية تزحف على الأرض.. نظر إليها ببلاهة لفترة طويلة وهو يهرش رأسه من هذا اللغز الغريب.. حدثها.

- أقدمت من دمشق أم من أراضى الهند.. كيف حضرت إلى هنا وهل أنت صورة أم حقيقة؟.. أنت تتحركين.. تسيرين على أرض الغرفة ولكن هذا لا يعنى أنك حية.. هل هذه.. التصاوير حقيقية أم مجرد رسوم.. إذا كانت هذه البلدان قد انتقلت من أماكنها إلى هنا فأنت حية. إذًا جئت معهم وربما رأيت أمامى أيضًا فيلا هنديًا أو نمرًا أو قطا أو باشا تركى.. ربما نرى بحرًا من البندقية يغرق القصر الآن.. التفت أمامه حول نفسها وسكنت تنظر إليه.. تركها إلى لفافة ضخمة خرجت من أحشاء الصندوق.. أخذها بلهفة وفردها أمامه حيث برزت مدينة البندقية العائمة على البحر.. مراكبها التى شعر بانقباض لها.. اسطنبول بمآذنها العالية.. الشام وغوطة دمشق.. غابات الهند وراكبى الفيلة.. كل هذه الصور مر بها على عجل بحثًا عن صور بعينها.. عندما وجدها حملها أمامه كالمنوم.. بلاد القرم.. الصرب.. البوسنة.. هنغاريا.. الدانوب.. سهول إسبانيا.. جرى إلى طاولة فى الردهة.. مد عليها التصاوير وجلس كالصنم يحدق بها

t.me/qurssan

ساعة لا يتحرك ثم أخرج خنجره.. مرره على الورق المرسوم مخرجًا الصور التى بهت أمامها وملقيًا ببقيتها على الأرض.. طوال يوم وليلة كاملة ظل الأشقر جالسًا كالصنم لم يدخل عليه أحد سوى خادم وضع العشاء أمامه ثم خرج مرعوبًا.. لم يشعر به الأشقر قدر ما شعرت به الحية التى أخذت تزحف ناحيته تجذبها رائحة الشواء.. شاهدها دون أن يطرق له جفن.. فلما انتهت نامت أمامه ملتفة حول نفسها.

نظر نحوها فاغرا فاه بابتسامته الذئبية.. أنا لا أخاف منك.. اقترب منها برأسه.. ربما أنت التى تخافينى أكثر.. ماذا تفعل حية سامة مع روح هائمة.. بل نحن صديقان.. لقد استخدمتك الأميرة شريفة فى إزالة ابن إيداكش عدوها اللدود من الوجود..

فأزالت من أمامى أنا الآخر عدوًا وبقى عدو.. رفع رأسه فى الفضاء.. سليمان البواب.. لم يكن له فى الأمر شيئًا وكان الموت سيطوله دون أن يحلم بشىء لولا ابنته هذه التى فتحت أمامه فى لحظة ما لم يكن ليحلم به طوال حياته.. عاد إلى حالة الذهول. وهو يرى سهولاً وهضابًا ومراعى تمتد أمامه على أديمها العشب وتحدها الحصون ذات الأبراج العالية وقمم صخرية عالية مكللة بالثلوج البيضاء وأنهار وجداول رقراقة ونهر يخترق وديانًا وسهولاً تحيط بها غواطات وحدائق الفاكهة والكروم والقمح.. حتى أشرق عليه صباح يوم جديد.. وطوال سبعة أيام ولياليى كاملة شاهد الحرس ورجال القصر وزوجة الأغا شبحًا عملاقًا فى ريعان الشباب عارى الرأس بقميص نومه المتسخ يجول بجنون بين الحديقة وقاعة الشتاء لقصر دار السبيل.. شاهدوه يحفر فى الحديقة كومة هائلة من الطمى.. وعندما حاول بعضهم أن يتقدم إليه لمساعدته أطلق عليه نار غدارته وزبد فمه يتصاعد مهددًا. وفى الصباح اختفى الطمى كله من الحديقة وبعد يومين وجدوه خارجًا يبحث عن عدة وأدوات غريبة ويدخل قاعة الشتاء حاملاً أحجارًا صغيرة وأعشابًا وأدوات النجارة والحدادة والمياه وبين الحين والحين كان يخرج فجأة فيتحول القصر إلى جحيم من الرعب.. صراخ وبارود وحرائق وكلما حاول أحدهم أن يدخل القاعة كى يخبره أن الأميرة شريفة تطلبه كان يخرج ليجيبه بطلقات غدارته وفى اليوم الخامس لم يعد يظهر واختفى تمامًا كانت الأصوات تسمع فقط قادمة من الداخل طرقات مكتومة وأصوات ولغة غير مفهومة.. لغة قديمة

t.me/qurssan

لم يستطع أحد أن يفهمها.. وفى اليوم السابع هدأت القاعة تمامًا ولم يعد يسمع شيئًا سوى الصمت المطبق.. كان قد انتهى من خلق حلمه الذى أقض مضجعه.. افترش الأرض متعبًا يغمغم..

غاب كل شىء إلا شهوتك إلى الموت...

* * *

- ٣ -

هبنى ذكرًا أجعل منه ملكًا على هذه القرى والمدائن وخليفة لعثمان الأول وسليم الفاتح.. هبنى ذكرًا يحارب ملايين الفئران التى تحتل الوادى ويحارب رؤساءها وأمراء جندها.. أنا التى تنتسب لنسل الأشراف.. هبنى ذكرًا أجعل منه ملكًا على الوادى.. ملكًا يخرج لقتال الفرنجة والأعراب ملكًا يورث ملكه وليس مملوكًا من العدم يجىء وإلى العدم يذهب..

فتح الأشقر عينيه لم يد من أين تأتى هواتفه.

.. لماذا أعطى إيداكش زليخة ذكرًا.. لماذا لم يعطيه لى.. لماذا أعطانى فتاة لا تساوى حشرة.. انظر حبات اللؤلؤ وفصوص العقيق والياقوت والمرجان والزمرد وقوالب الذهب البراق..

رفع رأسه لأعلى.. الآن يدرك من أين تأتيه هواتفه.. كانت الأميرة شريفة تسبح فى فضاء قاعة الشتاء بقدمى عنزة. ساحرة فى الثامنة والثلاثين من عمرها ترتدى غلالة رقيقة تبرز قوامها الشمعى البارد.. شعر بجدران القاعة المعبأة بجذور العواصف تهتز وتتمايل وعندما ضحكت جاوبها عواء الذئاب وبنات آوى وصرير الرياح.. رفعت الحية رأسها ثم اندفعت تختفى فى أحد الشقوق..

- من أجل ولدنا جمعت هذه الكنوز.. سوف نشترى المجلوبين ونجمع الأجناد ونصنع الجلل والبارود وننصب المدافع وشر كفلك ونقتنى القنجات المدرعة وأقيمك على رأس جيش يزحف إلى القلعة لننصب ابننا ملكًا على البلاد فإذا انتهينا يممنا وجوهنا شطر المقدس والشام وعكا سائرين على الطريق الذى سار فيه من قبل على بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب وكل الملوك الذى ترى بلادها أصغر من طموحاتها.

t.me/qurssan

اعتدل الأشقر من رقدته . . هز وجهه الذئبى . . تدلى فكه لأسفل . . لمعت عيناه بأضواء قوس قزح ثم ما لبثت أن تلاش الضوء تاركا وميضا أزرق غاب فى ضباب شديد الاحمراز.

هبطت على صدره الأملس تحتضنه فغاصت عيناه فى ابتسامة الموتى. غمغم وهو يمسد شعرها الحالك السواد ..

- تبيض التماسيح ولا تلدن ولا تحيا الأسماك بعيداً عن أنهارها ولا تهاجر الطيور فى غير مواسمها ولا تلد الحيوانات فى الأقفاص .. أمسكت به شريفة نستنهضه فاستطرد وقد كسى وجهه كساء عظمى وعيناه غائرتان غور الموتى وقد اخضر جلده كجلد الجثث المحنطة ..

- إن لى داخلا .. اضحك إليه وأغضب فيه وحدى .. هل تعرفى؟ الموتى ليسوا فى حاجة إلى خصاء .. من أى شىء يخصوا وقد نزعت عنهم الحياة .. يوم جئت من فوق مركب العبيد عابرا بوابة منوف إلى قلعة إيداكش .. كنت أعلم أن موتى قد جرى منذ زمن بعيد .. كنا اثنين على ظهر مركب المجلوبين قفز أحدنا إلى البحر ولم يجده الحراس وهو الآن يعيش فى قاع البحر غريقا .. أما أنا فأعيش على ظهر الأرض ميتا .. لهذا عندما أعلنت صباح دخولى منوف من تحت الأبراج بخصيى عجبت إذ أن الأبداج التى كانت تنهض فى مداخل المدينة الميتة حدثتنى بتعجب وحدثتها بتعجب إن كان للاحياء فيها ذكورة .. وأتت عشرة أعوام والرغبة فى خصائى تنهش دمك.

صاحت بغضب:

- أنت تريد .. أنا أريد .. ما الذى تعرفه عما أريده.

- .. لا أعرف سوى خصائى.

- .. نعم فى الماضى .. أما الآن فالبواب يريد أموالى .. كنوزى .. أراضى الكشوفية دون أن يعطنى شىء أنت تستطيع أن تعطيه لى.

فكر كثيرا وضاقت عيناه و احمرتا.

- أنت تريدين أحياء تتنفس وجيوش تتحرك باتجاه المدن تغزوها وتفتح قلاعها الحصينة .. ونحن موتى .. مخلوقات لا تبيض ولا تلد .. نق .. نق .. نق ضفادع.. نق..

t.me/qurssan

نق.. نق.. ضحك ضحكة ثقيلة ثم توقف .. الذى نفعله هو سفاد .. تسالين لماذا أعطت زليخه إيداكش ذكرا .. الأمر بسيط لأنها من أبناء البلاد .. ونحن لسنا كذلك .. كانت عيناه غاتمتين يتصاعد منها بخار كثيف أخذها إلى قاعة الشتاء .. أنت تريدين أحياء تتنفس وملوك تحكم وأنا أريد أن أعبر موتى .. هبينى مملكة فوق هذا السهل أصنع منها هضابًا وجبالاً وسهولاً ووديانًا وأحراشًا وقلاعًا .. هكذا تنشب فى عروقى الحياة.. لأنى فيها سأتخلص من موتى.. لأنى فيها سأصير تمساحًا يبيض بجوار نهره وسمكًا يعيش فى مياهه وطيرًا يهاجر فى مواسمه وحيوانًا يلد فى موطنه.

صعدت الأميرة شريفة عنه إلى الفضاء بنعومة.. قالت وهى تدلف خارجة من النافذة وقد جمد وجهها ـ انتهى من البواب وسأجعل منك سنجقا على منوف تفعل فيها ما تريد.

بعد منتصف الليل تصاعد عواء الذئاب بشدة وانطلقت العواصف فى الخارج فدخل الناس دورهم ومنازلهم مسرعين.. شاهدت فاطمة زوجها يغادر القصر تحت المطر حاملاً بلطة فى يده متجهًا إلى القلعة القديمة.. ظلت طوال الليل تدور فى غرفتها وفى ردهات قصر السبيل تنتظر زوجها الغائب. وطوال الليل سمعت عواء الذئاب وهى تهاجم المدينة وتصطاد الناس خارج دورهم وفى الهزيع الأخير من الليل تصاعد العواء بعنف حتى اقترب من بابها.. شعرت بأنوفها تحتك بالباب وشبح زوجها يطل عليها من النافذة وسط خريشة حوافر صلبة.. أسرعت تغلق مزاليج الأبواب وهى تنادى على الخدم فلا يرد أحد سوى عواء الرياح فعادت تنكمش فوق فراشها وهى ترى الأبواب تهتز عليها بعنف والجدران تهيد فوقها وصوت زوجها ينادى أن تفتح الباب بلطف.. صرخت فى هستريا ورعب.. مزقت ملابسها وشدت شعرها تنتزعه وتضرب بيدها وجهها وصدرها.. شاهدت الباب يفتح ويطل منه وجه ذئب جائع.. فصرخت صرخة مدوية ثم وقعت على الأرض فى نوبة صراع وسقطت مغشيًا عليها.. فى الصباح دخلت عليها بدرية وهى تصرخ.

ـ سليمان البواب. ـ ما به.

ـ قتل.. ـ كيف؟

ـ وجدوا جثته فى القلعة القديمة.. الرأس متهشمة والبطن مبقورة ببلطة وفى رقبته

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

نهش الديابة.. قامت الأميرة فاطمة وكأن المطارق تدق رأسها.

- سيقتلونى.. الدور على.. سيفتك بى الاثنان.

.. قرب المساء اختفت الأميرة من المكان.. وفى الصباح تصاعد صراخ من الحمام حيث وجدت معلقة تتدلى من سقف الحمام منتحرة.

- ٤ -

.. من أين تأتى كل هذه الأعداد الهائلة من الفئران.. فتح عبد المحسن عينيه والعرق الغزير ينثال على بشرة وجهه المقدد.. مد ناظريه إلى الأمام يحاول الرؤية بصعوبة من خلال العرق المملح الذى يأكل عينيه.. شاهد القرى والأشجار تتناثر فى الوادى تحد أطرافه فى المدى قبة السماء الصافية. مشدوداً على الصارى كان المركب يندفع به فوق النهر برتابة باتجاه منوف يشق الوادى بانسياب كحبة منى تندفع فى رحم أنثى.. بقعة ضوء.. نطفة حياة تخترق بحر الموت.. شهاب يندفع فى إصرار مخترقًا الظلمات.

... من أين تأتى كل هذه الأعداد من الفئران.. شاهدها فى البداية تطل فى أعداد صغيرة من على سور المركب قادمة سباحة من الشاطئ تصعد فوق الجبال المدلاة من جوانبه.. تجرى هاربة من الضوء إلى قاع المركب المغمور بالظلال حيث تختفى وسط جوالات الغلال.

بعد زمن وجيز كانت ترعى أمامه بالمئات.. تتدافع.. تتقاتل فى شراسة وقد تعددت أحجامها.. فئران سوداء وليدة وفئران بنية ضخمة ذات حراشيف.. صعد بعضها إليه توقظه من إغفاءاته القصيرة.. تقضم أطراف أصابعه.. أذنيه.. تتراقص على كتفيه.. تموج بغنج ملول على ذراعه وكتفيه ورأسه ثم لا تلبث أن تسكن فوقه فى صمت معلقة من ذيولها محدقة إلى الأمام تشاهد معه فى كبرياء الجيوش الغازية واستبداد الفاتحين التربة الحمراء الجافة المشقوقة لضفتى الوادى بعد أن هاجمتها فأكلت المزروعات والحقول فلم تبق أو تذر.. ثم صعدت إلى الأشجار والنخيل فلم ينته الشتاء إلا وكانت قد قضت على الأخضر واليابس وتدلت من الأغصان كثمار ناضجة وها هى الآن تخرج من مكانها حاملة الطاعون للناس.

.. مطر.. لا مطر.. كان الناس ينتظرون دون جدوى فيتساقطون كالموتى..

ولكن من أين تأتى هذه الأعداد الهائلة من الفئران.. جيوش لا تنتهى.. موت لا

t.me/qurssan

يرحم.. وأين الرجل العجوز.. آخر مرة جاءه فيها طلى له سطح الصارى بالقار حتى يمنع عنه صعود الفئران.. لم تعد تصعد إليه تضايقه. لكنه يراها الآن على سطح المركب قريبة منه تكاد تناله وقد تكاثرت حتى أصبحت الآن كتلة من اللحم الطرى المتحرك تتناثر فيها وتتلألأ آلاف العيون والأسنان البيضاء الحادة تتداخل جميعها فى نبضات وأمواج موجبة ولا تنتهى.. ظل يحلم بها ترتفع إليه.. شعر بأطراف جسده تغوص وسط آلاف القوارض واللحم البنى.. ارتعد.. كل خلية من جسده ارتعدت وهو لا يستطيع أن يمنع جسده من أن يغوص أكثر فأكثر فى كتلة اللحم الفئرانية الطرية..

بدا الأمر كالدغدغات المتوالية لكنه لم يلبث أن تحول إلى ألم طاغ.. جحيم من القسوة.. وعندما بلغت عنقه كان اللحم القارض ينخر عظامه والهلع هواء يتنفسه بحر يغوص فيه خشية أن يبلغ وجهه.. رفع رأسه بأقصى ما يستطيع ينادى أشخاصًا يحبهم.. أمه.. أخته عائشة.. زاهية.. كانت رأسه مفصولة عن جسده تسبح فوق تيار من مياه النهر الطازجة.. تقلبت أمامه وجوه أحبته وأحبها.. أمسك بوجه زاهية طويلاً على صفحة الماء لكن هذا الوجه الذى تحققت فيه كينونته ما لبث أن تلاشى ليحل محله وجه بدرية.. لم يشعر بالكراهية أو النفور.. ولكن كان حزينًا عاتبًا وشعور بالانتظار يتملكه كالمرة الأخيرة عندما وعدته أن تهرب معه وانتظرها ولم تأت.. لقد هرب وهو يغفر لها دون أن يعرف لماذا لم تأت.

* * *

- ٥ -

هبطت السلالم القليلة فى عجلة.. قفزت إلى الردهة الداخلية.. شعرت بقلبها يقفز فى صدرها وكل شىء فى جسدها ينتفض وعلى باب غرفة الكرار انتابها انفعال شديد.. دلفت داخله.. لم تجد عبد المحسن بالغرفة التى اختبأ بداخلها عندهم من مطاردة السنهورى له بعد سرقته صندوق نذور ضريح الشيخ الغضبان.. كان بابها الخارجى مواربًا.. خمنت أنه خرج إلى المستنقعات المجاورة.. دارت بعينها فى الغرفة تنظر أشياءه وملابسه.. وتحت كومة القش كان ينبعث بريق نصل من لفافة ملقاة.. رفعتها مسرعة فسقط على الأرض خنجر معقوف صنع مقبضه من العاج المزدان بفصوص زجاجية ملونة... ظننتها أحجارًا كريمة.. تذكرت خص النهر القديم ورحلتها معه.. قلبته بين يديها.. علقته من حزامه حول خصرها.. دارت حول نفسها سعيدة..

t.me/qurssan

تعثرت بشيء من الصلب البارد.. ندت عنها صرخة خوف وهى تقف كالمسحورة تتحسس غدارته.. ومسكت بالغدارة بكلتا يديها تسير بها جيئة وذهابًا فى زهور وخيلاء تصوبها إلى جميع الأنحاء.. نظرت إلى رزانة بالسقف ترى شمس الشتاء تتوارى خلف السحاب.. رفعت يديها معًا مصوبة غدارتها من الكوة الجانبية إلى الطيور فى السماء وإلى خيول السحاب وهى تنهب السماء نهبًا مسرعة نحو الجنوب.

- عجبك؟

استدارت إليه.. غادة فى الرابعة عشرة من عمرها وهو يسد فتحة الباب بقامته الصلبة المديدة عاريًا إلا من سرواله الكتانى.. ملأت عينها من صدره القوى المشعر قبل أن تجيبه بغنج.

- يعنى ح تعطيه لى..؟؟

دخل إلى حيث قميصه يرتديه وهو يحدثها بثقة.

- نجيب لك واحد ذهب.

ضحكت ضحكة ناعمة وعيناها تتألقان لا ترتفعان عن صدره وقد انتقل إحساسها القوى بالغدارة إلى جسده.

مد يده يأخذه منها فانصاعت له.

- كم قتلت به؟

... أجاب ثائرًا.

- إنى ما قتلتش حد.

- ح تكذب يا عبد المحسن.. والشيخ محمد علوان

- إنى مقتلتوش.. كنا بندافع .. عن نفسنا.

- يعنى قتلت.

- طبعًا بس مش ظلم.

- ليه هو قتل الناس على فرشتهم مش ظلم.. كان فيه إيه بينهم وبينك.

t.me/qurssan

- عندهم وما عندناش.. بياكلوا لحم الجاموس واحنا مش لاقيين لحم الكلاب والحمير.

- وصندوق النذور.

- مال مسروق بيتسرق.. ثم إنى مسرقتوش.

- أمال مين يا ابن خالتى.

- مقولشى يا بنت خالتى.

- نظرت إليه بغضب.. كان يعرض بالشيخ السنهورى.. صاحت مهتاجة.

- حنقول ألغاز؟

أجابها بغضب.

- أبدا.. لا ألغاز ولا يحزنون.. السلطان والمماليك وأئمة المشايخ لا يكفيهم.. يأخذوا المال وخراج الأراضى والفرد والفايظ وما بيكفهمش بيتركونا عريانين نأكل التراب بيدوروا يسرقوا أى أمل أو حلم فايض فايض المال وفايض الأحلام.. السناجق والمشايخ عارفين إنه بيفضل عند الفلاح من الأحلام والأمال بيروح يطلبها من عند ولى أو مقام شيخ مبارك.. زرعوا فى كل مقام صندوق نذور.. صندوق يبيعوا ويشتروا فيه أحلامنا.. آمالنا الصعبة.. يسرقونا.. مال مسروق بيتسرق.. عمرك شفتى مقام حقق أحلام شاب أو آمل راجل فقير.. وعمرك شفتى شيخ من القايمين على مشاهد الأضرحة والأولياء جعان.. فقير أو مش لاقى يلبس؟ بالعكس.. أغنياء.. سلاطين.. أصحاب جبروت.

- يا سلام بتحلل لنفسك الحرام.

- إيه مش محلل النهارده.. القتل.. السرقة.. الاغتصاب.. قلع العيون سلخ الجلود.. إيه بعد أكل القطط والكلاب وجثث الحمير.. كان يلهث وعروق رقبته تنتفخ من الغضب.

سألته!

- غضبان؟

- غضبان ...؟ امتلكته حالة من الهياج.. الغضب.. الغضب عمره ما بيتركنى لحظة.. الغضب هو حياتنا.. هو اللى بيدفعنا للانتقام.. توقف مستدركًا.

t.me/qurssan

ـ إنت إيه اللى نزلك؟.

هزت كتفيها وذهبت إلى ركن قصى.. جلست معاندة.

ـ إنت زعلان؟.. ضحك.

ـ أمك مش حيبسطها تجالسى مطرود.

أفتر ثغرها عن ابتسامة واسعة.

ـ إنى قاعدة مع ابن خالتى..

واستدركت.. كمان جوزها كان حرفوش..

ـ المنصور.

ـ أيوه.. المنصور.. استطردت غاضبة.. ماله..؟؟

أشرق وجه عبد المحسن كأنه يرى أمامه الوجه الذى تخيله لأبو زيد الهلالى سلامة والزير سالم وشيحة والظاهر بيبرس.. المنصور كان أشجع رجاله زمانه.. مخاوى الجان والعفاريت.. صاحب حظوه عند الأولياء محبوب عند سيدى إبراهيم الدسوقى مقدم عند سيدى أحمد البدوى فارس ماكنش يأخذ اللقمة فى فمه قبل ما فم الغلابة يشبع.. العرايا ما عرفوش أثواب الحرير الدمشقى والقماش المقصب إلا من أيدين المنصور أبو حجاج.. إنى فاكر أمى كانت تلبس منديلاً حريريًا مشغولاً بالترتر تغسله وتلبسه ساعة العصارى.. أقول لها يا أمه منين جبت المنديل ده.. تقوم تقول لى.. اسكت يا واد دا من أبوك المنصور.. أقول لها.. الأكتع.. ترد على بغضب.. الأكتع ياك تنقطع دراعاتك الاتنين.. دا سيد الرجالة أبو إيد سخية.. هم المماليك قطعوها من شوية.. خافوا لحسن الناس تاخد على الأكل واللبس يحسوا بفقرهم.. خافوا لحسن يعلم الناس يقوموا قومه يأكلوا فيها مصارين بطنهم.. دول الطاعون يا ابنى.. ربنا بلى بلادنا بيهم وله فى مشيئته حكمه.. ولسه ما أذنش برفع البلاء عنا.

اتسعت عيناها انبهارا

ـ بتتكلم عن أبويا.

ـ طبعًا.

t.me/qurssan

ـ وإزاى عرفت كل ده؟؟

ـ عم صالح..

ـ ....

ـ أيوه عم صالح كان رفيق عم المنصور أبو حجاج.

ـ ومين كمان.

ـ الشيخ المرسى.

ـ حرفوش..

ـ أيوه وأحسن مقوص فى جماعتنا.

ـ شيخ حرفوش.

ـ وفيها إيه.. مادام فيه شيخ حرامى شيخ ظالم.. شيخ متجبر أتباعه أجرم من المماليك يبقى لازم يكون فيه شيخ حرفوش.

قالت بغضب ساذج:

ـ تقصد مين يا شيخ عبد المحسن.

ـ مادام فيه الشيخ السنهورى يبقى لازم يكون فيه الشيخ رضوان المرسى والمصيلحى وغيره وغيره..

ـ .. ومين الشيخ المصيلحى.. شيخ الغبرا.

ـ الشيخ المصيلحى مش بس مقوص.. مغنواتى.. تعرفى.. لما بنهجم على قصر أو نعمل كمين لا ورطة من العسكر.. لما نقطع أذن أو نجدع أنف واحد منهم لما يخرج معانا واحد لأول مرة ينزل عليه سهم الخوف.. الرعب. ويمكن يبول على نفسه أو يصاب بلوثة.. يتجنن.

سألته فى شغف ـ ليه.

ـ فى اللحظة دى البنى آدم بيركبه الخوف.. خوف من بكره.. خوف من المجهول.. بيسأل نفسه.. لو إنى دلوقت نايم فى دارى كنت ضمنت على الأقل إن الصباح حيطلع

t.me/qurssan

على.. كنت ضمنت كل شىء حيجرى لى بكرة لأنه زى إمبارح والسنة الجاية زى إللى راحت.. يعنى القبول باللى الواحد فيه أطيب من تعدية جسر المجهول.. سجن؟... تعذيب؟.. سحل..؟.. خوزقه.. كل شىء يخلى الإنسان يفقد قميص الشجاعة ويلبس عباية الجبن.. يتمسك بالحياة.. حياة أسوأ من الموت إللى بيهرب منه.. حكم الحياة بنلبسها يا نبلى جواها.. يا تبلى علينا وحياة الحرفوش ظلام وليل علشان كده لازم نلاقى واحد فينا يغنى لأبو زيد الهلالى وعنترة والظاهر بيبرس علشان الفلاح إللى عمره ما مسك بارودة ولا سيف واللى عمره ما رفع رأسه فى وش مملوك لازم يكون هناك ضوء بعيد علشان ما يعبر مغارة الظلام.. ضوء خافت.. مسرجة فى قلب الزمن فلاح سبقه ورفع سيفه فى وش جلاديه ومسرجتنا هى المنصور.. المنصور الأكتع.. الأخرس.. المخصى.. أبوك.

كان يسبح فى عينيها وصدرها يعلو ويهبط وأنفاسها تتلاحق من الانفعال.. اندفعت نحوه تقبض بكلتا يديها على يديه.

ـ خذنى معاك.. إنى حآجى معاك يا عبد المحسن.. أمى عايزة تجوزنى للسيد حسن البقلى.. خذنى معاك.

ـ آنى.. فين..؟

لآخر الدنيا.. وقبل أن تسمع رده ولت هاربة.

صعدت تدب فى الدار بلا هدف والنعاس يملأ حواسها مما أثار العجب فى نفس أمها وملأها بالهواجس لأشياء تجهل ما هى وتعرفها فى آن واحد. قامت إلى السنهورى تخبره برغبة البقلى فى الزواج من ابنتها وبدرية منكسة الرأس غاضبة.. ضحك السنهورى وهو يخبرهم أن البقلى قد فاتحه أيضا الليلة الماضية.

صاحت صديقة منفعلة. ـ وإيه إللى أنت شايفه يا سيدى.

أجاب بمكر وهو يمسد لحيته ـ وإيه إللى شايفاه أنت يا صديقة.

ضربت فخذها بصفحة يدها وهى تشيح بوجهها بعيداً عنه..

ـ الجوع بيحصد الناس زى فلاح غشيم. استطردت من طرف خفى تستفزه.. ـ والبنت ملهاش لا حسب ولا نسب ولا حد يحميها.

t.me/qurssan

احمر وجه غاضبًا ـ يعنى عايزه إيه يا صديقة.

ـ البنات ملهاش إلا الستر.

صرخت بدرية بميوعة ـ مش حاتجوزه.. مش حاتجوز حد..

قامت تجرى ناحية السنهورى.. ارتكنت عليه بجذعها تحتمى به من أمها.

ـ آنا حاعيش أخدم أبويا الشيخ.. حاشتغل خدامة عندك.. امسح لك نعليك.. أغسل خلاقاتك وأكبس جسمك لكن ما تبعنيش لبوز الغراب وأخذت تبكى.

قفزت عليها أمها تضربها بالمركوب.. بتعيطى يا بوز الغراب يا مايصة يا ميعة.. آنى حاربيك.. جذبتها من شعرها تجرها على الأرض بغل شديد. حامرمط بيك الأرض.

صاح بها السنهورى غاضبًا:

ـ جرى أيه يا صديقة.. بتضربى البنت فى حرمتى ماتلمى نفسك طيب وحنعمل أيه فى محمد أبو الفضل آنى أعطيت أبوه كلمة.

صاحت صديقة بغضب.

ـ لما يلاقى يأكل يبقى ياخدها.. يا مولانا السيد البقلى صاحبك وأخوك ويخاف منك ويعمل لك حساب وحيعوض البنت عن الخراب إللى عايشه فيه. لوهلة توقفت أمام تهجم السنهورى حتى إنها شعرت بالخوف.. قبل أن تنطق قاطعها.

ـ خلاص أمال هى عايشة معايا ليه.. وعندما أشاح عنها بوجهه اطمأنت وشاع بداخلها الهدوء وتابعته وهو يأخذ بيد بدرية سائلاً إياها أن تجهز له النصبة ودلف داخلاً خلوته.

لم تنم ليلتها. كيف وهناك رجل يختبئ فى أحد حجرات هذه الدار الضخمة.. ظلت تتقلب على فراش الحصير وهى تسبح فى خيالات بهيجة تختلط أحلامها بسحر حرفوش يقاتل العسكر ويهاجم المارة وحراس المدن وينقب جدران دور الأثرياء المتعجرفين. نامت قبيل الفجر واستيقظت مصدعة الرأس.. غسلت رأسها بالمياه الباردة. عبرت الباحة الداخلية لتملأ الجرار من عين بناها السنهورى عندما شحت المياه فى الأراضى.. لم تلحظ الحاجة مشكورة وهى تدلف وخلفها عبد أسود يسوق عربة يجرها حمار محملة بالغلال والطعام والأقمشة.. عندما رأتها صديقة قادمة

t.me/qurssan

تنفست الصعداء وكأنها تحيا من جديد وهى ترى طوق النجاة يقترب كى ينتشل ابنتها من يم بلا قرار.. تقدمت إلى العجوز بتصميم تستقبلها بترحاب بالغ مما جعل العجوز تؤمن بأن طلب سيدها قد قضى.. خرجت بدرية لصحن الدار فرأت العجوز وحولها هدايا البقلى.. نظرت إليها بكراهية وفتور والمرأة تسرع نحوها بترحاب.. أهلاً.. أهلاً.. أهلاً بعروستنا.. قابلتها بدرية ببرود ـ فين العروسة دى.

ـ أنت.. هو فيه حد غيرك.. يا ما شاء الله عليك وعلى أصلك.

ـ منين بقى عندى أصل.

نظرت إليها أمها بغضب.. قالت وهى ترى مناكفة ابنتها.

ـ ليه يا بوز الغراب دانتى أصلك أصل الكرم والشرف.

تغضن وجهها وضمت حاجبيها لأعلى وصاحت فى أمها وعيناها تطلقان شررًا.

ـ بنت منصور الأكتع رأسها فى النشع.

صاحت بها أمها تكبحها.. ـ أخص عليك وعلى تربيتك عرق أبوك فيك يجيب العار لبلد.. قالت فى تكبر.. ـ أيوه أهو أنا كده بقه أعر بلد.. يرضيك يا حاجة مشكورة عروسة تعر عريسك الشهبندر؟

ضحكت الحاجة مشكورة التى تنتظر حلوانا كبيرة من البقلى إذا تم الزواج.. قذفتها أمها ببلغة قديمة.. ـ قومى يا بوز النحس سمعوا باب الدار يطرق بلطف.. ذهبت بدرية إلى الباب تفتحه ضاحكة وأمامها وجدت شابًا حديث السن يقف مترددًا.. آحمر خجلاً عندما وجدها أمامه.

ـ شيخ محمد.. ضحكت بصوت عال ـ ازيك دانت فيك الخير.. لسة جايبين فى سيرتك.. دخل فرحًا وقد عاودته الثقة فى نفسه يحمل فى يده لفافة بداخلها عقد من الخرز.

ـ يا ترى بالخير ولا بالشر.

قاطعته الأم بحدة.

ـ ومنين حاييجى الخير وبوز النحس دى هنا.

t.me/qurssan

قال محاولاً التنكيت.

- يا خاله إذا كانت تجيب النحس أنا نأخذ النحس ونخلصك منه..

- مستعجل عليها قوى.. عايز تاخدها.. يا أخى يا خدك عزرائيل.. هى دى تربية القوادم والا تعليم المشايخ وأبناء الأصول.. ولم تكمل إذ أصابه الاضطراب واحمر وجهه.. خشى أن تكون صديقة قد فهمته خطأ فعقب - هو آنى حاخدها كده يا خاله.. دى هاتنزف فى زفة ما شافتهاش منوف بعد يعنى أبويا وأبونا الشيخ..

قاطعته فى غضب - يا آخى يزفها الطاعون هو ده وقته يا شيخ محمد يا كبير يا عايق.. نظر إلى بدرية مستنجدا لكنها كانت هى الأخرى تنظر إلى أمها وإلى محمد وهى تضحك بحبور وكأن ما يجرى يرضيها.. استطردت الأم ساخطة.

- قوم روح دلوقت.. ده لا وقت جواز ولا هزار.. ثم استطردت وفى صوتها رنة إشفاق.

- قوم يا شيخ محمد ده وقت غم وحزن مش وقت فرح.. لما تلاقى شربة ميه والأرض الشراقى تخضر ساعتها يكون أوان الكلام عن الجواز.. إذا كنت مستعجل على الجواز يا ابنى البنات ماليه الحوارى مش لاقية حد يشتريها بنصف بارة.. تركته خارجة تودع الحاجة مشكورة.

وقف محمد أبو الفضل مصعوقا وقد ألجمته المفاجأة.. أخذته بدرية من يده وجذبته ناحية الباب الخلفى تدفعه إلى الخارج.

- أنت زعلان يا شيخ محمد.

- آنى.. لأ.. بس..

- يا شيخ دى أمى أصلها تعبانة.. طلعت همها عليك.. يوه أمال لو مكنتش أنت حتستحملها.. مين اللى حيستحملها بس يا محمد.

- أيوه يا بدرية بس هو آنى عملت حاجة.

شعر بيدها تضغط على كفه ضغطة خفيفة فتطايرت مخاوفه وعاد إليه الأمل والفرح الذى فقده منذ لحظات.

t.me/qurssan

ـ يوه يا سى محمد شغل حماوات بقى.. هو أنت يعنى مش عارف. نظر إلى الفتاة الصغيرة التى تتيه به هوى وغراما وقد عادت لنفسه كل فرحتها.. إنها تتحدث بلهجة العارفات اللاتى عركن الزمن والأحداث.. انقض يلثم بديها بوله وهو يحشرج مهتاجا.

ـ آنى بحبك يا بدرية.. آنى بحبك.. أوعى تسيبينى.

تركت يديها ينهمر عليها بالقبلات.. لمحت لاسة العمامة ينفك طرفها وتأخذ فى السقوط.. لم تأبه بها وارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة سعيدة.. سحبت يديها على مهل وهى تدفعه خارجا.

ـ يالهوى يا شيخ محمد.. لا.. لا.. لا.. ياخوى دا أمى تذبحنى.. يوه أنا زعلانه منك.. أنا زعلانه منك..

كاد قلبه أن يتوقف عن الخفقان فعاد يستغفرها ذنوبه.. طفح الملل على وجهها.. وقبل أن يستفسر منها على سر غضبها قالت فى حزم:

ـ لأ.. لأ.. ما عدتش زعلانه.. خلاص بقه يا شيخ محمد بس ما عدتش تعمل إللى أنت عملته تانى. سقط قلبه بين قدميه وطفر الدمع من عينيه طالبًا للغفران.

ـ يقطع لسانى.. ينقطع دراعى إن أنا زعلتك ولا غضبتك.. دا أنا مركوب ليكى.. أى والله صدقينى.

* * *

عندما عادت للنوم بجوار أمها تلمست خطواتها فى القاعة المظلمة على ضوء القمر القادم من كوة السقف.. شدت الغطاء المهلهل القديم تغطى جسدها.. شعرت بها أمها مستيقظة تنهنه.. همست.

ـ بدرية.. بدرية يا بنتى.. أجهشت الفتاة بالبكاء.. استدارت صديقة تأخذ ابنتها فى حضنها بحنان فاندفعت الفتاة تبكى على صدر أمها العريض وأمها تمسد شعرها بلطف.. قرأت الفاتحة والصمدية إحدى عشرة مرة وعندما انتهت قالت لابنتها التى كانت تنهنه فى هدوء.

ـ يا بنتى الجواز للواحدة منا ستر، مش ديك جميل يفرح الفراخ.. الجواز بيت تنام فيه وجداره كل ما كان عريض كل ما حمانا من الزمن.. والنهاردة الناس عادت تأكل

t.me/qurssan

بعضها.. وكل يوم تختفى ناس من دورها وفى الخرايب بتزيد العظام والجماجم.. اقشعر جسديهما معًا ودفنت بدرية جسدها فى جسد أمها تحتمى به.. استطردت الأم.. البقلى حيكون آخر الناس اللى تأكل لحم البنى آدمين.. لم تنبس بدرية بعلامة اعتراض واحدة وإنما راحت فى نوم متقطع وبعد قرابة الساعة شعرت بها أمها لا تزال تشهق من البكاء وهى نائمة فأخذت تعيد قراءة الفاتحة والصمدية وهى تمسد جبينها.. فتحت بدرية عينها فرأت نفسها تسبح فى رواق من النور دبيب لذيذ يسرى فى جسدها.. ضمها الشيخ محمد بخجل وهى تستسلم للنشوى التى يبثها العناق فى الجسد وشعرت بالناس تلوح لها فأبعدته فتراجع الشيخ الشاب حزينًا مكروب البال.. ساد الظلام وجسدها يرتخى وتمددت تغط فى النوم.. لم تلبث أن عادت تسبح ثانية فى ذات الرواق الذى تزينه الزخارف الملونة حتى أفضى بها إلى بركة من النور الأبيض يصعد ثانية.. ووجهه الأشهب تلوح منه الصرامة وجسدها مشدود إليه تحس بثقله يصعد بها بين الفرح والألم معًا.. شعرت ببطنها ينخلع وفى الصباح عندما استيقظت احست بالبلل الرطب بين ساقيها وفى سروالها بقعة كبيرة من الدم الفاسد.. صاحت جزعة وهى تجرى إلى أمها كشخص يرى حياته تفقد.

- آمى شوفى.. أنا حموت يامه.. حموت.

- لا تجزعى إنه الطمث..

- ٦ -

عندما تمدد السنهورى على الفراش الوثير عاد إلى صدره ضيقه الذى تهكن منه والبقلى يفاتحه فى الزواج من بدرية وهو يتغزل فى جسدها غزلاً فاضحًا مكشوفًا وكان كلما ألح البقلى فى طلبها مثنيًا على جمالها وخفتها وحلاوة غنائها ورعونة جسدها الخيزرانى كلما عصفت به الغيرة وأشاح عنه طالبًا الصمت وأفكاره تأخذ بخناقه.

غفى.. فبرز له وجه إسماعيل بيك فهش بيده فتراجع الشيخ مبتعدًا ثم حل محله إبراهيم بك كبيرًا مدورًا مبتسمًا كان الوجه يعلو منحنيًا مرتفعًا عنه بذراع يهبه العطايا والمنح والأراضى والقرى.. كمشوش وفبشا وبهواش وأراضى السدود.. ثم اختفى وجه إبراهيم بك وتحلل شبحه على مئات الأفدنة الجيدة الأراضى.. وقف السنهورى على

t.me/qurssan

رأسها ضخمًا هائلاً.. سار مخترقًا إياها وما لبث أن جرى وجرى.. كان يكبر ويلهث ويجرى وظله يكبر كبرًا عتيًا حتى غطى القرى وسار يسمع صوته فى الفضاء.. أنا السنهورى.. مالك الأشياء ومحرك الأمراء وصاحب المماليك تنحنى له سدة الولاية ويرسل له صاحب السلطنة التحايا.. أنا الذى يملك ومنه تأخذ الناس شرفها وحسبها.. أنا الذى يحمى الغزلان التائهة والظبيان الضعيفة.. جرى وجرى حتى سقط على الأرض لا يستطيع التنفس، فى الصباح دخلت عليه حيث قدمت له القهوة.. صاح متعبًا.

ـ والله تعبت.

قالت ببشر ضاحك.

ـ دنت صحتك زى الجمل يابا الحاج.

ـ إيه اللى مش عاجبك فى البقلى.

ـ أيش يعجب الغزلان فى الخرفان.. ضحك.. ضحك بشدة.

ـ يعنى مش عايزاه.. يبقى كيفك وغرضك فى محمد أبو الفضل إحنا عطينا لأبوه كلمة. فكرت ثم قالت بخبث.

ـ هو ابن عبد الرحمن من مقامك يابا الحاج.. ضحك طربًا سعيدًا.. قال يغيظها.

ـ ليه هو أنت بنت مراد بيك والا إبراهيم بيك فكرينى إذا كنت ناسى.

ـ قالت دون خجل.

ـ صحيح أنا مش من مقامك.. لكن أنت فى مقام أبوى.. بيفيض علينا مقامك وظلك.

ـ طيب.. طيب يا ملعونة كبسينى.

قفزت نحوه..

ـ عينى يابا الحاج.

قالت بغنج.

ـ نقدر نعصى لك أمر.

t.me/qurssan

استدار ينظر إليها وهى تكبس له قدميه والطبيعة تدقه بأمواجها فتعكس على عينيه ظلامًا تتناثر فوقه نجوم لامعة ظل يقاوم وكأنه مقيد بثقل يشده إلى أسفل يشاغلها ويؤخر ذهابها عنه.. تقترب منه وتبتعد دونما سبب.. ملأها إحساس تجهل رائحته.. شدت جذوعها للأمام وقد إمتلأت زهوًا وإحساسًا بتفاهة الشيوخ وعقلها يخمن بأن العجوز يراودها.. لكأنها تبلغ عنان السماء.. مالت عليه تسحق نهديها على جسده وهى تحضر صينية القهوة من الجانب الآخر له.. وعندما استقامت بعيدًا عنه لمحها تبتسم بنزق ابتسامة انتصار قوية.

* * *

كان الليل قد تأخر كثيرًا عندما استقبلت صديقة ابنتها وهى على حال غير الحال تحدثها فى كبرياء وزهو وعندما سألتها.

ـ قالك إيه أبوك الشيخ.. يارب يكون كسر لك دماغك الناشفة اللى زى الحجر وخلاكى تسمعى كلامى.

أجابتها بصوت بارد قاطع:

ـ هئ.. كلامه.. طبعًا.. أسمع كلامه. قالت صديقة مندفعة دون أن تلحظ رنة السخرية فى صوت ابنتها.

ـ يعنى خلاص ريحتى قلبى.. دا البقلى زين الرجال.. كل أميرة فى البلد تتمناه.. أجابت بدرية فى تحد.

ـ بنت منصور الأكتع مش حتتجوز البقلى أروح لبعيد ليه.. عجوز بعجوز.. وغنى بغنى.. بنت الأكتع هتتجوز السنهورى نفسه.. ضحكت الأم لجهل ابنتها.

ـ دا أنت لازم اتجننتى والا أتخبل عقلك.. ده أبوك يا مفعوصة.. هزت بدرية كتفيها وهى تضع يديها فى خاصرتها تهز أردافها وتتحدث بسخرية.

ـ هئ.. أبوى.. كنت تعالى شوفى أبوى بيعمل أيه.

نظرت لها صديقة بحب استطلاع.

t.me/qurssan

ـ يعنى حيعمل أيه.

هزت كتفيها باستهزاء.. وهى تتمدد بجوار أمها..

.. هئ.. هئ.. ولا حاجة يعنى حيعمل إيه.

* * *

ـ ٧ ـ

شاع فى القصر عزم السنهورى السفر إلى القاهرة لمحاسبة عماله على مشاهد أولياء الله.. دخلت عليه صديقة غاضبة.

ـ حتسافر هن غير شىء من أمر ابنتك.

ـ أجابها متجهمًا.

ـ أنت مستعجلة على جوازها ليه.

صاحت بغضب:

ـ مستعجلة.. طبعًا وأنت يهمك أيه فيها.. أنا اللى شايله حمول الدنيا لوحدى.. ربنا يغفر لى ويريحنى من العذاب.

ـ وليه كل ده.

ـ عارفه.. عارفه لولاك كنا طعام للكلاب أعمل أيه ماعدتش قادره عليها يا سيدى قال بصوت بارد ـ خليها تجهز نفسها للسفر.. ستأتى معى للقاهرة.

سقطت يدها جانبًا مستسلمة تعبة.

ـ خدها مطرح مانت عايز إنشالله ترميها فى البحر.. المهم خلصنى منها.

ـ هو ده اللى أنت عايزاه.. أرسلى فى طلبها.

خرجت صديقة ولم يمض وقت حتى اندفعت بدرية من الباب.

ـ حاتخدنى معاك مصر.. مش كده.

قال وقد انفكت أساريره ـ نعم جهزى نفسك هنسافر بكره الصبح.

t.me/qurssan

فى آخر الليل قابلتها أمها بوجه غاضب عبوس.. حدقت فيها وهى تتأهب للنوم.

ـ فرحت بمصر وخسرت جوازه لما تدورى فى بلاد المسلمين مش حتلاقى عبد أسود يرضى بيكى جارية مش مراته.

دهشت الأم وهى تستمع لابنتها تجيبها بضحكة عالية مليئة بالاستهتار لكزتها فى خاصرتها وهى تدمدم.

ـ بتضحكى.. إضحكى يلعن اليوم اللى جبتك فيه.. بكره الكلب نفسه مش حيرضى يبص فى وشك. رايحه مصر تقابلى محمد أبو الفضل.. «اتلم المتعوس على خايب الرجاء».. فكراه حينفعك.. استدارت بدرية لأمها متغاضيه عن إهانتها لها.. حدثتها وعيناها تلمعان ـ محمد مين وهباب مين يا أمه.. بنتك ماتبصش لتحت أبداً.. مدت يدها لتمسك بذقن أمها.. وحياة دقنك دى لازم أخليه يتجوزنى.. شهقت صديقة بعجب.

ـ هو مين ده يا بنت اللى لازم يتجوزك.

قالت بدرية بغنج وهى ترقص.

ـ هو فيه غيره.. هيكون مين يعنى.

خمنت صديقة بقصد بدرية.. ضحكت غير مصدقة.. صاحت فيها بدرية.

ـ أمال فكراه واخدنى معاه ليه.. هو عايز جارية تخدمه.. آنى بدرية بنت المنصور لم تستطيع الأم أن تتوقف عن الضحك.. نظرت بدرية إليها دهشة.. سألتها بغضب.

ـ بتضحكى على أيه.

ـ أجابتها الأم بنزق.

ـ يالا يا أختى زيادة الخير خيرين.. اتجوزيه إن كنت تقدرى.. أمضت بدرية ليلتها وكأنها عثرت على مصباح علاء الدين.. شعرت بالخوف من الطاقة السحرية التى فتحت لها عن مارد لا يقهر ستسخره لخدمتها.. رأتها أمها وهى تهتز فى نومها ضامة جسدها منكمشة على نفسها انكماش الجنين فى بطن أمه.. كانت تضم قبضتها بشدة وجسدها كله يرتعد بالحمى حتى لا تهرب منها هذه القوة الهائلة التى اكتشفت وجودها.

t.me/qurssan

ـ أى ضآلة هذا الحرفوش الصغير عبد المحسن.. من يرغب أن يعيش حياته طريداً فى العراء مطارداً من المماليك والمشايخ.. فكرت.. أحمق من يعاديهم.. عبد المحسن الذى أخبرته بأنها ستلحق به فى أرض السدود حيث يختبئ.. لا.. ليذهب إلى قدره.. أعواد المشانق.. سياط الجلادين.. غياهب الزنازين سوف ينتظرها قليلاً لكنه لن يلبث أن يرحل.. ينسى أو يموت صرخت فى ذهنها ـ أيها العقل فيما تفكر.. عبد المحسن.. فى ستين داهية من يرغب به.. من يرغب.. أمامها صراع طويل.. ترويض الشيخ العجوز.

ظلت صديقة تمسد رأسها وهى تقرأ الفاتحة والصمدية.. وكلما أوغل الليل كلما استكانت فى هدوء وهى تندفع بثبات بعيداً نحو أحلام الليل الفائت.. المشاعر التى احتفظت بها من عبد المحسن.. فكرت لماذا لا تحتفظ بكليهما.. العجوز الكهل.. واللص الشاب.. قامت غاضبة من نفسها ومن أفكارها.. نظرت إلى نفسها فى المرآة بجنون.. سألت من عساى أن أكون.. فى الباحة الخارجية سمعت ضربات البلطة وهى تضرب بقوة فى جذوع أشجار الكافور الضخمة.. نزلت إليه تشدها قوة شبابه ورجولته.. رفع رأسه إليها.. كان ينتظرها وعندما اقترب منها وقد مزقه الهوى يحاول أن يمسك بها ويضمها لصدره المشتاق انقلتت منه فى رشاقة مصطنعة العفة والحياء..

ـ مش دلوقت.. لما أجيلك.. حنتجوز وأكون لك.. نظر إليها غير مصدق ثم عاد إلى عمله.. ولكن بعنف هذه المرة. عنف أحسته.. وعندما استكانت لأحلام الليل فكت قيودها منه تماماً ومن وعدها له.. سوف يرحل عما قريب.. وسأرحل أنا إلى مصر مع العجوز المخرف.. كل لقدره.. وانطلقت تجرى على أطراف أمواج البحر.

ـ ٨ ـ

غامت الشمس فى عينيه والمركب تنثنى مرة باتجاه الغرب ومرة باتجاه الشرق شعر بعينيه وقد طفر منها الصديد يصعب عليه أن يفتحها فى وجه الشمس عنف نفسه كيف لإنسان أن يفتح عينه فى وجه الشمس.. فما بالى أنا أفعل.. فلما انحنت ثانية عائدة باتجاه الشمال تنحت الشمس عن وجهه.. فتح عينيه لم يكن غاضباً منها كانت نزوة.. لا تستحق الحب.. ابتسم.. من كان يرضى أن يكون رفيقاً لك معلقاً على صاريك

t.me/qurssan

هذا أيها الأحمق.. زاهية وحدها هى حبه.. لكنه كان تعيسًا على أية حال.. ها هى بدرية ثانية تجرى مبتعدة على أطراف أمواج البحر، تصعد قمم الجبال الموحشة وتمسك بأعمدة الرياح الصاعدة وتوغل فى غلائل الليل مرتفعة تتسلق السماء لتصير نجمة لامعة.. نجمة تسعد بألعابها الجديدة حينًا ويصيبها الملل حينًا آخر.

عندما تركته سابحًا مصلوبًا وحيدًا فوق النهر لم تعد تشعر بالقلق إذا ما كانت تحبه أم لا.. عادت إلى قيودها ثانية.. لحظتها أيقنت أن ما أمسكت به هو المجهول.. أصابتها رعدة خوف وهبطت فى قبر الدهشة وهى تلمس قطرات المياه والغبار التى تناثرت على أجزاء جسدها الصغير وتحدق أمامها فى أفق لا نهائى وبحر عميق لا يبحر به أحد.. شعرت بوهن فقامت تدب بقدم على جرف من الصخور الحادة تجرى إلى الجسد الضخم الذى تجمع أمامها قويًا هائلاً تحيط بوجهه الأبيض الأشهب الثلجى ألسنة النيران وقد بسط يده على الفلاحين.

صاحت بها ساحرة عجوز تجلس على ناصية السماء والأرض.. أن ما تركته ليس إلا أوهامًا صنعت من العدم وأن ما رأته رؤى للصالحين والصالحات.. اصعدى إليه بقدميك المشقوقتين ودوسى على صخور الماء الحادة وسل الأشواك واعبرى جيوشه الثلاث وامتطى ظهور الفئران وداعبى ذيول الغيلان واستمعى بشجن وهوى لغناء الضفادع وقدمى نفسك آكلاً شهيًا فى صحون السلغوات والعماليق واسكبى دمك أضحية تصعدى إلى وجه الله تلمسيه بأناملك فالناس تهرب من الخوف بالخوف وتفضل الخوف الذى ورثته عن آبائها عن الخوف الذى لا تعرفه.. خوف الاستعباد عن خوف الاستكشاف والدهشة.. اصعدى إلى وجه الله والمسيه بأناملك الصغيرة واسكبى دمك تضحية فإذا امتزجت به خسرت روحك وكسبت عنه قوته.. وإذا عجزت رحلت ضائعة من الأشياء المعدومة إلى الأشياء المعدومة.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل التاسع

- ١ -

انتشر العسس فى الأسواق ينادون على أصحاب الحوانيت والملاعيب بالسهر ليلاً وإيقاد المسارج والقناديل خمس عشرة ليلة احتفالا بمولد الحسين رضي الله عنه.. وفى القصر الذى استولى عليه السنهورى من السيد محمد بدوى ناظر المشهد القديم أضىء القصر بالمشاعل واشتدت به الحركة يؤمه الناس من كل الأجناس وطوال الليل كانت الخلائق والأوباش والمجاذيب من شتى الطرائق الأحمدية والسعدية والشيعية ومريدى السنهورى يسيرون فى سيارات وجمعيات وطبول وزفة ومناور ومشاعل وهم ينادون ويتجاوبون بألفاظ منغومة غريبة مستهجنة ومشايخ طرقهم يدعون للسنهورى بكلمات وعبارات تشمئز منها الطباع وجميعهم يسيرون أمام قصره قوافل.. وقد جلس هو على شرفة عالية يشاهد الجموع وهى تدعو له وحوله أمراء البلاد وكبارها الذين كانوا قد دعاهم وعلى رأسهم محمد باشا عزت والى البلاد لحضور ليلة ختام المولد من داره ليروا سطوته وقوة سلطانه.

وفى الصباح دخلت عليه بدرية تسأله الخروج للنزهة فنظر لها شذرًا فتراجعت مذعورة.. كان يقف فى وسط المضيفة غاضبًا ممسكًا بعصا من الجريد يصرخ وأمامه اصطف أعوانه من نظراء المشاهد والأضرحة التى استولى عليها بعد عودة إبراهيم بك للحكم وبمعاونته يحاسبهم ويجنى إيرادات ونذور المشهد الحسينى والزينبى ومشاهد أخرى وهو يسبهم ويهينهم ويضربهم بالعصا.. وبركن المضيفة رأت بدرية محمد أبو النضل ممسكًا بورقة وريشة وهو يرتعد كورقة فى مهب الريح يكتب ما يمليه عليه مولاه من عائد النذور والأضحية... وقد أمسك ثلاثة من طلبة السنهورى بشيخ عجوز يعمل ناظر مشهد أسلاف شيخهم.. صرخ فى وجهه:

t.me/qurssan

- أنا أريد السفر للأستانة وأنتم لم تنتهوا بعد من تمويه الأعمدة بالذهب وتوسيع الضريح صاح الشيخ وهو يرتعد.

- المعلم جرجس الجوهرى أفندى الروزمانة أرسل خمسين كيسًا من وقف الوالى محمد باشا عزت على عمارة الزاوية الشاذلية ولا يريد أن يرسل لنا سوى خمسين كيسًا أخرى وهى لا تكفى مخادع الحريم وشرفاتها ولا تحويطها بالزخارف والنقوش ولا استجلاب الرخام.. تحرك السنهورى كالمجنون يمنة ويسرة..

- تضحك على ذقنى شيخ دويدار.. تضحك على ذقنى.. التفت بغتة إلى طلابه.. عشرون جلدة.. أشار إلى أبو الفضل.. عايز الجوهرى النصرانى.

هتف العجوز:

- والله العظيم أبدًا يا سيدنا.. ده هو المعلم الجوهرى طيب وأنا ذنبى إيه. أمسك الرجال بالعجوز يخلعون نعليه ويرفعون قدميه لأعلى والشيخ السنهورى قائم نازل بالجريد وهو يصرخ فيه.

- علشان ما تخبرنى بأنك فى حاجة للمال.. روح أنت هاته يا ابن المركوب.

دخل المعلم الجوهرى على وجل وخوف ينتظر لحظة خروجه من عند نقيب الأشراف الشيخ السنهورى عندما عبر الباب وجد عينيه تتقدان نارًا فقال متراجعًا للخلف وهو يمد يده بكيس من النقود .

- لم يوقف محمد باشا عزت لزاوية أسلافكم سوى مائة كيس وصلكم خمسون كيسًا وهذه الخمسون الباقية يا سيدنا.

انتصب السنهورى فى غضب:

- أتحاسبنا.. ضربه على رأسه بزخمة من الجلد فسقط غطاء رأس الرجل ووقف حائرًا تدمع عيناه..

- تضرب شايب يا مولانا.. مال على يد السنهورى يقبلها فدفعها متأففا.

- اللى عايزه يا مولانا السنهورى.. خمسين كيس أخرى وأنا أدفعها من عندى.. أنا ذنبى أيه يا مولانا.. خلاص يقول دويدار وأنا أدفع اللى عايزه من مالى.

صرخ - تمن وتحسن على أصحاب النسب الشريف.

t.me/qurssan

- والله يا مولانا هوه ده اللى حصل.. طيب أعمل إيه.. الأمر أنفذ.. أنا عبد المأمور.. بكى وهو يركع يلثم ثوب السنهورى ويقبل مداسه.. كان الكل يرتعد.. بال الشيخ محمد أبو الفضل على نفسه وهو يرى أفندى الروزمانة يركع أمام مولاه والعرق الغزير ينسال من وجهه وقام يجرى يجفف نفسه وهو يقىء.

* * *

فى الظهيرة أخرج السنهورى وهو جالس على طعام الغذاء، من حق نحاسى صغير به خلطة صنعها أحد الدهاقين من أصحاب العطارة والكيمياء خصيصًا له، جرعة صغيرة كورها كالحبة ووضعها تحت لسانه وأخذ يأكل طعام الغذاء.. زوجان من الحمام.. قطع كبده مهرية فى السمن. دعى محمد أبو الفضل كى يجهز له النصبة وتركه خارجًا يدور فى أرجاء القصر والخدم يهربون من أمامه وهو يتوعدهم ضيق الصدر سريع الغضب حتى وجدها أمامه خارجة من الحمام ترتدى قميصًا حريريًا فوق سروالها المزركش الطويل.. وجدته أمامها.. تشاغلت عنه تمشط شعرها فوقف يدور حولها لا يدرى ماذا يقول وهى تثبت عينها فى عينيه.. أصاب العجوز الارتباك.. تشاغل راحلاً وقبل أن يختفى من باب الردهة سألها أن تأتيه خلوته.

جلس محمد أبو الفضل يرص أحجار النرجيلة.. وأمامه جلست بدرية تكبس جسد الشيخ السنهورى.. كانا متشاغلان عنه وهو لا يرى فى الأمر شيئًا.. أليست بدرية فى مقام ابنة مولاه وشيخه وكيف لشيخه بأن يتصرف تصرفًا شائنًا معوجًا.. أخذته الحماسة وهو يرى نفسه وزوجته المقبلة يقومان على خدمة الشيخ.. على أنه كان متلهفًا أن تبادله بدرية الحديث.. أن ترنو له بنظرة.. ولكن كيف تفعل وهى تعرف كيف يجب أن تتأدب فى حضرة الشيخ الكبير.

سمع بدرية تحدث الشيخ السنهورى فجأة.

- اتجوزنى.. فوجئ الشيخ بسؤالها . كان كل ما جمعه من علم ومعرفة ودهاء ومعاملات ودروس وبيع وشراء ومجد ونفوذ وسلطان وقوة وثروة وبغى وطغيان قد تجمع فى فكرة واحدة.. إنها جاريتى.. ما الفرق فى أن تكون ابنتك أو جاريتك إذ كنت أملكها وإذا كنت أستطيع بيعها كى تدفئ فراش رجل عجوز بمائة ريال.. ألف فضة.. ألف

t.me/qurssan

بندقى.. لماذا يستمتع بها رجل عجوز يضربها ويهجرها.. يملكها بثمن بخس مثل البقلى..

- اتجوزنى.. إيه قولك يابا الحاج.. أعادت عليه السؤال فتابع خواطره.. خذ منى ياشيخ سنهورى أجمل جارية بمائة بندقى اعطى لنفسى أنا مالكها خمسين وأعطيها لقاء نفسها خمسين بندقى كاملة غير منقوصة أمانة لوجه الله. بل على أن أعطى النقود لأمها.

قالت غاضبة وهى تبتعد عنه وقد دغدغت له كل حواسه.

- اتجوزنى.. مش قد المقام؟؟

ضحك ضحكة منهكة متهتكة وبانت معالم الجنون فى عينيه فانفرجت أساريرها.. كان محمد أبو الفضل يشاهدهما معًا. وكأنه فى حضرة شيطانين يمتلئ أمامهما بالضآلة والخوف لا يشعر بوجوده أحد.

- قولى زوجتك نفسى.

مالت نحوه بلهفة عجول تأخذ كفه بين يديها.

- زوجتك نفسى.....

فك أسار يده منها فتركتها بصعوبة.. مد يده إلى أسفل الحشية وألقى فى حجرها كيسًا به خمسين بندقى قائلاً:

- خمسين بندقى صداقك افعلى به ما شئت.

التمعت عيناها ورقص جسدها بفرح.

شاهدها محمد أبو الفضل تقترب من الشيخ تعانقه.. قام خارجًا والعرق البارد يغمر وجهه.....

عاشت بدرية فى بحر من الإثم تجهله وجنون السنهورى يتزايد وقد انعكس عليها هذا بسرعة بالغة فنضجت نضج امرأة لا تزال عذراء... وشاع فى منوف زواج بدرية ابنة خادمة قصر السنهورى من سيدها..

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version

استقبلت صديقة الأمر بعجب غير مصدق ولم تكن تصدق لأنها الوحيدة التى تعلم استحالة ذلك.. الشىء الحقيقى الوحيد كان عودة محمد أبو الفضل لمنوف مطلقًا لحيته وقد تدلت من عنقه ثلاث سبحات طوال مشايعًا للمتصوفة معتزلاً خدمة سيده ومولاه الشيخ أبى الأنوار السنهورى.. كان يسير فى حوارى منوف تائهًا منكس الرأس ويقضى الوقت متعبدًا كالزهاد ومعتزلاً الناس فى مقعد علوى فى دار أبيه أو جامع الشيخ أبو حديد.

فى منتصف مايو من عام ١٧٩٣ تجهز السنهورى للسفر إلى الآستانة فجاءه الأمراء من كل صوب بالتقادم والهدايا والمطالب يدخلون عليه فى تبجيل واحترام يضمون أثوابهم إذا اقترب منه أحدهم ويقعدون على ركبهم لتقبيل يمينه... أما الصغار منهم فكانوا يقفون على مبعدة.. وجميعهم يسأل حاجته من دار السلطنة.. عفوًا.. وشاية.. تجارة.. منصب.. وكان قد خصص الصباح لاستقبال الأميرات فكن يدخلن عليه غاية فى الاحترام والتبجيل فيقبلون يده ويتباركون بثوبه وكل واحدة تقول ذهبت لأبونا الشيخ السنهورى... قال لنا أبونا كذا وكانت مقاصد أكثرهن هدايا وتحايا لنساء الوزراء وعظماء الدولة ودهون وعطارات وملابس من عاصمة الخلافة ومجمع أهل الحرف والصناعة أسطنبول.

كان آخر لقاء له مع الأمير إبراهيم بك والألفى بك.. إذ كان غاية سفره تنقية الأجواء بينهم وبين دولة السلطنة والقضاء على بقايا الخلافات والوشايات وأحاديث العصاة وطلب معهم محمد باشا عزت والى البلاد تقليل مال المصالحة والحلوان وإرسال المؤن والإعانات من الغلال للبلاد التى طحنها الطاعون.

وفى ليلة الرابع عشر من مايو ركب السنهورى غليونه إلى رشيد حيث حملته إحدى السفن الضخمة إلى الآستانة.

* * *

- ٢ -

كان يومًا مشهودًا ضربت فيه المدافع الفشنك طوال الوقت. وفى دروب وحوارى مدينة منوف سار المنادى ينادى بإعلان حسين أغا الأشقر سنجقًا على المديرية.. ثم دار موكب الولاية المدينة يتقدم الأشقر المنادون ثم المشاة الراجلين ثم حملة الأعلام والرايات

t.me/qurssan

ونافخى النفير وفرقة الطباله ومشايخ الطرق الصوفية والأعيان وكبار التجار والأوجاقات ثم الطواشية والخصيان فأورطة الفرسان وخلفه ركب أوغلى قره زاده أحمد المجنون أغا الطواشية ثم الأميرة شريفة ترى زوجها من فوق هودج على جمل يحيط بها العربان وفرسان السباهية.. وعند قلعة إيداكش القديمة التى أعيد بناءها وارتفعت أبراجها نفخ فى الأبواق الجنود طلقات البارود ابتهاجًا بمقدم السنجق الجديد الذى دخل أبواب القلعة راكبًا جواده فلم ينزل منه إلا على سرير الولاية وقد أحاط به مجلس المدينة من الأعيان والتجار والمشايخ وأمراء الجنود وقاضى القضاة الذى قرأ على الجميع الفرمان الذى أعلن فيه الباشا الأشقر سنجقًا على منوف.. بعده قام الأشقر معلنًا قره زاده أحمد المجنون واليًا على منوف ثم دعى الجميع إلى وليمة عظيمة حوت أشهى المأكولات والمشهيات وصنوف الخمر والحشيش وسط المغنيات والراقصات.. أثناء الاحتفال نظر الأشقر فوجد المعلم قسطندى أمامه منفرجًا وجهه عن ابتسامة بلهاء واسعة.. صاح به.

- كل ما تشتهى واشرب ما تريد فأنا أريدك بعد قليل..

أجاب قسطندى ببلاغة وعيناه تتقدان:

- طبعًا هو أنت ولا حد فى المديرية يقدر يستغنى عنى...؟؟ أنا عارف يا أغا.. وضحك وهو ينكب على ديك رومى صغير يلتهمه.. وضحكت الدائرة الصغيرة التى كانت تحيط به.

بعد أن انتهى من طعامه وشرابه وقف بجثته الضخمة وسحنته المتجهمة صامتًا أمام الأغا وكان يحادث بعض الأعيان رآه استدار إليه متطلعًا.

- هل انتهيت؟

- الحمد لله.

- هيا إذًا.

اخترقت العربة دروب منوف الضيقة والمعلم قسطندى لا يدرى على وجه اليقين وجهة الأغا.. وأمام قصر السبيل توقفت العربة فاستعاذ المعلم قسطندى بالله والمسيح والقديس مارى جرجس هازم الشيطان.. دخلا القصر المهجور.. كانت الشائعات تحكى بأن روح فاطمة تسكن القصر وتخرج منه لقتل الأطفال كما كانت تسبب الجنون للأمهات الصبايا الصغيرات السن.

t.me/qurssan

عبرا ردهات وعلى ضوء المشعل الذى حمله الأشقر كان المعلم قسطندى يرى عجبًا.. ذباب أصفر وقطط وحشية.. كلاب صيد سوداء وأجساد بشرية برءوس ثيران.. كان يسير وهو يدور حول نفسه كالمخبول.. هاجمه من قبالة قاعة الشتاء بحر من الذباب.. تراجع إلى الخلف مذعورًا قبل أن يفيق ليجد نفسه فى القاعة ذاتها.. والأشقر ينظر له وعلى وجهه ابتسامة موته الذئبية وفكه المتدلى للأمام.

وقف قسطندى مرتعدًا وقد تصاعد وجيب قلبه ونسيج العنكبوت يملأ أرجاء القاعة وكأنها مهجورة منذ مائة عام.. وفى وسطها كانت تقبع أحلام الأشقر.. أشار الأشقر إليها محدثًا المعلم قسطندى..

- انظر أمامك بين منوف وبهواش ومستنقعات السدود.. انظر هذه الوديان والسهول والجبال.. هذه القلاع والحصون والطوابى أريد أن أبنى هذا فى الأراضى الواقعة بين منوف وبهواش أريد هذا السور الصخم يحيط بأرضى.. فإذا فعلت أعطيتك صندوق الجواهر هذا وعشت أنا ألف عام.

فتح المعلم قسطندى فاه على آخره مشدوهًا وعيناه تحدقان فى عشرات الأفاعى الصغيرة التى كانت تخرج لتوها من بيضها وتنتشر تملأ المكان..

- سيدى دا شىء مش فى قدرة الإنس.

- من قال لك.. سوف نجعلهم يعملون فقط.. الإنس مش أكثر من سبب لتنفيذ مشيئة.. نظر قسطندى فى بلاهة.. غمغم أية مشيئة.. ده عمل من صنع الشيطان قال:

- سنحتاج آلاف العمال.. توقف بغتة عن اللهاث.

ثم صاح:

- كيف يتسنى لك رى هذه الأراضى.؟ أنا أرى النيل يروى أراضى مستوية تميل من قبلى لبحرى..

نظر الأشقر إلى الفضاء بعينين حمراوين وهو يهز رأسه إلى أسفل هبوطًا وصعودًا كالمجنون.

- سنجلب الأمطار والسحاب وسنكسوا قمم الجبال بالثلج وستملؤها قطعان الماشية والدببة والوعول البرية..

t.me/qurssan

قال المعلم قسطندى وهو يشعر بأن روحه تتلوث.

- دا شىء ضد الطبيعة.. شىء زى السحر.. تحدث الأشقر بجنون.

- سوف نجلب الأرواح الهائمة وأشباح الضالين التائهين عن العودة إلى مثواهم الأخير... سنكون فنارة للأرواح التى تعانى من صقيع الأبدية الموحش.

* * *

لم يشرق الصباح إلا وكان قره زاده المجنون قد نزل إلى المدينة فأعلن إغلاق أبوابها وحصنها بنقاط قوية.. ثم أخذ هو وأتباعه يفتشونها قطعة قطعة وهو يصرخ قائلاً . ... أمرنى سيدى ومولاى حسين أغا الأشقر بتطهير المدينة من عصابات الأشرار وجماعات الأوغاد تطهيرًا كاملاً ناجزًا إلى الأبد وإخلائها من المرضى والعراة والجوعى والدخلاء عليها من غير أهلها.

طوال أيام ثلاثة كان قره زاده المجنون يطارد لصوص المدينة وحرافيشها. وكل من لا يجد له هوية ولا يصلح للعمل كان يلقى به فى سراديب سجن القلعة الرهيب فيقسمهم ويزنهم ثم يعزل عنهم المرضى ويقسم الباقى جماعات حسب أوزانهم فيلقى لهم بالعشب الجاف وبعض البقول المغمورة بالماء.

أرسل السنجق المنادين فى القرى القريبة يدعون كل قادر للعمل فى المديرية لقاء أكله وشربه فتوافد على المدينة الآلاف من الفلاحين فيستقبلهم المعلم قسطندى هو وأعوانه شاحب الوجه مرتعد الأوصال فيقسمهم لفرق للعمل تحت إمرة أعوانه.. وداخل سراديب القلعة كان قره زاده المجنون يطهر المدينة من أوغادها صباحًا.. وكلما جن الليل ينتقى أكثرهم سمنة ويقوم على ذبحهم كالنعاج وتقطيع أوصالهم قطعًا صغيرة يلقى بها فى قدور ضخمة تشتعل من تحتها النيران فإذا ما نضجت أخرجها قرب الظهيرة ساخنة فى حسائها.. ثم يقوم بنفسه بالإشراف على أعوانه وهم يقسمونها بالعدل والقسطاط على الفلاحين الذين يعملون فى أرض الأغا الجديدة.. وكلما قام قره زاده بتوزيع الطعام كلما زاد عدد القادمين للعمل.

* * *

.. كان المعلم قسطندى يسير وسط عماله صامتًا شارد الذهن شاحب الوجه وكأن روحه تتآكل وهو يغمغم مردداً...

t.me/qurssan

- هذا عمل من صنع الشيطان.. كيف أخرج من هذه الورطة يا يسوع.. هذا شيء ضد ما تعودنا عليه... جبال ووديان وأنهار وجداول وغابات.. اللعنة سوف يمتلئ بحيات وثعابين كثيرة ويكون مأوى لجماعات الذئاب الوحشية.. ما أصنعه وكر للأفاعى تبيض فيه وتتكاثر.. وكر للغيلان وأكلة لحوم البشر فأنا أفعل ما يأمرنى به وأهده ثانية.. حتى أعيش أنا ولا يتكاثر هو.. ولكن كيف..؟

* * *

كانت تيريزا امرأة المعلم قسطندى ترى حالة زوجها تسوء شيئًا فشيئًا.. يتمدد بجوارها ولا يستطيع النوم.. وإذا نام كان نومه مضطربًا تملؤه الكوابيس والأحلام المرعبة فمن أين تأتى كل هذه اللحوم.. كانت الشائعات تقول إنها تأتى من القلعة.. خيم الرعب على المدينة لكن أحدًا لم يكن لينطق وجثث الموتى من الجوع تختفى من الطرقات الخارجية للمدينة ومئات من جوعى القرى المجاورة تهاجر إليها للعمل لتقتات.. ذات ليلة استيقظت تيريزا على صرخات زوجها.. كان ممددًا بجوارها محتقن الوجه.. كان الشيطان ممسكًا بخناق روحه وهو يصرخ طالبًا النجدة.. وقبل أن تمد يدها توقظه انتفض واقفًا يجرى فى الغرفة يريد الخروج من الباب.. أمسكت به بكل قوتها توقظه.. تعثر فى آنية الدار وسقط على الأرض مغشيًا عليه.. وضعت حوله أيقونات السيد المسيح والعذراء البتول وأوقدت الشموع.. وعندما نهض كانت تبكى بجواره وهى تدعو الرب يسوع أن ينقذ روح زوجها وسيدها قسطندى لا تدرى ما أصابها..

- يا مقدس زور الكنيسة.. قلبى بيقوللى إنك حتلاقى اللى بتدور عليه.. غمغم.. اللى يدور عليه.. نظر إليها وقام من فوره خارجًا.. دخل باحة الكنيسة.. لم يكن بها أحد.. ألقى فى صندوق النذور بعشر بارات وأوقد الشموع لكل قديسى الكنيسة.. وضع الشموع أمام السيد المسيح والسيدة العذراء وهو يرسم علامة الصليب على صدره ثم ركع أمام الرب يشكو جروح روحه فلما انتهى شعر بالسكينة تملأ نفسه.. ولما نام هذه الليلة جاءه السيد المسيح على صليبه مقلوبًا...

اقترب منه ثم ضربه على وجهه.

- انظرنى يا قسطندى.

- إنت مقلوب يا سيدى.

t.me/qurssan

فضربه ضربة أشد من سابقتها.

- انظرنى يا قسطندى.

قال وهو غير قادر على أن يكتم ضحكته أمام الرب.

- لماذا قدماك إلى أعلى ورأسك إلى أسفل كزرع البصل.. ضحك حتى اهتز كرشه الضخم.. ضحك ضحكته القديمة التى نساها منذ اليوم الذى زار فيه قصر السبيل.. داهمه برد شديد إذ إن قصر السبيل ظهر له الآن فى أحلامه وعشرات الغيلان والسلعوات تتسلل منه ليلاً إلى الحقول وأسطح الدور تأكل الأطفال والنساء والعجائز.. انكمش على نفسه يخفى رأسه من الرعب إلا أن المسيح ضربه على رأسه بقوة بالغة وكأن صاعقة من السماء أصابته على أم رأسه.. صرخ من الألم والسيد المسيح يقول:

- انظرنى يا قسطندى.

... غمغم.

- إنى أنظرك الآن يا سيدى.

* * *

ظل المعلم قسطندى ستة أيام يسأل الأحبار وأهل المعرفة والعجائز والحكماء تفسير حلمه. وفى اليوم السابع طرقت أم عبد المحسن باب المعلم قسطندى تسأل عنه فلما قابلته حيته وأقرته السلام وهى تقول له:

- ابنى عبد المحسن حملنى ليك رسالة آنى مش فاهماها لكن حاقولها زى ما هى والسلام.

قالت لها تريزا:

- ادخلى الأول وخدى نفسك يا أم عبد المحسن.. ففعلت ولما جلست قال المعلم متوجسًا:

- قولى.. خير يا أم عبد المحسن.

- الشيخ المرسى وعبد المحسن بيقولك..

- الشيخ المرسى مين..؟

t.me/qurssan

- يوه أنا عارفة؟؟ من جماعة عبد المحسن.

- وبيقول إيه الشيخ المرسى؟؟

- السيد المسيح بيقولك... انتبه المعلم قسطندى وانتبهت تيريزا.

- قال إيه قولى يا أم عبد المحسن.

- بيقولك.. استدركت.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بيقولك إذا أمرك الشيطان بعمل حاجة أعملها مقلوبة ترتد إليه.. و.. و.. لمحته وقد تجهم وجهه وازرق وظهر على سيماه الجد وهو يرسم على صدره علامة الصليب.. قالت:

- يعنى إيه بقى.. آنى مش فاهمه حاجة.

هز المعلم رأسه.

- آنى فهمت يا أم عبد المحسن قولى لعبد المحسن والشيخ المرسى.. إنى فهمت..

- إنت فهمت.. فهمت إيه ما تفهمونى.. طيب عبد المحسن والشيخ المرسى جوز مجانين وإنت إيش دخلك يا معلم قسطندى.. قام وهو يدفعها خارجًا بلطف.

- مفيش حاجة يا أم عبد المحسن.. ربنا يتولانا برحمته.. ربنا يتولانا برحمته.

خرج المعلم قسطندى وهو يهتف فى نفسه.. هذا تفسير الرؤيا.. هذا تفسير الرؤيا.

* * *

افعل عكس ما يأمرك به الشيطان.. ولكن كيف.. هكذا سار المعلم أشعث الشعر كالح الوجه تغطى ذقنه شعيرات حادة كالشوك يحدث نفسه وقد امتدت صدريته القديمة للأمام تكشف عن صدره الممتلئ بشعر كثيف تحاول جاهدة أن تخفى بطنه الضخمة يلقى لعماله بأوامره ببناء سور الأفعى الذى يحيط بأرض السحر.. فبنيت آساسات الأسوار والأبراج والقلاع الثلاثة من الطين والطوب النيئ وفوقها صفت الأحجار الجيرية الضخمة بلحامات طينية والأشقر يطير فوق جواده يشاهد سوره وهو يمتد ويطول يومًا بعد يوم مزدانًا بالأبراج القوطية العالية وغرف وبوابات الحرس.

طوال عام كان الفلاحون يجرفون الأرض الطينية من جنوب منوف إلى كمشوش ومن آراضى السدود إلى الشرق.. رويدًا.. رويدًا كانت الأرض ترتفع مشكلة سهبين متوازيين

t.me/qurssan

يموجان بعشرات التلال يتخللها ثلاثة وديان وفى منتصف كل مسهب انتصبت قلعة مشوهة من النمط القوطى شيدت من بناء حجرى على أساس من الطوب النيئ.

* * *

- ٣ -

دخلت بدرية على أمها بعد أن أرسلت تحضرها عنوة من قصر السنهورى بالقاهرة وقد عزمت على تزويجها بالبقلى شاءت أم لم تشأ حتى تخرس الألسنة.. لكن وجه ابنتها حمل لها نبأ جللا خشيت أن تعرفه.. فكرت أن عليها أن تنهى ما تريده.

- بكره أبعت للحاجة مشكورة تيجى تبلغ السيد البقلى بموافقتنا على الجواز قالت لها بدرية فى استهانة.

- وتاعبة روحك ليه يامه.. أنا اتجوزت.. وضعت صديقة ذراعيها فى وسطها وقالت تباكتها وداخلها يرتعد.

- اتجوزت؟؟.. مين بقى يا مفعوصة.

- أبونا.. الشيخ السنهورى.

دفعتها صديقة تتحرش بها.

- إمتى وإزاى..؟

هزت راسها وقالت دون حماس.

- مش زى ما تظنى.

- با ظن إيه.

- يعنى.. عقد قران والمأذون.. لما يرجع.. هزت كتفها بملل أمام نظرات أمها النارية.. هو بيقول كده.

كان حديث بدرية من الجد بحيث إن الأم لم تكن تستطع إلا أن تصدق ما تقوله.. تأوهت فى وجهها بجزع.

- عمل فيكى إيه.

t.me/qurssan

هزت بدرية كتفيها برعونة.

- يعنى حيعمل إيه.. ولا حاجة.

- دخل عليكى؟

أشاحت بيدها.

- دا راجل عجوز يامه.. هو فيه حيل..

هوت صديقة بكفها على صدغ ابنتها وقبضت على عنقها تقذف بها إلى الأرض.

- يا بنت الكلب.. يا بنت المفحور.

دفعتها بدرية عنها بضجر.. وقفت كل منهما أمام الأخرى كديكين يتعاركان فى غل.

- عايزه منى إيه يا صديقة.. غايرة منى إيه؟

- أغير من مين يا شرموطة.. نظرت لها بغل.

- منى آنا.

- وليه.. ليه يا قحبة.

- عملت اللى مقدرتيش تعمليه.. بالضبط زى ما قولتيلى قبل ما أسافر معاه.. فاكرانى مش حقدر.. لكنى قدرت.

تراجعت صديقة كالمذبوحة.. شقت ثوبها نصفين وهى تلطم وجهها بعنف وتعفر وجهها بالتراب وتصدر عنها أصوات ملتاعة.

صاحت بها بدرية بضجر.

- بتعوى ليه ياوليه زى الكلاب...؟

نظرت لها الأم بذهول وهى ترى ابنتها تكشر فى وجهها كجرو صغير.

- عايزه تعرفى... أجابتها بدرية بسخرية.

. أيوه يا اختى عايزه أعرف.

- دا أبوك.

t.me/qurssan

- طبعًا أبويا ما هو أبونا كلنا.

ضربت صديقة على بطنها وهى تفح فى وجهها.

- أبوك اللى حط بذرتك فى بطنى بذرتك النجسة.

شهدت الفتاة. إيه.. أبويا طب والأكتع؟

هزت صديقة رأسها نفيًا... رفرفت بدرية برأسها كالمذبوحة.. قامت تدور حول نفسها ومنوف تميد بها.. جمدت ملامحها غير مصدقة.. توجهت إلى أمها تجز على أسنانها..

- إيه يكون فكرك لعبة بتلعبيها علىّ.. دفعلك إيه البقلى.. اقتربت منها عازمة على أن تشتبك معها.. أمسكت بكتفيها تهزها بقوة وهى تصرخ فى هيستيريا.

- ورينى وشك يا وليه.. ورينى وشك.. ملعوب إيه اللى بتلعبيه.. ليه تفترى عليه.. فاكره كذبك يخيل عليه.. والله لأقوله لما ييجى.. فاكراه مش حييجى.. اقتربت تصرخ فى وجهها.. حييجى ومش حيرحمك حتى لو استغفرتينى وبُست رجلى.. طبعًا يصح تفترى علىّ إنما تستجرى تفترى عليه.. دا أنى كنت حاضمن لك عيشة ماشفتيهاش فى حياتك.. فرش وكسوة وخدمة.. خدم يخدمونك إنت والأكتع.. أبويا المنصور.. خدم يخدموك بعد ما خدمت طوب الأرض.. أشاحت أمها بوجهها عنها.. جذبت رأسها بقوة وهى تدور حولها تصرخ فى عنف:

- مابتبصيش فى وشى ليه.

رفعت صديقة وجهها.. كانت الديدان تنخر فيه وتجوب وسط نسيج العنكبوت.. صرخت بدرية:

- وهو عارف...؟

هزت صديقة رأسها مؤيدة.

دقت طبول الدنيا فى رأسها.

- ليه بتعملوا فى كده ليه..

أنت.. أنت قلت لى البقلى حيوكلك اللقمة قلت لنفسى السنهورى حيوكلنى اللحمة.. قلتيلى البقلى حيلبسك الهدمة قلت لنفسى السنهورى حيلبسنى الذهب والفضة.. قلت

t.me/qurssan

لى البقلى حيستتك على قصره قلت لنفسى السنهورى حيخلينى سلطانة على الناس والخلايق والأمم.. آنى مخترتش غلط لما هو أبويا ليه سايبنى أعيش فى النشع ليه.. إنى كان حقى أعيش أميرة.. أميرة.. أحسن من الأميرة شريفة.. اختنقت بالعبرات.. يا ابن المفحور (تقصد السنهورى).. يا ولاد الكلب.. صرخت.. عوت وعوت لساعات طويلة وعندما تحول عواؤها إلى أنين كان شعورها بالضآلة قد ملأ ذاتها.. وبينما كان جسدها يسكن الأرض كانت تسير بروحها إلى الظلام.. تبكى وتشتكى ابنة مجد وسلطان ضاعت منذ لحظة ميلادها لماذا اختار لها الزمن أن تكون ابنة سفاح.. تبكى الضآلة التى تتفجر ببركان الغضب والحقد والكراهية والندم.. تبكى ابنة الثراء التى عاشت فى الروث والمستنقعات وعلى فتات الموائد وأكوام الوسخ.. تبكى ابنة السلطان والنفوذ التى زفها الأطفال صغيرة وقذفوها بالحجارة والطوب ونبذوها عقابًا على أب مشوه مخصى آكتع لم تكن له ابنة.. ابنة القوة الغاشمة التى رضعت الخوف من سنابك الخيل التى تحمل فوق ظهرها ظل رعب شياطين عصور قديمة.. كانت تبكى ابنة الاثم وطوق النجاة التى غرق بها إلى أعماق الظلام السحيقة.

كانت تئن وصارت كل أنة حجرًا فى جدار الذهول الذى أخذت تنسجه حول نفسها من خيوط العنكبوت.. كانت لا تتوقف عن الأنين ويومًا بعد يوم لا تنى كوة الضوء البعيدة أن تتضاءل وتتلاشى.. وعلى بطنها تمددت تعوى طوال شهر كامل وقلب أمها ينفطر حزنًا تأخذها إلى أصحاب السحر ومخاوى العفاريت والجان وجسد ابنتها مسجى بين يديها تدور فيه معركتها الأخيرة بعد أن أوهن الطاعون شجاعتها والتهمت الغيلان روحها المغامرة وحب البقاء فيها بعد أن فقدت كينونتها وتلاشت إرادتها لتصبح جسدًا بلا روح.. وعندما أغلق حراس المدينة بوابتها الضخمة على ساكنيها من غيلان وفلاحين معًا أدركت لحظتها أنها تطلب الموت..

ساعتها أخذتها أمها للعريان كى يطردوا عنها الأرواح التى تسكن جسدها.. كشف شيخهم عن ظهرها وطوال شهرين كان يقوم بكى جسدها بالأسياخ المحمية حتى أخذت تستعيد الشعور والقدرة على الحركة ثانية. وعندما عادت مع أمها خلعت ثياب العز وعادت ترتدى ملابسها القديمة تدور فى الدار صامتة كجثة تتحرك فى الأرجاء.. تقوم بأعمال لا يربط بينها شىء.. تحمل بيض الدجاج لتنساه فى مداود البهائم وتشعل الكوانين بأقراص الجلة دون عيدان الحطب فلا تشتعل فتميل فوق النار تحاول أن تنفخ

t.me/qurssan

الكوانين فيتطاير الشرر والوهج محرقًا خصلات شعرها وتجرى أمها تحاول إنقاذها فتدفعها بعيدًا عنها وكانت تتمنى أن تلتهمها النيران.. وما إن ينتهى أوان عمل الدار حتى ترحل عصر كل يوم إلى الحمام تغسل جسدها بلا كلل.. تحكه وتنظفه بالحجر الخفاف حتى تحمر بشرتها وتدمى وكأنها ترغب فى التخلص من جلدها.

- ٤ -

فى شتاء عام ١٧٩٣ سقطت الأمطار غزيرة ولم يأت مارس إلا وكان قد كسى أرض السحر عشب أخضر جميل.. كان المعلم قسطندى أول من غادرها فزعًا.. شوهد يجرى كالمجنون على غير هدى وعندما عاد إلى داره كان قد عزم على السفر فورًا إلى بيت المقدس للحج تطهيرًا لروحه.

أما الفلاحون وعمال الأغا الذين ظلوا لمدة عامين يأكلون لحومًا بشرية فقد فتحوا عيونهم ذهولاً وهم يدورون فى الأنحاء زائغى الأبصار كالكلاب الضالة التى أصابها الجرب لا يكادون يقدرون على صلب أجسامهم وقد تاهت عقولهم لا يعلم أم أو أب أين ذهب أولاده ولا أخ كيف مات أخوه وإلى أى شىء ينتمى.. متى بدأ أولهم فى الهرب؟.. لا يتذكر أحد سوى أنهم شرعوا جميعًا فى الفرار مخلفين منوف وراءهم بأعداد هائلة وقوافل طويلة من الحفاة والعراة.. قوافل امتلأت بالمجاذيب والمتصوفة تسير على غير هدى يجدون السير بعد أن توقف قره زاده المجنون عن اعتراضهم وهم ينظرون إلى الخلف هلعًا خوفًا من أن تتعقبهم جحافل الغيلان.

* * *

نظرت الأميرة شريفة من شرفة قصرها مع ساحراتها الحبشيات تشاهد ما يجرى أمامها عجبًا.. كان جنوب المدينة قد تحول إلى قطعة هضبية مسحورة تكسو قممها كتل الجليد وعلى سفوحها امتدت غابات الصنوبر الوحشية وكتل الحجارة الصلدة تتخللها القلاع القوطية.. ترى الأضواء تنبعث من أحدها كل ليلة فتعلم علم الظن بأن هناك روحًا هائمة تبيت ليلتها وحيدة.

وعلى شاطئ أحد المستنقعات وبينما كانت بدرية منهمكة فى غسيل الأوانى النحاسية قبالة دارهم لمحت أمامها فرسًا يدق الأرض بحوافره.. عندما رفعت رأسها وجدت حسين أغا الأشقر ينظر إليها بعينيه المبتسمتين ابتسامة الموت وفكه المتدلى

t.me/qurssan

كفك الذئاب.. عندما التقت نظراتهما ظل مبقيًا نظره لثوان ثم رحل مبتعدًا وهو يفكر. طيلة ثلاثة أشهر ظل الأشقر يحوم حولها ويتابعها عن كثب وبتمهل وهو لا ينى يفكر.. إذا عجزت شريفة أن تلد لى وريثًا فستكون هذه الفتاة أم ولدى.. ذات مرة حدق فيها بعينى الموتى حتى أمسك بعينها.. أشار لها فقامت خلفه كالمنومة.. وفى أحد صوامع الغلة انعطف للداخل وانعطفت تتبعه.. وعندما وقف أمامها يخلع سرواله مدت يدها هى الأخرى تحل تكتها وهى منكسة الرأس تحدق فى الأرض.

مع مجىء الربيع نما العشب على الوديان والسفوح، لمحت شريفة راعيًا يخرج من قلعة الغرب مرتديًا سترة صوفية ويسوق أمامه قطيعًا من الكباش.. تصاعد غبار قادم من ناحيته فلما اقترب رأت جوادًا أشهب يقطع الطريق إليها نهبًا.. دخل من بوابة القصر وكأنه يعرف طريقه عبر الساحة إلى الحرملك والكل ينظر إليه دهشًا يحاول أن يمسك به دون أن يستطيع.. قامت إليه تلاطفه فانصاع لها.. همست.. جئت من عنده.. هو أرسلك. طأطأ الجواد الأسود رأسه.. امتطته فاندفع يطوى السهب باتجاه الجنوب حتى بلغ قلعة الغرب فدخل بوابتها وسيدته على ظهره يخبو راكضًا بخطوات بطيئة.. نظرت حولها رأت ساحة القلعة تموج بالحركة.. أجساد بشرية برءوس ذئاب وأطفال فصدت عقولها تقفز القردة وخيول لها سيقان ماعز وكباش تقطر أنيابها دماء ووجوه مريبة حمراء بثلاثة عيون وقرون تطوى ذيولها خلفها.. بعضها تسوق أمامها عربات خشبية ممتلئة بالغلال والحبوب والبعض الآخر يمسك فى يده مناجل وشوك وبذارات قمح وفئوس حادة.

وقف الجواد بها على سلالم القصر.. قفزت من على ظهر الحصان.. دلفت إلى ردهات القصر الحجرية.. كانت تمتد أمامها طويلة تحيط بساحة مكشوفة ربعة تعبر قاعات القلعة.. رأت جماعات من النساء والرجال يرقصن سويًا رقصة الكولا ورجلا برأس ذئب يعانق امرأة لها أقدام الوعول.. وجمع غفير من الغيلان يجتمع حول مائدة من لحوم الأطفال.. تقدمت إليهم فأفسحوا لها مكانًا وجلست تأكل وسطهم وتبتسم للآخرين وهى تصرخ فى نفسها بفوحر.. الليلة سوف أعطى همجية البربر واستبداد الرعاة.

* * *

وباتجاه الشرق نهب جواد أسود الأرض وعلى ظهره بدرية كالمنومة.. عبرت بوابات قلعة الشرق.. وجدت ساحتها تموج بأجساد بشرية بلا رءوس تكد وتكدح وهم يحملون

t.me/qurssan

جرارًا فارغة إلى أرض يروونها بمياه ولا يلبثوا أن يعيدوا نفس العمل فى دأب دون توقف تحت ضربات سياط لا يحملها أحد.. نزلت بدرية على سلالم القصر الخارجية وفى الردهات شاهدت قاعات القلعة الداخلية تموج بغناء جماعات المجاذيب والمنجمين مجتمعين حول النيران هتفت: الليلة أعطى روح العبيد وعقلية الخصيان.. الليلة أعطى استسلام الدهريين وعبدة الموت

* * *

عند منتصف الليل وقفت كل من المرأة والفتاة فى مخدع قلعتى الغرب والشرق.. شعرت كل منهما بحركة فى الجوار. وأمام الأميرة شريفة كان يقف مديدًا ناحل القوام له وجه قمرى لشاب فى منتصف العقد الثالث من العمر أخذها بين يديه مندفعًا إليها كنهر قطبى.. تقلبت بين ذراعيه عارية ككتلة من الجليد.. ظلت تسبح وتسبح فى نشوى حتى بلغت أراضى السهوب الخضراء.. أما بدرية فقد رأته عاريًا إلا من قيود سلاسلة مشدودة حول عنقه وقدماه تصران كلما تحرك.. جذبته إليها وهى تهمس... لما أنت كده ليه الناس بتخاف منك.

قال بثقة هازئًا.

- ومن يستطيع أن يرانى على حقيقتى.

- آنى عارفة...؟

- لا أحد يعرف.. حتى أنت سوف تنسى الأمر حالما ترحلين من هنا.

لم يمض شهران حتى أعلن المنادى يتبعه صبى يقرع الطبول وأتباع يلقون بالدراهم على العامة يزفون البشرى لأهل منوف بأن الأميرة شريفة حامل وستلد أميرًا عما قريب.

* * *

t.me/qurssan

الفصل العاشر

- ١ -

فى حادث غريب وجدت جثة المنصور قبالة فيشا وقد طرحها البحر الفرعونى على شاطئه.. ولم يستطع أحد أن يفسر كيف صعدت الجثة ضد التيار.. قال العارفون إن النهر يطرح جثته شمال المكان الذى تغرق فيه وإن المراكب ذات القلاع هى فقط التى بمقدورها صعود النهر فإذا كان المنصور قد مات غريقا قبالة منوف وهذا طبيعى لرجل لا يستطيع المشى كثيرًا.. فقد كان من الطبيعى أن تظهر جثته شمال منوف فكيف إذًا ظهرت جنوبها وعند فيشا بالذات .. غمغم البعض متعجبين لتفاهة السؤال والسائلين أن رجلا قاوم المماليك والطاعون يستطيع أن يقاوم النيل ولو كان يغادر أراضى الكشوفية ففرد أشرعته وقلاعه يريد أن يصعد إلى القاهرة لغرض فى نفسه قد يكون زيارة السيدة زينب أو مجاورة سيدنا الحسين ولا شك أنه فعل .. بل إن الأمر قد خرج عن هذه الصورة فطالما أن رجلا صالحا قام على زيارة رئاسة الأولياء الصالحين وعلى رأسهم السيدة زينب بنت فاطمة بنت الرسول ﷺ فلا شك أنه بعد أن زار أهل القاهرة عاد صاعدا النهر ليزور السيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى ولما عاد فضل فيشا عن منوف ومن يقبل أن يجاور فى منوف أناس هم أبناء للشيطان والجان وإخوة السحرة الملعونين سواء أحياء أو أموات .. بلغ النبأ بدرية سريعا .. فأسرعت من فورها إلى أمها .. إنهمرا سويا فى بكاء ونحيب شديد ذكرى وعرفانا لعشرة طويلة الأمد مع رجل جعله القدر عاجزا قبل أوانه.. رويدا رويدا خف البكاء وبعد مرور أسبوع على دفنه فى مقبرة بمنوف أصبح الشغل الشاغل لجماعة من دهماء المجاذيب يحققون فى رؤيا لشيخهم ظهرت له فى المنام يوم موت المنصور. إن سيدى أحمد البدوى جاءه يخبره

t.me/qurssan

أن يقيم للغضبان مقام ولى وتساءل من يكون الغضبان هذا... وفى الليلة التالية جاءه سيدى أحمد البدوى ثانيًا وعاد عليه ما قاله له ثانية. فقام مصعوقا خائفا يخشى غضبه يحاول أن يفسر الرؤية .. وفى الليلة التالية جاءه هذه المرة سيدى إبراهيم الدسوقى حاملا سيفه البتار مهددا متوعدا وهو ينغزه به ويقول:

قم يـــا بن المـــهـــمـــين واخـــشى

فـــــــات أوان الخـــــــشى

ودع الـــغـــضـــبـــان بـــداره

يـــنـــام نـــومـــا هـــادئـــا

بـــســـيـــفى قـــام مـــقـــاتلا

كل دنـــيـم مـــفـــتـــرى

فـــإذا تـــأخـــرت فى نـــومك

جـــعـــلـــتك عـــبـــرة الأبـــد

أخبره أحدهم أن واحدًا فقط هو الذى استخدم سيف سيدى إبراهيم الدسوقى منذ خمسة عشر عامًا وهو المنصور فإن صح قولى يكون قد مات منذ ثلاثة أيام فبعث يسأل أعوانه فى منوف فعلم بما جرى للمنصور من أحداث وبلغه نبأ سفره لزيارة الأولياء وهو جثة غارقة فتأكدت الأخبار وبان المخفى والمستور من الأمور .. فشرع فى همة وحمية وفى كتمان وصمت حتى عن الأخيار كى لا يفسدوا الأحوال ببناء ضريح كبير ومقام فخم لسيدى ومولاى أحمد إبراهيم الغضبان.. وجاءه اسميه الأولين على اسم سيدى أحمد البدوى والثانى على اسم سيدى إبراهيم الدسوقى وسمى كذلك حتى لا يعبث المماليك بضريحه وكنى بالغضبان لأنه عاش طيلة حياته بالغضب ولم يمض عليه أسبوع حتى نقل الصوفية جثته ودفنوها فى الضريح الذى أقاموه له فلما انتهوا شاع بين الفلاحين سرا وفى القرى والكفور أن سيدى إبراهيم الغضبان قد طار من قبره فبنت له المسلمون من الجان ضريحًا ومقامًا بأمر سيدى أحمد البدوى وسيدى الدسوقى.

t.me/qurssan

وعندما ذهب البعض إلى قبر المنصور وجدوه خاليا فأيقنوا أنه طار ليلا إلى مثواه الأخير.

(٢)

تباطأت المركب فى المسير وأصبح التغير فى الطقس بين الشمال والجنوب واضحا سبح معلقا على صليبة وسط فيض متلاحق من رياح الشمال الباردة ... لم يكن هذا ليخفف من آلامه الجسدية والروحية.. إذ إن جسده المصلوب وروحه المتسائلة تخطتا حد السواء إلى عالم من التشوه لا رجعة فيه .. خاف أن يرفع رأسه ليواجه الشمس خوفه من العمى .. لو تنطفئ إلى الأبد .. إنها تهيج قروح جسده ووجهه .. ما باله صار ثقيلا وكأن صديد القروح المتكدسة على وجهه قد صار بسمك قيراطين .. ماء .. تشققات شفتى اللعينة فى حاجة إلى ماء.. نظر إلى هرم سقارة المدرج ... لم هذه القبور الوثنية وكيف كانت عبادتهم. لمن كانوا يتعبدون .. سارت المركب الهوينا تلتف فى طريقها حول الهرم بنعومة فائقة وهو شاخص ببصره إليه يشعر للمرة الأولى بطراوة الرياح .. هؤلاء الذين عاشوا على النيل لأى غرض صنعوه مدرجا. أو كانوا يريدون الصعود إلى السماء .. تالله إن الإنسان القصير هذا عجيب.. فى طول حياته لم يشعر عبد المحسن فى هذه اللحظة والتى انطوت على احترام بسيط لساكن هذه الأراضى القديمة لا يستند على أى شعور نحو هذه الأشياء الأعجوبة أو لصانعيها بالانتماء .. وسرعان ما غاب هذا الشعور فى لجة من الظلام والبوابة الكونية تغلق عليه يرتج الفضاء بصوت رتاجها وصرير سلاسلها وهى تضيق عليه تجعل من الفضاء الكونى والحياة الرحبة بئرا عميقة الهاوية شديدة الضيق يصعب عليه الحركة أو التنفس فيها فيلهث مجدفا فى الفضاء مختنقا يصرخ .. يا منطقى أين أنت .. كيف يتسنى للثلوج أن تسقط على وادى النيل. وتنتصب الجبال والهضاب على سهل الدلتا وتختلط الصخور الضخمة بطميها الأسمر واللسان الأعجمى بلغة القرآن وبأى شرح يحكم العبد الأحرار من أين جاء هذا من أين، وكيف نبتت بذرته الأولى... يا منطقى ... لقد رأيته رؤى العين تحدثت إليه .. الثالث المرفوع عديم النفس تناقض الحقائق متناقض الحقائق.. الكاذب الكاذب.. الذى هو وليس بهو.. المسلم الوثنى ... الثالث المرفوع .. الوليد المرعب المشوه .. ابن الرق وحكم الأجناس .. العبودية والسلطان .. الأرواح الهائمة الأشباح الوثنية التى قدمت لتحكم بلادنا ... دق جدار بئره بعنف وهو يصرخ بأعلى صوته يا منطقى ..

t.me/qurssan

كيف يتأتى أن يحكم الرقيق الأحرار كيف يتأتى أن يحكم الثالث المرفوع البلاد باسم الإسلام ... من أوصل المماليك وآل عثمان لسدة الخلافة.

أهو انتقام الموالى أم أن هذا أرث معاوية وإرث الذين قدموا له الأسانيد الشرعية لاغتصاب الخلافة ... انطوى على نفسه ساخطا ملقيا برأسه إلى أسفل .. كانت الفئران ترعى فى حبور على سطح المركب... غط فى نومه يحملها معه فى أحلامه.

* * *

(٣)

جاءت رياح الخماسين هذا العام عنيفة غاضبة وأمتلأ الفضاء فى أرض السدود التى تقع فى الجنوب الغربى لمدينة منوف بالغبار الشديد الوطأة. وأمامها اقتلعت الرياح عشش البوص التى كانت مخبأ للحرافيش والعكاريت والهاربين والتائهين والمشردين والشحاذين والقبط الفارين... وطوال ثلاثة أيام ظل عبد المحسن ورفاقه محصورين بالرياح المحملة بالرمال يريدون الفرار بأسرع ما يستطيعون تحسبا للمطاردة التى سوف يشنها خلفهم والى منوف قره زاده المجنون بعد أن علمت منوف سرقتهم لصندوق نذور ضريح الشيخ الغضبان مما جعل السنهورى يحترق غيظا حتى أنه أهدر دمهم جميعا... فى صباح اليوم الرابع صفا الجو وهبت مع الفجر نسمات الربيع الأولى طرية رطبة.. قام رضوان يتلمس طريقه خارجا لإحضار المياه وبعد خمسين خطوة أصابته ضربة قوية على أم رأسه وطعنة خنجر نافذة سقط بعدها طريح الأرض.. لحظات والتف حول جثته ثلاثون جوادا تحمل على ظهرها رجال قره زاده المجنون.. قفز عبد المحسن خارجًا من خص صغير شاهرا سيفه بيد وباليد الأخرى غدارة محشوة يريد الفرار .. وجد نفسه وحيدا تحيط به دائرة كاملة من ثلاثين فارس شاهرين غداراتهم وسيوفهم قال قره زاده - حسين أغا الأشقر يريدكم حيا فإن قاومتم ذنبكم على جنبكم ولد عكروت ... كل فارس مصاب ستموت فى مقابله مرة.

لم يجد عبد المحسن بدا من تسليم نفسه .. قيد بالحبال من عنقه ويديه بذيل أحد الجياد وسيق راكضها خلف طابور الفرسان الطويل مقبوضا عليه للمرة الأولى.

طوال ثلاثة أميال عبرها لاهثا .. ظل يفكر فى مصيره برعب. ووجه الأشقر يطل عليه ضاحكا.

... نظر أمامه .. رأى سورًا طويلاً غير مكتملة أطرافه يحد الأراضى الجنوبية لمنوف .. بوغت به عبد المحسن .. تساءل. ماذا يحد وراءه إن كان للأسوار معنى.

t.me/qurssan

وقف الفرسان أمام بوابة قوطية قديمة يحدها برجان ويحيط بها خنق عميق ويعلوها شعار (أنوك) على هيئة صولجان تاج.

نادى قره زاده الحرس فأنزل جسرا صغيرا للخندق وفتحت البوابة على مزلاجين خشبيين.

ظل يجرى مقيداً خلف موكب الفرسان، يصعد جبالا ثلجية ويهبط وديانا مغطاة بالعشب وعلى الأطراف يلمح خرافا ترعى وكهوفا مسكونة وجداول مملوءة بالدم وأشباحا ضخمة تتحرك ببطء بالغ فوق سيقان ضخمة فى حجم جذوع أشجار التوت العجوز وهم ينهنهون بلغة غير مفهومة ... أطلت قلعة الغرب .. نزل الفرسان عن خيولهم .. فكوا وثاقه.. دفعوه إلى درجات حجرية ودهاليز تمتد طويلاً حتى بلغ قبوا ترشح من جدرانه مياه لزجة وتشيع فيه الرطوبة.. سقط على الأرض منهكًا .. غمغم وهو يلمس بيده العظام البشرية المتناثرة فى المكان ... أنتم تلقون بى فى مقبرة.

لم يدر كم مر عليه من الزمن قبل أن يفتح عليه الحرس باب الزنزانة الحديدى يصعدون به إلى أعلى .. وجد نفسه فى قاعة مستطيلة صنعت جدرانها من الفسيفساء وأرضيتها من الرخام يتقاطع فيه الأبيض والأسود وتحيط بها عقود مدورة.

دار فى المكان متعجبا ومن شرفة القاعة امتدت أمامه أرض الغيلان .. وقرب سفوح الجبال شاهد ألسنة النيران تنعكس من داخل الكهوف قريبًا من قلعة الشرق تحيط بها المراعى الممتدة .. وإلى الغرب امتدت الغابات شاسعة .. غمغم وهو يستدير داخلا .. لم تكن هذه الأراضى والأشياء موجودة قبلا .. كأنها أرض الشيطان.

وكأنه استدعى الشيطان نفسه إذ برز له فجأة وفى نفس اللحظة حسين أغا الأشقر مكشرا يتدلى فكه بابتسامة الموتى يأخذ بعناقه.

- عبد المحسن .. صديقى. لقد عنفتهم كيف يعامل صديقى القديم هذه المعاملة .. قبو الزنازين .. صرخت فيهم عبد المحسن شيخ عظيم فى القبو والله هذه سفالة خنازير تيوس.. قل لى هل قتلت خادم الضريح ...

تراجع عبد المحسن غاضبًا.

- لا . لم أقتله.

- من قتله إذًا؟

t.me/qurssan

هز رأسه رافضا الحديث.

هز الأشقر هو الآخر متفهما.

- لا تريدون خيانة أصحابكم .. نحن نعرف من قتله .. صالح.

- أما سارق الصندوق فهو رضوان.

- نظر عبد المحسن إليه متوجسًا.

- كيف عرفتم حضرة جناب الأغا؟

- ها .. ها .. تذكر أنا مبارك .. مكشوف عنى الحجاب .. ها .. ها .. استطرد بجدية.

- لص عكروت وقاتل اعترفوا .. وغدا عصرا يعيدوا اعترافهم أمام قاضى المدينة شيخ عبد الحى نور الدين مال عليه بعينيه المتقدتين وهو يمسك بكتفه بشدة.

- نحن ننقذ عنقكم من مشنقة الشيخ السنهورى صديقى عبد المحسن.

قال عبد المحسن مندهشًا وهو يحاول التخلص من يد الأغا.

- رضوان قتل بالأمس.

- لص عكروت اعترف قبل أن يموت. فيه ثلاثين رجلا شهود عدل... هيه.

- من سيحاكم إذًا.

- صالح فقط... لم يقبض أولاد المتاعيس على أحد غيره.

شعر عبد المحسن بالارتياح يغمره.

- لن أحضر المحاكمة.

- سوف تشاهدها مختفيا خلف ستار .. توقف الأغا بغتة أمسك بكلتا كتفيه ... أخى وصديقى أنتم هنا فى قصركم وقصر أخيكم تأخذون راحتكم كيف ما شئتم .. اطمئنوا كثير.. أما أنا سأسقط عنكم تهم شيخ سنهورى وأثبت برائتكم .. والسلام.

تابعه عبد المحسن وهو يختفى عاقد الحاجبين منكمشن العينين ... لكن لماذا؟ ... غلبته الحيرة وهو يذرع القاعة جيئة وذهابا لا يدرى لشفقة الأغا واهتمامه سببًا .. أذن لصلاة لعصر يصاحبه صوت نفير النوبة التى اعتاد المماليك فى الدولة الأولى إطلاقها

t.me/qurssan

ميقاتا لكل صلاة .. قام للصلاة متعجبا لظهور مثل هذه العوايد القديمة.. وطوال العصر ظل يحول فى أرجاء المكان عابرًا فى غربة تعرجات الهضاب والجداول الصغيرة على مبعدة ثلاثة آلاف ذراع من القلعة شاهد صفوفا من الأبنية الضخمة .. مبنى الركاب خانة وجده مملوءًا عن آخره بعدد الخيل واللجم والكنابش والمراكيب .. اسطبلات الخيول تحوى المئات منها وخلفها شاهد مبنى السلاح خانة. دخله متسللا يعجب لضخامته يجوس خلاله آلوف من السيوف والخناجر والطبر والبلاطى والرماح والدبابيس والسهام والمقاليع .. وخلف مبنى السلاح خانة تسلل متخفيا يرى الأشباح الضخمة الثقيلة الحركة تعمل فى بناء الضبور والكبش ودبابات على عجل .. هتف مشدوها وهو يقف أمام إحدى القلاع المتحركة التى يبلغ ارتفاعها ستون قدما .. ماذا ينوى الأشقر فعله .. ومن فرجة فى الأمكنة التى يختفى خلفها شاهد ثلاثة منها تختفى وسط الغابات .. غمغم ليس لهذه القلاع سوى قلعة الجبل.. توقف مبهوتا وهو يرى السور يخترق الوادى قرب الأفق فاصلا بين الدلتا وأرض السحر.

* * *

طوال عودته شاهد على بوابة القصر وأسواره (آنوك) محفورا فى الأحجار وقد رسم عليه شعار الأشقر الصولجان والتاج.. عبر الدهاليز إلى حجرته وجد فى ركن منها فراشًا مصنوعا من فرو الغنم على أرض حجرية وآنية بها طعام ساخن.. التهم طعامه التهاما من شدة جوعه .. قام فأغلق الشرفات الزجاجية وعاد يتمدد منهكا على فراشه... غط فى نوم عميق .. قرب منتصف الليل شعر بنفسه ممددًا على طاولة خشبية يفوح منها نتن شديد وقد قيدت يداه وقدماه بفعل كابوس مخيف تملكه .. أحس بملابسه تمتص البلل الرطب الذى يتناثر على المنضدة .. حاول أن يرفع يديه وهو يعلم علم اليقين أنه تحت سيطرة كابوس صاح بأعلى صوته دون أن يخرج من فمه صوت ... أمه .. تعالو لى جاى .. رأى وجوهم البشعة تميل عليه شعر بالملمس اللزج لأياديهم تتحسسه وصوت السواطير التى تسن على حجرها البازلتى يتصاعد دويه فى أذنه وهو يدور معها حتى قذفته بعيدًا وعندما فتح عينيه قال هربت من كابوسى ... لكنه لم يكن خارج كابوسه .. إذ إن الأشباح ذات الأجساد الضخمة البطيئة الحركة بأرجلها ذات الشعر الأسود الكثيف كانت تدور حوله الآن ناجزة الأنياب..

صرخ كالمجنون دون صوت وذيولها تخرج كالحيات من مؤخراتها تلتف على يديه وساقيه .. غيلان .. تعالولى جاى .. غيلان.

t.me/qurssan

وبكل عزمه بسمل وهو ينقلب على جانبه الأيمن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. فانفك كابوسه .. استيقظ لاهثا .. وعندما جلس القرفصاء حدق لساعة فى النوافذ المفتوحة التى تعبث بها الرياح . استجمع كل شجاعته عندما قام ليغلقها .. شاهد جهة الغرب عشرات الكهوف المضاءة بالمشاعل ومواقد الحطب تدور حولها الأشباح الثقيلة المشوشة رءوسها .. باغته صوت بوق النوبة . كان الفجر قد أطل .. دهش وازداد عجبه وأخذ فى تلاوة آية الكرسى قبل أن ينزل إلى الخانقاه لصلاة الفجر وهناك وجد جمعًا ضخما من المتصوفة يتقدمهم الأشقر مستغرقا فى الصلاة ...

* * *

فى الضحى نودى على عبد المحسن فخرج متعجلا. وجد الأشقر ممتطيا جواده المطهم بالذهب والياقوت وخلفه قره زاده المجنون ومراد أغا وجمع من مقدمى الألوف. صاح به باشا.

- أمضيتم ليلة طيبة .. أومأ عبد المحسن برأسه.

- نعم يا سيدى.

- اليوم قبل أن نشهد حكم الشرع فى اللصوص .. ننزل للعب . أشار الأشقر إلى أمير خور - قدموا لصديقى جوادا .. كبكب الركب شرقا وعلى ساحة واسعة الأرجاء لعب الأغا ورجاله لعبة الكرة.. نادى مهتاجا يشعر بالسعادة - صديقى خذ عصا والعب معى .. قال عبد المحسن معتذرا:

- اعذرنى يا بك .. لم أمسك بعصا من قبل.

- هيه تتهربون شيخ عبد المحسن.

- أنا فلاح يا بك .. وأخشى الخطأ وأشار إلى جمع أمراء المماليك - فتتبعه الملامة.

- فلاح يجيد استخدام النبوت والسيف والغدارة. وشيخ أيضا .. ضحك ... يا شيخ عبدالمحسن .. هل نسيتم سفينة الغوانى وعشق النساء والجلوس أمام بوابة قصر السنهورى .. لم يكن هناك فرق بين فلاح ومملوك. قال عبد المحسن مداهنا.

- كان تواضعا وتفضلا من حضرتكم يا بك .. صرخ الأغا باهتياج بالغ وقد تدلى فكه مكشرا عن أنيابه.

- أووووووووو. كانت صرخته عنيفة توقف على أثرها الجميع .. نظر إليه عبد المحسن ممتقع الوجه.

t.me/qurssan

- لا نفاق عبد المحسن ... لا نفاق .. جئت بك هنا لأنك الوحيد الذى لم ينافقنى. أمسك بجبهته يعصرها.

- أنتم فلاحون تجيدون كل الأشكال ودروب النفاق .. الذل .. المسكنة.

- .....

- هز الأشقر رأسه قال:

معكم حق .. لا يجوز الجمع بين فلاح ومملوك إنما لك أنت فقط مكان فى قلبى .. آشار إليه عد أنت. عد أنت .. صرخ ملتفا إلى رفاق اللعب مندفعا على جواره إلى الساحة .. هيا..

- ٤ -

وصل الاغا دار القضاء يتقدمه دوى أربع طبول وعشرين نقارة وأربعين من الكوسات ونفير أربع زمارات .. ومقدمو الألوف وأمراء المئين .. وأمامه مباشرة رفرفت العصابة السلطانية المطرزة بالذهب وفى مقدمة القلب حيث كان الأشقر رفرف جاليش أبيض كبير به خصلة من الشعر ...

جىء بأعداد اللصوص والشطار فأقام القاضى عبد الحى نور الدين عليهم الحد وبتر السياف أيديهم وعندما جىء بصالح داهم عبد المحسن انقباض بالغ واعتصر قلبه حزن شديد وفى آخر الجمع وسط جمهور الحضور شاهد رجلين ملثمين ففطن إلى أن المرسى والمصيلحى حيان يرزقان. اعترف صالح بقتله خادم الضريح فقال الشيخ عبد الحى فلماذا أسر القتيل باسم عبد المحسن.

- لأنه آخر من رآه.

- فمن سرق صندوق النذور؟

- رضوان رحمه الله . أعقب ذلك وثيقة شهود عدل باعتراف رضوان بسرقته صندوق النذور. فلما انتهوا أعلن القاضى حكمه بقتل صالح فأخذه زاده المجنون قائلا:

- نحن ننفذ فيه حكم قضاء عالم.

شعر عبد المحسن بصدره ينقبض وقرى زاده يجذب صديقه مقيدا فى خشونة وغلظة..

t.me/qurssan

كان الهرب يدور فى رأسه لكن الأشقر أشار لفرسانه بإصبعه ناحيته فأحاطوا به ... ناداه قائلا:

والآن يا صديقى أريد منكم أمرًا.

- أى شىء يا بك ... ألا أستطيع الذهاب يوما على أن آتيك ... ضحك الأغا وهو يمد له يده. كى يركب.

- اتبعنى .. خير الأمور ما عجل بها ... هيا يا صديقى يا أخى اتبعنى ... فلما تيقن من امتطاء عبد المحسن جواده أطلق اللجام لاكزا خاصرة الجواد فانطلق يعدو سابقا الركب.. عندما نزلوا أمام بوابة قلعة الشرق مال الأشقر على عبد المحسن قائلا بابتسامة الموت الذئبية.

- لا تحاول التجوال خارجا .. يا صديقى .. وخاصة فى الليل .. وتركه صاعدا لأعلى.

* * *

قيد عبد المحسن إلى حجرة بالإيوان القبلى بقلعة الشرق، وأغلقت النوافذ بالمزاليج.. هذه المرة شاهد الكهوف المضاءة بالمشاعل قد أصبحت قريبة.. نام ليلته قلقا يغفو فيرى مئات الفيلان تطارده حتى تكاد تلامسه وهو يجرى على سطح من ألسنة اللهب بحثا عن الماء والجفاف يشتد به وتضيق عليه حرارة النيران وصوت يتابعه... إنها تأتى فى الجفاف.. تلك الفيلان تأتى وتكثر فى الجفاف وتقضى عليها وتذهب بها المياه.. فيستقظ مفزوعا يصغى السمع عسى أن يسمع شيئا ويفتش النظر فى المكان يشعر أن شخصا يقاسمه الغرفة.. ثم يغفو فتعاوده كوابيس المطاردة... هذه المرة كان الماء قريبا منه وظهرت له صفحة النيل على حد النظر لكنه كان عاجزا عن إدراكها والفيلان تحدق به من كل جانب... شد من عزيمته وأوسع خطاه وقفز لكن غولا أمسك به واحتضنه يضمه بشدة بساعدين فى حجم جذوع أشجار التين.. انتفض مذعورا وجسده يدمى دما.. سمع اصطكاك النوافذ خلفه استدار ما بوسعه قافزا النافذة المفتوحة.. جرى محاذرا باتجاه الكهوف والرغبة الملحة تدعوه لأن يعرف ما بها.. آتاه الصوت الخافت دماهات الطبول قادما من ناحيتها.. دار حول الغابة دورة واسعة معتليا الجبل حتى يتسنى له الاختفاء.. كانت الدمامات تسمع بوضوح وقد تحولت للهجات

t.me/qurssan

ولغات وألسنة مبتورة لأشتات من الأجناس المختلفة.. زحف فوق هضبة صخرية يطل عليهم من عل.. كان قريبا حتى آن آيا منهم كان يستطيع كشفه بسهولة لو نظر إلى أعلى.

هتف بصوت خافت ... الهول .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم .. الله أكبر الله أكبر قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.

كان أمامه المئات منهم .. غيلان بها سمات البشر وبشر تشوهت فصاروا على هيئة الغيلان يتحركون ببطء حول قدور ضخمة أوقدت تحتها النيران وقد امتلأت بالجثث البشرية ... وعلى الأطراف ألقيت أكوام من ملابس تشبه ملابس العسكر وسلاحهم وأدوات يستخدمها المماليك.. تساقط غبار وبقايا أحجار من تحته .. فرفع إليه البعض أنظارهم .. شاهدوه فقام مذعورا يجرى يسابق الريح وهم يلوحون بقبضاتهم ناحيته مهددين قافزين كالقرود.. بلغ قلعة الشرق وهم يطاردونه وقبل أن يطوله أحدهم قفز داخلا القصر وقد أمسك الرعب بخناقه. ظل يجرى محاولا أن يصل إلى غرفته دون جدوى وعندما بلغ به التعب مبلغة خمن أنه يجرى فى متاهة من المربعات المتشابكة تنتهى أضلاعها دوما إلى أبواب مغلقة لا يستطيع فتحها.. مرة واحدة اكتشف فيها أنها أبواب رسمت ببراعة على الجدران وأن الدهاليز التى دخلها لا تطل على منافذ .. سقط يلهث وكأنه صيد وقع فى شبكة الصياد.. لاح وجه سليمان المنطقى يعبر فضاء الدهاليز مما أشعره بالسكينة فغمغم له .. أشعر بأنى مجنون .. كيف تصير الأبواب حوائط .. وإذا كانت الأبواب حوائط فهل أنا بالداخل أم فى الخارج .. من يطرق الأبواب يريد الدخول يا منطقى ..إذًا أنا فى الخارج .. فإذا كان هو ليس هو فإنا هنا ولست هنا .. كان عقله يجرى .. إذا هو ليس هو فهو ليس بموجود ولكنه موجود.. موجود بين ماضيه وحاضره .. بين ظاهره وباطنه ... بين حياته وفقدان روحه .. فهو الثالث المرفوع حامل المتناقضات .. الكاذب والكاذب .. فأنا هنا ولست هنا .. وهو هو وليس هو تذكر - ولكن فى دار الشيطان .. فماذا كان حلمك يا قسطندى تذكر ... إذا فعل الشيطان شيئا فاجعله مقلوبا...

قام يجرى ... هذه الدهاليز قاعات وهذه الحوائط أبواب .. ارتج المكان وبدأ وكأن كل شىء يتحرك .. فإذا كنت أريد الخروج فلأدخل .. جرى رافعا يديه يدور حول نفسه

t.me/qurssan

كالمخبول بلغ الدهليز الأوسط وأسرع لمنتصف المكان ووقف .. ساد الهدوء تماما والجدران تتحرك تكشف عن إيوان دائرى متسع صنعت حوائطه وأرضيته من الرخام والمرمر تعلوه قبة عالية عقودها على أعمدة من الجرانيت وازدانت نوافذها بالزجاج الملون .. وفى وسط الإيوان نافورة لطيفة مياهها .. وفى صدرها درج يفضى إلى كرسى العرش المصنوع من الذهب والياقوت يعلوه شعار الأشقر الصولجان والتاج وفى صدر الإيوان شاهد كتابة واضحة (الإيوان الكبير) .. (مجلس مشورة السلطنة).

وعلى داير الإيوان عد عبد المحسن واحدًا وثلاثين مقعدا صنع من خشب الجوز المزخرف بالعاج والصدف.. فأما على كرسى العرش قرأ عبد المحسن «السلطان الأعظم والملك الأشرف العادل المئين المجاهد المظفر سيف الدنيا والدين صاحب القبلتين خادم الحرمين سلطان الأرض ذات الطول والعرض ظل الله فى الأرض محيى الخلافة المعظمة قسيم أمير أمير المؤمنين الحسين بن مصطفى إيداكش الأشقر» . جرى عبد المحسن مذهولا ممسكا برأسه فاتحا فاه من الدهشة قرأ على المقعد الأول اسم أتابك العسكر وعلى الثانى اسم الوزير ثم قرأ على أربعة كراسى أخرى أسامى قضاة المذاهب الأربعة عدا مذهب المالكية. لم يكن مكتوبا عليه اسم أحد وعلى الكرسى الواحد والثلاثين تراجع مبهورا وهو يقرأ اسم صاحب المقعد (الخليفة محمد ابن المتوكل بن العباس أحمد بن حسين بن أبى على بن الأمير حسن بن الرشيد بن المسترشد بن المستظهر الذى ينتسب إلى السفاح».

.... أشعر بأنى مجنون .. ما هذه الطلاسم والأسرار؟

كان واقفا خلف كرسى العرش أمامه يمتد الإيوان يشعر بالمقاعد تكاد تمتلىء بأصحابها يحيطها الضباب الملون يتدافع على هيئة موجات لطيفة تتخلله أضواء مبعثرة وهمهمات خافتة ما لبثت أن تمايزت وتحددت .. غمغم .. متى كان الأشقر سلطانا .. وكيف يكون محييا للخلافة.. وأين وجد هذا الخليفة الأضحوكة .. أهو زهو وخيلاء وسلطان أم تمهيدا للتمرد والاستقلال بالبلاد .. أشعر بأنى مجنون .. أخال بأنى لست وحيدًا فى المكان .. إنى على حد المكشوف والمستور .. المعلن والخفى .. الموجود والمعدوم .. الحقيقة والكذب .. نظر أمامه مبهوتا والضباب الملون يتشكل قبالته .. فى الجهة اليسرى على هيئة أربعة وعشرين أمير مئين وأتابكهم ووزيرهم كل على مقعده ..

t.me/qurssan

كان يراهم رؤية زائغ البصر مشوشى الشكل والهيئة يتحدثون ويتشاورون ويتصايحون فى جماعات.

- فإن أهم ما نتحدث فيه هو أرزاق الجند فجبى الأموال والفرد أول ما يهتم به الأمراء.

- إنما الأمر على خلاف ذلك. نحن وزير سلطان معظم نستعين بما جاء فى الروك الحسامى الذى شرعه السلطان لاجين.

قاطعة أحد أمراء المئين:

- ولما لا نستعين بالروك الناصرى الذى شرعه الناصر قلاوون ففيه قسمت البلاد أربعة عشر قيراطا لأمراء المماليك وتسعة للسلطان.

صاح الأمراء مؤيدين.

- نعم .. نعم .. على شريعة الناصر قلاوون.

قهقه الشبح الجالس على مقعد الأتابك.

- يا خوندات .. لا تستعجلوا أرزاقكم وأرزاق أجنادكم .. ولا نقول اليوم على شريعة الناصر قلاوون وكيف بيننا وعلى رءوس أشهادنا السلطان العادل الأشرف حسين .. غدا تتول له الدنيا وتسقط تحت أقدامه مشارف وأعلام الدولة العثمانية وعندها لن يقتسم خراج البلاد بين آل عثمان وأرض الحجاز وأمراء المماليك وإنما ستكون الأربعة والعشرون قيراطا كلها لنا .. الأمر على هذا الحال يجعلكم غاية فى الاطمئنان والسعادة.

تصايح الأمراء.

- نعم .. نعم على شريعة العادل حسين.

وقال البعض:

- فعلينا بناء أربعة شوان لزوم حصار عكا.

- لا يكفى عكا أقل من ثمانية شوانى ويزيد فقد مات على أسوارها على بك الكبير وتبعه محمد بك أبو الذهب.

... غمغم عبد المحسن كالمحصور والضباب يتلاشى وتضيع معه الصور والأشباح من

t.me/qurssan

جانب القاعة الأيسر وتبهت ويحل الصمت ... مالهم يعودون للسنن القديمة ويحلمون بأمجادها .. إنهم لعاجزون عن قتال أشباحهم. وعلى الجانب الآيمن انتشر الضباب الملون تتخلله همهمات عربية فصيحة وأخذ الضباب يتشكل فإذا بعشرة من العربان وجمع من القضاة والفقهاء يجلسون بين يدى رجل ضعيف البنية قصير القامة يرتدى عمامة سوداء.

- هل هو الإمام محمد بن أمير المؤمنين المتوكل بن العباس أحمد أبى القبى بن الرشيد بن المسترشد بن المستظهر الذى ينتسب للسفاح؟

أجاب العربان.

- نعم وشهد ذلك بالاستفاضة عن القاضى نور الدين بن حافظ الدمشقى .. وأقر هذا قاضى القضاة فحكم بصحة نسبه وقام يبايعه الخلافة على كتاب الله وسنة رسول الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ الأموال بحقها وصرفها فى مستحقها. وبين يدى الخليفة وقف القضاة الأربعة يبايعون وتبعهم أمراء المماليك .. أتابك العسكر .. الوزير.. أمراء المئين بمجلس المشور وكل يقول .. على سنة مولانا السلطان الظاهر بيبرس والناصر قلاوون.

دار عبد المحسن حول نفسه يراهم ويسمع أصواتهم وكان حاجزا من الزجاج يقف حائلا بينه وبينهم .. تلاشت الأصوات رويدا رويدا ليحل الصمت الطويل وتتبقى أشباحهم تتحرك وأفواههم تتحدث دون صوت..

- نحن نعيد العادات القديمة.

داهمته قشعريرة واستدار خلفه ينظر إلى مصدر الصوت .. رأى الاشقر يقف فى لباس العباسيين .. عمامة سوداء مذهبة وجبة سوداء من الحرير ودراعة بنفسجية وطوق وقيد من الذهب وسيف كتب عليه اسم أمير المؤمنين ابن الخطاب ... كرر الأشقر حديثه.

- نحن نعيد العادات والسنن القديمة.

- التى شرعها الظاهر بيبرس وصار عليها الناصر قلاوون .. لنا السلطنة والملك وعوائد البلاد ومالها وخراجها .. ولأبناء العباسيين الخلافة .. فنحن نقيمها ونعيدها لقريش وما كانت عليه منذ العهد الأول.

t.me/qurssan

- وآل عثمان.

- مغتصبو الخلافة .. فمن الذى شرعها لهم؟

- ومن الذى شرعها لكم؟

- إنما نعيدها لمنبتها فى قريش ولبيت آل النبى.. ألا نستأثر منك بالشكر

صاح عبد المحسن غاضبا.

- أنا أدرى ماذا فعل بيبرس بالخليفة المستنصر بالله . جهزه فى تلائمتة من الجند وأرسله ليقتله التتار بالعراق.. أما الناصر فقد سجن المستنصر بالله فى أحد أبراج القلعة اثنين وثلاثين عاما حبيسا منه لا يبرحه .. فلما مات وضع الواثق خليفة من بعده فسماه العامة بالمستعطى لسفالته وشحاذته ثم مال قريش بالخلافة فليس من الدين أو السنة أن تكون الخلافة لبيت أو قبيلة أو عنصر وإنما الأصل أن تكون صورة يتولاها العادل الأصلح. الورع التقى الذى يخاف الله. توقف برهة ثم قال:

- لماذا لا تكون أنت الخليفة...

شعر عبد المحسن بأنه قد أصاب منه مقتلا. احمرت عينا الاشقر وامتلأتا بالشرر قبض على سيفه وهو يرتعش يحاول أن يكبح غضبه وداخله ينتفض كالقابض على الجمر.. أعاد لوجهه ابتسامة الموت وعضلات وجهه لا تتوقف عن الارتعاش.. تذلى فكه الذنبى واتسعت ابتسامة الموت .. هز رأسه .. يا صديقى نحن أسقطنا عنك تهمتى القتل والسرقة وأنقذناكم من براثن شيخ سنهورى وبقيت تهمة استعمال مال مسروق.. وأمامكم منصبان وأشار نحو مقعد خلفه وقال: كاتم السر .. وأشار ناحية المقعد الشاغر بين قضاة المذاهب: قاضى المالكية.

- أنا شافعى .. قالها وكأنه نائم مذهول. أخفى وميض عينيه وهو يفكر كيف لرقيق بيع واشترى أن يصطنع خليفة قرشى.

قال الأشقر:

- لتكن مالكى.. ما الفرق .. كلنا مسلمين .. اختر لكم مقعدا يكتب اسمكم عليه.

t.me/qurssan

نظر الأشقر بعينيه الميتتين فى عينى عبد المحسن قابضا على ساعده .. كان سابحا فى غيبوبة. سمعه يغمغم بصوت هامس يتذكر كهوف الغيلان.. نعود لسنن قديمة لا تزر ولا تزر .. موتى تمسك بموتى وقديم لا يقيم..

كان الأشقر يغرز أظافره على ساعده بقبضة كالحديد.. انسال الدم وسط البخار وعبد المحسن عنه لاه هزه الأشقر بعنف حتى أفاق فلما التقت عيناهما سأله عبد المحسن.

- وأين نصيب أبناء البلاد، هز الأشقر كتفيه وفى عينيه استغراب.

- وهل لأبناء البلاد نصيب.. نعم .. نعم لكم الأزهر والقضاء والفتوى .. أشار ناحية المقعدين بنفاذ صبر .. اختر أحدهما ينقش اسمك عليه ..

- وإن رفضت..

تصلب الأشقر متوقفا والصمت يحول بينهما وقد تغضن وجهه من الغضب.. قال فى اكتئاب.

- أطيع ولو ولى عليكم عبدًا حبشيًا .. نظر عبد المحسن إلى عينى الأشقر متقد الوجه يتحدث فى صرامة.

- سيدى .. أنت لم تولى بعد ..

تلاشت قبضة الأشقر شيئًا فشيئًا .. كان كل شىء يغيب .. المقاعد الأمراء .. الخليفة. الضباب القبة الإيوان .. الدهاليز.. قلعة الشرق.. وصوت الأشقر يحدثه.

- أعطيك روحك لأنك أنقذت روحى مرتين .. مرة فى قلعة إيداكش ومرة على أبواب منوف .. هز عبد المحسن رأسه فى صمت .. ليس لديك شىء على .. ولكنى أنفيك عن منوف فارحل بعيدًا ولا تعد إليها وإلا جعلت منك عبرة لمن لا يعتبر .. هل تذكر المنصور.. والآن أسرع بالهرب فإن لم تغادر أرضى فى نصف ساعة فسأطلق خلفك شياطين الجحيم.

t.me/qurssan

الفصل الحادى عشر

- ١ -

بلغ عبد المحسن قرية البيشة مع خيوط ضوء الصباح الأولى.. وفى مرسى القرية صعد إلى إحدى المراكب الصاعدة إلى القاهرة قرب الضحى.. تمدد نائمًا من شدة التعب على ظهر المركب وعندما استيقظ كانت المركب موشكة على الرحيل.. ومن بعيد لمح غباراً وسمع صوتا ينادى باسمه تطلع ناحية الصوت شاهد أخته تندفع نحوه لا تتوقف عن البكاء وهى تصرخ أمها وولديها الصغيرين.. وبصعوبة استطاع أن يسمع قصتها من خلال بكائها وعويلها الشديدين إذ إن إحدى جوارى الأميرة شريفة السود جاءت فى طلب أمها لولادة عاجلة فذهبت معها هى والطفلان الصغيران ولم تعد منذ ثلاثة أيام.. وعندما ذهبت تبحث عنهم ضربوها وكادوا أن يفتكوا بها لولا عجوز جذبتها بعيدا تنصحها أن تهرب وإلا فإنها سترسل إلى أوغلى الأميرة شريفة قره زاده أحمد المجنون والى المدينة حيث تنال مصير أمها.

قفز عبد المحسن إلى قمرة المركب يجمع أغراضه كالمجنون عائدًا إلى البر وهو يتخلص من أيدى المراكبية الذين سمعوا القصة..

فى الهزيع الأخير من الليل قفز ملثمان على خص صغير جلس فيه حارسان توسد أحدهما الأرض وهو يغط فى نوم عميق بينما جلس الآخر يدفئ نفسه من برد الشتاء.. شعر بحركة خلفه فأدار رأسه وقبل أن ينطق طعنه أحدهما فسقط صريعا. أما الحارس الآخر فقد جزت رأسه وهو لا يزال نائمًا.. نائم..

انطلق عواء ذئب صغير فى الفضاء.. فقفز السور ستة من الملثمين اتخذوا طريقهم

t.me/qurssan

إلى مخدع قره زاده المجنون.. قام مذعورًا ونصل سيف حاد يجز فى عنقه.. إلى القبو.. هبط مرتعشا يقودهما..

وعبر باب ضيقة كانت رائحة حمض الخل والشمع النتن تملأ المكان.. أشعل المرسى مشعلا فكشف الضوء عن قبو ممتلئ عن آخره بالقدور الضخمة.. دار عبد المحسن يبحث فى الأنحاء دون أن يعثر على شىء.. صرخ بقره زاده.. أين هم.. قال مرتعشا:

- مين؟

- قتلاك.. .... صرخ :

- أنا.. نشهد الله ورسوله أن يدى ما تلوثت بدم أحد.. أنا راجل مؤمن نعرف القرآن.. ونصلى الأوقات الخمسة ونعطى الزكاة للمحتاجين والمحرومين.. نظر الشيخ المرسى إليه شذرا: - وتأكلون الناس جيفة. وضرب بمقبض سيفه إحدى القدور فتمايلت يمنة ويسرة ثم سقطت على جانب تتدلى منها أذرع وأرجل آدمية خضراء جف جلدها وحولها تساقط سائل ملحى غليظ.. أصابتهم رعدة وطقطقت شعور رءوسهم.. طال السكون من الرعب ثم اندفعوا جميعا إلى القدور يقلبونها إلى أسفل.. كانت ممتلئة بقطع اللحم البشرية.. سيقان وأذرع وأفخاذ وصدور تتدلى من بعضها نهود جفت تبرز منها حلمات أنثوية منتفخة.. صاح المصيلحى:

- دول مخللين البنى آدمين يا وله.. يانهار أسود.. جرى لباب خلفى فتحه ووقف لبرهة ثم سقط مغشيا عليه.. وعندما تدافع نحوه الآخرون.. وقفوا فى ذهول وتراجع اثنان منهم يقيئون ويفرغون ما فى جوفهم.. دخل عبد المحسن وهو يرتعش فى الوقت الذى كان فيه قره زاده يتسلل هاربًا وأمامه امتدت أربع مناضد خشبية ترطب سطحها ببرك الدم المختر.. وقد تمددت فوقها جثث عارية لضحايا أخرجت أحشاؤها.. وألقيت إلى أربعة كلاب متوحشة حبست فى زنزانة.. وخلف المناضد كانت هناك كومة من الضحايا.. شاهد عبد المحسن أمه جثة عجفاء مقطعة الأطراف فارغة البطن..... فطن أحدهم لهرب قره زاده فألح عليهم بالإسراع فى الهرب.. حمل عبد المحسن أمه بين يديه بعد أن غطاها أحدهم بثوبه ونهر الدموع ينسال من عينيه.. عبروا الردهة الخارجية ورفاقه يدفعونه دفعا للهرب.. تصاعدت أصوات الحرس قادمة من جهة القلق.. قفزوا السور تحت جنح الظلام وتسللوا خارج المدينة عائدين إلى أرض

t.me/qurssan

السدود.. اخترقوا أكمة طويلة من البوص حتى انكشف المكان عن هضبة تمتد لمساحة واسعة وفى وسطها امتد درب طويل كانوا يسمونه درب الوسطانى وبجوار بئر ماء عميقة بنوا وكرهم الصغير دفن عبد المحسن أمه بعدها فقط انطلق يعوى فى بكاء أليم وهو يقسم على الانتقام.. قاموا على عجل بعد أن قرءوا آيات من الذكر الحكيم وانطلقوا إلى طملاى خوفا من مطاردة قره زاده..

نزلوا منوف فى يوم السوق.. كانت المجاعة تسيطر على حركة البيع والشراء.. عسكر كثير وأعداد صغيرة من بائعى الدريسة والتبن وعلى فرس ضخم ظهر قره زاده يجوب السوق وحوله ثلة من الجند يسوط هذا وذاك. يحطم جواده الأوانى الفخارية ويعبث بالسلع الصغيرة والمشنات التى يحاول أصحابها أن يبيعوها لقاء الخبز.. وطيلة الوقت ظل الرجال الملثمون يتابعونه من بعيد والوقت يمر ببطء وقبل المغرب بساعة وقف الوالى أمام حانوت السيد البقلى الذى اجتمع حوله حشد ضخم من الرجال والنساء والأطفال يتقاتلون على شراء كناسة التبن بمائة نصف فضة بعد أن كان ثمنها لا يزيد على خمسة أنصاف فضة.. نزل قره زاده فدفع البقلى الفلاحين بعيداً وهو يخرج مندفعاً هاشًا باشا يستقبل والى المدينة وخلفه ثلاثة جوالات من القمح يحملها أعوانه وهو يكظم غيظه ليأخذها أتباع الأغا على داره.. عاد التزاحم ثانية عندما تقدم أحد الملثمين وهو يصيح صانعا ضجة هائلة حتى بلغ قره زاده فانحنى عليه يقبل قدمه وهو يصيح به يرجوه أن يتوسط له لدى التاجر كى يعطيه جوالا من القمح فأبعده الأغا وأشاح عنه لكن المرسى أصر على طلبه وانحنى يقبل قدمه ثانية يلح ويرجو وهو يبكى فقام الأغا يضربه فسقط المرسى على الأرض منتحيا إلى ركن وقد سقط منه عقد من اللؤلؤ فجذبه المرسى مسرعاً ولكن بالقدر الذى جعل الأغا يراه.. مد الأغا يده قابضا على العقد بقوة.. همس المرسى القمح يا أغا.. صاح قره زاده بالبقلى.. أعطه كيلتى قمح.. قال المرسى جوال من القمح.. صاح الأغا بالبقلى.. اجعله أربع كيلات من القمح.. نظر إليهما البقلى مندهشا:-

لكن صرخة أخرى من الأغا جعلته يلقى بالقمح المطلوب لمرسى.. ترك المرسى العقد للأغا هابطا على قدميه يقبلها والأغا يتخلص منه بخشونة. لكنه سمعه يقول إذا أراد مولايا وسيدى عقداً أجمل أنا أعطيه له.. همس الأغا بجشع شديد.. أين ولد.. أشار المرسى إلى دار قريبه ثم رحل حاملا قمحه.. تبعه الأغا حتى دخل عطفة صغيرة

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
تحسس العقد حتى يتأكد من قيمته فلما تأكد من أصالته قام خلفه على قدميه تاركا جواده وعندما بلغها شاهد المرسى وهو يتحرك بعيداً تابعه يمشى فى حارات ضيقة تساقطت على جانبيها الأجساد المنهكة لأطفال على وشك الموت وقد تناثرت على جانبى الطرقات أكوام عظام الحمير والكلاب والقطط التى يعيش الناس على أكلها منذ سبعة أسابيع خلت..

دخل المرسى سقيفه وهو ينظر فى الدرب بتواطؤ. وبعد فترة قصيرة دلف خلفه قره زاده أحمد المجنون.. فوجئ أمامه بالوجه الذى هاجمه على فراشه منذ أيام قليلة دار حول نفسه عائداً محاولا الهرب إلى الطريق. أسرع عبد المحسن قافزاً أمامه جاذبا إياه إلى الأسفل. ـ صرخ الأغا.. ولد عبد المحسن حسين أغا الأشقر يبحث عنكم لعدم تنفيذكم أوامره بأن لاتعودوا إلى منوف.. اسمع ولد أنتم تتركونى وشأنى وأنا أهربكم إلى خارج منوف. كان عبد المحسن يموج بفورة الغضب.. دفعه إلى الخارج صارخا والأغا يطلب النجدة وحولهم تجمع جمع كثيف من الجوعى..

وعندما أدرك أن أحداً من جنده لن يسمعه هبط على قدمى عبد المحسن يستعطفه والجوعى يتقاتلون على ملابسه يخلعونها عنه ويخطفونها فى قسوة.. حتى صار عاريا كما ولدته أمه.. بهت الجميع عندما وجدوه خصيا.. قام يجرى كالمجنون يطارده الأطفال والنساء والرجال الجوعى ويسدوا عليه الطرقات وقد خيم عليهم الصمت.. كانوا يطبقون الحركة حوله.. سقط على الأرض.. رفع رأسه كان أمامه عبد المحسن حاملاً بلطة تنعكس أشعة الشمس على شفرتها الحادة فاندفع نحوه يستعطفه يرجوه الرحمة

ـ ليس أنا حضرة عبد المحسن.. إنها شريفة هى التى أحضرت أمكم المصونة وأخذت الطفلين وأرسلتها لى مقتولة.

صرخ عبد المحسن ـ شريفة من . قال الرجل.. مستغربا

ـ الأميرة شريفة زوجة سنجق دار المديرية حسين أغا الأشقر. ركله عبد المحسن بعيداً فارتكن بظهره على جدار قريب كاشفا عن جثته الضخمة ولحمه الطرى وقد زاد الخوف بياض بشرته الناصع احمرارا.. رفع عبد المحسن بلطته ثم هوى بقوة فجز الكتف الأيسر بجوار العنق مباشرة. ـ انسال الدم بطيئا ثم ما لبث أن اندفع كالنافورة.. نظر المملوك لا يدرى ماذا يحدث وهو يرى عبد المحسن يهبط ببلطته يجز كتفه الأيمن

t.me/qurssan

بعنف. عاد الدم ينزف ثانية. وبجهد جهيد منع عبد المحسن نفسه من ان يستجيب لرجاء الأغا واستعطافه له بأن يطيح برأسه.. وكمن يزيح جبلا أزاح عبد المحسن يده وهو يهبط ليطيح بساقيه وتوقف ينظر إليه.. كان غارقا فى بركة الدم الثخين ويداه تتحركان فى كل الأنحاء.. تراجع عبد المحسن مبتعداً إلى الخلف نظر حوله فشاهد التوتر الذى يسود الجميع الصامت حوله. كانوا يسألونه بعيونهم فى نهم إن كان قد انتهى منه.. أدار رأسه جانبا وهو يبتعد عن المكان قائلاً بصوت خفيض:

ـ.. لحم أبيض.. إنه لكم ورحل بعيداً.

لمح الأغا وإلى المدينة مئات العيون والنصال الصغيرة تندفع نحوه يحاول كل منها القتال على قطعة من لحمه الشهى. سمع عبد المحسن صرخة داوية تأتى من خلفه:

ـ أيها الملعون.. أشاح بيده غير مهتم وهو يسمع أخرى أخف منها.. ثم عادت لتصدر فى تأوهات قصيرة وأنات ضعيفة تعبة.

* * *

قبل أقول الشمس أحنى فتى فى الحادية عشرة من عمره رأسه وغمرها بالتراب أمام جمع من فرسان المماليك.. صرخ لاطما وجهه وهو يشير ناحية درب المكارين.. إنهم يقتلون الوالى.. تركهم جريا وهو يثير بقيتهم ثم اختفى.. ولمدة نصف الساعة كانت طرقات ودروب منوف تنهب نهبا تحت ضربات الخيل باتجاه درب المكارين.. جرى الأشقر لاهثا وهو يخطف أسلحته قافزا على جواده هو الآخر.. حتى خلا الطرف الشرقى للمدينة والذى يقع فيه قصر دار السبيل وقلعة إيداكش من المماليك تماماً. لحظة أن غابت الشمس مباشرة وعلى بقايا ضوئها الأحمر الشفقى برزت على أسوار القلعة عشرون رأسا ملثمة.. قفز الرجال الملثمون واحداً بعد الآخر وانطلقوا يعدون متفرقين فى طرقات القصر..

كان عبد المحسن يجرى كالمجنون كاشفا عن وجهه لا يحمل فى يده شيئًا.. يسوق أمامه جارية تدله على مخدع الأميرة.. دفع باب المخدع بعنف. كاد أن يقتلعه من مصراعيه.. وفى قاعة النوم الكبيرة كانت الأميرة شريفة مستلقية على ظهرها وقد انتفخ بطنها بحملها وساحراتها الحبشيات الثلاث يحطن بها بشعورهن المجعدة تفوح منها رائحة عفنة وهن يغمسن أصابعهن بنخاع الأطفال..

t.me/qurssan

استقامت من فراشها رافعه جذعها تنظر إلى الوحش الهائج المندفع تجاهها. مدت يدها دون وعى تحمى بطنها.. دار عبد المحسن بعذاب مجنون باحثًا عن شىءيقتلها به فى اللحظة التى دخلت فيها جارية حاملة مسرجة تضئىءها مشاعل القصر.. خطف مشعلا وأوقده فى لمح البصر من مسرجة الجارية واستدار ناحية فراش الأميرة.. قامت تحاول الهبوط من الفراش.. تعثرت فى ردائها.. رأته قادما نحوها.. صرخت باكية:

- لا.. لا.. إننى.. إننى.... كان المشعل قد سقط فوق الفراش وعلى امتداد القاعة كان عبد المحسن يدور يشعلها بالنيران وهى تصرخ..

- لا.. لا إننى.. كانت تريد أن تقول له إننى حامل سألد صبيا.. وسوف أجعل منه ملكا على البلاد.. ملكا يورث ملكه.. سيكون نسبه الشريف سببا فى حصوله عُلى الملك.. لكنها لم تنطق بأية كلمة من هذا وهى تراه وسط النيران يطيح برءوس ساحراتها الثلاث.. ثم يتركها خارجا.. زحفت تحاول الهرب لكنه أغلق الباب بمصراعيه من الخارج... جرى خارجا وعندما قفز من فوق الأسوار كانت القلعة التى بناها إيداكش لتحقيق أحلام زوجته الأميرة شريفة تتهاوى.. تنهار كأنها تموت معها.

مر وقت طويل قبل أن يكتشف الأشقر ما يجرى لامرأته.. وقرب الفجر تمكن الأشقر من إطفاء الحريق وعندما دخل على زوجته وجدها متفحمة.. كومة من العظام السوداء خلف الباب.

كان جنون الأشقر طاغيا.. مستبدا بذاته.. يضحك ويبكى وهو يصر على أسنانه لا ينسى أنه قد استطاع يومًا أن يورث امرأة بذرة تعطيه أطفالا.. فى صباح اليوم التالى خرج خلف عبد المحسن.. كان يعلم أنه قد دخل أرض السحر التى صنعها.. لكن عبد المحسن كان قد خرج منها مسرعا هو وأتباعه إلى أرض السدود صاعدًا إلى الشمال ثانية.. وقرب قويسنا افترق عبد المحسن عن رفاقه الذين عبروا النهر الدمياطى باتجاه بلبيس متقدمين الأشقر باتجاه الشام بيوم وليلة والأشقر كارها يطاردهم كالمجنون.. أما عبد المحسن فقد صعد إلى طنطا ليلتقى بزاهية فى دمنهور عند عربان البحيرة.. وبينما كان عبد المحسن يعبر القاهرة مختفيا فى زى إعرابى مع زاهية هابطًا إلى الصعيد الأعلى كان الأشقر يضرب أجنابه ووجهه ورأسه يبكى كطفل يريد أن يمزق عفريتا صغيرًا تافهًا يهرب منه ساخرًا مستهزئًا به فيخرج زاعقا فى الفضاء يفرج عن

t.me/qurssan

اختناقه بعواطف عواطف الغضب المهلكة. ثم ينطلق يعدو كالمجنون فى أرجاء البلاد باحثًا عن غريمه قاتل زوجته وسارق صندوق النذور.. وبعد ثلاثة أشهر عاد الأشقر يخفى حنينًا.. دخل منوف ليلا منكس الرأس يتقدم جنوده فى طابور طويل.. على مدخل أحد الدروب سمع حركة عابرة فانتفض بعصبية مرعبة شاهرًا سيفه ومال جاذبا عنان جواده ناحية مصدر الحركة.. وهو يصرخ:

- اللص الملعون.. وقبل أن يندفع إليه.. اندفع خارجًا قط شرس.. فاندفع يطارده وهو يصرخ:

- إنه يتحول إلى قط.. الملعون سوف أحرق روحك.. واختفى القط فى الظلام.. والأشقر يضحك فى جنون.. صارخًا:

- شيطان يطارد شيطانًا.

-٢-

فى أواخر أكتوبر عاد السنهورى من الديار العثمانية، فلم يجد بدرية فى قصره ببركة الفيل، وبينما كان منهمكا فى استقبال الزائرين الذين قدموا لتحيته بعد عودته سالما والتباحث فى شئونهم وأشغالهم، كان يتنسم فى عين كل قادم منهم وفى لسانه أية إيماءة أو كلمة تنقذه من قلقه.

أرسل فى طلبهما ولكن أمها صديقة بعثت تقول له.. إنها متعبة من جو مصر وأن هواها يأتى على الريف.. فلعب به القلق وأمسك الخوف بتلابيبه وصار يؤجل عودته إلى منوف رغم حاجته الماسة للاطمئنان على أطيانه وحال الزراعة بها وشئون كثار. وأخيرًا عزم على السفر إلى منوف وعندما دخل قصره لم يجد فى استقباله لا بدرية ولا صديقة.

أمضى المساء فى استقبال زائريه من أعيان منوف وتجارها ومشايخها.. وبعد صلاة العشاء استقبل حسين أغا الأشقر سنجق المديرية الذى جاءه حزينًا فعزاه الشيخ السنهورى وواساه فى مصرع زوجته الأميرة شريفة بيد عبد المحسن.. فأقسم الأشقر على يديه بأن يجعل من صديقه القديم أمثولة تتحدث بها البلاد طولا وعرضا. غمغم السنهورى :

- إن لى فيه ثأرا فافعل به ما شئت..

فى آخر الليل طرق أتباعه من الخدم باب صديقة حاملين هدايا الشيخ.. وفى الصباح وجدها تقف على باب خلوته كلبؤة مفترسة.. ردد.. وأين هى؟

t.me/qurssan

ـ وعايز منها إيه؟...

ـ عايز أشوفهه.

ـ مش هتشوفهه.. هيه.

ـ دا انا أبوها.

ـ هيه مش محتاجة أب.. هيه محتاجة زوج... نظرت إليه باشمئزاز .

ـ بدرية حامل عرفت بقه... اتجوزها يامولانا.. غمغم .

ـ وليه يا صديقة.

ـ والله أنا بتعجب لو معملتهاش... قال بصوت كالفحيح:

ـ بطلى تخريف يا بنت المركوب.

ـ وحخرف ليه إذا كانت حامل فى شهر.

ـ ومين هوه.. استطرد بغضب وعيناه تشعان بالانتقام:

ـ ابن الكلب محمد أبو الفضل ولا مين... نظرت إليه فى شماتة.. مش مهم مين المهم فى إللى وصلها الحال ده.. فى إللى سبها تتعشم فى الجواز بيه وهوه محرم عليها.. سابت الدنيا كلها.. الشيخ محمد أبو الفضل وأخوه حامد وعبد المحسن ابن خالتها والسيد حسن البقلى شهبندر تجار منوف وأفندى الروزمانة.. طبعًا! مش اتعشمت باللى ما فيش زيه.. وفى لحظة يخونها الزمان كله مرتين لما تعرف إنك أبوها.. سرقت منها عمرها إللى فات.. وسرقت منها حلمها إللى جاى.. إنت قتلتها مرتين.

فى بحر من العرق والخجل غمغم..

ـ طلبك إيه يا صديقة؟.. سقطت على أقدامه تقبلها وهى تبكى رجاء وتوسلا..

ـ زوجها البقلى.. وريحنى وريحنا الله يريحك.

فى صمت هز رأسه موافقا وقام خارجا وهو فى عجلة من أمره.

* * *

t.me/qurssan

فى يوم خريفى خرج ركب صغير اقتصر على النساء والعجائز يتقدمه هودج على جمل يحيط به جمع من أعيان منوف والشيخ السنهورى.. وانطلقوا على عجل من قصر السنهورى إلى دار السيد حسن البقلى.. نزلت العروس الصغيرة التى لم تبلغ بعد السادسة عشرة من الهودج تدور بعينيها تحت النقاب وقد هرع رجل فى السادسة والأربعين من عمره يتقدمه كرشه الضخم مرتديا جبة من القماش الفاخر وعباءة ثمينة من طشقند وعلى رأسه عمامة خضراء يستقبلها بلهفة وقلق لا يخفيهما وجهه المتجهم.. وفى الحجرة التى جهزت للعروس جلست بدريه وبجوارها ماشطتها التى جلست القرفصاء تستجمع كل مهارتها للحظات الحرجة القادمة.. اخترق البقلى جمع النسوة ونساؤه الثلاث وبناته وأخواته ينظرون ناحيته ويتابعنه بوجه عبوس.. أغلق الباب خلفه وبقى الجمع فى تحفز وقلق. لم تمض برهة حتى خرجت الماشطة وقد رفعت خرقه بيضاء نظيفة وبوسطها بقعة كبيرة من الدم الأحمر القانى.. خطفتها خضرة ابنة خالتها توحيده وانطلقت بها خارج الدار تحيط بها الزغاريد والأغانى.. وكان أعلاها زغاريد صديقة التى انغمست فى الفرحة والحمس وكأن هذا الدم هو فض بكارة ابنتها الحقيقى.

بعد أشهر سبعة جاء بدرية المخاض. أنجبت ولدًا جميلاً أشقر الوجه.. وعندما رآه أبوه على هذه الشاكلة غمغم قائلاً والفرح يغمره، وبدرية تأتى له بأول مولود ذكر رغم زيجاته الثلاث السابقة:

- حتسميه إيه يا حاج؟ غمغم.. رحم الله أخى رضوان مات ولم يترك له أثرًا وسيكون اسمه رضوان بمشيئة الله..

فى اليوم السابع لميلاد الطفل الصغير أرسل السنهورى كيسا من الذهب لابنته وجاءت صديقة لزيارة ابنتها وكانت ترتدى الملابس البيضاء تغطى رأسها وتخفى وجهها خلف نقاب أبيض.. كانت قد انتقلت من قصر السنهورى بعد زواج ابنتها إلى مقام زوجها المنصور تعيش من عطايا وهبات وندور الناس من الموسرين والبسطاء وقد نذرت نفسها على خدمته ميتا بعد أن خذلته حيا.

ولم يمض عام آخر حتى أنجبت بدرية للبقلى طفلاً آخر جميلا أسمر البشرة واضح القسمات أسماه أبوه عبد القادر.

* * *

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثانى عشر

عاود عبد المحسن الألم وهو مشدود على صارى المركب بعد أن تمددت الحبال التى تربط المقعدة التى صنعها له النوتى العجوز.. فكر وهو يبكى من شدة الألم الذى ينبعث من أوتار مفاصلة وعموده الفقرى..

- أين أنت أيها العجوز.. إنسًا كنت أم ملاكًا. أين أنت.. تعال بحق جاه النبى.. قطرة ماء يا رجل.. قطرة.. ماء.. هل كان لك وجود منذ البداية أم أنك أضغاث أوهام صنعتها مخيلتى التى تموت الآن وحيدة فى سهول الصمت.. حاد برأسه مغمضا عينيه متحاشيا وهج الشمس وقد انتفخ وجهه من القروح.. شعر ببلل ينثال من خده الأيمن.. مد لسانه يلعقه من العطش فلسعه طعم المرارة الشديدة للصديد الذى لعقه من قروح وجهه.. تغله مستغربا.. ماذا يكون هذا الذى لا يستطيع رؤيته.. فتح عينيه ناظرًا للأمام يمسح ضفتى الوادى.. شاهد الجسور التى أعدت لاستقبال الفيضان وقد اكتنفها السكون والفراغ ورائحة الموت تنتشر فى الأرجاء.. قبالته برز شراع سفينة تصعد النهر تتناثر على سطحها جثث ملاحيها وقد انتفخت بفعل حرارة الشمس.. عوت معدته الخاوية رغبة فى القىء ومن بعيد برز على صفحة النهر حشد من المراكب المشرعة قلاعها..حفت بجوارها مباشرة ثلاثة مراكب يسكنها شبح الموت.. ملأ ناظره.. رأى الجثث التى انفجرت أحشاؤها تقفز فوقها الفئران وتنثال منها جداول الصديد الأصفر. لمحها تتحرك.. خمن أنها ديدان.. لفحته رائحتها فلم يستطع أن يمسك نفسه. شعر بجدار معدته الخاوية تماما ينطبق بداخله ثم ينخلع دافعا بسائل أصفر إلى فمه.. كاد حلقه كله أن ينخلع إلى الخارج وأنفاسه تختنق حتى شعر بأن روحه سوف تخرج

t.me/qurssan

PDF Compressor Free Version
هذه المرة.. فجاءة شعر بصدمة هزته بعنف.. كانت المركب الرابعة قد اصطدمت بمقدمة المركب.. تمايل مصراع السفينة وأخذ صاريها جهة اليمين حتى خال بأن المركب ستقلب به.. شعر بأنسجة جسده تتمزق. جأر من الألم وصرخ صرخة داوية وهو يستدير مع المركب تلف حول نفسها نصف دورة مبتعدة عشرين ذراعا عن مقدمة المركب التى صدمتها.. وقبل أن تستقر أصابت مؤخرتها مقدمة المركب الخامسة.. جأر ثانية وعضلاته تنخلع مع اهتزازات المركب المتوالية قبل أن تعود إلى اتجاهها القديم.. تصاعد صراخ النوتية وانطلقوا يجرون على سطح المركب فى جميع الاتجاهات قبل أن تستقر ثانية مندفعة إلى الشمال عابرة دغل الموت الصاعد على صفحة النهر.

سارت المركب طويلاً وفى مدى البصر لم يكن يقابله على ضفة الوادى وصفحة النهر سوى الجثث المنتفخة حتى خال نفسه قد صار الوحيد الباقى والفئران.

عما قليل سأموت أنا الآخر للعطش أو الجوع أو لنفس السبب الذى تتساقط له الجثث الملقاة فى الأنحاء تملؤها البثور والأورام.

كان النيل ينقلب بالجثث المنتفخة وعلى ضفتيه لم يكن يستطيع أن يفرق بين النساء والعجائز والرجال.. حتى الأطفال لا تستطيع أن تفرق بين جثثهم وجثث الكلاب الضالة.. الطاعون.. اللعنة.. لله حكمه فيما يفعل.. لماذا تعى ما يحيط بك.. الموت والألم رفيقاك الآن.. اهرب منهما بالموت.. بالنوم.. اهرب منهما ومن شمس الصيف القائظة.. أراد أن يحك جلده الذى تشقق من قلة المياه وأشعة الشمس الحارة حتى يطفر منه الدم. كان ينضح عرقا مملحا.. اللعنة.. والملح يحيل تشققات جلده إلى جروح تتقد بالنار.. اهرب من الشمس والألم بالموت.. أو بالنوم.. أغمض عينيه وسبح فى بحر من الألم والحرارة حتى إنه غفى...

حملت إليه رياح الشمال الرطبة صوت طرقات ودقات متوالية.. وطوال الضحى ظلت الأصوات تروح وتجىء ثم ما لبثت أن توقفت.. وقرب الظهيرة كان يسبح فى بحر من العرق.. عاد الصوت مرة ثانية.. دق منتظم على الصفيح يصحبه صياح منغوم صعب عليه فهمه.. عندما استدار النهر واستدارت المركبة معه لمح على الضفة الغربية للنهر عشرات الرايات والبيارق الحمراء والخضراء ترفرف فى الفضاء صغيرة متناثرة

t.me/qurssan

آخذت تكبر وتتسع كلما اقترب منها.. ثم ما لبث أن رآهم بوضوح.. طابورين طويلين من الفلاحين الحفاة العراة يسيرون كل طابور منهم على مبعدة حوالى عشرة أذرع من الآخر يتقدمهم جمع من رؤسائهم من المشايخ وحاملى الأعلام الخضراء ونافخى المزامير وحاملى الطبول والصاجات، ينشدون الأناشيد وترانيم المديح النبوى الشريف ويتبادلون مقاطع الدعاء والأناشيد.

شاهد وجوها كثيرة تلتفت باتجاهه.. خيل إليه أنهم شاهدوه.. شعر بالأمل يملؤه.. انتظر أن يتقدموا لفك أسره.. جرى أشخاص من مؤخرة الموكب إلى الأمام وعند مشايخهم تدافعوا وهم يشيرون نحوه وعلى وجوههم الوعيد.. شاهدهم يتخاطبون وشيخهم فى عصبية وزعيق وقد تجمع حولهم مئات من العراة وهم يصرخون ويتبادلون الحديث ثم يديرون إليه وجوههم بنظرات متوعدة.. داهمه خوف رهيب.. انسلخت من الموكب أعداد هائلة.. بنى ضامرة من البشر عجفاء كأعواد الحطب الجافة الهشة ووجوه تشابهت ملامحها وجفت عيونها وضمرت... انطلقوا جريا باتجاه الشاطئ نحوه.. سمعهم يطلقون صيحات الاستنكار والسباب والشتائم ويهزون قبضاتهم نحوه.. بدأ بعضهم فى قذفه بالحجارة والعصى وتلا العجائز آيات من القرآن ولم تمض لحظات حتى امتلأ الشاطئ الساكن بأعداد هائلة من العراة كانوا جميعهم يقذفونه بالحجارة وكأنه سبب بلائهم.. خابت آماله والتهمه الخوف بأن تجنح المركب نحوهم.. لكنهم لم ينتظروا إذ أن بعضهم قفز فى النهر سباحة وتبعه العشرات..

بات ينتظر قدومهم نحوه وقد تساوى أن يمثلوا هم به أو الأشقر.. ليس ثمة فارق فى الموت.. وعلى البر استدار المشايخ وبدأوا يغدون السير ثانية إلى القاهرة.. عاد الإنشاد يتصاعد.. أطلق أحد الجرسجية بالمركب طلقة بارود من غدارته فأصاب شخصًا ما فى النهر.. تلوى وسط بركة من الدم الأحمر أخذت تتسع على صفحة النهر.. توقف المهاجمون جميعا بغتة والدهشة من المفاجأة يحل محلها الخوف من هذا الموت المستحدث بالبارود.. انطلقت صيحة عالية فى الفضاء..

ارجع ياووول.....ه ثم تتابعت ثانية.

ارجع يا وله.. تدافع الجميع عائدين إلى البر ثانية.. لم يعرف أحد منهم من الذى مات.. تصاعد صياح بعض النسوة ينادى بأسماء صبية أو أطفالا تائهين.

t.me/qurssan

سار الموكب مبتعداً إلى الأمام تخفت معه أصوات المنشدين ودقات الطبول وقرع الصفيح تاركًا خلفه المرضى والمكفوفين والعجزة والجوعى يتساقطون فى الأنحاء متناثرين بانتظار الموت.. حتى خفتت الأصوات وتلاشت.. وحل الصمت المطبق وبقى المركب يسير هابطًا النهر وسط غابة الموت حتى ظهرت قلعة القاهرة من بعيد.

رفع رأسه نحوها.. كانت الأعلام السوداء ترفرف على أبراجها والدخان يتصاعد من فوهات المدافع التى تطلق طلقات فشنك بانتظام.

أغفى قليلاً قبل أن يوقظه صوت غناء وضحك أنثوى حاد منغوم.. كان الليل قد حل وساد الدنيا الظلام.. اللعنة إذا كان هذا هو الموت.. على سطح مركب قادم كانت تستند على السور جثة ضخمة لأحد المماليك يحدق نحوه فى ذهول.. وعلى ضوء النجوم المتلألئة تحت قبة سماء الصيف الصافية شاهد حركة صغيرة تنبعث من الجثة ثم عاد السكون ثانية.. ولكنه بقى ينظر إليها يشده ناحيتها رعب مجهول.. وقبل أن تتلاشى هواجسه سرت رعدة باردة فى كل جسده.. اللعنة إذا كان هذا هو الموت.. كان الموت يجثم على السفينة.. وعشرات العيون الصغيرة تتلألأ من داخل الجسد المسجى.. قفز منه جربوع ضخم وتبعه آخر قبل أن يعود للجثة عشرات غيره.. كانت كتلة اللحم تتسع أمامه وعشرات الفئران الضخمة تنهشها فى سرعة غريبة.. غفى يحلم بالفئران أن تحكم الدنيا وكبيرها الجالس فى الآستانة.

تطلع إلى القاهرة. كان الظلام يلفها كمدن الموتى وقد ظهرت بيوتها الطينية والحجرية كالمقابر. ظل سائرًا بمحاذاتها طويلاً.. تفل من فمه صديد وجهه.. اللعنة إذا كان هذا هو الموت.. عاد يتفل ثانية.. علت أصوات الموسيقى شيئًا فشيئًا.. اللعنة إذا كان هذا هو الموت.. أصاغ السمع.. لقد عاد الضحك الأنثوى الحاد وجاءه متقطعًا بعيدًا تتخلله أصوات دقات الطبول.. كان النهر ينفرج فى انحناءة أمام المنيل وأصبح قريبًا من مرسى القصر العينى رأى سوره الحجرى الضخم وعند التفاتة النهر شاهد ظلال أضواء كثيرة وألسنة نيران المشاعل تتراقص فوق صفحة النهر.. انفرج النهر أمامه عن أضواء باهرة وقد أصبح أمامه حقل من الضوء.. مئات المشاعل والفوانيس. عشرات المراكب والقنجات والسفن والكبيرة.. دغل من المراكب علقت على صواريها وأصرافها وأسوارها مئات المشاعل والفوانيس ومن داخلها تصاعدت دقات الطبول وعزف العود

t.me/qurssan

والمزمار.. عشرات الألحان تتداخل وصياح الرجال وضحكات النساء الخليعة.. من سور القصر العينى.. انفتح الباب الضخم المفضى إلى المرسى.. خرج حارسان مدججان بالسلاح.. وهلة واندفعت خلفهما عشرات الفتيات من بنات الهوى.. جماعات جماعات.. كانت الجماعة الأولى من حملة الدفوف والصاجات والطبول وأعواد الطرب الدمشقية اندفعن جريًا وهن يضربن ألحانًا سريعة.. وخلفهن كانت الجماعة الثانية يسارعن الخطى فى خلاعة وهن يتمايلن بالأرداف.. يرقصن ثم يتوقفن ناظرات إلى الخلف للحظات ثم يعدن إلى السير فى ميوعة وعلى حافة المرسى الممتد طويلاً داخل النيل رست مركب ضخمة مضاءة بالمشاعل والفوانيس تخرج منها الرائحة القوية الأخاذة للشواء والحشيش وعلى سطحها وقف أمراء المماليك والأعيان يستقبلون الفتيات وهم يضحكون مخمورين.. شقت الفضاء صرخات الموجة الأولى من فتيات الهوى اللائى صعدن المركب وسط هجوم الرجال الشبقى تجاوب صراخهن ضحكات الرجال وقهقهاتهم الخشنة العالية.. تحركت المركب مبتعدة وبقية الفتيات لا تزال بالمرسى.. رست مركب أخرى فصعدت مجموعة أخرى من الفتيات وامتلأ فضاء النيل بالصراخ والضحك معًا.. تتابع دخول المراكب وإبحارها حتى خلى المرسى من الفتيات.

ابتسامة باهتة علت وجه عبدالمحسن ومركبه يخترق حقل النور وهو يرى أسطح السفن تجرى الهوينى على صفحة النهر وقد تناثرت عليها راقصات وعازفات ومغنيات يرقصن ويعزفن ويغنين ألحانًا تتماوج متضاربة فى هواء النهر.. لمحها تنظر إليه.. فتاة فى العشرين ترتدى بدلة الرقص العارية ترقص وتتمايل فى غنج شبقى على صوت آلة العود وإيقاعات الطبلة والرق العالية وهى تضرب بالصاجات كاشفة عن نهديها وثنية بطنها الكثيب وسط جمع من المماليك والأعيان وبنات الهوى الجالسين حول راكية النار يشربون الخمر ويلعبون النرد ويدخنون الحشيش.. رأى فخذيها العاريين أبيضين تشوبهما حمرة كالمرمر.. ارتفعت فى حلقه موجة من المرارة.. عندما رأته وكانت تنثنى بجذعها إلى الخلف تمايلت ببطء ثم ما لبثت أن توقفت وقد امتلأ وجهها بالرعب.. نظر الرجال مبهوتين إلى حيث أشارت مرتعدة.. رأى القوم وجه عبدالمحسن ذا اللونين الأسود والأحمر المشوه الملىء بالبثور يطل عليهم من السماء كوجه شيطان رجيم يعبرهم وهو ينظر إليهم من عينين ضيقتين أخفتهما الأورام التى انتفخت تحت لهيب أشعة

t.me/qurssan

الشمس الحارقة.. ظلوا يحملقون فيه مشدوهين وهو يعبرهم وكأن العدوى قد انتقلت إلى المراكب الأخرى التى أخذت تفتح له طريقًا.. فكر إذا كان مخيفًا إلى هذا الحد.. عبر عشرات القنجات والسفن الصغيرة وعشرات العيون ترقب مروره فى صمت.. إلا سفينة صغيرة حملت إليه الرياح ضحكات روادها ونكاتهم القذرة.. كانت النساء تضحك فى غنج وترقص مع الرجال فى فجور ومجون وقد عرت إحداهن ثدييها الممتلئتين.. وعلى السطح كان الرجال والنساء يتبادلون الهوى فى خلاعة وعرى.. شاهد أربعة من المماليك يعاشرون غلمانًا.. ونساء تعانق نساء.. رأته إحداهن فأشارت إليه فى شفقة.. جرت إلى مؤخرة المركب تنظره.. قام يطاردها رجلان عاريان.. أخرج أحدهم له لسانه وهو يضحك بجزل وكشف الثانى له عن عورته. استدار الأول ناحية المرأة يحتضنها فابتعدت عنه بدلال فعاد يهاجمها وجرى يمسك بها.

اهتاج كل من فى المركب وتصاعد الصياح وهم يشاهدون مطاردة الرجل للمرأة.. أما الرجل الثانى فقد جرى إلى مقدمة المركب.. أزاح غطاء خشنًا فكشف عن مدفع صغير.. نزل إلى أسفل منفعلاً فى هياج شديد وهو يطلق السباب بعنف.. عاد حاملاً جلة المدفع.. صب البارود ولقم المدفع وعندما جرى يبحث عن نار ليشعل الفتيل كانت مركب عبدالمحسن تبتعد وتتوارى.. شق الفضاء صغير القذيفة قبل انفجارها فى الماء..

* * *

بعد إبحار خمس ساعات متواصلة مالت المركب غربًا تعبر فم الخليج الفرعونى متجهة صوب السد المتهالك الذى بناه مراد بك فى عام ١٧٨٦ وهدمه الفيضان قبل أن يغادر المكان..

بلغه صوت هدير المياه وعلى سطحها برزت بقايا الدعامات الخشبية التى ثبت بها مراد بك المراكب قبل أن يغرقها تحت ثقل الحجارة.

تابع مقدمة المركب تعبر الجسر المنهار.. فى الثلث الأخير اهتزت بشدة وصوت ارتطام قاع السفينة بالجسر يملأ الفضاء تصاعد صوت حاد متصل قبل أن تتوقف المركب تمامًا عن الحركة.

t.me/qurssan

غمغم وقد بلغ به العطش مبلغه.. أموت من كثرة المياه غريقًا ولا أموت من العطش مر الوقت بطيئًا وهو معلق صليبة بين سماء تلتهب بشمس أغسطس القائظ وأرض تمتلئ بالفئران.. سكن المركب فوق مياه التحاريق الواطئة ساقطًا بين جانبى النهر. لا يرى عبدالمحسن علامة على وجود الأهالى سوى الأصوات التى تروح وتجىء تصاحبها دقات الطبول والجسور التى أقاموها استعدادًا لقدوم الفيضان.

غفى والعطش يحرقه وقام على صوتها.. جاءه خافتًا باردًا حادًا فى منامه ثم ما لبث أن أصبح أزيزًا متواصلاً لا ينقطع مطلقًا فى جسده عشرات المناشير الصلبة تقطع لحمه وعظامه قطعًا صغيرة.. انتفض مذعورًا مستيقظًا على صرير صوتها تنظر إليه من فوق الجثث المنتفخة التى نهشت أطرافها يحيط بها سيلان لا ينقطع من الصديد.. وعندما تقدم أحدها صاعدًا الدفة إليه جرى خلفه المئات منها تدافع فوق بعضها البعض.. أصابته رعدة قاسية رفع أطراف أصابعه إلى أعلى وقد بدأ يشعر بنوبة من نوبات الجنون تنتابه.. كيف على هذا الحال يصير الإنسان إنسانًا..

غابت الشمس عن الوجود وحل ليل الصيف الحار.. فغفى ثانية.

قبل الهزيع الأخير من الليل أيقظته نسمات الشمال الباردة فأفاق على ألسنة النيران التى ارتفعت أمامه ممتدة على طول خط المياه المتعرج.. ومن ذؤابات النيران تراقصت أشباح الغيلان تقفز جيئة وذهابًا بين ضفتى النهر تختفى بين ألسنة اللهب وتصعد منه.. تضحك.. تتصايح بأصوات شنيعة تصم أذنيه.

اقتربت منه ثلاث غولات الأولى ضحكت مقتربة من وجهه وهى تكشف عن نواجز وأنياب حادة.. صرخ فى الفضاء صرخة مدوية ممتلئة بالخوف.. أما الثانية فتراقصت حوله تحرقه وتدفع بجسدها المشعر الثقيل برائحته العفنة إلى جسده فتكتم صرخته الغولة الثانية فيزرق وجهه يفتح فاه عن آخره يوشك على الموت خنقًا.. وأما الثالثة فتلف ذيولها حوله حتى يتصلب عوده وتثز مفاصله وعظامه وهو يصرخ طالبًا الرحمة حتى يسقط مغشيًا عليه والرعدة تمسك به خوفًا من عينيها الممتلئتين بالوعيد.. غفى ثم أفاق وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.. كانت النيران قد تلاشت وعلى ضفة النهر الشرقية انتصب قصر منيف تتلألأ أضواؤه الباهرة كنجوم ليالى الصيف الحارة..

t.me/qurssan

تابع أبراجه وهى تختفى فى باطن السماء.

ومن داخل القصر تصاعد عزف الموسيقى فشعر بالحياة تدب فى عروقه.. ومن شرفات القصر أطلت عليه وجوه أنثوية شبقة.. ناداها فدعته.. فشعر بقيوده تنفك عنه وبقوة تطير به فى الفضاء.. هبط إليهن.. كن يرقصن ويضربن الدفوف ويتمايلن على الأنغام فى سراويلهن الحريرية تقدمن جميعًا له.. بحث عنها حتى وجدها فأخذهن جميعًا وهى وسطهن وجسده يمتلئ صاعدًا بفيض من السعادة المتلاحقة قبل أن تتحول الأميرة شريفة بين ذراعيه إلى جثة باردة يجلس على حطامها ملاك الموت وأعضاؤها تتفحم محترقة تتناثر من رأسها جدائل شعرها المتآكلة بألسنة النيران تاركة بين ساعديه جمجمة غائرة وجسدًا متفحمًا.. رأى كل شىء يقتلع من حوله بفعل الفحيح المتصاعد من أفواههن وهن يتحولن جميعًا إلى سلعوات مشعرات مشرعات النواجز معقوفات القرون وصفيرهن الجماعى الحاد يقتلع من أمامه الأضواء والجدران والرياش وسط فيض من الدم فلا يبقين للقصر المتلألئ سوى الموت والخراب ظل يعدو لاهثًا يريد النجاة وقبل أن يبلغ ساحة قصر الموت الخارجية أوقعن به فى جب عميق وشرعن فى التهامه حيًا.

* * *

كان أول ما فتح عليه عينيه فى الصباح الباكر رجل عار ذو لحية طويلة.. مضفر شعره فى ضفائر طويلة.. ومن خلفه وقفت امرأة سمراء مكحولة العينين.. لا تذهب قذارتها وملابسها المرتقة بملاحتها وهى تأتى خلف رجلها الشيخ على البكرى، الناجى الوحيد من مذبحة مراد بك بقرية جمجيون عام ١٧٨٦ بأفعال قبيحة. كان يقف وسط جمع من الحفاة العراة هز عبدالمحسن رأسه يحاول إدراك ما يراه.. أضغاث أحلام أم حقيقة.. تشبث بالصارى وهو يرتعد خوفًا من أن يسعوا إليه يلهون بقتله.

أشار الشيخ البكرى إلى النهر وهو يضحك فى هستيريا وتشنج. تتبعه الآخرون بصخب وفرح جنونى.. وانحنوا يقبلون أياديه وهو يخطب منذرًا متوعدًا بعقاب من الله لعباده العاصين والملعونين والزنادقة الكفرة.. الجاحدين لنعمة الله عليهم.. انتشروا فى حلقات الذكر يذكرون الله وهو يتقدمهم منشدًا أناشيد المديح والذكر.

t.me/qurssan

... شعر عبدالمحسن بارتجاجة تألم لها ساعداه.

... ارتفعت مقدمة المركب لأعلى ثم لأسفل فظن بأتباع البكرى يقلبون المركب وينصبون له كمينا للموت.... فترة طويلة مضت وأخشاب السد تأز من حوله قبل أن يدرك آن المركب ترتفع تحت قوة التيار المتنامى لفيضان النهر.

ها هو النهر الذى كان رابضا فى سكون يضيق من نومه.. ينبض مثل وحش أسطورى.

تارجحت المركب بين المقدمة والمؤخرة متجهة إلى الأمام، سقطت مقعدته وتدلى جسده معلقا... فصرخ من شدة الألم وعضلاته تتمزق... عادت المركب ثانية فشد يديه على صليبه وهو يعوى كالمجنون يختلط عواؤه بغناء المنشدين وعلى طول ضفتى النهر كان الفلاحون يتجمعون من كل ناحية وصوب يشاهدون النهر وهو يفيض.. يرتفع.. يلحقه هدير يصم الأذان.. دهرا طويلا مر رأى فيه الموت رؤيا العين قبل أن تتحرر المركب من سد مراد بك المتهالك غاصت مقدمتها فى الماء ثم صعدت ثانية، بعدها دارت المركب حول نفسها ثلاث دورات قبل أن تندفع بسرعة متزايدة إلى الأمام..

وطوال ساعات اندفعت المركب تشق الفرعونية وهى ترتفع لأعلى ويرتفع فوق صاريها ليكشف الجسر له عن الدلتا ومياه الفيضان تركض فوقها كالجياد اللاهثة... تغمرها تروى عطشها تزيل أوساخها... وتغسل عنها أدرانها.

وكلما صعد كان يرى سحرا.. العون.. العون.. موتى قابع فى منوف ولا يبوح لى أحد بسره المبهم. كانت القرى والكفور تغرق.. تتحول إلى جزر ونقاط هندسية تمتد بينها الجسور فتحيل الدلتا كنسق من المجرة الكونية.. بحرًا من السماء تتناثر فوقه النجوم فى إبداع خلاق...

نظر عبد المحسن خلفه.. كان النهر يأتى من خلفه قادمًا من السماء ومن الزمان القديم.. يتقدم أمامه مسيطرا على كل شىء راحلاً مع الزمان البعيد، وعند الأفق ينحنى صاعدًا إلى السماء..

... من يعيش إلى الأبد ليراه يكشف عن سره.. يأتى فى ميعاد، يسوى الأشياء ويرتبها فكل شىء يعود هو هو.. ويرحل ليعود من جديد ليفعل مثلما رغب وشاء.. اللهم فاشهد.. سحر يزيل سحرًا، وهول يكشف عن بدء للجمال.

t.me/qurssan

- ٢ -

بلغ الفيضان منوف والشمس تغرب عن المدينة فأغلقت الأبواب وسقط الفلاحون الذين تأخرت عودتهم من الحقول فى حيص بيص وتدافعوا يجرون بهائمهم وجمالهم فى الأرجاء بحثا عن المناطق المرتفعة التى تقيهم الفيضان.

وفى داخل المدينة كان الجميع فى هرج ومرج يرفعون حوائجهم وأغراضهم يخزنوها على الأسطح والمقاعد العلوية ويغلقون بوابات الدروب وأبواب دروبهم ونوافذها ويمترسونها جيداً بعروق الخشب والدكك.

ومنذ العشاء والمياه ترتفع حول الأسوار بثبات. تتسلل من الثقوب وتنقب عن مناطق الضعف فيها دون توقف.

من الشرفة القبلية لقصر الغرب وقف الأشقر ينظر إلى الفيضان وهو يربض على أسوار أرضه باستهانة وحوله أعوانه الذين اشتراهم من المجلوبين الجدد بعد أن قضى مصرع الأميرة شريفة على أحلام الملك والفتوحات لديه.

قبل منتصف الليل قرقعت أصوات هائلة قادمة من الشمال فاستدار الأغا مرتعداً ناحية الصوت اختلج وجهه مرتين قبل أن ينظر إلى خشداشه أنور السلجوقى الذى اندفع إلى الخارج ممتطيا صهوة جواده فى حين صعد أحمد أغا البارودى إلى أعلى وعاد بعد قليل.

ـ سيدى.. حسين أفندم..إنها منوف .

انفرجت أسارير الأشقر.. استطرد البارودى.. لقد دمرت المياه أسوارها وهى تغرق الآن.. استدار الأشقر صاعداً البرج الشمالية حيث شاهد المياه تندفع خلال طرقات المدينة دافعة أمامها الرجال والنساء والأطفال والكلاب الضالة والعربات والإناث والبهائم إلى الطرقات.

قال السلجوقى:

ـ سيدى حضرة أغا لتتم حضرتكم فى هدوء.. نحن فى قصر متين.. يحوط به سور عظيم.

t.me/qurssan

ردد الجميع:

ـ نعم.. نعم سيدنا ومولانا سنجق دار أغا.. هذا والله كلام صحيح وقول فصيح...

ابتسم الأشقر ابتسامة باهتة:.. فصاح الورفلى بحماس:

ـ اليوم أدفع بالرجال يحفرون خندقًا حول السور القبلى فتتحول المياه إلى المناطق الواطئة بأرض السدود.

ـ فإذا امتلأت...؟... تساءل السلجوقى. أجاب الورفلى ضاحكا بشماتة:

ـ نهدم الجسور الشرقية والغربية لأرض السدود...

بهزة من رأسه حسم الأشقر الأمر لصالح الورفلى واستدار ذاهبا لحجرة نومه وقبل أن يتمم خلع ملابسه طرق العسكر أبوابه بشدة وهم يصيحون

ـ المياه تندفع من فوق الأسوار سيدى.. فخرج إليهم عارى الصدر..

ـ أين ؟

ـ من السور الجنوبى... جرى الأشقر إلى الشرفة.. كانت المياه تنهمر من فوق الأسوار الجنوبية والشرقية مثل الشلالات... وقبل أن يعود إليه رجاله.. ارتج الفضاء بصوت السور المدمر وطوال دقائق كان الأشقر يرى كتلة المياه الهائلة تندفع بارتفاع هائل نحوه.. فى البداية غمرت كهوف الشرق ممسكة بالفيلان وأشباهها ثم مالت ناحية الغرب فأمسكت بعسكر الأغا وهم نائمون.. وأمامها اقتلعت المياه غابات الجنوب.. شاهدها الأشقر تطيح بها كأعشاب القش.

رأى الأشقر قصر الشرق وكتلة الفيضان تعصف به.. نظر الجميع ناحيته مبهوتين.. وهلة ثم صاح أحدهم:

ـ نهرب حضرتكم.. أوقفه الجميع...

ـ إلى أين؟ إنها تحاصرنا من كل جهة تساءل الأشقر منزعجا:

ـ حتى الشمال؟

أجاب آنور آغا السلجوقى:

t.me/qurssan

ـ منوف دمرت حضرتكم..

ـ نصعد لأعلى.. تدافع الجميع يصعدون الأبراج واعتلى الجرسجية وبقية العسكر والرجال سطح القصر..

... ارتطمت كتلة المياه للموجة الأولى بقصر الغرب فارتجت كل جدرانه ارتجاجة بالغة العنف، ثم عبرته وقد أخذت معها كل العسكر الذين احتموا بسطحه... أما الأبراج فلم تصلها المياه لكنها تحركت للخلف قليلا ثم توقفت والمياه تغمرها من كل جانب، شد الباقون بسواعدهم على شرفات الأبراج واحتضن البقية حوائط بها. قال الورفلى:

ـ شوية زمن وتهبط المياه لأسفل حضرة أغا فننجوا بمشيئة الله تعالى سيدنا.. صرخ الأشقر.. ابحثوا عن أخشاب واصنعوا أطواف، أغبياء ملاعين.. أسرعوا وعجلوا... نظر كل منهم حوله منتظرًا أن يتحرك أحد منهم.. فزعق فيهم الأشقر كالمجنون... أسرعوا يهبطون الأبراج إلى داخل القصر الواقع أسفل مياه الفيضان الجارية وطوال الليل ظل المحاصرون يغوصون إلى أسفل.. يرفعون الأخشاب والعرائض والأثاث إلى أعلى ثم يجمعونها بالحبال.

فى الهزيع الأخير من الليل هجم الفيضان هجمته الثانية على الأبراج يريد اقتلاعها وعندما هبطت الموجة الثانية لكتلة المياه كانت قد تركت الأبراج وقد تحركت أحجارها جانبًا..

قرب الفجر أشار أحدهم صارخا... المياه تهبط .

جرى الجميع يشخصون بأبصارهم نحو المياه.. كانت المياه تنحسر رويدا رويدا.

وقفوا مشدودى الأبصار إلى المياه يشدون على أسلحتهم فى توتر بالغ وكأنهم ثلة من الفرسان تكمن منتظرة هجومًا وحشيًا أسطوريًا مدمرًا فلما بلغت المياه سطح القصر تنفس الجميع الصعداء وتصايحوا ضاحكين وقد ذهب عنهم توترهم.. وقهقه الأشقر فى جنون.. إنه قصر بنيته ليصمد أمام الزمن نفسه وليس أمام حفنة من مياه...

ردد الورفلى: ـ نعم.. نعم حضرتكم.. وكيف لا وقد أحضرتم له الحجر من الجبال.

t.me/qurssan

والصناع من الصرب عاصمة السند والهند.

غمغم الأشقر لنفسه وهو يسبق الجميع هابطًا لأسفل.. ما أحضرت له صناعًا من الهند ولا من السند ولا حتى من الصرب.. إنما بناه قسطندى نصرانى.. أقسم برب الشيطان لو حدث به انهيار كما انهارت الأسوار لعلقت كل قطعة من جسد هذا الحمار على باب من أبواب منوف..

بلغوا سطح القصر تاركين الأطواف خلفهم والمياه تنسحب من أمامهم.. فاندفعوا اندفاعة فارس واحد وكأن الفضاء يعوى بنوبة هجوم حتى بلغت المياه ارتفاع قامة فنادى الأشقر:

ـ أحضروا الجياد... اندفعوا يبحثون عنها.. ولحظة أن عاد أحدهم بأحدها... طرقع المكان ثانية طرقعة فظة فاندفع الأشقر قافذًا إلى ظهر الجواد والطرقعات تتوالى.

كانت المياه تجذب فى عنف مداميك قسطندى الطينية التى بناها أسفل حوائط قصر الشيطان المصنوعة من الحجارة كما أمره مسيحة.

ضج الفضاء بقرقعة حائط الإيوان الكبير. ثم أعقبه صوت دوى شديد لسقوط سقفه.. دفع الأشقر بجواده قاطعًا ساحة القصر الداخلية سباحة وكتل الأخشاب الضخمة تتساقط من حوله تعترضه وتعترض رجاله الذين يحاولون الفرار سباحة.. غمغم..

ـ لن أموت هنا... أو ليس هذا قبرك.. لكنى لن أموت فيه.

... لن يجد مملوك قبر مثل قبرك.. كلهم يموتون فى أرض مظلمة تعج بأشباح طريدة بينما تموت أنت فى أرض اقتطعتها من أرض ميلادك... هز رأسه بطرد هواجسه لاكزا جواده بشدة يعبر به الممر الواصل بين ساحتى القصر الداخلية والخارجية.. لم يحن ميعاد الموت بعد.. ابعدوا عنى لن أموت.. سوف أبتنى أرض ميلاد جديدة...

خلفه مباشرة سقط البرج الأوسط صانعًا موجة عالية من المياه أخذته معها وألقت

t.me/qurssan

به إلى جدار السور فشج رأسه لكنه تشبث به صاعدا لأعلى باحثا عن جواده.. فوجده يتدافع بين دوامات الأحجار المتساقطة وجثث العسكر وكتل الأخشاب والعربات وعشرات من قطع الأثاث المتناثرة.. أسرع خلفه والدم ينثال من وجهه يمسك به جذبه ناحية سلم السور الداخلية.. رفع الجواد ساقيه صاعدا السلالم إلى سطح السور الخلفى.. عندما أطل لأسفل كانت المياه تبعد عشرة أمتار.. عصب عينى جواده فزعا قبل أن يقفز به إلى الخلاء..

غاص الجواد عميقا فى المياه قبل أن يصعد ثانيًا إلى السطح.. كان الأشقر يسبح بجواره.. أمسك به وجذبه متجها إلى منوف..

على تلة عالية توقف ناظرًا إلى الوراء.. أصابته الرعدة.. كان النهر يربض على أرضه كوحش هائج يدمر كل قطعة فيها غير مبق منها على أثر..

وطوال الطريق إلى القلعة كان الأهالى يتطلعون إلى السنجق وهو يمر أمامهم بعجب ودهشة.. يتساءلون وهم يسلمون ويحوقلون..

ما الذى جرى له...؟

* * *

فى الليلة الماضية أطلت من بقايا جدار القلعة القديمة مقدمة مركب متهالكة.. أجهدها السفر بعد طول عناء ومشقة واستقرت مرتكزة على جدرانها.. وعلى مسطاح سور القلعة الداخلى سقط الجزء العلوى من صارى السفينة مكسورًا من شدة الارتطام..

تحرر عبد المحسن من قيوده.. لكنه لم يستطع المضى أبعد من صليبه فسقط بجواره مغشيا عليه.. وقرب الظهيرة فتح عبد المحسن عينيه على وجه تغضنت ملامحه وغطى الشيب رأسه فبدا عجوزا فى الخمسين من عمره.

دفع الأشقر الجثة المشوهة الوجه أمامه بركلة من قدمه فدبت الحياة فيها.. قال وهو ينظر إلى الصارى المكسور ومقدمة المركب التى هدمت جدران قلعة إيداكش القديمة.

t.me/qurssan

ـ من أنتم.. ولد جربوع...؟

مسح عبد المحسن صديد وجهه وزحف يغسله من برك المياه المحيطة وعندما استدار نحوه لم يعرف فيه غريمه الأشقر.. صاح فيه الأشقر وهو يمرغ بقدميه رأسه فى التراب:

ـ كيف دخلتم قلعتى.. قل لى من أنتم...

همس عبد المحسن ـ عابر سبيل.

جن جنون الأشقر فأخذ يركله ويدفع به بعيدًا بين البرك الموحلة..

ـ اذهبوا عنا إذًا.. مالنا ومال أولاد السبيل.

وقف عبد المحسن مرة لكنه سقط على الأرض متهالكًا وقد تيبست أطرافه فاندفع الأشقر خلفه بمزيد من الركلات وعبد المحسن يتدحرج أمامه يحمى رأسه بين يديه.. قام على أربع يحاول الابتعاد.. ثم سقط ثانية... وعلى بعد عشرين ذراعا زحفها زحفا والأشقر ينظر حائرًا بين السفينة وبينه يحاول أن يدرك العلاقة بينهما وبين شبح يأتى من الماضى البعيد يحاول اختراق ذاكرته.

على باب القلعة استدار نحوه عبد المحسن وبينهما وقفت المشنقة التى أعدها الأشقر له شامخة تتدلى حبالها المعقودة.. وبجوارها عروسة الخوزقة بحديدها المدبب... وقف كل منهما قبالة الآخر وحيدين إلا من صوت المياه فعرف كل منهما الآخر على الفور... تطلع عبد المحسن إلى المشنقة ثم مال ينظر إلى عروسته التى أعدها له خصمه.. لحظات طويلة ما لبث بعدها أن استدار راحلا تاركا الأشقر خلفه.

فتح الأشقر فاه مصدرًا صوتًا لم يكمله... كرر المحاولة... لكنها توقفت كما توقفت المحاولة الأولى.. كان يريد أن ينادى... ولد... ولد عبد المحسن... لكن كلمة لم تخرج من شفتيه... بل سار فقط ناحية المشنقة وتوقف ممسكا بأحد أعمدتها الخشبية، وشخص ببصره إلى الفضاء.....

كان كل ما عزم عليه من قتل وحرق وخوزقة لعبد المحسن ولقسطندى.. وللشيخ السنهورى.. لجنوده وعساكره.. للفلاحين، للصناع.. وكل من بنى طوبة فى قصوره..

t.me/qurssan

أسواره. أراضيه قد تلاشى فى المسافة من الربوة إلى القلعة... نظر لأبراج قلعة إيداكش القديمة... تقدم صاعدًا البرج الشمالى...

بأعلى البرج جلس الأشقر ناظرًا أمامه بذهول... كانت الدلتا أمامه يغمرها النيل بفيضانه... وفى حين بقت جزيرة عائمة يلهو الأطفال على أسطحها وفى دروبها بالمياه، فقد انمحت آثار أرضه المسحورة.

تذكر ليلة مجيئه السوداء.. لحظتها والخوف يطبق على أنفاسه ظن أن هذه الأبراج أشباحا تطبق عليه... الآن يملكها.. أحقا كان.

* * *

فى ذات الطريق الممهدة التى التهمت داره يوما بعد أن شقها السنهورى خصيصا لأجل زيارة كاتب السلطان خير الدين شوكت بك... زحف عبد المحسن مبتعدًا... غمغم الأشقر وهو يشاهده بتساؤل... ما قيمتها.... وعلى امتداد الحقول المترامية الأطراف رأى الأشقر فى عجب مئات الفلاحين يخرجون إلى الحقول وهم يغوصون فى الأوحال... تساءل مندهشا من أين جاءوا.. تابعهم وهم ينتشرون فى الأرجاء يتناثرون على رءوس الجسور يصلحونها ويرممونها.. والنهر مستسلم لهم فى سكون... كاستسلام الخلود للإنسان.

نزل يجر قدميه وقد ذهب عنه كل غضبه وتلاشى.. لم يعد يرغب فى الانتقام من أحد لا المعلم قسطندى الذى شيد قصوره وأسواره على مداميك الطين ولا من عبد المحسن الذى أحرق زوجته الأميرة شريفة وجنينها الذى كان سيتوج يومًا ما ملكا... لا فى بناء أرض كأرض الأجداد.. أرض كأرض ميلاده.. ولا فى الموت فى أرض تحن عليه.. فهذه الأرض لم توجد قط... شخص بناظريه إلى حيث كانت أرضه... ما رأيت ولا سمعت أن مملوكا ترك ولدًا أوراكم ذكرا وإنما يعيش الجميع يومهم كأنهم يموتون غدا..

اللعنة عليك يا شريفة وعلى أحلامك لقد فاتنى بسببها الكثير..

t.me/qurssan

الفصل الأخير

فى عام ١٧٩٨م وبعد أربعة أعوام من الطاعون الأخير جلس طفل فى الرابعة من عمره يلهو بكرة صنعت من الخرق البالية وجمعت فى شدة بحبائل التيل الرفيعة على رأس غيط أبيه السيد حسن البقلى... نادى عبد الله خولى الزراعة على ابن أخته بدرية وابن سيده حسن البقلى... عبد القادر يا عبد القادر. لكن الطفل لم يسمعه إذ آنه ألقى بالكرة بعيداً فسقطت فى منتصف الطريق الذاهبة إلى طملاى.. سمع عبدالله صراخ ابن آخته بدرية فخرج يستطلع الأمر...

فى الخارج عبر عبد القادر القناة الصغيرة بصعوبة بعد أن خاض فى وحلها ثم صعد الجسر إلى الطريق ليحضر كرته...

انحنى الطفل لأسفل فبرزت مؤخرته العارية وعندما قام ممسكا بها شاهد أمامه وعلى مبعدة خمسين ذراعًا ثلة من الفرسان الغرباء... تطلع إلى حللهم الزاهية الألوان وخوذهم النحاسية المصقولة المظللة بالريش الملون تلمع تحت الشمس..

كان أوّل من بلغه فارسان هبطا إليه وهما يضحكان ويتحدثان بلغة غريبة عن أهل البلاد...

ـ فرانسوا.. ها هو بطلنا.

رد عليه صديقه ساخرا .

ـ المدافع الوحيد عن المدينة...

t.me/qurssan

ضحك فرانسوا...

ـ أخبر الجنرال دزيه إذًا بوجود مقاومة لقوات الثورة الفرنسية..

ـ أخبره أنت.. فهو يكاد يجن..

صرخ بوكيه مندهشًا...

ـ دزيه.....

ـ نعم... دزيه.إ انه يتحرق شوقا لمعركة على أسوار منوف.. تلا.. أشمون... أى مكان..

صاح بوكيه دافنا رأسه خلف رأس حصانه.

ـ احترس... الطفل يحمل قنبلة.. تراجع فرانسوا جاذبًا عنان جواده إلى الخلف... هكذا...

من خلال فرجة بين سيقان الذرة اختفى عبد الله يشاهد ابن أخته واقفا وفى وجهه نظرة سخط يريد كرته..

جذب سمعه صوت موسيقى عسكرية تأتى من ناحية الغرب. وهناك عندما ينحنى الطريق إلى الشمال هابطا على مرمى البصر، برزت طلائع القوات الفرنسية تخفق فى الفضاء الراية المثلثة الألوان وهى تصعد رويدا رويدا من خلف الأكمة التى يستدير عندها الطريق. ثم ما لبث أن ظهر الفارس الذى يحملها.. تبعه طابوران من الفرسان.. ظلا يسيران الهوينا حتى بلغا المكان الذى وقف فيه عبد القادر والفارسين.. تنحى فرانسوا عن الطريق واختفى خلف أكمة من البوص يتبول.. وانتظره بوكيه.. ولمدة طويلة عبرهما طابوران طويلان من الفرسان يتبعهما سرية موسيقى اللواء الثالث.. ثم صفوف المشاة المتراصة بقبعاتها المثلثة الألوان وخيول المدفعية يحيط بها رجالها ومطبخ الميدان.. وعبد الله يتابعهما حتى غابا قرب أسوار منوف فاغرًا فاه.. يشيعهم فى ذهول.. أفاق على صرخة عبد القادر.. كان فرانسوا قد خرج من خلف أكمة البوص.. قبل أن يقفز إلى جواده جذب كرته من يده..

صاح به بوكيه:

t.me/qurssan

ـ اعطه كرته.

ـ سأحتفظ بها.

PDF Compressor Free Version

ولزمن طويل ظل عبد القادر واقفا فى منتصف الطريق عيناه مغرورقتان بالدموع يتابع طابور اللواء الثالث وهو يختفى بعيدا نحو منوف.. فرك عينيه بأصابعه وخاله يحمله برفق..

ـ هاعملك واحدة ثانية بدل اللى خادها الكافر ابن المفحور.. ودالوقت اسكت.. اسكت خالص علشان نعرف نعدى من عسكر بونابرته وأسلمك لأدين أمك بدرية.. اعتلى عبد الله حماره مردفا عبد القادر خلفه وأسرعا فى دورة واسعة نحو الشمال ميممين شطر منوف.

(تمت)

t.me/qurssan

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. maktabetelosra. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

t.me/qurssan